المجلس الأعلى للثقافة

قبطى فى عصر مسيحى

تأليف

زبيدة محمد عطا



٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : قبطى فى عصر مسيحى

اسم المؤلف : الأستاذة الدكتورة / زبيدة محمد عطا

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٣ م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El- Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084

إهداء

« إلى الإنسان المصرى

« مسلمًا ومسيحيًا : النسيج الواحد »

تقديم

يشرفنى أن أقدم للقارئ العربى هذا العمل العلمى المتميز للأستاذة الدكتورة / زبيدة محمد عطا عميدة كلية الآداب جامعة حلوان وأستاذة العصور الوسطى بها .

وفى تقديرنا أن هذه " المعزوفة المصرية " عن الإنسان المصرى فى العصر المسيحى تعد إضافة تاريخية جادة ورصينة لمكتبتنا العربية . ولعل أكثر المفردات التى تستحق الإشادة بها هنا هى الاعتماد على الوثائق الأصلية والبرديات ، وكذا معالجة المادة التاريخية بمنهج تحليلى يتسم بالموضوعية والنزاهة فى الأحكام .

كما أن هذه الأستاذة المؤرخة تناقش آراء الكتاب المحدثين من شرق وغرب ، لتبين للقارئ الجوانب الإيجابية والأخرى السلبية فى أطروحاتهم . كا أنها تعرج على كل من « سيجمون فرويد » ، وتليمذه « كارل يونج » عند تأكيدهما على فكرة اللاشعور الجمعى لتوثيق رؤيتها الصائبة عن " الاستمرارية" فى مساق التاريخ المصرى ؛ قديمه ووسيطه وحديثه .

هذا ويمثل المكان المصرى بجغرافيته وموضعه العبقرى مساحة هامة فى هذا العمل التاريخى ، لكى تؤكد الكاتبة – مع عمدة عبقرية المكان الرائد الدكتور جمال حمدان – على وسطية المصرى واعتداله فى مختلف الأحوال والأوقات . كما أنها تولى الموروث الدينى المتأصل فى الشخصية المصرية اهتمامًا كبيرًا ؛ فالمصرى صاحب جوهر ثابت ومتواصل ، وجذوره باقيه صامدة سواء لبس ملابس الأغريق أو الرومان ، على حد تعبيرها الموفق .

ويأتى تأصيل المؤلفة لكلمة " قبطى " لتضعها فى أطرها التاريخية السليمة ، فالقبطى هو المصرى الذى يكتب بخطه المصرى (القبطى) منذ القرن الأول للميلاد فى

العصر المسيحى . كما تتناول الأستاذة العميدة مكونات الشخصية المصرية وملامحها الرئيسية فى هذه الفترة الانتقالية الهامة من تاريخ مصر الطويل . كذلك تلقى المزيد من الضوء على دور الكنيسة المصرية ومواقفها ، والتى فاقت فى نفوذها وتأثيرها سلطة ولاة التاج الإمبراطورى البيزنطى نفسها .

ومن الأشياء الجديدة حقا فى هذا العمل العلمى تلك الوقفات المتأنية الواعية مع أساطين التاريخ القديم والوسيط ؛ من أمثال هيردوت ، واسترابون ، وبوليبيوس ، والكندى ، والسيوطى ، وابن خلدون ، والمقريزى. وهى تناقش هؤلاء وأولاء لتبين لنا ما هو صائب عند هؤلاء المؤرخين الكبار وما هو مجانب للصواب أيضا .

وتخلص الأستاذة العميدة إلى أن الشخصية المصرية صاحبة استمرارية واضحة تربط قديمها بجديدها ، وأن تاريخها الحضارى أشبه ما يكون بالرقائق المتتالية لثقافات عديدة ، هضمها المصرى ، وتمثلها ليخرج للعالم طابعًا ثقافيًا فريدًا له مذاق خالص . لقد اجتمع القديم مع الجديد – كما تقول المؤلفة – فى منظومة فريدة إيجابية الطابع ، وإن كانت لا تخلو من السلبيات فى بعض الأحيان ، ولكن – وهذا هو المهم – فإن المصرى بنظرته يحافظ على الإيجابيات ويتجاوز بعبقريته وسماحة طبعه كل السلبيات .

إن هذا العمل المتميز الممتع سياحة تاريخية علمية تضم الحدث التاريخى واللاهوت والفلسفة والسياسة والاقتصاد وشرائح المجتمع والفنون والعادات والتقاليد جميعا فى ماعون واحد . وإنى أهنئها على هذا العمل الرائع .

د. إسحاق عبيد

مقــدمة

على هذه الأرض الخضراء التى أينعت نباتًا وحياة وبشرًا وفكرًا ، عاش المصرى هذه المعزوفة الإنسانية لقرون وأجيال ينعم بدفئ طبيعتها من شمس ونيل وخصب ، فعبد أرضها وشمسها وقمرها وسماءها ، لما وهبته تلك الأرض من خير ، وظهرت على أرضها أول دعاوى التوحيد ، وكان المكون الدينى جزءًا رئيسيًا فى تكوينته النفسية واليومية ، بنى الأهرام لحفظ الجسد ليكون مرحلة فى طريقه إلى الحياة الأخرى .

جاءه يونان ورومان حاولوا قهر الإنسان داخله ، ليتحول إلى آلة خاصة تعيش لخدمة السيد الذى عاش كمواطن مميز فى عاصمته المميزة الأرستقراطية الفكر والبشر، وأوجدوا له حضارة وفكرًا خاصًا قصروه على عاصمتهم وجنسهم ، فالفكر فى نظرهم بالنسبة للشعب المصرى ترفًا لا يجب أن يعيشه أو يسعى إليه ، ولكن اخترق العنصر المصرى حاجز الاضطهاد والجمود ، وظهرت أسماء مصرية كأفلوطين ابن اسيوط الفيلسوف الشهير وصاحب نظرية الأفلاطونية .

ودخلت المسيحية إلى مصر ، وأخذت من مصر طابعها الفكرى واللاهوتى على يد مدرسة مصرية كان من أنبغ أبنائها أورجين المصرى الذى كان مسيحيًا مخلصًا وعاشقًا للفلسفة ، حاول أن يربط بين الدين والفكر .

وبدت فى الإسكندرية عدة مدارس مثل مدرسة الموسيون الوثنية ، ومدرسة اللاهوت المسيحى ، وكان هناك ثراء فكرى إنسانى وتنوير . وواجه الدين الجديد جموعا رفضته ثم قبلته ودافعت عنه ، وتعرض المسيحيون الأوائل للاضطهاد ، ويرى أستاذنا د. جمال حمدان : أن المصرى غير لغته عدة مرات ، ورغم تمسكه بالمكون الدينى فقد غير دينه ثلاث مرات وأن هناك قطيعة حضارية بين فترات الوثنية

والمسيحية ، ثم الفترة الإسلامية . لقد أيده فى هذه النظرية عدد من المؤرخين ، ولكن أرى أن الفكر المصرى كالبناء وضعت الفترة الفرعونية أسسه ، ثم توالت عمليات البناء لتضيف كل فترة لبنة فى كيانه ، فهى ليست فترة قطيعة ، إنما هى مراحل فى التكوينة الذاتية للشعب المصرى . إنها كالذاكرة تحوى فى داخلها تجارب طفولتنا وصبانا وشيخوختنا . تبدو الصورة الحالية أكثر وضوحا ، ولكنها لا تمحو من الذاكرة تجارب الماضى ، فمن مجموع التجارب تتولد ذات الإنسان والشعب ، فالمصرى يميزه الاستمرارية مع تقبل الجديد والاحتفاظ بالقديم والجديد معا ، حتى لو بهتت فى بعض الأحيان صورة القديم، والمصرى معتدل بطبيعته ، ولظروف بيئته وجغرافية مكانه الذى أكدها جميع من كتب عنه بدءًا من هيردوت واسترابون إلى الشيخ المقريزى إلى الدكتور جمال حمدان ، ولكن تحت هذا المظهر المعتدل إذا اشتد القهر الإنسانى انفجر أحيانا فى عنف ليس من طبيعته ؛ وخاصة إذا ارتبط القهر الإنسانى بالمساس بالمكون الدينى كما حدث فى الفترة المسيحية ، فلم يكن هذا المستسلم الخاضع دائما لمن حكمه ، وإنما توالت حكومات القهر من يونان ورومان جعله يواجهها بالسلبية أحيانا ، وهى فى حد ذاتها موقف رافض ، وأحيانا بالسخرية اللاذعة ، والنيل من مغتصبى وطنه بالفكاهة والنكات ، وأخيرًا الانفجار الشعبى الذى يبدو طوال تلك الفترة .

ولقد حاولت أن أرسم بالكلمات صورة لشخصية المصرى خلال هذه الفترة الأصل ، والمكون والبيئة والفكر والشخصية التى تداخلت فيها عناصر إيجاب وسلب ، لتبعث الذاتية المصرية .

وحاولت أن أضيف ألوانًا وظلالاً لمجتمعه وتعامله الإنسانى خارجًا عن نطاق الصراع السياسى الذى عاشته تلك الفترة ، وإن كنت قد وجدت من الصعب أن نفصل العنصرين ، فالقهر والاستبداد أوجدا وضعًا إنسانيًا واجتماعيًا .

ومجتمع الإسكندرية مقر حكامها وإدارتهم التى تعيش بعيدا عن عالم الشعب المصرى ، وكانت الإسكندرية مدينة الثقافة الزموبلوتانية ، لكنها لم تكن مدينة المصريين عند إنشائها ، فكانت تنظر إلى الشعب من علياء ، وللمصرى كمواطن من

الدرجة الثانية ، حتى الزواج بين اليونان ثم الرومان والمصريين لم يكن مسموحًا ، ولكن رغم الحذر كان هناك اختلاط عكسته وجوه الفيوم التي تحمل في غالبيتها وجوها مصرية وبعضها متمصر ، وحوت شواهد قبورها مزجًا بين تأثيرات يونانية ورومانية فرعونية ، وعلامة الحياة أصبحنا لا ندرى هل هى علامة الحياة المصرية القديمة أم هى رمز للصليب ، والتى استعملت فيما بعد فى قبور مسيحية خالصة .

ولذلك فقد قسمت الدراسة لفصول ثلاثة :

الفصل الأول : عن المكون الإنسانى للشخصية المصرية فى تلك الفترة والتى بدأتها بدخول المسيحية .

والفصل الثانى : جعلته لمجتمع الإسكندرية الذى عاش فترة كمجتمع أجنبى غريب عن مصر ، إلى أن غزته بطريركية الإسكندرية ورهبانها ، وبدأ يرتبط ما هو دينى بما هو شعبى ، حيث تحول الموقف الرافض من الكنيسة للموقف الدينى الرومانى إلى موقف مصرى عام رافض للحكم الرومانى بما حواه من قهر وإساءة على يد موظفى هذا الحكم ، والذى نجح فيه الحكام والأجانب بأن يخلقوا بيرواقراطية إدارية جعلت المصرى الجابى يضغط على المصرى الفلاح .

هذا المجتمع الذى كان أجمل أوصافه ما ذكره " د. جمال حمدان " أنه فقاعة حضارية ، وهذا الصراع بين ما هو قومى وما هو أجنبى أدى إلى انهيار حضارة الإسكندرية اللامعة وتدمير مؤسساتها ؛ لأنها بدت فى نظر من قاموا بها على أنها معاقل للوثنية وللحاكم الأجنبى ، فكان تدمير مكتبة السرابيوم الشهيرة وآخر مكتبات العالم القديم الشهيرة ، فتحولت المدينة من مدينة الفكر إلى مدينة مصرية ذات حضارة عرفت بالقبطية . والقبطى هو المصرى ، فكلمة القبطى تعنى مصرى فى هذه الفترة ، لا دينا بعينه ، والذى انفصل عن المجتمع السابق وابتدأ يتخذ طابعا مصريا خالصا ، حتى فى عواصمه التى عاشت فيها مجموعات أجنبية فى الفترة السابقة ، وكان بعضها قاصرا عليها ، فعكست صورة لحياة الإنسان المصرى البسيط ، كما وردت فى هذا الكم الهائل من أوراق البردى التى جعلتنى أعيش وأهمس وأتكلم مع مواطنى مصرنا منذ آلاف الأعوام ، فخطابات شخصية تعبر عن مشاعر محبة وأمومة

وردود وخطابات سحر وكراهية ، فهى الإنسان فى حقيقته ومكونه ، إيجابه ورفضه ، عملية التحول من الوثنية إلى المسيحية ، موقفه من الدين ومن الحكام والثقافة .

فهى صورة بانورامية لمجتمع عاشته مصر لستة قرون ، وأرجو أن أكون وفقت فى تقديم بعض ملامح الصورة .

* * * * *

الفصل الأول

مكونات الشخصية المصرية

المصرى تلك المعزوفة الإنسانية التى التقت فيها نغمات شتى من مكان وزمان بين إيجاب وسلب ، لتخرج لحنًا خاصًا هو الإنسان المصرى الذى عاش مئات القرون على هذه الأرض التى تركت سماتها فى مكونه الإنسانى ، وأكسبته تجارب الأيام والسنين وتواليها سمات وخبرات خاصة أضفت على الشخصية المصرية مكوناتها .

والشخصية الإنسانية هى تنظيم أشبه بالبناء ، يتكون من طبقة فوق طبقة وترتكز طبقاته العليا على طبقاته السفلى إلى حد بعيد .

وإن فكرة بناء الشخصية ونموها من منظور التحليل النفسى أشبه ما يكون بالطريقة التى يقيم بها البناء جدارًا من الطوب، ويسير البناء من أسفل إلى أعلى، وترتبط قيمة البناء بأساسه أو بأصله، فشكل البناء وسمكه وجميع خصائصه ترسى قواعده فى الأساس الذى يقام عليه ، وتغير شكل البناء تغيرًا جوهريًا قد يترتب عليه هدم البناء بأكمله ، والشخصية الإنسانية بالمثل ترسى قواعدها فى السنوات الأولى من حياة الكائن، وهذا الأساس غير قابل للتغير، وهو يحدد ما يمكن أن يقام عليه بعد ذلك[1] .

وفرويد من المفكرين الذين أكدوا الاتجاه الذى يدعو إلى تطبيق قانون السببية فى تفسير السلوك الإنسانى ودراسته، باعتبار أن كل ظاهرة سلوكية لها أسباب تاريخية فى حياة الفرد يمكن التعرف عليها . ويرى يونج بأننا نرث خبرات الأجداد وخبرات الجنس البشرى المتراكمة، وهذه الخبرات أطلق عليها الأنماط الأولية، وهذه الأنماط هى ذاكرة العنصر البشرى، والتى أضحت جزءا من إرث الإنسان بفضل تكرارها فى نظام عام شائع عبر الأجيال ، وقد أطلق يونج على هذه الأنماط اللاشعور الجمعى، وفى رأيه أنه يحوى كل الخبرات الإنسانية المتراكمة من الماضى السحيق وتركت آثارها فى ذاكرة الإنسان[2].

من مميزات الشخصية المصرية أنها صاحبة ذاكرة تراكمية تاريخية، فإذا كان الإنسان فى فترة حياته المحدودة يحوى فى أعماقه ذاكرة إنسانية لكل تجاربه

وخبراته ، وينتقل من فترة زمنية إلى أخرى ، من طفولة إلى شباب وشيخوخة، كل مرحلة تستقر في بؤرة تفكيره قد يتغير منظوره الفكرى وإيدلوجيته[٣] ، فقد ينتقل من اليسار إلى اليمين مع تقدمه في السن ، ولكن تظل تجاربه الفكرية السابقة في بؤرة ذاكرته ، والأمر نفسه بالنسبة للمكون الإنساني لشخصية الشعب ، فهناك تجارب إنسانية عديدة ، ومكونات قد تتوارى في الأعماق ، ولكنها لا تمحى وتظل في المكون الإنساني ، بل تتراجع خلف المكون الجديد ، وهذا تواصل وليس انقطاعًا إنسانيًا بين الفترات الزمنية التي شاهدت تغيرات وانتقالات تاريخية وفكرية ودينية بين وثنية ومسيحية وإسلام .

وأولى الإيقاعات في المكون الإنساني المصرى هو المكان ، وجغرافيته التي أكسبت المصرى اعتداله وطبيعته الوسطية، وثانيها الموروث الديني ؛ فهذا الإنسان ، الذى آمن بالبعث ونظر إلى الحياة الأخرى باعتبارها امتدادا طبيعيا للحياة الدنيا، ظل الفكر الديني شاغله الشاغل عبر فترات تاريخه، وثالثها التواصل مع الماضى لاحتفاظه بذاتيته مع تأثيرات سطحية لا تغير من جوهره أو معدنه ، فسواء كان في عصر وثني أو مسيحى أو إسلامى حمل بذره ، وجذور شخصيته في كيانه ، لبس ملابس الإغريق والرومان ، تغير ظاهره ولم يتغير الباطن ، ظل الموروث القديم في أعماقه، سواء كان الحاكم أجنبيًا يونانيًا أو رومانيًا ، وظل هو القبطى (المصرى) .

ومن هنا جاء عنوان الكتاب « قبطى في عصر مسيحى »، القبطى هنا لا يعنى انتماء دينياً بل يعنى مصرياً ، فكلمة قبطى تعنى بالتحديد مصرى ، وجاءت الكلمة من هاكوبتاه Hikuptah ؛ وهو الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه " بيت روح بتاح" ؛ وهو الإله بتاح ؛ وكان إطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من باب إطلاق اسم العاصمة على القطر كله كما تعودنا على ذلك ؛ وإلى الآن فالذاهب إلى القاهرة يردد أنه ذاهب لمصر[٤].

وأخذ اليونان هذا الاسم فأطلقوه عليها منذ عصور قديمة ، وأسموها Aigyptos ، وورد اسمها هذا عدة مرات في سفر هوميروس، فإذا أخذنا علامة الرفع « س » في اليونانية ، ثم الحركة التي ظنها العرب حرف الاستهلال، خلص بعد ذلك اسم قبط،

الذى استعمله العرب كوصف لأهالى مصر ، وأسماها الأشوريون فى نقوشهم المسمارية هيكوبتاه[٥].

وفيما بعد كان يطلق على الكنيسة القبطية الكنيسة المصرية ، وهناك عدد من الأسماء التى وصفت بها مصر والمصريون ، لقد سموها أيضاً كيمى « الأرض السوداء » أما اسم مصر فقد جاء من تسمية الشعوب السامية والآرامية مصرين ، وفى العبرية مصرايم . وهى بمعنى حدود ، ولقد أطلقتها الشعوب السامية عن البلاد المتاخمة لهم .

ولقد فكرت فى البداية أن يكون عنوان الكتاب الشخصية المصرية فى العصر القبطى ، ولكن واجهتنى مشكلة التحديد الزمنى للفترة القبطية .

أولا : كلمة قبطى كما سبق أن أو ضحت تسبق ظهور المسيحية ، فلا نستطيع أن نستخدم الاسم أو نضع تحديدا للفترة على أساس التسمية ، ولقد استخدم العرب اسم القبط لتعريف المصريين فى فترة قبل الإسلام ، ثم ظلت مستعملة مع الفتح الإسلامى كاسم عام لأهل مصر، والذين كانوا جميعا على الدين المسيحى، فأصبح المتداول بعد ذلك أن من دخل الإسلام أصبح مسلما ، ومن ظل على المسيحية ظلت مرتبطة به كلمة القبطى، وإن ظلت بعض الكتابات الإسلامية تطلق اسم « القبط » على جميع فئات المصريين الدينية ، بل نستطيع القول مع بداية الفترة الإسلامية قبطى مسيحى وقبطى مسلم أى مصرى مسيحى ومصرى مسلم[٥] .

ثانيا : حددت الفترات التاريخية بالدول الحاكمة ، فقيل مصر اليونانية أو البطلمية أو الرومانية أو البيزنطية ، استنادا لوجود نظام سياسى حاكم معين سيطر على مقاليد الحكم فى البلاد ، بالإشارة لنوعية الحكم السياسى وطبيعة الحاكمين، أما الأقباط فهم المصريون عامة الشعب ، ولا يمثلون نظاما سياسيًا حاكمًا ، فمصر القبطية هى مصر المصرية ، مصر عامة الشعب، وهى ليست محددة بفترة نستطيع أن نضع لها بداية ونهاية، وظل الشعب سواء كان تحت حكم اليونان أو الرومان مصريا، وحين كان الحكم مصريًا خالصًا فى فترة التاريخ القديم نسبت إلى حكامها ، فقيل مصر الفرعونية. وعلى ذلك فمصر القبطية هى مصر المصرية بلغة ومفهوم

الشعب نفسه وحكامه ، ولكن من الممكن القول مصر المسيحية، وفى رأيى أنه من الممكن تحديد فترة المسيحية ، مع بدايات القرن الأول وبداية إنتشار المسيحية ، وتمتد هذه الفترة خلال الفترة الإسلامية ، وخاصة بمقوماتها الحضارية والفنية إلى القرن الثامن الميلادى ، حيث مازالت هناك غالبية من الأقباط "المصريين" على المسيحية ، ومازالت اللغة القبطية مستعملة آنذاك فى أجزاء عديدة .

وبالنسبة للإسلام والدولة الإسلامية فقد كان الوضع مختلفًا ، فلم يكن نظام حكم سياسى عربى فقط ، بل كان يحمل معه ديانة جديدة تبشيرية أرادوا نشرها بين المصريين ، حتى قبل أن يدخل كنظام سياسى منذ أرسل النبى إلى المقوقس "كيرس" يدعوه إلى الإسلام ، ومن هنا كان نظام حكم يرتبط بعقيدة ومن هنا جاءت مصر الإسلامية .

ثالثا : كان من الصعب تحديد الفترة القبطية ، وإذا طرحنا مقولتين أولها تسمية الفترة اعتمادا على المسمى (قبط) - وقد ناقشته - وهو سابق للمسيحية ، وإذا استبعدنا المسمى وجعلنا اللغة القبطية واستعمالها هو المقياس، واستخدام اللغة يعتبر تعبيرا عن ذاتية مصرية اختارها عامة الشعب لتختلف عن لغة حكامه الأجانب لجانبنا التوفيق، واستنادًا للدكتور مراد كامل فإن اللغة القبطية مرحلة من المراحل التى اجتازتها الكتابة المصرية ، فهناك الخط الهيروغليفى الذى اكتسب صفة القدسية، ولذا أعطى هذا الاسم المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما هيروس أى مقدس ، غليفوس أى نقش الخط الهيراطيقى ، وهو أيسر من الهيروغليفى ، واستعمله الكهنة فى كتاباتهم ، والتسمية مأخوذة - أيضا - من اللغة اليونانية بمعناها الخاص بالكهنة والخط الديموطيقى ، وهو من اليونانية ، وخاص بالشعب المصرى ، يستخدمها فى كتاباته فى العصور المتأخرة .

ثم بدأ الخط القبطى بمحاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية ، وكان ذلك فى العصور الوثنية، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثنى لغتها مصرية ، وحروفها يونانية ، وفيها بعض الحروف الديموطيقية، ونذكر أن أول وثيقة مصرية ترجمت إلى الحروف الإغريقية قبل ميلاد المسيح

بقرن ونصف، ولقد رممت لتصل إلى صورتها النهائية . وهناك نصوص محفوظة فى متحف باريس ولندن. إذن تلك المحاولات كانت وليدة الحاجة دون أن يكون لها صلة بالمسيحية[٦].

فلقد استطاع شخص أو أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطى ، كتبوا لغتهم بحروف يونانية ، وأضافوا إلى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقى تعبر عن أصوات ليس لها مقابل فى اللغة اليونانية، وهى الأحرف السبعة : شاى وثاى وخاى وهورى وجنجا ونشيماودى ، ولقد تضمنت اللغة لهجات متعددة كما هو موجود الآن فى مصر من اختلاف بين لهجات الوجه القبلى والبحرى، ولا ريب أن بعض الاختلافات هى التى كانت قائمة فى المصرية القديمة ، وكانت أساسا لما وجد فيها من اللهجات المتعددة [٧] ، وتنقسم اللهجة إلى قسمين : لهجات مصر السفلى وتعرف بالبحيرية ، وهى اللغة الأدبية فى مدينة الإسكندرية ، ثم لهجات مصر العليا الصعيدية أو الطيبية ، واللهجة الأخميمية والفيومية ، وتفرع منها لهجات متعددة : الأسيوطية والبشمورية.

وأرجع البعض استخدامها فى الكتابات المسيحية إلى نهاية القرن الأول، والبعض أرجعها إلى نهاية الثانى وبداية الثالث ، ووجدت فى كنيسة بها أناجيل قديمة وأوراق بردية تحمل صلوات[٨] للقديس بولس تعود لعام ٢٠٠ م ، ويذكر رؤوف حبيب : أن الأنبا شنودة فى القرن الرابع شعر بأهمية اللغة كدعامة من اخطر دعائم القومية فعمد إلى اللغة القبطية وعنى بها واهتم كثيرا بالنهوض بها، وكانت حينئذ لهجة دارجة فمازال يقوم بتهذيبها حتى استوت لغة وطنية صالحة للكتابة . أما الديموطيقية فبدأت تتوارى ، وكان كهنة إيزيس آخر من استعملها فى ٤٥٢ م ولقد ظلت اللغة القبطية لغة عامة الشعب ولم تنته بالفتح الإسلامى ٦٤١/٢٠ بل ظلت لغة الشعب[٩]، وتستخدم فى المكاتبات الرسمية إلى أن أصدر عبد الله بن عبد الملك فى عام ٧٠٦ م بإحلال العربية محلها فى المكاتبات الرسمية[١٠] وإن ظلت اللغة القبطية مستعملة فى قطاع كبير من العامة ، بدليل أن المقريزى ذكر أن الخليفة المأمون العباسى حين زار مصر كان "لا يمشى أبدا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس"[١١]، وترجم له حديث

سيدة قبطية من الملاك أرادت عرض أمر عليه ، ولقد ذكرالمقريزى - أيضا - أن فى أيامه - القرن الخامس عشر - مازالت اللغة القبطية موجودة ولكن فى نطاق ضيق جدا .

فالعربية أصبحت لغة العامة والشعب بعد نزول القبائل العربية إلى الريف المصرى واختلاطها بالأهالى منذ القرن الثانى الهجرى ، فالكندى ذكر "أنه فى ولاية الوليد بين رفاعة الفهمى على مصر نقلت قيس إلى مصر فى سنة تسع ومائة ولم يكن بها أحد منهم من قبل ذلك إلا ما كان من فهم وعدوان " (١٢).

وعلى هذا لا نستطيع أن نحدد بداية الفترة أو نهايتها استنادا للغة وتواجدها، والبعض يرى أن يكون مرسوم ميلان والاعتراف بالمسيحية ٣١٣م بداية للفترة القبطية، ومعنى هذا تجاهل فترة هامة فى تاريخ المسيحية ، وهى فترة الانتشار الأولى للمسيحية فى مصر، وهى الفترة التى وضعت فيها أسس اللاهوت المسيحى على يد مدرسة الإسكندرية المسيحية وأساتذتها ، فلا نستطيع تجاهل بنتاؤس وكلمنت وأورجين ، هذه المدرسة التى تخرج منها عدد من آباء الكنيسة ، ولا يمكن تجاهل الأداور الأولى للعقيدة والعوامل والمؤثرات التى أدت لنجاحها وانتشارها، وموقفها من اليهودية، وموقف الأباطرة من المسيحية، وموجات الاضطهاد ضد المسيحيين التى شارك فيها الأباطرة وجموع الوثنيين ، ولا نستطيع أن نعتبر الفتح الإسلامى نهاية لتلك الفترة ، فإن الفترة الأولى شاهدت امتداداً لأكثر من قرنين لتأثيرات قوية للغة والفن بعد أن استقرت القبائل العربية فى الريف واختلطت بالسكان الأصليين ونستطيع تتبع عملية انتشار الإسلام واللغة العربية فى ضوء الوثائق البردية كمجموعة جروهمان .

" كان نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات"(١٣).

ولا نستطيع أن نعتبر القرن الأول الذى دخلت فيه المسيحية إلى مصر بداية للفترة ، فالوثنية كانت هى السائدة بين الشعب والدولة على حد سواء ، بل كما ذكر

"يوزبيوس " أن العدوان على المسيحيين قادته جموع العامة والغوغاء فى الإسكندرية قبل قرارات الاضطهاد التى أصدرها الأباطرة (١٤). وما حل بالقديس مرقص على يد الجموع نفسها يثبت ذلك ، ولم تكن مدارس اللاهوت المسيحية قديما لها نشاط واضح، وعلى ذلك فإنى فضلت أن يكون العنوان قبطى "مصرى" فى عصر مسيحى لأنها دراسة للشخصية المصرية فى العصر المسيحى، وبدأتها من القرن الأول من وصول بذرة المسيحية الأولى ، ثم انتشارها وتوارثها ، وتأثير هذا على المكون الأساسى فى الشخصية المصرية وموقف المصرى الذى ارتبط بماضيه وتراثه بالديانة الجديدة، وتأثيرات ذلك فى مجتمعه الذى تكون من مجتمعين : مجتمع سكندرى أرستقراطى الثقافة، ومجتمع مصر عامة التى وصفت بالمجاورة للإسكندرية، والتى أصبحت القبطية لغتة ، والذى رفض تراث ولغة وثقافة الوثنية، وخاصة فى الفترة التى أصدمت الكنيسة بالدولة ، فانغلق على ذاته الخاصة ، وارتبط الدين بالقومية ، وجعلتنا أوراق البردى التى تذخر المكتبات بالآلاف منها وأشهرها مجموعة أكسرنخوس " البهنسا" نعيش حياة هذا المجتمع بأفراحه وأعياده وأحزانه بأمنيات الإنسان البسيط فى مدنه الصغرى وقراه ، وثراء عاصمته وأهلها دائمى الشغب والصخب والحوار ذى الطبيعة المتوقدة.

والدراسة تتناول مكونات الشخصية المصرية السمات ، والملامح الرئيسية للإنسان المصرى ثم صورة هذا المجتمع مع دخول المسيحية وبعد انتشارها ، والحياة فى الإسكندرية إحدى أجمل مدن العالم القديم، وطبيعة سكانها وفكرهم ، وثقافة مجتمع التجار وأصحاب السفن والبنوك بفئاته وثنيين ومسيحيين ويهود ، ومجتمع الثقافة الرفيعة ومكتبة الإسكندرية، المجتمع الخليط من الفكر والثراء والتميز الطبقى ، ثم ما طرأ من تغيرات على هذه التكوينة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية بعد دخول المسيحية .

والمجتمع الآخر فى الأقاليم وعواصمها التى احتفظت فى بداية القرن بقدر من التعالى الطبقى فى مجتمعها الذى ضم خليطا من الأجانب إلى جانب المصريين، ثم مجتمع الطبقة الدنيا أو طبقة العامة من المصريين فى القرى والمدن الصغيرة، ونمو

وازدياد مكانة العنصر الوطنى ووصوله إلى مراتب عليا فى الإدارة والحياة وتأثير المسيحية على وجدان الشعب، ودور رجال الدين وتأثيرهم، والربط بين الدين والقومية ودور الرهبان فى ذلك .

هذه الفترة كانت من الفترات الهامة والانتقالية فى تاريخ مصر ؛ فلقد غير الشعب دينه ولغته ، بل وفكره ككل ، واختفت ثقافة وحضارة الاسكندرية وظهرت الكنيسة كقوة فاقت سلطتها سلطة ولاة الإمبراطورية، إن القبطية فى هذه الفترة تعنى فكر وثقافة ولغة عامة الشعب ، ولم تكن نظاما سياسيا ولا حكم دولة .

ملامح شخصية القبطى فى العصر المسيحى

الشخصية المصرية هى مفتاح تفاعل الإنسان مع مكانه وموقعه الجغرافى ، وتاريخه وتجاربه الإنسانية عبر القرون، امتزج بها المكون النفسى ، وتفاعل مع طبيعة المكان وتعاقب الأجناس والأنظمة الحاكمة، فأوجد خصائص معينة للشخصية المصرية، وعلم النفس يرى أن شخصية الفرد تنمو من خلال التفاعل مع العوامل البيئية المحيطة به، بما فى ذلك البيئة الداخلية، والأحداث الراهنة يعتبرها نتائج ماضى امتدت جذوره فى قرون مضت .

فهناك عناصر أصيلة فى المكون الذاتى المصرى لم تتغير ، سواء كان الحاكم مصريا فرعونيا ، أو أجنبيا دخيلا يونانيا أو رومانيا ، سواء كان معتنقا للوثنية أو مسيحيا أو مسلما ، ولكن لا شك أن هناك بعض الصفات الدخيلة كالفطريات غير المتجذرة على سطح الماء نتجت عن الاحتكاك والتعامل المستمر مع عناصر غير مصرية سيطرت على مقدراته ، ولكن لم تغيره كإنسان فاتهم بالسلبية والخضوع لحكامه أيا كانوا كنوع من التقية لشرورهم، ولكن السلبية أحيانا تعد موقف رفض ونوع من المقاومة الإنسانية لما يجرى عليه وحوله. هذه السلبية لا تخفى تحتها بلاده أو استسلام ؛ إنما هى كسطح هادئ يخفى تحته مياها جوفية تتفجر من حين لآخر فى شكل ثورات وعنف ليس فى طبيعته أو مكونه الأصلى ، أو فى شكل سخرية مريرة وفكاهة تحوى مرارة ، فى شكل التفاف حول الدين ، واتخاذه كمتنفس لرفض واقع مجبر على تقبله.

فهو شعب وسط معتدل حبته الطبيعة أرضًا سهلة خصبة مرتبطة بفيضان ووسائل رى ومواعيد حصاد محددة ، تعود أن يرتبط بالله وقدره والمحافظه على موروثه الفكرى .

هناك العديد من التحليلات لشخصية المصرى بدءًا من هيرودت واسترابون وامتدادا عبر العصور والأزمنة إلى الكندى والسيوطى وابن خلدون والمقريزى [١٥].

هيردوت يرى أن المصريين يزيدون كثيرا عن سائر الناس فى التقوى ، وأنهم كانوا أول من أوقف للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد ، وأنهم أول من حفر الصور على الأحجار، وذكر أثر الطبيعة التى تميزت عن غيرها ، فمناخها منقطع النظير، ولنهر النيل طبيعة خاصة عن بقية الأنهار، كذلك اختلف المصريون فى رأيه كل الاختلاف عن سائر الشعوب فى عاداتهم وسننهم ، وأن الشعب امتاز بالنظافة فى الملبس والطعام . ووصف مؤرخ رومانى يدعى بوليبوس Polybios عاش فى القرن الأول المصريين بأنهم حادو الطباع وغير مستعدين لتقبل الحياة المدنية [١٦] . ويرى استرابون أنهم يحبون منذ البدء حياة مدنية مهذبة ، وأنهم انصرفوا إلى شئون النهر إلى حد أنهم يقهرون الطبيعة بالجد . والمقريزى وهو مؤرخ مصرى من أصول تركية عاش فى القرن الخامس عشر، أورد تحليلا لشخصية قبط مصر وأهلها ولقد ربط بين جغرافية المكان وطبعية البشر كما فعل د. جمال حمدان فيما بعد ، وإن اختلف التحليل، فحين يتحدث عن جغرافية المكان وتأثيرها على طباع وأمزجة الشعب المصرى يقول : " إن المزاج الغالب على أرض مصر درجة الحرارة والرطوبة الفصلية وأنها ذات أجزاء كثيرة ، وأن هواءها وماءها رديئان ، وقد ورد بين الأوائل أن المواضع الكثيرة الحصى يتخلل فيها فى الهواء فصول كثيرة لا تدعه يستقر على حال لاختلاف تصعدها ، وكان استبان أن هواء أرض مصر يسرع إليه التغير ، لأن الشمس لا تثبت على أرض مصر شعاعها لمدة الطبيعية ، من أجل هذا تبين كثر اختلاف هواء أرض مصر فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة ، مرة حر ومرة برد ومرة يابس وأخرى رطب[١٧] .

وأن هواءها وماءها رديئان ، ويرى أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستمالة والتنقل بين شىء إلى شىء ، والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة فى العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكيد والسعى على السلطان وذم الناس [١٨] .

ويقول فى فقرة أخرى : " صار أهلها محبين لله ويعظمون الجن ويحبون النوح ويدفنون موتاهم فى الأرض ويخفونهم ويستعملون سننا مختلفة وعادات وأراء شتى لميلهم إلى الأسرار التى تدعو كل طائفة منهم إلى أمر من الأمور الخفية فيعتقده ويوافقه جماعة من أهل هذه الأسرار، وكان المستخرج للعلوم الدقيقة كالهندسة والنجوم وغيرها فى الزمان الأول أهل مصر ومنهم تفرقت فى العالم، وإذ ساسهم غيرهم كانوا أذلاء والغالب عليهم الجبن والاستخذاء فى الكلام وإذ ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة وهممهم كبيرة " (١٩).

هذا التحليل فيه جزء من التجنى وجزء من الحقيقة، ويعود بجذوره لفترات سابقة من فرعونية ومسيحية ، فالقبطى (المصرى) سواء فى العصر الوثنى أو المسيحى أو الإسلامى كان الدين جزءا أساسيا فى تكوينه النفسى والفكرى، فكرة البعث والحياة الأخرى (أيضا) كَانْت جزءا أساسيا من عقيدة المصريين القدماء ، حفزتهم إلى إنشاء الأهرامات لحماية الجسد وحياته الأخرى ، ودفعه فى العصر المسيحى إلى مناقشة طبيعة المسيح وقيام فلسفة دينيه خاصة . واستمر المكون الدينى يمثل العصب الرئيسى فى فكر المصرى بعد دخول الإسلام .

وما ذكره المقريزى عن ممالأة الحاكم فهو نتيجة لضغط وقهر إنسانى من العديد من الدول التى تداولت الحكم وليس طبيعة مصرية خالصة، ولقد أنصف المصريين من قال إن أهلها محبون لله إذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة وهممهم كثيرة، فإذا ملك المصرى أمور نفسه وسيطر على مقدراته يظهر معدنه الحقيقى ، وهذا الجوهر قد يغطيه الركام ولكنه يظل جوهراً .

فما دخل علينا من الخضوع أو ممالأة الحاكم والسلبية ليست نتاجا لطبيعة أرض ، بقدر ماهى تراكمات تاريخية من قهر لدول حاكمة تملك قوة السلاح أمام شعب مسالم لا يملك أمام السيف إلا الدعاء والشكوى أو الانفجار المفاجئ إذا زاد الضغط فى صورة قد تصل لمرحلة عنف .

وفى العصر الحديث تعرضت الشخصية المصرية لكثير من التحليلات والدراسات ومن أهم الدراسات ، بلا شك الدراسة الجغرافية الهامة للدكتور جمال حمدان فى مؤلفاته عن شخصية مصر .

وما كتبه د. محمود عوده "شخصية المصرى التكيف والمقاومة ، الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية" ، وكتاب د. ميلاد حنا "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية" ، وكلها تؤكد على خصائص الشخصية المصرية ، ولقد تلاقت فى نقاط رئيسية كالتدين والاعتدال ، واختلفت فى بعض النقاط كالتواصل أو الانقطاع بين الفترات الحضارية ، وهل هى رقائق حضارية تتلو بعضها البعض ؟ أم هى فترات انفصال ورفض الماضى ؟ ولذلك لابد من استعراض بعض الآراء وهى تلقى الضوء على خصائص الشخصية المصرية التى تمثل الفترة المسيحية إحدى مكوناتها أو رقائقها الحضارية، فهناك مكونات دائمة متجددة لا يمكن اقتلاعها من المكون المصرى ، ولكن تدخل عليها تغيرات وإضافات وفقا للفترة الزمنية تعدل من المظهر لا الجوهر .

يركز د. جمال حمدان على تأثير البيئة الجغرافية فى تكوين شخصية مصر ، إذ أنّها فى رأيه تجمع بين الأضداد والمتناقضات ، فهى تجمع بين أطراف عدة وجوانب كثيرة خصبة وثرية بين إبحار فى آفاق واسعة بصورة تؤكد أنه ملك الحد الأوسط، فهى أمة وسطية بكل معنى الكلمة ؛ أمة وسط فى الموقع والدور الحضارى والتاريخى ، فى الموارد والطاقة فى السياسة والحرب فى النظر والتفكير، ولعل هذه الموهبة سر بقائها وحيويتها، ويذكر التفاعل ائتلافا واختلافا بين بعدين أساسين ؛ الموضع والموقع فالموضع لا يتكافأ مع خطورة الموقع ، وهما يأتلفان فى الأثر حين يدعوان إلى الوحدة السياسية والمركزية .

ويؤكد على نقاء العنصر المصرى ، وأن المصريين القدماء شعب أصيل فى مصر Autoehtonous و أن احتمالات الاختلاط الهامة من بداية عصر الأسرات التاريخية ، وأن مصر تعرضت لغزوات ولم تتعرض لهجرات إلا فى حالة الهكسوس ، وهذا أثر فى شخصيتها الجنسية وتجانسها فى النمط الجسمانى، وأن المحيط المصرى الديموجرافى الكبير كان كفيلا بامتصاص وابتلاع العناصر الدخيلة وأن مصر كانت

تهتم بكل جديد وتمثله وتفرزه كائنا مصريا حميما ، الموجات الأجنبية ابتلعتها ومصرتها حتى الدين ، وأخذت المسيحية وأخرجت نسختها الخاصة القبطية ويستشهد بقول : Morenz أن المصرى لا يكون مصريا إلا إذا تمسك بالقديم إلى جوار الجديد ، فيلائم بينهما أو يصل أحدهما بالآخر .

ويرى أن طبيعة البيئة القائمة على مجتمع ثلاثى الأضلاع مثلث الإنتاج فى رأيه ؛ يتكون من الفرعون والماء والطبيعية ، فقدس المصريون النيل حابى والشمس رع ، وتحول الفرعون إلى الملك الإله بصفته ضابط النهر ، فنظام الرى يحتاج للشخصية القوية ، والحكم الأوتقراطى المطلق أدى إلى القهر السياسى والاجتماعى ، ويرى أن السخرة والكرباج والتعذيب هى وسائل الإرهاب منذ الفراعنة حتى العثمانيين ، وتدرج على المستويات الحاكمة.

وطبيعة البلد كسهل متواضع ليس فيه معاقل اختفاء لا يمكن لثائر أو متمرد أن يبعد كثيرا ، فلم تساعد على نمو الشخصية ونمو روح المقاومة والتمرد .

وتحول الأمر تحت القهر والطغيان فى ظل انتمائه لنظام إقطاعى إلى نقائص اجتماعية ، فالنظام والقانون أصبح جبنا واستكانة ، وسلبية روح الاتفاق التى تربط السكان أصلا ضد العنصر الدخيل تحولت إلى محسوبية ومحاباة ، كما انقلبت للأخذ بالثأر وتزلف ورياء وسعى لدى السلطان ، وكذلك إلى روح السخرية .

وأن الارتباط بنظام الرى المركزى الذى أوجد جهازا بيروقراطيا إداريًا يخضع لتنظيم مركزى علم الشعب أساس الحضارة ، وكان له قيمة فى بعض المراحل ، ولكن خلق روح التواكل والتكاسل والسلبية (٢٠) .

وكما نلاحظ أن هناك تقاربا فى بعض النقاط بين د. جمال حمدان وتلك التى ذكرها المقريزى والدكتور عوده عالم الاجتماع يرى أن د. جمال حمدان نقد الشخصية المصرية نقدا يصل إلى حد التناقض الديالكتيكى وذكر تداخلها وتشابكها الذى يصل إلى حد الإرباك(٢١) . د . عاطف غيث فى دراسته للقرية المصرية فى أواخر الخمسينيات من هذا القرن يؤكد الظاهرة نفسها ؛ تواجد القديم فى الجديد فى

عناصر الثقافة المادية وغير المادية ، وهى ماحدث نفسه فى العصر المسيحى من دخول المؤثر الجديد والموروث القديم ممثلا فى الثالوث المقدس وارتباطه فى أذهان المصريين بالثالوث الفرعونى إيزيس وأوزوريس وحورس .

والشخصية المصرية نجد لها استمرارية واضحة تربط بين قديمها وجديدها ، فالموروث الداخلى يظل متأصلا ، ومازلنا نحتفظ ببعض أنماط سلوكنا الفرعونى فى بعض عاداتنا الاجتماعية فى الفرح والحزن كالأربعين للميت والاحتفال بوفاء النيل .

ولكن د. جمال حمدان يرى التناقض فى الشخصية المصرية يتضح فى الاستمرارية ونقيضها من الانقطاع، فالاستمرارية واضحة فى كل مقوماتها من أعلى النظم السياسية والاجتماعية ، من الأرض والناس ، على أخص الدقائق وتفاصيل العادات والتقاليد اليومية ، بل والأمثال المألوفة الشعبية ، ولكن يرى أن هناك فترات انقطاع ، فهو يرى الاستمرارية خاصية متأصلة فى الشخصية المصرية ؛ وهى صفة مشتركة فى كل جوانب الشخصية الأخرى، فالماضى دائما يعيش فى الحاضر أو يرقد خلفه ، وهو يرى أن هناك أربع علامات كبرى فى تاريخ مصر أثرت تأثيرا هائلا فى كيانها هى : اكتشاف الزراعة وبدء الحضارة فيها ، ثم التعريب والإسلام ، ثم تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء ، وأخيرا وحديثا الحضارة الغربية ، ويرى أن كل واحدة من هذه كانت انقلابا وانقطاعا جوهريا، كذلك يرى أن الاستمرار مركز خصوصا فى النواحى المادية من الثقافة أو ما يسميه الحضارة ، سواء من الأرض أو الناس ، بينما الانقطاع ألحق بالجوانب اللامادية أو ما يسميه الثقافة وإن كان الدكتور عودة يعترض على أساس العلاقة الجدلية بين الثقافة وأساسها المادى (٢٢).

وقد اعتبر د. جمال حمدان أن حقبة الحضارة والثقافة الفرعونية تغطى حقبا ثانوية تميزت بظروف خاصة مثل الهلينية والرومانية والقبطية والبيزنطية ، وأنه لم يعترف بعد الفراعنة إلا بالمسيحية، وأن المسيحيين كانوا يخاصمون أعداءهم فى الدين ، ولو كان الجميع أبناء جلده واحدة ؛ فشنودة الإخميمى خرب معابد إخميم ليبنى بحجارتها أديرة، كل هذا لا ينفى تأثر المسيحية بالفكر الدينى المصرى ، وهذا

يطرح تساؤلا مؤداه هل نحن أمام انقطاع شكلى يعكسه تأثر المسيحية بالديانة المصرية الفرعونية أصلاً أم أننا بصدد علاقة جدلية معقدة ؟ .

أما الدكتور ميلاد حنا فيرى أنها رقائق حضارية ، وأن مصر تتمتع بعد ذلك بخصائص حضارية أثرت فى تكوين الشخصية المصرية ، وهى ما يرمز لها بالأعمدة السبعة التى تتكون وتؤثر فى هذه الشخصية وموجودة ولها تأثيرها فى هذا بدرجات متفاوته ، وذلك نتيجة كل من التاريخ والجغرافيا على حد سواء .

فمن الناحية التاريخية لابد أن تكون الشخصية المصرية قد تأثرت بالرقائق المتتالية للحضارات التى عاصرتها مصر ، والتى تمثلت فى الحقبة الفرعونية بمراحلها المختلفة ، وما تلاها من الحقبة اليونانية الرومانية ، وهى متداخلة فى المرحلة القبطية ثم الحقبة الإسلامية بمراحلها المختلفة ويصف هذه الرقائق الحضارات المختلفة وتأثيرها فى تكوين الشخصية المصرية وإعطائها فكرة خاصة ومذاقا مختلفا [٢٣].

وهنا التقى المحللون فى شبه إجماع على خصائص معينة متميزة للشخصية المصرية امتدت من القديم إلى الوسيط إلى الحديث من تاريخنا .

الخصائص الأساسية والمكون الرئيسى كان واضحا ومستمرا فى العصر المسيحى مع إضافات وخصائص نتيجة لما طرأ على تلك الفترة من تغيرات ومؤثرات فكرية ووضع سياسى بدت بعض نتائجه ، وترك بصماته فى المكون المصرى ، فاجتمع القديم مع الجديد فى منظومة جمعت بين السلب والإيجاب .

المكون الأول الدينى

كان الدين المؤثر الواضح الذى لمسه الجميع وأجمعوا عليه من هيرودوت واسترابون إلى المقريزى، إمتداد إلى جيبون وول ديورنت وفورستر وجمال حمدان وميلاد حنا ، وإن اختلفوا فى تحليل العناصر الأخرى.

المصرى مفطور على الإيمان، وفكرة البعث والحياة الأخرى كانت وراء كثير من منجزاته الحضارية، فالحياة الأخرى شغلت تفكيره كالحياة الدنيا ، وكرس لها الأهرامات ومراكب الشمس، فالمقابر هى بيوت الحياة الأخرى ، وهى بيت الجسد الذى حرص على سلامته ليعود إلى استكمال رحلته الأخرى .

ولقد عززت الطبيعة هذا الاحساس لديه وتركت جغرافية المكان أثرها، فى ارتباطه بالأرض والنيل ، فعبد النيل (حابى) والشمس (رع) والقمر (خنسو)، وقدس الحيوانات التى تسير على الأرض وتمده بوسائل الحياة ، فعبد البقرة حتحور والسمكة اكسرنخوس والطائر أيبس إلخ.

وتركت الطبيعة تأثيرها الواضح فى حياة المجتمع الزراعى ، الفلاح المصرى يعيش ليومه فقط والتفكير فى المستقبل والتخطيط له يتركه لربه ، والسنة الزراعية هى تكرار للماضى ، وهى دورة معهودة منذ الأزل للأعمال الزراعية حسب فصول السنة ، ونزعة الجماعة عند الفلاح وجدت فى إطار الجماعة والقرية .

ولقد أصبح الفلاح والأرض عنصرين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، فالفلاح يحيا على الأرض الزراعية ، وهى مصدر قوته وحياته، كذلك تعتمد الأرض فى إحيائها وخصوبتها على جهده [٢٤].

ومن هنا كان للدين تأثير كبير على وجدان المصرى ، فالأرض وما عليها مرتبط بدورات زراعيه وبفيضانه ، وطبيعة معينة ، كل هذا ربطه بالله . و د. جمال حمدان يعتبر الفرعون الإله أحد أضلاع مثلث الدورة الزراعية، ففكرة الإله المسيطر إمتدت للعصر البطلمى والرومانى ، وأرجع عدد من المؤرخين الملكية الزراعية فى مصر الفرعونية إلى الملك الكاهن وقصروها عليه وعلى المعابد إعتماداً على النصوص المصرية القديمة ، حيث ردت ملكية الأرض فى مصر القديمة ومن عليها إلى الفرعون وريث الآلهة .

ولقد كان للفرعون وللمعابد تأثيرها القوى على أفئدة الشعب وصور الآلهة والمعبودات التى لها قداسة فى وجدان المصرى، مثل الكهنة قوة ضغط على الفرعون، وأنا لا أرى أن بناء الأهرام كان سخرة من مستبد ، بل كان تكريماً للملك الإله، وفى شهور الفيضان حيث يتوقف العمل .

وأهم ثورات التاريخ المصرى القديم كانت ثورة أخناتون وآلهه آتون ، والذى إنتهت بعودة عبادة رع ، فالدين حكم الإنسان والأرض.

وفى العصر البطلمى أصبحت أراضى مصر ملكًا للتاج يديرها بمقتضى الحق فى الأرض المقدسة ، ففى نقش فى معبد ادفو أن الإله حورس أهدى إلى ابنه الملك حورس الحى بطليموس الأراضى الزراعية ، فاعتبرها أوسية ودخلت أملاك المعابد تحت إشراف الدولة ، وتملك الرومان الأرض بحق الفتح وأصبحت ملكا بالتاج.[٢٥]

وكان الدين هو العامل المؤثر الذى لجأ إليه الحكام ، وألوهيه الحاكم وقدسيته مكنته من السيطرة ، وجعلته مقبولا أمام الأهالى الذين كان غالبيتهم من فئة المزارعين ، هذه الثلاثية ربطت الدين والإنسان والأرض ، وهى مكون أساسى للشخصية المصرية، وعن طريق الدين سيطر الحكام على الإنسان والأرض وكان الملك رمزا للعدالة. وحين غزا الرومان مصر وجدوا طبقة هامة هى رجال الدين المصريون ،[٢٦] والذين لهم شوكة قوامها أساس مادى من اقتصاديات المعابد ، وسلطان روحى قوى على الأهالى ، والبطالمة الأواخر قد اضطروا إلى إتباع سياسة اللين معهم فأعادوا إليهم امتيازاتهم من إعفاءات ضريبية وحرية إنتاج فى أراضى المعابد وحق إيواء

المعابد للاجئين ، ولم يكن الإمبراطور أغسطس ليستطيع أن يقر الكهنة على هذا الوضع ؛ لأنه خشى من قيامهم بدور قيادى بتغذية روح الثورة على الحكم الرومانى فى جنوب الوادى ، ولذلك صادر مساحات كبيرة من أراضى المعابد ، ولم يسمح للكهنة إلا بزراعة المساحات الكائنة لتوفير حاجات المعابد ، ووضعت المعابد بنظمها وكهنتها تحت إشراف السلطة المركزية .

بعكس ما رآه وعرفه اليونان أن الوصول إلى الإنسان والأرض لن يكون إلا عن طريق الدين، فالسيطرة السياسية يجب أن تأخذ غطاء دينيا ، فقد تقربوا من المصريين عن طريق آلهتهم وتمجيدها واتخاذ مظهر الملوك الفراعنة ، ولكن مالبث أن تغير موقف الرومان ، فإذا كان أغسطس وشعراء عصره كالوا الإهانات إلى الآلهة المصرية بسبب صراعه مع أنطونيو وكليوبترا ، وسخروا من المعبودات الحيوانية التى يعتنقها المصريون، فإذا بهم بعد ذلك ولإداركهم مدى تأثير العامل الدينى وإرتباط المصريين بعقيدتهم لإيمانهم بأن الفرعون يحكم البلاد من خلال حق إلهى بوصفه إلهًا وبشرًا فى آن واحد ، رسم الأباطرة الرومان أنفسهم فراعنة، واتخذوا الألقاب والصفات الفرعونية ، ونقشوا صورهم على جدران المعابد على هيئة فراعنة فى أزيائهم التقليدية على أساس أن هذا يضفى شرعية على السلطة الإمبراطورية فى عيون المصريين ، بل إن الوالى وهو ممثل شخص الإمبراطور كان يتشبه بالفراعنة فى عدم الإبحار فى النيل حتى يبلغ فيضانه نقطة تمامه ، ولقد تطور الأمر من إحكام القبضه على الشعب عن طريق التقرب لهم باحترام عقائدهم إلى الإعجاب ، كما حدث فى عهد أسرة فلافيوس فسبسيان الذى كان معجبًا بإيزيس، وتيتوس أقام حفل تكريم للعجل أبيس رسميًا ، ودومتيان الذى دعى لإيزيس فى روما ، ولم تقم الآلهة المصرية بغزو روما فقط ، بل بدأ فى عهد دومتيان تصوير الآلهة المحلية على نقود الإسكندرية، وقد قرن الأباطرة الرومان أنفسهم بالآلهة أسوة بالحكام اليونان فى مصر ، وإن كان الرومان اعتبروه مؤلهًا Divius وليس Deos . وإرتباط الأرض بالدين نجده واضحًا حتى فى المسميات والأعياد وفى طقوس العبادة ، ثم أخذوا بالسنة الشمسية ، بالإضافة إلى السنة القمرية ، وأكملوها بضم خسمة أيام ، وهى الأيام التى ولدت فيها المعبودات إيزيس وأوزوريس وحورس ونفتيس وست ، وبها سميت الشهور

الشهور الإثنا عشر ووزعت على ثلاث فصول كل فصل أربعة أشهر وسموا الفصل الأول فصل الفيضان ، والثانى بذر الحبوب ، والثالث عن المحصول ويوم الفيضان أو أيام العيد الجديد(٢٧).

البطالمة والرومان قلدوا الفراعنة وارتدى ملوكهم فى تماثيلهم ثيابهم وتحولوا إلى مؤلهين. لكن مع الفترة المسيحية اختلف الأمر، وتغيرت صورة المجتمع ككل ووصلت المسيحية إلى العاصمة المثقفة وإلى الريف البسيط . يقول : "ول ديورنت " المسيحية بادئ ذى بدء لم تكن فلسفية عندما قدمت نفسها للفقراء ولغير المنتمين للطبقات العليا فى فلسطين ، وبمجرد وصولها إلى الإسكندرية تحور طابعها ونقطة تحولها إلى الطابع الدنيوى، وكان السكندريون مثقفين إلى أبعد الحدود، وكانت لديهم مكتباتهم التى جعلت كل حكمة البحر المتوسط فى متناول أيديهم ، لذا كان من المحتم أن يأخذ إيمانهم طابعًا فلسفيًا ، ومنشغلين بالمعضلة ، وهى بالتحديد الصلة بين الله والإنسان " فالمسيحية اتخذت طابعا فلسفيًا فى مدرسة الإسكندرية، والتى كان من أشهر أساتذتها بنتاؤس و أورجين وكلمنت ، وأنجبت البطاركة الأوائل، أما فى الريف والذى مازالت الزراعة تمثل محورًا أساسيًا لحياته ، وجدت رابطة بينه وبين عقيدته الجديدة برهبانها ، ولم يكن يعرف طبيعة الحوار الفلسفى حول الثالوث الذى أدارته الإسكندرية وعواصم الأقاليم ، ولكنه كان يؤمن بالمسيحية ويصدق آباءها ولم يكن فى حاجة للفلسفة والحوار، والشرقيون يخافون من استعمال الفلسفة لإيضاح المعانى المقدسة ، وهناك فى أفئدتهم أشياء غامضة وروحانية ، ولذا كان فى نظرهم أن عليك ألا تسأل لماذا أؤمن، فهناك أشياء غامضة فى العقيدة علينا تقبلها بلا مناقشة لأنها قادمة من الله (٢٨).

ولقد تحولت الإسكندرية بعد ذلك لأحد المراكز الهامة للدين الجديد، وساهمت بنصيب وافر فى الحركة الثقافة الدينية ، وكان محور هذه الحركة هو الكتابة فى شرح الدين الجديد وتمجيد أبطاله الأول، وانقسم المسيحيون فى القرن الرابع إلى مذاهب وفرق، ووجدنا أتباع كل مذهب يؤلفون ويكتبون تأييدًا لوجهة نظرهم والدفاع عنها، ومن أشهر الانقسامات ما حدث بين أريوس وأثناسيوس ، وكلاهما من الأسكندرية

وكان كلا الزعيمين من أكثر أهل العصر ثقافة وحدة عقل، أريوس الذى ينتمى إلى مدرسة أنطاكية المسيحية التى كانت متأثرة بتعاليم أورجين المشبعة بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة (٢٩) .

والطرف الآخر كان أثناسيوس الذى كان فى الغالب مصرى الأصل نشأ فى مدينة الإسكندرية ، واستطاع بعقله اللماح أن يصيب من ثقافة المدينة قدر المستطاع ، ونظرا لما اتصف به من بساطة والبعد عن التعقيد مع الحماس الدينى الدافق ، وسمات أسلوبه فى الكتابة اليونانية ينطق بالبساطة والوضوح (٣٠) ، مع القدرة فى الإيضاح ، وهذا ما مكنه أن يكون أكثر شعبية من أريوس وأقرب إلى قلوب عامة المصريين ، وكذلك لما اتصفت به أراء أريوس من بعد فلسفى لم يكن من السهل تقبله بالنسبة للعامة (٣١).

ولقد حاول آباء الكنيسة بعد ذلك عدم خلط الفلسفة بالدين ، ففى رأيهم الخلط أساس الهرطقات ، وأغلب الهراطقة فى نظرهم رجال طاهرون خلطوا العقيدة بفلسفتهم ، وتعرض أثناسيوس للاضطهاد على يد عدد من الأباطرة من أسرة قسطنطين، ونفى عدة مرات خارج مصر ، فتحول من رجل دين إلى أسطورة دينية وبطل شعبى التف حوله الشعب الذى وجد فى الدين متنفسًا عن كل ما تعرض من ضغط وقهر سياسى واقتصادى من حكامه، وأثقل عليه بموظفيه وإداريه ، والملاحظ أن الثورات والانتفاضات الشعبية التى حدثت فى تلك الفترة غالبيتها كانت ذات طابع دينى ، فلم تكن الثورة من السمات المميزة للشخصية المصرية، ولكن كان هناك رفض ومواجهة مع الدولة من أجل الدين والمعتقد ، فاختلط ما هو دينى بما هو قومى ، حيث وجد المصرى الملاذ فى الإلتفاف حول رجال الدين والثورة على حكامه .

ويقول " ول ديورنت " إنّ سلطة بطريرك الأسكندرية ، تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة ، وكان بعض هؤلاء البطاركة ساسة من رجال الدين (٣٢).

ونرى أن المصرى الذى وصف بالسلبية يخرج بتأثير انتمائه الدينى إلى جانب بطركه الذى إعتبره السلطة الشرعية الحقيقية ، ويعتبر ديورنت رفض المصريين

للمجامع الدينية منذ مجمع خلقدونية ٤٥١ م هو نوع من الحركات العرقية الموجهة ضد اليونان والرومان .

وقد أعلن المجمع أن للمسيح طبيعتين غير مختلطتين وغير قابلتين للتغير ، ولكن فى ذات الوقت لا يمكن تمييزهما ، وهما متلازمتان ، ولكن الأقباط والأحباش رفضوه لأنهم يؤمنون بطبيعة واحدة ، ثم جاء مذهب الإرادة الواحدة فى أيام هرقل، ويرى البعض أن هذا المذهب من الصعب إيضاحه فى لغة اللاهوت وغالبًا لايمكن صياغته فى لغة العامة .

ورغم أن مصر من الناحية النظرية كانت تابعة للإمبراطور الذى يرسل لها واليًا وحامية عسكرية من القسطنطينية ، ولكن كان الحاكم الفعلى هو البطريرك وجيشه من الرهبان، ولمواجهة هذا كان على الإمبراطور أن يرسل منذ عهد جستنيان واليًا يجمع بين المنصب الدينى والكنسى ، وأصبحت جميع كنائس الأسكندرية فى أيديهم وطردوا البطاركة والأساقفة الأقباط، واستمر الحال إلى دخول العرب مصر، ولذلك لم يلق الفتح الإسلامى معارضة شعبية ؛ بل إن ابن عبد الحكم ذكر أن القبط كانوا لهم أعوانًا ، ولقد أدى الغزو الفارسى لمصر إلى إهتزاز صورة الإدارة البيزنطية لمصر، ثم رجوعها لمذهب المونوثولسية غير المفهوم أو المقبول لهم ، وهم فى الأصل ليسوا على استعداد لتقبل ما يخالف مذهبهم .

وبالنسبة للخلافات المذهبية كان كل فريق يرى أنه هو الأصولى الحقيقى الأرثوذكسى ، وأنه هو المفسر الوحيد للصلة التى تربط الله بالإنسان ، بالرغم من أنه كان فى نظر الآخرين يعتبر هرطقيًا.

وبعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمى بدا الوجه الآخر للعملة ؛ فبعد أن كان أهالى الأسكندرية الوثنيون يواجهون المسيحيين بقوة وعنف كما حدث مع القديس مرقص متهمين المسيحيين بأنهم سبب أى كارثة تلحق بهم بسبب خروجهم عن دين آبائهم انقلب الأمر فى العصر المسيحي إلى مطاردة للوثنيين وإتهامهم بمسئوليتهم عما يحدث للمجتمع المسيحى من كوارث ، ويتحول أحيانًا إلى عنف رافض كمقتل هيباشيا الفليسوفة الوثنية .

فالمسيحيون إمتد رفضهم إلى كل ما هو يونانى من حضارة وفكر وثقافة ، فكان تدمير مكتبة الأسكندرية فى السرابيوم باعتباره معقلا للوثنية ، وازداد هذا الاتجاه بعد الإنفصال الكنسى عن بيزنطة ٤٥١ م والذى أدى إلى ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التى قادها الأنبا شنودة لتنقية اللغة القبطية من الألفاظ اليونانية والثقافة اليونانية .

فالدين خلال هذه الفترة أصبح هو المكون الأساسى للشخصية المصرية على مستوى العاصمة ، والريف أدخله فى أطر اجتماعية وفكرية جديدة حددت سلوكيات عديدة فى هذا المجتمع .

وهناك عنصر آخر ساهم فى ترسيخ المسيحية وفكرها بين العامة وهو والرهبنة، وأصبح للرهبان مكانة كبيرة لدى العامة، وكانوا يوصفون بالرجل الطيب العجوز، ولقد تحدث جيروم **Jerome Hieroninus** أبو الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع عن نشأة الحركة الرهبانية فى العالم المسيحى [٣٣] جاعلاً مصر مهدها ومركز إنتشارها إلى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، وظهرت شخصية بولس الطيب كرائد لحركة الرهبنة، ولكن كان أشهر الرهبان أنطونيوس ، والذى أقام أساس الرهبنة الفردية، وباخوم الذى أقام نظام الديرية الجماعية فى مصر. فالرهبنة هى الإضافة المصرية للمسيحية، وسبق أن ظهرت بعض الحركات التصوفية كالنساك فى معبد أون، وكان هناك نظام اللجوء للمعابد فى العصر اليونانى ثم الفقراء الأسنيين **Therapeuto Essenians** فى منطقة بحيرة مريوط ، وهم طائفة يهودية اختارت حياة التقشف ، وكانوا يؤمنون بإشتراكية الملكية، ويرى البعض أن الرهبنة تأثرت بهذا النظام ، وإن كان الدكتور مراد كامل يرى أن الرهبان الأوائل الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية والعلمية تمكنهم من الإطلاع والسماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها ، ومع الإضطهادات التى حدثت فى عهد عدد من الأباطرة وخاصة إضطهاد دقلديانوس كان من الطبيعى أن يزداد عدد الرهبان الفارين إلى الصحراء للهروب بدينهم من الإضطهاد [٣٤].

وعامة فإن طبيعة مصر والصحراوات الواسعة ساعدت على وجود هذا النظام ، فالمصرى بطبيعته كان يميل إلى التدين ، ويصبو للحياة الروحية التى منحتها طبيعة الصحراء ، ومكونها يساعد على التركيز والتأمل الدينى ، ولقد إنتشرت تجمعات الرهبان بعضها يبعد عدة أميال من الإسكندرية والبعض يقع إلى الغرب أكثر من صحراء مريوط ، وهناك آثار عديدة للرهبان الذين كانوا يعيشون فى وادى النطرون ، وكان غالبيتهم يملكون بعض المعرفة اللاهوتية ، وأيضًا الحرف ، ولكنهم كانوا كارهين للثقافة اليونانية ، منغلقين على أنفسهم ، وثقافتهم محدودة، ولكن لهم تأثيرهم على المجموع العام ، ولقد شجع جستنيان وثيودورا الرهبنة .

ولقد تحولت قبور عدد من الرهبان بعد وفاتهم إلى مزارات تقام لها الاحتفالات والأعياد ، والإيمان بالأولياء والقديسين سمة واضحة فى الطبيعة المصرية ، سواء كان عصرا مسيحيًا أو إسلاميًا . ففى العصر المسيحى أصبح الشهداء الذين تعرضوا للقتل فى فترة الإضطهادات أو من تمتع بشهرة من الرهبان .

ولعبت تلك المزارات دورا هاما فى المعتقد الدينى ، ومن الأسماء الشهيرة القديس مرقص والقديسة كاترين السكندرية ، قتلت فى الثانية عشرة فى عهد مكسميانوس ٣٠٧ م والدير الشهير فى جنوب سيناء يحمل اسمها ودميانه ابنة حاكم شمال الدلتا ، واعتزلت فى دير مع أربعين عذراء ، وقتلوا أيام دقلديانوس ٢٨٤ – ٣٠٥م وأصبح المكان مزارا ، والقديس مركيريوس Mercurius اسمه أبو سيفين ، مجند رومانى قتل فى عهد دكيوس ونقل من فلسطين فى القرن الخامس الميلادى إلى مصر .

يعد ميناس أوأبومينا من أشهر القديسين الذين يقام لهم احتفالية ومولد ، حيث أصبح ديره مزاراً هامًا للمصريين ، وأصبح مكانًا لشفاء المرضى ، وذاعت شهرة المنطقة فى جميع أنحاء العالم القديم ، وكان يفد إليه الحجاج من كل صوب لنوال البركة (٣٥) وطلب الإستشارة ، وكان يوجد فى الغرب من الدير بئر يأخذ الحجاج من مائها فى أوان عليها صورة القديس ، وهى من الفخار ، تصنع فى مصانع قرب المنطقة ، ويوجد العديد منها فى المتحف القبطى ، وهى مبططة الشكل مستديرة

الجانبين ولها أذنان وهى أشبه بعلبة صغيرة محكمة الصنع ، وعلى أحد وجهيها رسم بارز يمثل القديس مينا باسطًا يديه إلى أعلى ، وعلى الوجه الآخر رمز الصلاة وهو واقف بين جملين جاثمين عند بركة القديس المذكور ، وعلى الوجه الآخر نشاهد غالبًا نصًا قبطيًا يشير إلى بركة القديس المذكور ، وكانوا يعتقدون أن تلك المياه تشفى أمراض العيون (٣٦) . نستطيع أن نقارن هذا بما أورده الكاتب يحيى حقى عن اعتقاد العامة فى زيت قنديل أم هاشم " السيدة زينب " وشفائه العيون ، فالموروث الدينى ينتقل عبر الفترات الزمنية ، فالاعتقاد بالأولياء والقديسين والتبرك بهم جزء من المكون المصرى، ولقد أقيمت حول ضريحه فى منطقة مريوط مدينة عظيمة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادى ، وكان الإمبراطور أركاديوس قد بنى بجواره كنيسة فاخرة ، وكان أبو ميناس أبوه من أهالى نيكاو ، ثم أصبح حاكمًا لولاية أفريقيا ، ولكن ميناس اعتنق المسيحية ، فقطعت رأسه فى عهد دقلديانوس بجانب مريوط (٣٧) . الأمر نفسه بالنسبة لدير العائلة المقدسة ، فالبعض يعتقد أن من يزوره يشفى من أسقامه . والقصص التى رويت عن هؤلاء القديسين اعتبرت فى مجال المعجزات ، وما كتب عنها لا يخضع لقوانين الطبيعة ، وفوق قدرات الإنسان المألوفة ، ولذلك يغلب على هذه الكتابات المبالغة النابعة من العقل الدينى الساذج ، وهذا النوع من الأدب الشعبى يغلب عليه البساطة المفرطة ، بساطة فى الأسلوب وبساطة فى التفكير .

ولقد أقيمت احتفالات حول قبور القديسين ، ومازالت ، وتحولت إلى أسواق للبيع والشراء والمرح والابتذال أحيانًا ، بل شاعت خرافات دينية ، فزعم البعض أن الشهداء ظهروا لهم ، وكشفوا عن الأماكن التى دفنت فيها عظامهم ، وعند البحث وجد بها بقايا كلاب ، أى لاتمت للقديس بصلة ، إنما هو نوع من الهوس الدينى دفع الأنبا شنودة فى القرن الرابع لمحاربة البدع والخرافات التى أحاطت بتلك المزارات ، يقول :" ليس هناك فى الأناجيل أية أشارة تدعونا إلى بناء الهياكل حتى فوق الرفات الحقيقية للشهداء والرسل .

وكانت تقام الاحتفالات لتكريم القديس ، فيحضر العديد من الأفراد إلى الإقامة حول الكنيسة فى خيام يبيتون فيها أيام العيد ، وتبدأ الاحتفالات لتكريم القديس برفع الصلوات وقراءة مسيرته بالتفصيل .

ولكن كانت تلك الأعداد تحتاج للطعام ونحر الذبائح ، وإنحرفت الاحتفالات عن طبيعتها الدينية البسيطة إلى مظاهر مادية فى تسرب كثير من الشرور الإجتماعية والمباذل الأخلاقية ، وخروج الإحتفالات عن غرضها الدينى، وتعكس كتابات شنودة ما كان يحدث " جميل جدا أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويظهر نفسه ويتبادل الأسرار المقدسة فى مخافة المسيح، أما أن يذهب ليتسامر ويأكل ويشرب ويلهو ويزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط فى الشراب والبغى والفساد والإثم فهذا هو الكافر بعينه . وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الأسرار المقدسة إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بأصوات آلات الطبل والزمر صلاة تدعى وأنتم جعلتموه مغاره لصوص قد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحلى وغير ذلك لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم تحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين أو يستخلص لنفسه شيئًا من الفائدة نظير بقائه حتى الأمور التى لا يمكن أن تحدث للباعة فى الأسواق العامة تحدث لهم فى موالد الشهداء "[٣٨].

ومازالت عادة الاحتفالات بموالد الأولياء قائمة فى المسيحية والإسلام ؛ وإلى الآن نرى أسواق البيع والشراء ، بل وإحتفالات مسرحية أحيانًا ، ووسائل تسلية وسيرك، ومن الأعياد الهامة إلى الآن فى إقليم المنيا عيد العذارء فى دير جبل الطير ، أو الإحتفالات الإسلامية لأولياء الله الصالحين وآل البيت ، كالحسين والسيدة زينب لها مريديها وخاصة من عامة الشعب والذين يحرصون على الحضور للإحتفال بالمولد .

وتقدم الإلتماسات للأولياء للشفاء والزواج والإنجاب وتحقيق الرغبات ، وتقدم النذور ، ولقد جمع الدكتور سيد عويس التماسات عديدة للأولياء فى العصر الحديث .

وهذه الإلتماسات لا تختلف فى مضمونها عن ما كان يحدث فى العصور التاريخية المختلفة من فرعونية أو يونانية أو مسيحية ، ولكن الإختلاف فى من يوجه إليه الرجاء فى العصر اليونانى الرومانى الوثنى . وكانوا يستشيرون النبوءة Diskouroi وأبناء زويوس الأربعة ، ولقد آمنت الطوائف العامة والطوائف الشعبية

بذلك ، بل إمتد هذا الاعتقاد إلى الطبقات العليا ، وكان المصريون يأمنون بالسحر، وفى العصر الفرعونى كانت مرتبطة بعبادات مصر القديمة ، وكان المحور الرئيسى الذى تدور حوله برديات السحر فى العصر اليونانى هو الإله هيرميس تحوت Hermes Toht إله الحكمة ، وأطلق على كتاب السحر اسم هيرماتيك Herematic ووجدت نسخ منه فى أرشيف أكسرنخوس .

أما عن صياغتها فاشتملت على ألفاظ وتعبيرات غريبة، إلى جانب أسماء الآلهة ، وفى العصر المسيحى ذكر المسيح والقديسين واقتباسات من الإنجيل والإستنجاد بالآلهة الغامضة من السحر الغنوسى ، إلى جانب أدعيات ورسوم ملائكية، ومن بردية سحرية ترجع للقرن السادس جاءت عبارات سحر ضد الأفاعى والأمراض، السطور الأولى منها كانت فى شكل هرم مقلوب ، وكانت أغلب التمائم لا تكتب فى أسطر منتظمة يتبعها المضمون. وتردد أسماء يهوه " Jehoval" [٣٨] ثم دعاء لتخليص المنزل من الأفاعى الشريرة مع الإشارة إلى القديس لوكاس [٣٩].

وهناك بردية أخرى تذكر فقرات فى الإنجيل وأسماء أربعين من الشهداء والسحر ضد امرأة أخرى، وللحماية من الأخطاء ، وتضرعات للمسيح ، وهناك عدد من البرديات يتناول الشفاء من المرض والحمى، وإحداهما تشمل أدعيات من إنجيل يوحنا واستنجاداً بالعذراء والقديسين ، ومازال الناس يلجأون إلى الأولياء لاستشارتهم وطلب الشفاء ، بل البعض يلجأ إلى السحرة وكتابة التعاويذ والأحجبة . المكون الدينى جزء أساسى من شخصية المصرى ، وفى الفترة المسيحية كان الدين مرتبطا بالقومية ، وحوى وجدان المصرى تراثًا متصلاً تبدأ جذوره فى الماضى إمتدادًا للحاضر ، فمازال الدين يمثل الشريحة الأساسية فى فكره .

الاستمرارية والتوفيق بين الماضى والحاضر:

وتعنى الإستمرارية فى الشخصية المصرية حفاظ المصرى على تراثه وماضيه فى بؤرة ذاكرته عبر الفترات الزمنية ، فالشخصية تتكون من طبقات ورقائق ، وترتكز

طبقاتها العليا على طبقاتها السفلى ، فهناك ربط بين الماضى والحاضر ، فالإنسان ليس أرشيفًا تتراكم فيه خبرات الماضى ؛ إنه أيضًا مجموعة من أحلام وآمال الحاضر والمستقبل ، وهذه عملية تواصل، فإذا تراجعت بعض الخبرات والذكريات فإنها تخرج من دائرة الضوء ولكنها تظل فى أعماق الشخصية الإنسانية لا تمحى ، فهى الأساس أو أحد طبقات الذاكرة الإنسانية ، وإذا كان أستاذنا د. جمال حمدان يرى أن ثمة عملية انقطاع حدثت فى العصر المسيحى بعد انتصار المسيحية وتحولها لدين رسمى وشعبى فدمرت مراكز الثقافة والفكر القديمة على يد المسيحيين الجدد مما قطعه من ماضيه الفرعونى السابق ، بل ونبذه وعاداه وربطه بالوثنية ، ثم حدثت قطيعة أخرى بعد الإسلام .

وهو يرى أن الإستمرارية فى النواحى المادية من الثقافة أو ما نسميه الحضارة سواء من الأرض أو الناس ، والإنقطاع فى الجوانب اللامادية أو ما يسميه الثقافة ، فهو بهذا المعنى استمرار للحضارة وانقطاع للثقافة ويعترض على هذا الرأى د. عوده . وإن كان صبحى وجيدة يرى : أنه ثمة إنقطاعات فى الصعيد الثقافى المصرى لا يمكن إنكارها وبخاصة بفعل المعتقدات الدينية .

وإذا كانت المسيحية قد تأثرت بالفكر الدينى المصرى وفلسفة الإسكندرية وثقافتها ، وتأثر آباؤها الأوائل ككلمنت وأورجين بفلسفات جامعتها، ولكن فى المرحلة التالية قام أبناء الكنيسة برفض العديد من مظاهر الثقافة والحضارة السابقة ، أو لكل ما يمت للماضى الوثنى ، من ذلك ما قام به ثيوفيلوس من حرق للسرابيوم باعتباره مركزا للحضارة الوثنية ، وقيام شنودة بتخريب المعابد فى إخميم "بانابوليس" ليبنى بها أديرة [٤٠] ويرى البعض فى هذا انقطاعًا مع الماضى ، ولكنى أتفق مع الدكتور ميلاد حنا بأنها رقائق حضارية تتعايش مع بعضها . فإذا كان رفض الوثنية كدين فإنه لم يرفض ما تحويه من مكونات فنية وأدبية ظلت ملامحها تظهر فى فنونه ، والإستمرارية لا تعنى الجمود ورفض ما هو جديد ، فالفن القبطى رغم أنه يعبر عن ذاتية معينة قد أخذ من الهلينى والساسانى والسورى والفرعونى وشكلها بما يلائمه ، فالجوهر الدينى لا ينسخ وإنما يتناسخ ، ويمكن أن نضعها قاعدة أن مصر كلما زادت تغيرا وتطورا زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدًا أو استمرارًا[٤١] .

المصرى غير ديانته ولغته ثلاث مرات خلال أربعة عصور فى الفرعونية واليونانية والرومانية والقبطية والعربية الإسلامية ، غير دينه من الوثنية إلى المسيحية إلى الإسلام ، واللغة من الهيروغليفية إلى القبطية ثم العربية ، فلا يمكن محو ذاكرة شعب ، وتجارب ماضيه قد تتوارى فى بؤرة هامشية فى الذاكرة ، ولكنها موجودة فمازلنا - إلى الآن - مرتبطين بموروثات ثقافية وحضارية تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ، وهناك كثير من الموروثات مستمرة فى وجداننا وفى أعماقنا إلى الآن مع إختلاف المسميات وفقًا للعقيدة والزمان والمتغيرات .

يقسم المؤرخون التاريخ إلى حقب ولكنه فى الحقيقة حلقات متصلة ، وتبدو سمات الإستمرارية فى المكون الإنسانى المصرى بدرجات بعضها جذرى وبعضها هامشى، لكن التطور ضرورى ، فلا يمكن أن يتوقف الزمن عند فترة زمنية معينة ، وتتحول الحركة إلى جمود، والمصرى لم يعش بمعزل عن العالم ، وعاصمته الرئيسية حوت أخلاط من البشر من يونان ورومان وفرس وأحباش ، وكما ذكر "ولسن " داخل مصر كانت أشد الأفكار تباينا تتقبل بتسامح وتنسج معًا فيما نعده نحن المحدثين انعدامًا للنظام فى تضارب فلسفى ، ولكن بدا للقدماء متكاملاً، كان طريق المصرى هو أن يتقبل التجديد ، وأن يضمها تفكيره دون نبذ القديم، والقديم والجديد يرتدان معا كلوحة سيريالية للشباب والشيخوخة على وجه واحد" .

وإعتقد أن هذه العبارة تعكس حقيقة واقعة ، فالقديم والجديد يجتمعان معًا فى فكر المصرى ، بل وملامحه ، ولو نظرت إلى وجوه الفيوم التى تعود إلى القرون من الأول إلى الثالث الميلادى ، سنجد الملامح نفسها التى تحملها فى وجه صديق أو قريب رغم اختلاطنا بأجناس شتى ، فقد احتفظنا بخصائصنا الجنسية مع تعديلات بسيطة ربما من بشرة سمراء إلى بشرة حنطية إلى بشرة بيضاء، وخصائصنا الفكرية والجسدية إمتصت كل جديد واحتفظت بجوهرها ، والأمر نفسه نجده فى تكويننا النفسى والفكرى ، ستجد ملامح الماضى وتاريخه فى داخل الإنسان المصرى .

رغم ذاتية الفن القبطى سنجد الموروث والتأثير الفرعونى واليونانى ؛ ستجد السمكة والحمام والنخيل قد تحول إلى رموز مسيحية ، وسنجد ثوب الكتان المصرى

والذى حمل اسم القباطى قد تمت حياكته بزخارف ورسوم فرعونية ويونانية ، ومازال مستعملا الطرز نفسها فى النوبة وسيوة، وسنجد حلى كليوبترا وثعبانها الذى تزينت به إلى الآن مازال يزين معاصم النساء .

وحين دخلت المسيحية فى مصر قدمت نفسها إلى العالم ، فلقد واجه البطالمة بعد فتح الإسكندر لمصر شعبا له ذاتية وديانة وآلهة ترجع إلى آلاف السنين ترتبط بها حضارة قائمة على فكرة البعث والحفاظ على الجسد ، ليستطيع أن يستكمل رحلته فى الحياة الأخرى. ولقد فهم الإسكندر الأكبر هذا ؛ فكانت زيارته لواحة آمون لاستلهام النبوءة نوعا من التفهم لمشاعر المصريين ، وهو نفس ما حاوله البطالمة الأوائل ، فربطوا الآلهة المصرية بالآلهة اليونانية ، وخاصة الثالوث المقدس : إيزيس وأوزوريس وحورس ، وأوجدوا آلهة مشتركة كسيرابيس ، وظهر ملوكهم فى هيئة فرعونية وملكاتهم فى شكل إيزيس ، فهم لم يحاولوا فصل الشعب عن ماضيه الدينى لثقتهم بعد نجاحهم فى هذا ، فقد فهموا عمق التكوين الدينى للمصريين(٤٢) .

وكان مجتمع الإسكندرية مجتمعا كوزموبوليتن ، يعتبر عامل جذب لأعداد كبيرة من البشر، مصر كقطر زراعى غنى ، والإسكندرية كمركز ثقافى ومدينة تجارية لها بريق ، فجاء اليونان بالإضافة إلى تواجد أسيويين ويهود، وهذا المجتمع لم يكن قاصرًا على الإسكندرية ولكن امتد لعواصم الأقاليم كالفيوم وبطلمية ، وكان عليهم إيجاد ديانة توفيقية بين عبادات اليونان والعبادات المصرية ، لأنه لا يمكن نزع المصريين من معبوداتهم وتحويلهم إلى آلهة جبل الأوليمبس ، فقام بطليموس الأول بتكوين لجنة من الكهنة المصريين واليونان من الجانب المصرى الكاهن والمؤرخ مانتيون ، والجانب اليونانى ثيموثيوس ، ولكن كان لهذه اللجنة هدف سياسى محقق وراء الدافع الدينى وهى إيجاد قبول من كلا الطرفين المصرى واليونانى ، فكان ظهور الثالوث المقدس سيرابيس وإيزيس وهيبوقراط، سرابيس هو أوزيرابيس العجل وصور فى هيئة يونانية ، ولقد قرن أوزير أيضًا بديونسيوس، وبزيوس واسكلبيوس إله الطب ، وظلت إيزيس كما هى، هيبوقراط صورة أخرى من حورس برأس حورس الصقر وجسم التمساح سوبك ويظهر مرة مع الأوز ورع ، وهناك ربط بين هيبوقراط وهرقل ومرة أبوللو ووصف هيبوقراط بأنه حامى الطبقات الدنيا(٤٣).

ظلت الآلهة المصرية هى الغالبة ، بل إن الملوك أخذوا عن المصريين عاداتهم ، وهى عادة زواج الأخت والأخ وصور الملوك أنفسهم كملوك الفراعنة ، وصنع بطليموس صورة الإسكندر بقرنى الكبش رمز لآمون بدلا من هراكليوس، وقام بطليموس الثانى بتأليه والده ووالدته وزوجته وحملوا ألقابًا فرعونية ، وأعاد إنشاء قدس الأقداس بمعبد الكرنك وقاعة فى الكرنك باسم الإسكندر الرابع ، وبنوا معبدا لإيزيس فى فيلة وأوزوريس بكانوب ، فالتأثير المصرى كان هو الغالب .

ووصلت التأثيرات المصرية إلى الفن كما فى لوحة فى معبد الأقصر التى تصور الإسكندر ، وهى شبيهة بفن العصر الصاوى ، تصفه آلهة مصرية وخواص مصرية لآلهة إغريقية صورت الإله إيزيس برداء طويل ، وظهرت برنيكى الثالثة بشعر مستعار وغطاء المنكور ، وهى فى شكل إيزيس برداء طويل .

وظل الفن المصرى قائما ، فقد احتفظ المصرى بآلهته وفنه ، وإذا كانت هناك إضافات يونانية لحياة المصرى فكانت غير جوهرية ، فلقد حمل المصريون أسماء مشتركة بين المصرية واليونانية ، وبعضهم ظل على اسمه المصرى ، وبعضهم أو غالبيتهم ارتدى ملابس إغريقية ، فهناك تغيرات شكلية كالتى نجدها فى مقبرة بيتزوريس ، فالفلاحون المصريون يرتدون ثيابًا يونانية ، ويمارسون أعمالهم المعتادة مع إضافة بعض حرف جديدة كعصر العنب الذى كان المشروب المفضل لليونان بدلا من الجعة المصرية ، أما عاداتهم وتقاليدهم فلم يدخلها إلا تغيرات طفيفة، ومع دخول الرومان إلى مصر ظلت السيادة للآلهة المصرية رغم رفض أغسطس فى البداية للآلهة المصرية وتحقيرها ، ووصف المصريين بأنهم من عباد الحيوانات ، ولكن اشتهرت إيزيس حتى فى روما وأقيمت تماثيلها ، ولم يحاول الرومان عقد المزاوجة التى قام بها اليونان إلا قليلا، ولا توجد ممارسة لعبادات رومانية فى مصر فى ماعدا حالات قليلة لعبادة جوبتر وجونو بالقرب من الشلال، وكان معظم الجنود فى القرن الثانى فى الولايات الشرقية من أصول مصرية ، فمن الطبيعى أن يتعبدوا للآلهة المصرية. وكانت هناك معابد للأباطرة ، وكان ظهور آلهة روما على العملة لا تعنى عبادتها فى مصر، وظهر الأباطرة الرومان فى زى فرعونى ، والآلهة المصرية تستخدم فى الرقيات

والنبوءات ، ولقد أخذت بعض التماثيل شكل الوضع المصرى والرأس على شكل يونانى . مدرسة النحت الغالبة كانت المصرية ، والأقل مكانة اليونانية ، والتأثير المصرى ظهر كلما بعدنا عن الإسكندرية التى كانت مدينة ذات طابع خاص.

شواهد القبور ظهرت بمظهر يونانى بتفصيلات مصرية ولكن عليها رسوم ابن آوى أنوبيس، واستمر هذا فى العصر الرومانى وخاصة خارج الدلتا ، التأثيرات مصرية واضحة وتمثل أوزوريس على شواهد القبور(٤٤).

ولقد ظل المعتقد المصرى فى البعث والحفاظ على الجسد وتحنيطه قائمًا إلى القرن الثالث وبداية الرابع ، وكذلك وضع القرابين وتماثيل المتوفى التى تمثل روحه وقرينها للتعرف عليه فى العالم الآخر ، وزود المصرى بتمثال له ملامح الوجه ، وليجعل من السهل عليها أن تتعرف على التابوت ، فكان لابد من وجود صورة لصاحب المقبرة. وفى العصور الأخيرة من الحضارة المصرية وفى عصر الدولة الوسطى ظهرت طريقة لعمل الأقنعة تسمى الكارتوناج ، وهى طريقة عمل تماثيل من الخشب أو الحجر أو الجبس لرأس المتوفى بحجم طبيعى ، وينزل إلى الصدر كصدرية ، واستمر الكارتوناج فى العصر البطلمى ، حيث كثر التذهيب وتعددت الألوان ثم تطور فى العصر الرومانى حيث تم تلوين الأقنعة بألوان زاهية جدا(٤٥) .

ولقد اكتشفت فى الفيوم ومصرالوسطى والعليا وهواره والشيخ عبادة وجوه عرفت بوجوه الفيوم أو بورتريهات الفيوم ؛ وأغلب المدن التى وجدت بها كان سكانها خليطا من اليونان والرومان ومصريين. وعملية الإندماج أوضحت مدى التأثر بالروح المصرية واستمرار الموروث المصرى ، فالرومان لم يكن التحنيط والحفاظ على الجسد وفكرة البعث شغلهم الشاغل ، بل اعتاد بعض الرومان حرق جثث الموتى .

ورغم أن السكان فى بداية الفترة الرومانية كان خليطا فى العواصم ، ويغلب عليهم العنصر اليونانى الرومانى ، فلقد اعتنقوا التقاليد المصرية فى الدفن والقائمة على التحنيط ، فلقد ظل المصريون يحافظون على تقاليد الموت والدفن وأهمها التحنيط وما يصاحبها من عادات، ولكن دخلت إليها تأثيرات يونانية ؛ وهى رسم صورة المتوفى ، سواء كانت الملامح مرسومة على ألواح خشب أو مضغوطة فى الشمع على

هيئة أقنعة أو رسم على الكتان، وتلك الرسوم تتسم بملامح عامة فى غالبيتها ؛ وهى العيون الواسعة والشفاة الصغيرة والوجه البيضاوى، وصور أصحابها أو غالبيتهم فى مرحلة الشباب ، وغالبًا ما رسمت الصورة فى أثناء حياة أصحابها ، أما الذى رسم على الكفن الكتانى فكان بعد الوفاة ، وكذلك ما كان منها يحمل إكليلاً وكأسًا ترمز للموت .

هذه الصور تطوير للتماثيل القديمة، وصور الفيوم تأكيد لتلك الفكرة ، واللوحة هى الجزء المتمم للمومياء ، والوجوه فى غالبيتها مصرية ، فهناك صور وجوه مصرية الملامح تستطيع أن تجدها فى وجه أى مصرى مَمَنْ تلقاه اليوم فى الطريق[٤٦] .

وقليل منها حمل ملامح أجنبية كصورة لفتاة أطلق عليها الأجنبية، فتاة بلون بشرة وردى، وفتاة أثيوبية بملامح وطراز شعر أفريقى ، وبعضهم بملامح يونانية ، أو خليط من مصرية يونانية هذه النماذج من وجوه الفيوم تعكس سمات أساسية :

١ - أولا : هى دلالة على إستمرار فكرة المصرى عن البعث والخلود فى الحياة الأخرى ، والحرص على الجسد البشرى ، إشترك فى هذه المنظومة وتأثر بها إلى جانب المصريين اليونان والرومان.

٢ - أن هذه الشواهد وتلك الجثث التى تم تحنيط جزء كبير منها لأفراد وثنيين ، وبعضها لمسيحيين ، ولقد إستمر هذا إلى نهاية القرن الثالث ومنتصف الرابع ، ولقد حملت الأكفان والتوابيت علامة عنخ وهى رمز الصليب ، وهى علامة الحياة الفرعونية ورموز عديدة بعضها فرعونى كأنوبيس وأوزوريس والصقر حورس ورموز يونانية ، وهى عملية الانتقال بين ما هو وثنى ومسيحى ، وقد تداخلت فى بعضها البعض، ومن الصعب تحديد نسبته ، فلقد ظل هذا التقليد سائدًا إلى أن تدخلت الكنيسة المسيحية ومنعت التحنيط كأحد رموز الوثنية فى إبقاء الجسد وصوره وتماثيله، ولقد جمعت الصور بين التأثيرات المصرية الأصلية ، بالإضافة إلى الطابع اليونانى ، فصورة على شاهد قبر تجمع بين التأثير المصرى واليونانى وهى صورة عرفت بالفتاة الذهبية ، وهى فتاة تلبس تاج شعرها مصفوف للخلف كطريقة إيزيس ، وترتدى شالاً على كتف عارى شبيه بأفروديتو [٤٧] .

وفى شاهد آخر صورة لإيزيس ترضع هيبوكراتيس من القرن الثالث فى رسم من كرانيس فى الفيوم ؛ وهو وضـع شبيه بالعذراء ترضع المسيح الطفل (٤٨) .

ويشير هيرودت أن من عادات المصريين بعد إعداد المومياء للدفن أن تعطى المومياء إلى أصدقاء المتوفى حيث يقومون بإعداد وجه خشبى شبيه بالميت ثم يغلقون الصندوق عيله .

ولقد حدث تطور فى طريقة الدفن ، فبعض جثث الأموات لم تكن تدفن بعد الوفاة مباشرة ، بل أكد فلاندز بترى أن بعض المومياوات دفنت بعض فترة من موتها ، وتم الاحتفاظ بها فى المنزل فترة ، ويذكر ديودور الصقلى أن المصريين بعد إعداد المومياء كان الميت يعاد إلى أقاربه فيضعون جثث أسلافهم فى غرفة واقفين (٤٩).

وأشار بترى إلى وجود مقبرة رومانية فى هوارة "أرسينوى" وأن التوابيت وضعت بطريقة مهملة وأنهم دفنوا بعد فترة من موتهم (٥٠) لمدة جيلين أو ثلاث حتى نسى الشخص من الذاكرة، وأن المومياوات تآكلت بفعل الماء أو التراب، وكان المصريون فى احتفالاتهم يضعون الجثة فى صالة فى المنزل أوغرفة Necropolis ، فهناك مومياوات مكتوب عليها بالديموطيقية تعود لفترة الرومان ، لها تاريخىّ وفاة ، ودفن بينهما فرق ٧٠ يوما ، ودفن الجثث فى المنازل لم يعرف فى مصر على نطاق واسع إلا فى العصر الرومانى ، فهو إضافة إلى التقليد المصرى فى الدفن مع إضافة الوجوه على الطراز اليونانى ، ولما جاءت المسيحية اعترض على التحنيط أثناسيوس والقديس أنطونيوس ، واعترضوا على تحنيط البطاركة والشهداء والقديسين ووضعهم فى أسرة، وأتباع أثناسيوس دفنوه بناء على طلبه فى مقبرة سرية(٥١). ولكن يلاحظ أن تلك الشواهد تربط بين فترات زمنية عديدة ، فهى إنتقال من الفرعونى إلى التأثيرات اليونانية إلى المسيحى ، ففى تلك الأكفان والشواهد وفى مقابر الشيخ عبادة تم الدمج بين العناصر المختلفة الصليب، وعنخ الدائرى والشكل المسحوب وهو يشبه علامة chi-Rho ؛ وهى علامة ترمز للمسيح ، الأمر نفسه وجد على النسيج المسيحى القبطى ، فبدت رموزًا وثنية ، ثم حملت نفس الرموز طابعًا مسيحيًا ، فالكروم مرتبطة

بالمسيح ، وكانت فى الوثنية مرتبطة بديونيسوس ، ويرى الميت وفى يده اليمنى يحمل Gesture وهى حلية مسيحية .

ولقد أخذت الأيقونات البيزنطية الملامح والمظهر لتلك الصور التى كانت على شواهد القبور ، أو مجموعة الوجوه الشهيرة ببورتريهات الفيوم ، فظهرت الوجوه بهذا الوجه البيضاوى والعيون الواسعة ، وبعض النماذج للبورتريهات لا تختلف فى أى تفاصيل عن الوجوه البيزنطية المسيحية للفترة التالية ، هذه الإزدواجية بين القديم والجديد تصل للماضى وتبعثه فى جسد الحاضر، ففى القرون الثلاثة الأولى تداخلت عوالم مختلفة مصرية فرعونية ويونانية مسيحية، فاليونانى اعترف بالفرعونى وتأثر به ودخل فى إطاره، والمسيحى كان فى مرحلة الانتقال ، فلم يستطع أن يمحو الماضى، ولكن ولد على أرضه . فمومياوات الفيوم منحتنا هذه الانطباعية الإنسانية والفكرية، فالملامح مصرية فى غالبيتها ، والرداء يونانى ، والبورتريه رسم الوجوه على النموذج اليونانى ، والميت يقف بين أنوبيس وأوزوريس ، ويمسك بعلامة عنخ التى تحولت إلى صليب المسيح والحمامة والعنب والسمكة تحولت إلى رموز مشتركة(٥٢) .

وهذا نفس مانجده فى بدايات الفكر المسيحى، فالرموز الدينية المصرية الفرعونية من ثالوث مقدس وحورس المقاتل ، وعلامة عنخ أصبحت خلفية لما جاء وإستمرارية ليس بها انقطاع ، وهو ما تقبله فكر المواطن المصرى البسيط فى الريف.

وفى الإسكندرية مدينة الثقافة والفكر ، وعلى مستوى أكاديميتها ومدارسها الفكرية وفلاسفتها أخذت المسيحية من خبرات وتجارب فلسفية سابقة ، وناقشت العلاقة بين الله والإنسان فيما قدمه فيلون والأفلاطونية الحديثة، وظهرت المدرسة الفلسفية المسيحية ، والتى تأثرت بالأفلاطونية المحدثة، وكان من أساتذتها النابهين أورجين وكلمنت ، وكان هناك وثنيون ومسيحيون من تلاميذهم ، التقت فيها عوالم حضارية مختلفة مصرية ويونانية ، فكر وثنى ومسيحى ، فيأخذ الفكر المسيحى من الفلسفة ما يقبله ويرفض ما لا يتلاءم معه.

وما ذكره فورستر يعتبر خير طرح لهذه الفكرة : " لم تأت المسيحية فجأة فى سماء مصر كعصف رعد، ولكنها انسلت إلى الآذان التى كانت مهيأة بالفعل ، فهى لم تكن من الناحية الشعبية ولا من الناحية الفلسفية عقيدة بعيدة "(٥٣).

المسيحية لم تكن غريبة على المستوى الشعبى المصرى ولا على المستوى الفلسفى للإسكندرية ، فعلى مستوى الفكر السكندرى يرى البعض أن الديانة المسيحية فى أولها ديانة بسيطة بلا تعقيد ولا فلسفات ، وعندما قدمت نفسها للفقراء ولغير المنتمين للطبقات العليا فى فلسطين ، وبمجرد وصولها إلى الإسكندرية تحور طابعها وبلغت نقطة تحولها إلى الطابع الدنيوى(٥٤) .

فقد كان السكندريون مثقفين إلى أبعد الحدود ، وكانت لهم مكتباتهم التى جعلت كل حكمة البحر المتوسط فى متناول أيديهم ، لذا كان من المحتم أن يأخذ إيمانهم طابعًا فلسفيًا ، وكانت المشكلة المطروحة – والتى شغل بها الفكر فى الإسكندرية – الصلة بين الله والإنسان ، وأخذوا يتساءلون السؤال نفسه عن الدين الجديد، وهو بالتحديد : ماهى الصلة بين الله والإنسان؟ .

" فيلون " المفكر اليهودى قد قال : هى الكلمة اللوجس،أفلوطين صاحب مدرسة الأفلاطونية المحدثة عندما سئل: قال هى الفيض ، الدين الجديد "المسيحية" أجاب : هو المسيح .

لم تطرح المسيحية شيئًا يصدم التفكير السكندرى*، أو فكرًا غريبًا ، فالمسيح كان الكلمة وهو – أيضًا – نشأ من الأب ، وتجسده وتجسيده للجنس البشرى من خلال المعاناة . وهذه الأفكار لم تكن غريبة عن الناس فى الإسكندرية ، وحتى الخلافات أو الصراعات المذهبية فى الكنيسة المسيحية فيما بعد كلاهما تحور حول القضية التى كانت مطروحة من قبل الصلة بين الله والإنسان ، ودارت حول طبيعة السيد المسيح .

ولقد سأل الفكر السكندرى هذا السؤال حوالى ٣٠٠ م وكانت نتيجتها هرطقة أريوس ، ثم سألها مرة حوالى ٤٠٠ م فأنتج هرطقة النساطرة ، وفى ٦٠٠ م كان

التساؤل الثالث الذى أنتج هرطقة وحدة الإرادة والمشيئة ، وعلى المستوى الشعبى نجد شبه إجماع بين المؤرخين والكتاب، سواء كان " ول ديورانت " أو جيبون ، فورستر ، جمال حمدان ، مراد كامل ورؤوف حبيب إلى أن فكرة الخلود والتوحيد ورموز عديدة من الديانة القديمة وما ورثوه من التقاليد والآراء الفكرية فى العصر الوثنى عدت أسباب لتفهم بعض معانى الديانة الجديدة واستساغة تعليمها والإقبال عليها بشكل لم يتوفر لسكان الأقطار الأخرى (٥٥).

ويذكر رؤوف حبيب فى كتابه تاريخ الرهبنة أن هناك بعض الحقائق الأصلية فى الديانة المسيحية وما كان يوازيها فى ما وصل إليه أن العقل المصرى القديم فى نضاله الطويل للوصول إلى قواعد الديانة المصرية فى أدوارها المتأخرة ، ففكرة البعث وخلود الروح والثواب والعقاب فى العالم الآخر كان أساس الديانتين، والثالوث المقدس فى المسيحية يقابل الثالوث المصرى القديم إيزيس وأوزوريس وحورس، كما كانتْ هناك ثوابت محلية أخرى كثيرة ، وفكرة ولادة الإله من عذراء بكر يقابلها فكرة ولادة الإله أبيس من عجلة بكر يحمل منها روح الإلهة بتاح ، والعماد بالماء المقدس معروف فى الديانتين ؛ عنخ على شكل الصليب الذى هو رمز الخلود عند المصريين القدماء ، فيلاحظ أنه فى أيدى آلهتهم على الدوام ، وهى رمز للحياة ، إيزيس وحورس يصبحان العذراء وابنها ، لقد استعادت كثيرا من رمزيتها فى الفن الشعبى ،(٥٦) وحورس وهو محارب صغير يضرب الأفعوان ست شبيه القديس جورج ومارجرجس ، فليس عجيبا أن يقبل المصريون على المسيحية ، وكذلك الرهبانية لم تكن غريبة عن الفكر المصرى ، فالمبادئ المصرية القديمة وما تحويه من صور الفلسفات الدينية المختلفة والفضائل والأمثال والحكم العديدة التى اتسمت بالميول التنسكية التى انطوت عليها ووجدت أرضا خصبة واستمرارية فى نظم الرهبنة واتفاقًا مع طبيعة المصرى .

وبالرغم من أن المسيحية فى رأى د. جمال حمدان قامت بعملية قطع مع الماضى الفرعونى وأغلقت المعابد ، ولكن جذور الفكر الدينى القديم والتى مهدت لتقبل الدين الجديد ظلت آثارها فى الفن واللغة والعادات ، فأورجين أحد آباء الكنيسة وأحد

أساتذة مدرسة اللاهوت المسيحى فى كتابه "المبادئ الأولى" . وهو كتاب فلسفى منظم للعقيدة المسيحية ، وفى كتابه الشذرات أخذ على عاتقه أن يثبت للجميع فكر العقيدة المسيحية بالرجوع إلى كتابات الفلاسفة الوثنيين ، واستعان بالطريقة الرمزية الاستعارية التى استطاع بها الفلاسفة الوثنيون التوفيق بين أقوال هومير وبين ما يقبله العقل المنطقى ، والتى بها وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة اليونانية (٥٧).

ومن أقوال أورجين فى هذا المعنى : أن من وراء المعنى الحرفى لعبارة الكتاب المقدس طبيعتين من المعانى أكثر عمقا ؛ هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى لا تصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة ، وكان يرتاب فى صحة ما ورد فى سفر التكوين ١- ٢ حيث فهم بمقتضاه الحرفى .

والله عند أورجين ليس هو يهوه ؛ بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء ، وليس المسيح هو الإنسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الأب وجعله خاضعا. والنفس عند أورجين كما عند أفلوطين تنتقل فى مراحل وتجسيدات متتالية قبل أن تدخل الجسم، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متتالية إلى أن تصل إلى الله ، وتأثر أورجين بالفلسفة الرواقية والفيثاغورثية الحديثة والأفلاطونية الحديثة. لكنه كان مسيحيا استخدمها أولا فى تفسيرات دينية ، وكان أورجين مصريا ، وكان عدد من الفلاسفة الذين تأثر بهم من المصريين كأفلوطين من أسيوط.

وكانت روح التسامح فى البداية واضحةعلى المستوى الثقافى بين المفكرين الوثنيين والمسيحيين ، الاختلاف على مستوى الجدل الفكرى ، ومدرسة أورجين كان بها وثنيون تحول بعضهم إلى المسيحية .

هذه الصورة غير المألوفة أثارت اهتمام هدريان حين حضر لمصر ولم يستطيع فهم فحواها ، فوجد الديانات العديدة تتعايش على المستوى الفكرى ، ووجد طلاب المدرستين الوثنية والمسيحية يتلقون العلم عند المسيحيين ، والفكر المسيحى أخذ من الفلسفة اليونانية عملية التواصل هذه لم يستوعبها الإمبراطور فذكر فى رسالة إلى

صديقه سريانوس : " استقصيت أحوال مصر واستقرئت عوائدها واطلعت عليها اطلاعها كليا وكنت فى بادئ الأمر أصفها بالمدح وأتحاشى ذمها فتبين لى بعد التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر ، فهى طائشة لا تدوم على حال ولا تنفك عن المشاغبة والمنافرة ولا سيما فى أمور الدين ، وما يتولد منها على أن من لم يعبد الشمس والعجل أبيس عد نصرانيا مع أنه ليس كذلك ، بين الأسقف وحاخام اليهود وكل قسيس أو راهب أو عامى له فى الشمس أو فى العجل احترام ويغلب على فكرته أنه لو أتى بطريرك النصارى الخارج عن ديار مصر داخل مصر لشارك أهلها فى التمسك بهذه الاحترامات الدينية ، وربما اعتقد أن العجل والشمس والمسيح إنمّا هم أسماء مترادفة وأنها فى الحقيقة شيء واحد " (٥٨) . هناك أمر جدير بالدراسة وهى عملية الخروج من الوثنية إلى المسيحية، وفى كلتا الحالتين قوبلت بعنف ثم عنف مضاد ، عملية الانسلاخ من الماضى لم تكن سهلة وارتبطت بعنف ، وكان طبيعيا أن تخلى المسيحية المنتصرة الساحة من الأثر الوثنى ، ولكن لم تمح فنون وحضارة العالم القديم، وبالنسبة لعملية التحول من الوثنية إلى المسيحية ورغم وجود رموز سهلت عملية التفهم عند عامة الشعب فلا نتوقع من المصريين أن يتخلوا عن المعتقد القديم كلية ، ولقد جوبهت المسيحية بالرفض فى البداية بل وبالعنف حين بدت سماتها (٥٩)، ولقد اختلف المؤرخون فى تحديد أول العناصر السكانية تقبلا للدين الجديد.

يرى ول ديورنت أن معظم من اعتنق الدين الجديد من الطبقات الدنيا بينهم عدد من الطبقات الوسطى وعدد أقل من الأغنياء ، ومع ذلك لم يكونوا من سفلة الناس كما يدعى Celsus ، وكانوا يمدون الجماعات المسيحية الدينية الفقيرة بالمال ، ولم يسعوا لكسب سكان الريف فلم يعتنق هؤلاء الدين الجديد إلا آخر الأمر فى حين يرى فورستر أن تقدم المسيحية ظل زمنا طويلا مقصورا على مدينة واحدة كانت فى حد ذاتها مستعمرة أجنبية، ويرى أن أسلاف الأسقف ديمتريوس فى نهاية القرن الثانى هم الأحبار الإغريق فى أيام خلفه هرقلاس، أما جمهور المواطنين وهم شعب يتميز بالصلابة الكئيبة فقد استقبلوا الدين الجديد بفتور واشمئزاز ، وكان من النادر حتى فى أيام أورجين Origen أن تلتقى بمصرى تغلب على الحب القديم للحيوانات المقدسة

فى بلده ، والحق أنه طالما احتلت المسيحية العرش امتلئت حماسة هؤلاء المتبربرين للرأى المقنع السائد وزخرت مدن مصر بالأساقفة وعجت صحراء طيبة بالنساك"[٦٠] ، وهـذا القول فيه تحيز واضح ضد الشعب المصرى ، فلم يكن طائفة من المتبربرين بل شعب معتدل الطباع وكان سلسا ارتبط بعبادات ترجع إلى آلاف السنين ، وارتبط بماضيه وتراثه، ولم يكن سهلا انفصاله عن ماضيه بسهولة ، ونستطيع القول إن المسيحية بدأت بالإسكندرية منذ القرن الأول ، وهنا الاستجابة اختلفت وفقا لثقافة الفرد ، فطبقة المثقفين من الوثنين واليهود والعناصر المصرية واليونانية استجاب جزء منها للمسيحية وما تطرحه من فكر عن علاقة الإنسان بالله ، وأدى إلى ظهور مدرسة لاهوتية مسيحية استخدمت الفلسفة فى توضيح آرائها ؛ وهذه المدرسة لم تستخدم العنف بدليل وجود طلبه وثنيين واعتناق بعضهم للمسيحية، ولقد وجدت هذه المدرسة مؤيدين من الطبقة الوسطى ، وبعض العامة فى الإسكندرية، ويقابلها جموع من العامة التى تمسكت بوثنيتها ، ولم تستطع التقبل الفورى للدين لعدم فهمها لطبيعته، بل إنها بدأت فى مهاجمة المسيحية قبل صدور قرارات الاضطهاد، و يتضح هذا فى قيام الغوغاء بقتل القديس مرقص والموقف ضد أورجين "، كان يغلى مرجل الاضطهاد نحوه يوما بعد يوم حتى لم تعد المدينة كلها تطيقه، ولكنه كان ينتقل من بيت إلى بيت وكان يطارد فى كل مكان بسبب الجماهير الغفيرة التى كانت تتلقى التعاليم الإلهية التى قدمها "[٦١].

وكما ذكر يوزبيوس كانت قرارات الاضطهاد التى تصدر ضد المسيحية : " كانت تنزل على مدينة الإسكندرية بالدرجة الأولى والتى يتضح أنها عانت من قرارات الأباطرة بالاضطهاد أكثر من غيرها "[٦٢].

أما فى الريف فإنه كان من الصعب على جموع العامة ترك معتقدهم القديم ومعبوداتهم بطريقة فورية ، بل إن البعض استغل الوضع وقام بإثارة العامة ضد المسيحيين بسبب رفضهم للعبادات وإهانتهم للآلهة، وكما يقول يوزبيوس ": ولم يبدأ الاضطهاد بصدور أمر ملكى بل سبقه بسنة كاملة أن مخترع ومصدر الشرور هذه

المدينة أيا كان، فرض وهيج ضدنا جماعات الأمميين " [٦٣] ، ولكن مع ازدياد أعداد رجال الدين المسيحى بالإضافة إلى ما قدمته الرهبنة من نموذج للرجل المتعبد المتبتل ومع وجود الرموز الدينية القريبة من معتقدهم القديم حيث كانت سمات التشابه عديدة .

وصلت الاضطهادات التى بدأت فى العاصمة إلى سكان الريف ، فقوائم الاضطهاد تشمل مسيحيين من كل الفئات والمستويات ، وفى كل مدينة صغيرة وجدت كنائس ورجال دين. بردية تعود لعام ٣٠٠ م ذكر فيها معابد وثنية لسرابيس وإيزيس وسيزاريوم ، ووجدت كنيستان فى القائمة إحداهما توصف بالكنيسة الشمالية وأخرى بالجنوبية " ، وربما ترجعان إلى فترة سابقة ودمرت فى فترة اضطهاد دقلديانوس . ومع انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين والاعتراف بها كديانة مصرح بها ، ثم ديانة رسمية فى عهد ثيودسيوس تم اتخاذ موقف معادى للوثنية ، وتدمير لمنشآتها من معابد وتماثيل ومراكز ثقافية كالسرابيوم ، حيث ربطوا بين الثقافة اليونانية والوثنية.

وإذا كانت المسيحية باعدت بين الماضى وحاضرها لأنه فى نظرها يرتبط بالوثنية ، فالحقيقة أن الماضى ظل حيا فى وجدان المصرى ، فى لغته الجديدة القبطية، فى فنه ، فى عاداته، فلقد ظل الفن القبطى يستمد ينابيعه من الفن المصرى مع تأثيرات قبطية كما فى كوم الشحات فى الإسكندرية، والتأثير المصرى يبدو واضحا كلما بعدنا عن الإسكندرية، وفى المتحف القبطى شواهد قبور مسيحية توضح التأثير المصرى الذى ترك جذوره، فشاهد قبر يعود غالبا للقرن الرابع يكون الجزء العلوى على شكل الجمالون، وقد زخرف بدائرة ترمز إلى الشمس فى السماء وحولها زخرفة نباتية ، وهذا الرمز مقتبس من الفن الفرعونى ، وهناك مستطيل مقسم إلى ثلاث مساحات بداخل كل منها صليب ، ولقد حفر الفنان الصليب الأوسط على شكل علامة عنخ، كذلك ظهرت أوراق اللوتس كوحدة زخرفية [٦٤].

ولقد ذكر الأنبا جريجوريوس فى مقدمة كتابه "الكنائس القبطية " فى الكنائس القديمة والأديرة فن يشهد بأنه امتداد للفن المصرى القديم ، فقد احتفظ الفنان القبطى فى التصوير والرسم التشكيلى والنحت، وكذلك فى صناعة السجاد وفنون

التطريز المختلفة بالخصائص التى تميز بها الفن المصرى القديم ، ومن بعض التأثيرات غير القبطية التى وجدت فى مجالها تحت ضغط الظروف المحيطة " (٦٥) ، ونحن لا نزال نجد فى الكنائس القديمة(٦٦) والأديرة صورة عنخ أى مفتاح الحياة، مرسوما على الجدارن كما كان يرسمها المصريون القدماء فى معابدهم ومقابرهم ، ولكنه صار فى العهد المسيحى يحتوى فى داخله على صورة المسيح أو صور العذراء مريم تحمل المسيح طفلا على ذراعها الآخر، أو صورة الصليب القبطى مما يدل على أن الفنان القبطى وقد صار مسيحيا لم ينس مصريته ، وإنما ظل محتفظا بخصائص الفن المصرى ، غير أنه ألبس الرموز المصرية القديمة لباسا مسيحيا وحولها إلى رموز مسيحية، ولكنها فى الوقت نفسه هى رموز قبطية مصرية .

كذلك رسم الفنان القبطى عيون القديسين متسعة تعبر باتساعها عن الطهارة والنقاء والبراءة والصفاء الروحى ، مما كان واضحا فى الرسوم المصرية القديمة وعلى الآثار فى المقابر والمعابد ، فاحتفظ بها الفنان القبطى فى رسمه للمسيح وللعذراء وسائر القديسين ، ولكن القول فيما يختص بفن العمارة والخصائص التى كانت تتميز بها العمارة الفرعونية فى المعابد فقد احتفظ بها الأقباط فى بناء كنائسهم القديمة وأديرتهم، كذلك يمكن التعرف على خصائص واضحة فى العمارة مثل سمك الحوائط وقلة الفتحات والنوافذ ورموز الزخارف الظاهرة على الأفاريز والنوافذ المغطاة بالزجاج الملون، بحيث يتوافر للكنيسة الضوء الخافت الذى يثير الخشوع والرهبة للصلاة كما يعكس الصور الدينية بأسلوب روحى ، فسمك الحوائط كان فى المعابد المصرية القديمة كما فى الكنائس القبطية والأديرة وله حكمه وفلسفته ؛ فهو وسيلة مناسبة لتكييف الهواء(٦٧).

العمارة القبطية احتفظت بروح الفن الفرعونى وبعناصره وما طرأ عليها من تحويل ؛ فإنه لم يمس إلا مظهرها فقط فى حلقة أخيرة اكتملت فيها حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية لمصر . وكما كان الفن المصرى يرتبط بفنون الدين ويلازمها فقد احتفظ فى العهد المسيحى بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة وخاصة ما كان منه متصلا بالرمزيات والتقاليد

والحياة اليومية والجنائزية والأعياد وغيرها، ولو تخيلنا مدينة فى الفترة المسيحية لوجدناها تشبه فى تخطيطها المدن المصرية القديمة فى الصعيد حيث يندر المطر، وكانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربى الأقصر وفى الوجه البحرى كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى كما عرفناها من مدينة أبامينا " القديس مينا " بالصحراء الغربية (٦٨).

وكان التصوير السائد فى العصر القبطى يسير على الطريقة التى توارثت منذ أقدم العصور فى مصر ، وهى طريقة التصوير بألوان الأكاسيد الفرسك على الحوائط المغطاة بطبقة من الجبس، ولقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الرومانى فى وجوه الفيوم ، واتخذ الرسم فى الفترة التالية رموزا مسيحية ميزت الفن المصرى ، فقد رسموا المسيح طفلا بوجه كبير لا سذاجة فيه ، وتحاشوا أن يرسموا ظلالا على الوجه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان، ورسم زخارف ثمار الرومان، وهذا يدل على ارتباط المصرى قديما وحديثا بخواص البيئة المصرية والأقاليم المصرية، ولا يزال الرومان ينسبون إلى منفلوط، وأصول الزخارف الحيوانية ترجع إلى مصر الفرعونية وتبين استمرار ووحدة الفن المصرى فى عصوره المختلفة كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطى تحيط به أدواته بشكلها المعروف فى مصر اليوم(٦٩).

التصوير القبطى فى رسمه الدينى لصور الموتى يحاول دائما أن يظهرهم فى صورة الأبطال فرسمهم تارة منتصرين وحولهم منهزمين وتارة حولهم الرموز والشارات للأرواح السحرية التى يقضى عليها ويخفيها ، وكما كان يميز صور الميت وهو واقف أمام معبد أوزوريس ، كذلك كان يرسم صور القديسين فى منظر احتفال ويضع فى يد القديس كما يضع فى يد الميت رمز الإيمان .

ومن هنا يتضح أن فكرة رسم القديسين مع المتوفى مأخوذة من الصور الجنائزية المصرية ، ولما اعترف بالدين المسيحى وأصبح دين الدولة الرسمى فى عهد الإمبراطور ثيودسيوس ٣٩٥ م أراد الأقباط أن يحتفظوا بصورة الميت على مقبرته ولم ينسوا الرموز والتميمات المصرية ، كما اتخذوا لهم أشياء خاصة توافق الدين

المسيحى ، ثم راح الأقباط يكثرون من رسم هذه الرموز فرسم الميت ومعه التميمة المقدسة (٧٠).

وفى مقابر البجوات المسيحية نجد الاستمرارية والامتزاج فى الفنون ؛ فالمصرى لم يكن جامدا مرهونا ومربوطا بماضية فقط، ففى البجوات وصل إلينا الفن الهلينستى مع القصص المسيحى والفن المصرى القديم،ونجد مثلا فى إحدى كنائس البجوات وهى ترجع للقرن الرابع(٧١) ، وتمثل تدرجا فنيا يشمل زخارف متنوعة مأخوذة من الرسوم الحائطية ومن فضاء الأرضية ورسوم الأقبية من الفن السكندرى وكذلك من كنائس روما مثل كنيسة Saint Censtance التى ترجع إلى القرن الرابع، فنجد فى أحد الكنائس بالبجوات الدائرة الفلكية ترفعها أربعة ملائكة، وهى توضح مدى التأثر بالتقاليد المصرية القديمة ، إذ نجد شبيها لهذا الموضوع فى معبد دندرة ، إذ نجد أربعة آلهة مصرية ترفع أركان الدائرة الفلكية، ومن المناظر الشائعة عند الأقباط كذلك منظر القديسات اللاتى يحملن إكليلا به صلبان يتدلى منها صور لأشياء أخرى ، ولعل الأصل الذى أخذ منه هو صورة هذه القديسات هو الآلهة Schouair الذى يحمل نون آلهة السماء .

إن الفن المسيحى عامة والفن القبطى خاصة يخلط دائما بين التقاليد والعادات والأساطير القديمة وبين العقائد والقصص الدينى ، وكما كان المصريون القدماء يهتمون بالزراعة وشهورها فقد امتد هذا إلى الكنيسة ، فقد اهتمت بصلاة خاصة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طمى وماء ، ونظمت هذه الصلوات لتستمر مع الفصول الزراعية وهو ما كان موجودا من قبل بالاهتمام بالزراعة، ولقد ظلت الاسماء المصرية فى الفترة المسيحية تجمع بين خليط من الأسماء الفرعونية واليونانية الوثنية ، فحمل رجال الكنيسة أسماء كديونيسوس وهو البطريرك أيام فاليران ٢٥٤ م ، وميناس اسم فرعونى وهو للقديس الشهير ، وأمثلة عديدة كالقديس آمون وفيبامون سرامون وسرابيس أبوللو وأنوب من أسماء القديسين الشائعة ، ولقد أدى هذا إلى الشك أو خلط البعض فى مصرية حاملى هذه الأسماء ، فينسبون مشاهير العلماء أو القديسين المصريين إلى اليونان لمجرد أن الاسم أصله يونانى(٧٢) .

يشير مراد كامل إلى صلاة الطشت ، حيث كانوا يختارون اسما للوليد ويختارونه من أسماء القديسين والشهداء أو اسم القديس الذى يولد الطفل فى يوم عيده أوذكرى استشهاده ، والبعض يختار سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التى تستمر مضيئة إلى آخر الحفل يصبح الاسم المخصص اسما للوليد ، وكان القديسيون أحيانا من أصول يونانية أو مصرية مما جعل التفريق بين جنسيات أصحاب الأسماء من الصعوبة بمكان ومازال الاحتفال بيسوع المولود فى اليوم السابع(٧٣) .

الاستمرارية والربط بين القديم والجديد واضحة ، فالأصل مد لجذوره فى عالم المسيحية ، وظل مستمرا فى اللغة والفن والعادات والتقاليد فى الأفراح والجنائز وعادات أربعين الميت، والاستخارة ، واللجوء إلى الآلهة تحول إلى تبرك بالقديسين ، ولكن الفكر المصرى لم يكن جامدا ، فلقد أخذ عن غيره وأضاف سواء فى العصرين الرومانى واليونانى ، وطور نفسه وفقا للعقيدة فالجذور ظلت فى الأساس لم تقتلع ، إنما نمت جزوعا وأغصانا بالغة مع بقاء الجذر .

ولقد عدنا ننظر إلى ماضينا الفرعونى بفخر كأحد المنجزات العظيمة ، وظلت المسيحية قائمة إلى جانب الإسلام ، وعملية التتابع الحضارية هى التغير الصحيح . وكما أكدت نظريات علم النفس الماضى القاعدة التى يبنى عليها جدار الحاضر والزمن ، والتاريخ لا تقطعه فترات إنما هو حلقات متصلة مستمرة .

الاعتدال :

الاعتدال أحد السمات المميزة للشعب المصرى، فهو شعب وسط لا نجد فيه عنف أهل الجبال وحبهم للثورة ، وأرجع البعض ذلك إلى الطبيعة الجغرافية لمصر ولواديها وأرضها السهلة المنبسطة وارتباطها بمواسم زراعية ومواعيد جعلته مرتبطا بالله ومؤمنا بالقدر ، ولا يجنح للعنف ويميل إلى العزلة .

ولكن البعض رأى فى تحليله للشخصية المصرية أنها تجاوزت حد الاعتدال إلى السلبية والخضوع بل والمذلة، وللدكتور د. جمال حمدان رأى فى هذه السلبية حيث يرجع بجذورها للعصر الفرعونى وقد اعتبر الفرعون ضلعا أساسيا فى مثلث الإنتاج الزراعى الماء والشمس فتحول الفرعون ، إلى الملك الإله بصفته ضابط النهر وبصفته الملك المهندس، ولم يكن غريبا أن يظهر حكم الفرد الأوتوقراط الصارم وأن الحكم الأوتوقراطى المطلق وضع أسس الحضارة المصرية وأرسى دعائمها، غير أنه لم يلبث أن تعدى هذا الحد إلى القهر السياسى والاجتماعى ، وأصبح الملاك فى الريف يكونون شبكة من الطغيان الصغيرالتى تناظر الطغيان المركزى، وفى رأيه أن الإقطاع هو القاعدة الأصولية والاستغلال المطلق ، ولقد كانت السخرة والكرباج والتعذيب من وسائل الإرهاب منذ الفراعنة وحتى العثمانيين، وكانت تتدرج على كل المستويات وأنها طفيليات بشرية أزمنت فى كيان المجتمع المصرى، وساعد على ذلك صغر المساحة وصرامه الحدود ؛ فأرض مصر كالزقاق المغلق سهل متواضع ليست فيه معاقل للالتجاء أو ضروب للهرب مما تعرفه البيئات الجبلية والصحراوية، ولم يكن من مهرب له إلا البرارى ومستنقعات الشمال المنعزلة، أوكما حدث أثناء مذابح واضطهادات المسيحية كعهد دقلديانوس وما الاضطهاد الدينى إلا صورة متخصصة من قاعدة الطغيان ، ولم يكن ملجأ إلا أطراف الصحراء كما كان فى الصعيد حيث الأديرة والصوامع المعزولة، وإمكانيات الهجرة الداخلية محدودة مما مكن للطغيان المحلى أن ينفرد بالفلاح ، وأن طبيعة الإقليم جعلت المجتمع أشبه بمجتمع النحل يلغى الفردية ويفرض التنميط الجمعى أو التقارب السلمى وغريزة القطيع ويركز ويجعل السلامة فى الخضوع (٧٤).

ويؤكد أن نصوص الأخلاق فى مصر القديمة تلح دائما على كلمة الصمت ويترجمها ودبليسون بالهدوء السلبى والسكون والخضوع والمذلة والانكسار.

وأن المزايا الأخلاقية التى كان من المقرر أن تتحقق فى البيئة الفيضية استفادت منها فعلا ولم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيان الأقطاعى إلى نقائضها ؛ فالنظام والقانون أصبح جبنا واستكانة أو سلبية ، وروح التعاون التى تربط السكان

أصلا ضد العنصر الأجنبى تحولت إلى محسوبية ومحاباة ، كما انقلبت إلى الأخذ بالثأر ، أما المزاج الانغلاقى الذى غرته بيئة القرية فتدهور إلى تزلف ورياء وسعى لدى السلطان ، وكذلك إلى روح السخرية المريرة المشهورة عن المصريين .

فالدكتور جمال حمدان أرجع الصفات السيئة التى دخلت فى المجتمع المصرى إلى الفراعنة وطبيعة الحكم المطبقة امتدادا إلى العصور الحديثة ، ولقد ذكر عدد من المؤرخين صفات مشابهة ، وربما كان شيخ المؤرخين المقريزى فى عرضه أقرب إلى ما ذكره الدكتور جمال حمدان ، وإن كان أكثر تجنيا فذكر الجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة فى العلم و- لعله الإنصاف الوحيد - وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعى إلى السلطان وذم الناس ، وهناك صفة ذكرها أكثر من مؤرخ إسلامى وهى الإعراض عن النظر فى العواقب " فلا نجدهم يدخرون عندهم زاد "وهو نفس ما قاله ابن خلدون " كأنما فرغوا من الحساب" (٧٥).

وذكر أن عمر سأل كعب الأحبار عن مصر؛ فقال الغنى أنا لاحق بمصر وقال الذل أنا معك، وعن ابن عباس : "المكر عشرة أجزاء تسعة منها فى القبط وواحد فى سائر الناس، وذكر السيوطى " المصرى " أقوال شبيهة بذلك فى جعله شعب انعزالى و هو نفس رأى فورستر. الشخصية المصرية ليست بهذه السلبية وليست ذليلة خائفة ومن الواضح أن بداخلها كثير من المتناقضات نتيجة للتجربة الإنسانية والتاريخية، وربما القهر الإنسانى عبر العصور ، فالشخصية المصرية إذا كانت تبدو هادئة مسالمة أو تبدو كما ذكروا سلبية ، لكنها فى الحقيقة تموج بانفعالات شتى ، فهى مياه جوفية متحركة ومشتعلة بسهل يغطى أحيانا صفحة بركان يظل خامدا ثم ينفس ما بداخله ، المصرى لقى كثيرا من التجنى والمكر الذى وصفه به البعض إنما هو نوع من الذكاء الفطرى الذى يواجه به مستغليه، ونظرية الطغيان الفرعونية لا نستطيع تقبلها بصورتها تلك ، فالدين - كما ذكرنا - جوهر أساسى فى المصرى ، والملك الذى نظر إليه كإله كان الشعب يشعر بنوعٌ كبير من الولاء تجاهه، ومنذ عهد خوفو والأسرة الرابعة كان الملك محل تقديس ولم يتحول إلى مؤله ولكن مع عهد أبنائه والذين حملوا اسم رع إله الشمس خفرع منكاورع تحولوا إلى أنصاف آلهة ، وفى الأسرة ١٩

رمسيس الثانى تحول إلى إله ، ووضع فى قدس الأقداس تمثال للملك الإله ، فتأليه الملك ارتبط بالمعتقد الشعبى ، وكانت له مكانه فى نفسه، وبناء الأهرامات والمنشآت الجنائزية كان فى أشهر الفيضان التى كان فيها الفلاحون بلا عمل . وإن كانت الأسرات الحاكمة تعرضت لفترات ضعف وانهارت فيها السلطة المركزية، وظهر حكام الأقاليم، ومن هنا تعدد الحكام، ولم يكن المصرى مستسلما خلال تاريخه سلبيا ، بل ثار الشعب عبر التاريخ الفرعونى ضد الظلم ، فبعد الثورة الاجتماعية التى اجتاحت مصر فى أواخر عصر الدولة القديمة و التى كان من نتائجها تغير كثير من الأوضاع الاجتماعية والإعلاء من قيمة الفرد والدعوة إلى محو الظلم والقضاء على الظالمين، ونادت بأن كل إنسان مهما ارتفع قدره مسئول عما جنت يداه ، فالعامة ثاروا على ما شعروا به من ظلم ، ففى الألف الثالثة ق م قامت جموع الشعب الفقيرة بثورة عارمة كانت فيها الطبقات الكادحة هى صاحبة المصلحة، ولم يكن الصمت طابع المصرى بل إن أشهر البرديات الأدبية فى التاريخ الفرعونى هى بردية الفلاح الفصيح ، والتى تحمل فى ثناياها فكرا واستقلالية وشخصية ذكية أبدعها الكاتب المصرى ، والقصة حول فلاح يسمى فدان آتون فى عصر الملك نبكاورع أحد ملوك أهناسيا فى عصر الدولة القديمة ، قام رئيس حجاب الملك بالاستيلاء على قمحه فشكاه للملك، فقدم تسع شكايات ضد رئيس الحجاب حوت الرسائل عبارات جريئة موجهة للملك : " ياسيدى دافع عن الحق واحذر من قرب الآخرة وحاكم السارق وأوقع العقاب على من يستحق فليس ثمة ما هو أثمن من العدل" ، هذه الأدبيات تصور وضع مجتمع وتعكس صورة حقيقية ، فإذا كان هناك استغلال للبشر ، فهناك رفض تمثل فى مظاهر عدة، منها الثورة وفى الشكوى ضد الظلم[٧٦] ، وهناك ثورات شعبية ضد الظلم متى استشرى كما فى عهد رمسيس الثالث حيث قام العمال بمظاهرة أمام مخازن الغلال فى معبد الرامسيوم لعدم الالتزام بسداد أجورهم .

وحين خضعت مصر للحكم الأجنبى متمثلا فى الحكم اليونانى قامت ثورات منذ عهد بطليموس فيلوباتور أضعفت السلطة المركزية واضطرتها إلى أن تتخذ مزيدا من المظاهر المصرية لكسب ود الشعب نتيجة للضغط والكراهية التى أبداها الشعب ضد

الحكم الأجنبى ، وكان أول مظاهر ذلك اصطناع التمصير وإعلان تتويج الملك حسب التقاليد الفرعونية فى ممفيس، ولكن هذه المحاولات المصطنعة لم يكن لها تأثير فى كسب رضا المصريين ، فقد أعلنوا الثورة أكثر من مرة ، فثار الأهالى فى عهد الملك بطليموس يورجتيس ٢٤٦ - ٢٢٠ ق م وثورة أخرى ٢٠٧ - ٢٠٦ ق م وصلت إلى المناطق النائية من صعيد مصر حيث توقفت أعمال البناء فى معبد إدفو (٧٧) .

وقامت ثورة أخرى فاضطر الثوار إلى التسليم فى صيف ١٩٧ ق م بسبب الفيضان المرتفع الذى أضعف من مركزهم كثيرا، لأنه أعان جنود الملك على أحكام القضاء على الثوار ، ومع ذلك فقد عاملهم الملك أو مستشاره معاملة وحشية ، ولكن سوء المعاملة بعث مزيدا من المقاومة بين المصريين ، ونشبت ثورات أخرى ، ولم يقض نهائيا على الثورات المصرية إلا فى ١٨٥ ق م فى الصعيد ، حيث كانت طيبة قد أعلنت استقلالها ، ثم فى ١٨٣ ق م فى الدلتا، وهذه الثورات لم تذهب هباء ، وإنما كان لها بعض التأثير على الموجهين للسياسة فى القصر ، فألغيت بعض الضرائب وخفضت أخرى ، كما تنازلت الدولة عن بعض الديون المتأخرة التى للخزانة على الأفراد ، وكذلك صدر عفو شامل عن الجنود الذين قد كانوا انضموا للثورة ، وزيادة ظهور العنصر المصرى على مسرح الحياة العام (٧٨) .

فإذا كان البعض يعتقد أن الشعب يميل إلى الاستكانة والصمت فى بعض الأحيان، فإن هذا كان يحدث لفترة طالت أو قصرت يتم حتى تتجمع براكين الغضب، ولقد قلل بعض المؤرخين من أهمية العنصر الشعبى لأن جموع العامة لم تكن هى المشاركة فى صنع الأحداث ، بل فئات الطبقات الوسطى، وهذا غير صحيح، فتلك الجموع التى عانت من الظلم فى الدلتا والصعيد كانت تندفع فى ثورة عارمة رغم ما تملكه من إمكانيات محدودة أمام جيوش نظامية مدربة. ومن الأمثلة على ذلك أنه قبل زيارة استرابون المؤرخ لمصر ثار الأهالى ضد الرومان لذهاب جامعى الضرائب إلى طيبة ، فحدثت ثورة اتسع نطاقها واستمرت خمسة عشر يوما، ودخلوا فى معركتين حاميتى الوطيس ، وأخضعت خمس مدن إحداها فى قفط وثلاث فى أنحاء طيبة، ففى القرن الأول للحكم الرومانى فى الأقاليم فى الوقت الذى كان الشعب يعلن غضبه ورفضه للحكم الرومانى نشب شغب فى الإسكندرية (٧٩) .

ونستطيع القول أن العاصمة الإسكندرية خلال العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية كانت دائمة الاشتعال والغضب والصخب والاعتراض بل والثورة كما حدث فى الحروب ضد اليهود ، وفى العصر المسيحى وصفها الأباطرة بأنها أكثر مدنهم شغبا ، وأهلها أكثر أهالى الولايات إثارة للمشاكل، ولكن لا نستطيع أن نضع الإسكندرية كمثال أو معيار عن الشخصية المصرية رغم أنها جزء من مصر، فهى مدينة يونانية الطابع فى العصر البطلمى غلب عليها العنصر الأجنبى ، واستمر هذا خلال العصر الرومانى وفترة من البيزنطى إلى أن بدأ العنصر المصرى يغلب عليها ، فهى المدينة التى وصفت بالمجاورة لمصر .

ومن الأدلة الواضحة على أن الشخصية المصرية لم تكن تلك المياه الراكدة الذليلة الموقف المصرى من المسيحية ، فلقد وقفت جموع الشعب من البسطاء إلى جانب كنيستهم ومذهبهم وساروا خلف رهبانهم ، وأصبح نفوذ بطريرك الإسكندرية يفوق واليها بفضل الدعم الشعبى ، فإذا اجتمع الدين مع الضغط والقهر الإنسانى أخرج الشعب طاقاته ، فإذا كانت الإسكندرية تحملت كمدينة كزموبوليس الاضطهادات الأولى ، فإن الجموع التى أيدت المسيحية فى عواصمها ومدنها الصغرى وريفها كانت من عامة الشعب الأعزل ضد جموع وثنية ثائرة وجيوش رومانية.

وهناك ظاهرة خلقها الضغط والقهر الأجنبى ، فأى مستعمر ينظر إلى المواطن المصرى كمواطن درجة ثانية ومواطن درجة ثالثة كما فى العصر الرومانى ؛ حيث كان الرومان يعتبرون المواطن الرومانى مواطن كامل الأهلية ، يليه اليونانى ، وله عدد من المزايا ، ثم عامة الشعب ، فالمصرى صاحب الأرض والوطن أصبح أدنى درجة من مستعمريه ، وهذا خلق نوعًا من الرفض والكراهية للمستعمر وللأجنبى ، ومع ظهور المسيحية والارتباط الدينى بالقومية الرافض للقهر الإنسانى ، كان المصرى يبحث عن متنفس لإخراج هذه الشحنة من المشاعر والكراهية لهذا الحكم ، فوجد ملاذه فى الدين ورجاله ، ورفض كل ماهو أجنبى أو التنفيس فى شكل موجات عنيفة من الغضب من أجل الحفاظ على الدين ، فأكثر مواقفه إيجابية سنجدها على صلة مباشرة أو غير مباشرة بمعتقداته ، قد يغذيها الضغط الاقتصادى والقهر الاجتماعى

فيخوض صراعا مقدسا ضد الدولة ، ولقد تعرض المسيحيون لاضطهادات عديدة على يد عدد من الأباطرة كادكيوس ونيرون بل ماركوس أورليوس الفليسوف الرواقى، وفى عهد البطريرك دميتريوس الأول ثارت أول عاصفة عنيفة ومنظمة ضد المسيحية ، وفى عهد سبتميوس سفيروس أجبر المسيحيون على تقديم القرابين أمام صورة الإمبراطور ، وإلا كان مصيرهم إما حرقهم أو بالقائهم إلى الوحوش الضارية فى الملاعب أو قطع الرأس دون اعتبار لسن أو جنس ، ومع ذلك لم يقض على المسيحية بل زادها انتشارا ، فهل يمكن أن يوصف هذا الشعب بالسلبية ، وهل هناك هو ما أغلى من الحياة ، فالصورة تبدو قوية الملامح مؤكدة الألوان إذا ارتبط الوطن بالدين .

ولقد استمرت الاضطهادات فى عهد دكيوس القصير الذى لقيت فى عهده أعداد كبيرة من المسيحين عذابا شديدا ، حقيقة أن العاصمة كانت صاحبة النصيب الأوفر ولكن وصل الاضطهاد إلى جميع أنحاء مصر ولم تهدأ تلك الاضطهادات إلى عام ٢٦٢ م ، حينما أصدر الإمبراطور جالينوس قرارا بالتسامح الدينى ، إلى أن جاءت قمة الاضطهاد فى عهد دقلديانوس ٢٨٤ -٣٠٥ م ، هذا الرجل رغم إصلاحاته العديدة على المستوى السياسى والاقتصادى فإن موقفه من المسيحية هو الذى ظل قائما فى الأذهان لارتباطه بأكبر موجة اضطهادات ، وكان دافعه خوفه على انهيار السلطة الإمبراطورية لرفض المسيحين الخدمة فى الجيش ، ولقد كانت مصر صاحبة النصيب الأوفر فى الاضطهادات ، فلقد لقى الكثير حتفهم ، والسنكسار يعد سجل كامل للاستشهاد القبطى (٨٠) .

وبعد الاعتراف بالمسيحية كديانة مصرح بها فى عهد قسطنطين ٣١٣م فى مرسوم ميلان ، وديانة رسمية للدولة فى عهد ثيودسيوس الأول ، اتخذ الشعب موقفا إيجابيا واضحا باتخاذه الجانب المذهبى للكنيسة ، وفى صراع الكنيسة ضد الدولة انضم إلى كنيسته ، وكان لبطاركة الكنيسة المصرية مركز سام فى العالم ، وكان الأباطرة المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم ويقيمون لهم وزنا ، لأنهم كانوا يمثلون قوة شعبية جبارة طالما أقضت مضاجع أولئك الأباطرة ، ومن ثم كان التاريخ

لهؤلاء البطاركة الزعماء أمرا مهما للغاية ، وارتبط الدين بالسياسة ، فالصراعات اتخذت الطابع الدينى السياسى ، وكان يحدث أحيانا أن يعتنق الإمبراطور الرومانى مذهبا دينيا معينا فى نطاق المسيحية ، ويريد أن يرغم رعيته فى الإمبراطورية على اعتناق مذهبه حتى يضمن التجانس بين شعوب الإمبراطورية تبعا لوحدة المعتقد، فتسبب فى صدامه مع الكنيسة المصرية التى حرصت على التمسك بمذهبها ، وهنا ظهر الرهبان كقادة روحيين اكتسبوا شعبية كبيرة ، وبرزت شخصيتهم كزعماء وطنيين ، فشنودة الإخميمى كان يرفض أن يكون فى أديرته راهب إلا إذا كان قبطيا (مصريا) .

إن الرهبان الذين تبعوا بطاركتهم المجامع الكنسية كانوا لا يفهمون المشاكل اللاهوتية إلا فهما ضئيلا ، أما الأمر الذى استطاعا فهمه حقا فكان معارضة مصر لسياسة الحكومة الإمبراطورية ، وإذن فقد كان طبيعيا أن تعتنق مصر المذهب الأرثوذكسى مذهب أثناسيوس حين اعتنقت ا لقسطنطينية أيام قسطنطينوس المذهب الأريوسى [٨١].

ولقد تحول أثناسيوس فى نظر العامة من رجل دينى إلى بطل قومى ودينى ، فلقد اجتمعت أنواع الضغط والقهر بمختلف صوره ، اقتصادية وإنسانية ودينية لتجد متنفسا لها فى شخصية بطل أو قدوة تلتف حولها ، فحولت الأسقف لبطل أسطورى نتيجة لنفيه عدة مرات فى عهود سياسية عديدة من قسطنطين إلى فالنز ، ولقد اختبأ أثناسيوس عدة مرات فى منازل المصريين الذين أخفوه عن عيون الدولة ، ولم يخشوا اضطهادها ، ولقد حدثت القطيعة مع القسطنطينية وأباطرتها منذ مجمع خلقدونية، وأعلنت الرفض لمذهب الدولة وأعلنت المنوفيزيتية ، وأصبحت مصر شعبا وكنيسة فى جانب ، والدولة فى جانب ، وفى النهاية كان مذهب المنوثولسية حيث أرسلت الإمبراطورية فى عهد هرقل واليها Cyrus ومعه مذهب الإرادة الواحدة ، ولم يكن هرقل موفقا فى اختياره ، لأن كيرس هذا والذى تجعلنا المصادر في حيرة من شخصيته الغامضة كان فيما يبدو رجلا ضيق الأفق لما وجد أنه من العسير استمالة الأقباط إلى المذهب الجديد الذى اضطهدهم اضطهادا رهيبا .

وهرب البطريرك بنيامين منه ، ومن هنا كانت معاونة القبط للفاتحين كما ذكر ابن عبد الحكم أن القبط كانوا لهم أعوانا .

فهنا موقف رافض أخذه الشعب ضد الدولة بأجهزتها طوال الفترة المسيحية ، فالشخصية لم تكن سلبية مستسلمة ذليلة ، بل إن السكون لفترات والهدوء وربما الاستكانة هي مرحلة وقتية ، ولكن ليست هي الطبيعة الأصيلة، هناك قوة في داخلة تشكل الاعتدال الإنساني وهذه الوسطية ولكن لم يكن .

وهناك ظاهرة أخرى هي أن المصري يعبر عن نفسه إن لم يكن بالرفض والثورة فبالشكوى، والشكوى أحد أساليب الرفض ابتداء من الفلاح الفصيح إلى هذا الكم من الشكاوى المرفوعة إلى حكام مصر ضد ظلم وتعسف موظفيهم وجباتهم ، الذي وصل حتى إلى بعض رجال الطبقة الثرية في العواصم كديسقورس وهو محامي وشاعر وكان عضو مجلس الأعيان في قرية أفرديتو " كوم اشقوه " ، ولقد تعرض الظلم على يد الباجرك فذهب إلى الإمبراطور جستنيان لعرض مظلمته حيث أوضح الشاكي كيف أنه من أسرة تنحدر من كبار الملاك تمتعت بالجباية الذاتية ، رغم ذلك فقد اغتصب الباجرك ضرائب قريته في الوقت نفسه الذي لم يسلمها إلى خزانة الباجركية ، فاضطر المزارعون لدفعها ثانية ، ولقد أصدر جستنيان أوامره بالتحقيق في الأمر إنصافا للشاكي ، ولكن الباجرك لم ينفذ أوامر الإمبراطور واستمر في الإساءة إلى ديسقورس مما اضطره للسفر ثانية إلى القسطنطينية ، وفي هذه المرة حمله جستنيان رسالة شديدة اللهجة وذكر أن تصرفاته أصبحت أقوى من أوامر الإمبراطور (٨٢).

وفي نهاية الخطاب يطلب الإمبراطور عدم استنزاف القرية ويحذر الباجرك مما يقوم به وأنه يعد مدانا في جميع ما اتخذه من إجراءات ضد تلك القرية المتمتعة بالجباية الذاتية (٨٣).

فأسلوب الشكوى كان سمة مميزة وتعبيرا عن رفض الحكم الأجنبي بأنواته، وهناك أسلوب السخرية المريرة الذي أصبح سمة بارزة في المكون المصري فوجدها وسيلة للتعبير عن واقع يرفضه ، وكلما زاد عليه ثقل الحياة والدولة ، ولقد ظهر

أسلوب السخرية فى رسوم الكاريكاتير فى العصر الفرعونى والقبطى ، وهناك نماذج فى المتحف القبطى ، ومازال طابع السخرية والنكتة المصرية حتى على أنفسنا جزءا من طبيعتنا المصرية ، ولكن ما نستطيع قوله إن الفلاح المصرى رغم كل هذا القهر كان فلاحا حرا لم يستعبد ، وفى وثيقة تعود لعام ٢٧٩ يذكر فلاح أنه مواطن حر ويجب أن يعامل معاملة كريمة فقد أرسل مسئول أحد الأقاليم إلى الكومارخ وهو أحد مسئولى القرية يسأله عن سبب القبض على أحد الأشخاص ، ويذكر إنه أرسل إليه موظفا لاستلامه وعليه أن يوضح سبب القبض عليه وأنه مواطن حر.

والملاحظ أن المصرى بطبعه يرتبط بأرضه ، فهو مزارع بالدرجة الأولى تمثل له الأرض فى تكوينه النفسى ، وإلى الآن مازال هذا المنظور قائما ، فليس من السهل أن يفرط المزارع فى أرضه ، والفلاح المصرى عامة لا يميل إلى الخروج عن نطاق قريته أو ترك أسرته، فالمصرى بطبيعته ليس طيرا مهاجرا والحالات التى بدت خلال تلك الفترة هى هجرة بعض سكان الريف إلى العاصمة ، وسعى العاصمة إلى طردهم وإعادتهم إلى قراهم وهو ما يحدث اليوم من سعى آلاف من سكان الريف للعاصمة وما بها من أنشطة صناعية ، وكما يحدث الآن فترك الفلاحون الأرض وسافروا إلى هناك حيث عملوا فى مصانعها ، والمرسوم الوحيد الذى نص على عودتهم إلى قراهم كان فى عهد كاراكلا ، ولم يشر إلى نوعية من طلب إليهم العودة إلى قراهم هل هم مزارعون أم حرفيون (٨٤).

وهناك صفات اكتسبت نتيجة لسنوات القهر من دول تداولت الحكم أضفت على طبيعة المصرى صفات لم تكن فى جوهره الحقيقى، إنما هى إضافات نتيجة تراكمات، ولكنها لم تمثل سمة عامة ، ولكنها تظهر فى الفترات التى يزداد فيها القهر الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، أولها البيروقراطية الإدارية المصرية التى تضخمت نتيجة لأنظمة الحكم الأجنبى ، والتى جعلت من المصرى جلادا للمصرى ، وخلقت بيروقراطية إدارية ، وسلطت عليها بدورها سيف الحكم الأجنبى لتضغط على أبناء جلدتها وتستنزفهم سلسلة الموظفين الذين كانوا ملكيين أكثر من الملك فى مطاردة المزارعين والأهالى واستنزافهم لصالح الأجنبى ، بيروقراطية تتعالى على

الطبقات الشعبية وتمالئ المحتل ، ومازالت بقية هذه البيروقراطية رغم زوال الاحتلال تمارس هواية الضغط الآدمي على المتعاملين معها ، كان النظام الضرائبي وجباته شديدى القسوة ، والغريب أن غالبيتهم من العناصر المصرية وبعض سادتهم - أيضا - كانوا من المصريين ، وإن كان كبار الإدرايين في البداية من العناصر الأجنبية، إلى أن تمصرت غالبية الوظائف الإدارية. وهؤلاء الجباة قد تعرضوا بدورهم للعقاب الشديد في حالة عجزهم عن الوفاء بالتزاماتهم وبدافع الجشع للكسب الحرام. ولقد وضع جستنيان عقوبات شديدة على الجباة الذين يتهاونون في الجباية رغم طلبه في الوقت نفسه ومراعاة العدالة في معاملة المزارعين ، وكانت هذه المعادلة صعبة التحقيق ولم يلتزم بها الجباة ، ولقد استنزف بعض أولئك الجباة أموال الدولة والمزارعين ، بل إن مشرفي الجباية هددوا وتوعدوا المزارعين والجباة على حد سواء ، وكان هؤلاء المشرفون مرتشين .

فهنا سلسلة من الطغاة متدرجة ، فالدولة تريد أموال مزارعيها مهما كانت حالة الأرض والمزارع، ومشرف الزراعة يضغط على الجابي ، والجابي يضغط على الأهالي ، وخلال هذه العملية يقتطع كل منهم من المزارع ما يستطيع مستخدما جميع الوسائل ، وفي المقابل المزارع المصرى وبذكائه الفطرى وما يصفه مؤرخوا الفترة الإسلامية بالمكر هي محاولة للتهرب من مسئوليتهم الضريبية ومناوءة جامعي الضرائب ، فيذكر أحد الجباة أنه ذهب للجباية في قرية تسمى ديربيتوس ومكث يومين ، ومع ذلك لم يتأت له الحصول على شيء ، ويذكر أنه يرغب في التخلص من عمله الشاق هذا ، وتذخر البرديات البيزنطية بالعديد من الشكايات ضد المشرفين الذين فرضوا عليه أعباء أكبر من زملائه فيما يتعلق بالأنونا الحربية "، ضريبة القمح الحربية " وأمام هذا الاضطراب كان من الطبيعي أن تختفي فاعلية القوانين المرعية ، فكثرت المشاغبات والخلاف بين القرى بعضها البعض وأصبح من المألوف خروج أهالي القرية وإغاراتهم على قرية أخرى [٨٥]، فلقد تفجر عنف غير مألوف في الطبيعة المصرية،عنف يظهر في فترات الضغط والقهر ، فلقد حاول الأهالي أن يجدوا متنفسا عما بداخلهم في اشتباك القرى بعضها مع بعض في الفترة الوثنية، خلافًا على معبود هنا أو هناك، وفي المسيحية النزاع بين أحزاب السيرك وهي فرق رياضية لراكبي العجلات في

السباق تحولت إلى أحزاب سياسية ، وانقسم الناس بين الزرق والخضر فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وحين كانت جيوش العرب الفاتحين تتقدم فى مصر كان هناك إقليمان يتنازعان بسبب اختلافهما على تأييد الزرق والخضر .

وزادت الشحناء بين الناس وتفجرت الصراعات ، ولقد وردت أمثلة على هذه الخلافات التى قد تصل إلى حد الدموية ، فلقد أصدر أحد الضباط أوامره إلى أتباعه أن يذهب إلى القرية التى هاجمها جيرانها لحمايتها من تكرار الهجوم ويحمل رؤساء القرية المسئولية (٨٦) .

وفى قرية سابقا أرسل موظف إلى الباجرك وحاكم الإقليم مندوب عنه لمحاولة التوفيق بين قريته وقرية أخرى ويطلب إعادة المسروقات، بل إنّ رئيس القرية نفسه سرقت ممتلكاته واتهم عدداً من كبار الملاك بسرقته وأرسل شخص إلى والده يذكر أنه أنقذ من الموت بأعجوبة هو وزوجته وأبناؤه خلال النزاع المسلح بين قريته وقرية أخرى (٨٧) .

بل امتد الخلاف والصراع ليشمل كبار الملاك أيضا ، فاثنان من المحامين دخلا فى نزاع حول حقل يخص أحدهما فنزل فى أرض الثانى فأصابه ، ويهدد المالك بأنه إذا لم يقم زميله بإجراء حاسم فسيتدخل بنفسه كما سبق أن فعل مع الآخرين ، رغم أن أرض الاثنين فى إقليم واحد (٨٨) .

فهنا عنف لم يكن من سمات الطبيعة المصرية ، وكان طارئا ، الأمر نفسه فى العنف الدينى والطائفى ، ويذكر فورستر : " برغم أن النزاع الدينى قد يكون ضرورة فى بعض الأحيان، إلا أنه شر فى كل الأحيان ذلك لأنه يبرز الخلاف ويؤكده ، ومن ثم يؤدى إلى ضيق الأفق حتى بين أقطاب النزاع وأتباعهم ، وإلى حصر التفكير فى المجال الطائفى وحده وإلى مثل ذلك أرجع النزاع الدينى فى مصر ؛ فالملكانيون كانوا يعتمدون على تأييد الحكومة الإمبراطورية ، ولهذا كرههم الغالبية العظمى من الناس فتضاءلت مكانتهم ولم يظفروا إلا بعدد قليل من الأتباع ، أما الغالبية وهم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة فكان يؤذيهم الجهلة الذين ناصبوا الحضارة الهلينية عداء شديدا ، ولهذا لم يكن فى وسعهم أن يسهموا بأى نصيب يذكر فى النشاط الفكرى

حتى أصبحت مصر تيارا مضادا فى الحركة الثقافية بعد أن كانت عاصمتها الإسكندرية فى خلال القرنين مركزا لمدرسة مسيحية ذائعة الصيت أنجبت فى القرن الرابع اثناسيوس" (٨٩).

إلى هنا ينتهى كلام فورستر والجزء الأول الخاص بالطائفية حقيقى ؛ فهى قد ظهرت نتيجة تراكم حكومات وإدارات أجنبية، أما ما يخص الرهبان فإذا كان هناك أعداد لم تنل حظا من الثقافة، فهناك بعض الآباء الذين حظى عدد منهم بقدر عال من الثقافة ، ولكنها تحولت إلى رفض للهلينية لربطها فى أذهانهم بالحكم البيزنطى الذى دخلوا معه فى خلاف مذهبى ، وحاول أولئك من جانبهم فرضه بالقوة ، فهنا عناصر دخيلة ظهرت على السطح كالفطريات، وهى ظواهر العنف والطائفية ولم تكن من سمات المكون الأولى للشخصية المصرية ، بالإضافة إلى بذور بيروقراطية إدارية غرست جذورها الطفيلية فى الجسد المصرى ، وجعلت المصرى يسىء معاملة المصرى إذا تحكم إداريا نتيجة ضغط جنسيات مختلفة سيطرت على مقدراته. وإذا كانت لهجة الذلة أو ممالأة الحاكم ظهرت فى مصر فهى أحد منتجات القهر أيضا، فماذا يستطيع إنسان أعزل أمام جيش من الجباة والحراس المسلحين مع نظام استعمارى حاكم مع حاكم يونانى ينظر إلى رعاياه باستعلاء ، وروما تعتبره مواطن من الدرجة الثالثة، قاوم الحكم ورفضه واتخذ موقفا دينيا مخالفا ولكن كان لابد من وجود هذا الفطر على ذات البعض حتى فى علاقة المصرى بالمصرى، ففى رسالة موجهة إلى أحد الحكام الإقطاعيين وهو أبيون، وهو أحد أفراد أسرة مصرية تولت مناصب عليا فى الدولة وتملكت إقطاعات وخاصة فى مدينة أكسرنخوس (٩٠).

وفى خطاب من فلاح يعمل لديه : " أنا عبدك البائس أتقدم بهذا الالتماس إنى أخدم سيدى كما خدمت أباءك وأجدادك وأدفع الضرائب سنويا ولكن أراد الله أن تموت ماشيتى فى القسم الأول واقترضت ١٥ صولد لأستطيع شراء ماشية بدلا منها وعلى ذلك ألتمس من سيدى الرحمة فخدام سيدى رفضوا أن يعينونى وإن لم تدركنى رحمتك يا سيدى فإننى لن أستطيع البقاء فى ممتلكاتك أو خدمة الأقطاع وأنا أرجو عظمتك أن تأمر بالرحمة بى "(٩١) .

رغم لهجة التوسل فالفلاح الحر نراه يحذر المالك أنه إذا لم يستجب لرجائه فسيترك الأرض .

وعامة فما طرأ على المكون المصرى خلال تلك الفترة نتيجة لسنوات من الاحتلال والقهر للدول التى توالت عليه من جنسيات عدة وبحكم الفتح ونظرت إليه نظرة دونيه ، تلك التراكمات أوجدت هذه الفطريات على المكون النفسى .

ولكن الجوهر الأصلى والذى تمثل فى التدين والاستمرارية والربط بين القديم والجديد والاعتدال ، والوسطية كانت السمة الغالبة .

وبعض تلك الفطريات ربما تجذرت كالبيروقراطية الإدارية وتعاملها مع المواطنين حتى بعد اختفاء الاحتلال، التواكل والتكاسل نتيجة أن المجهود يذهب لغير المصرى ، فالمصرى يحتاج إلى قضية قومية تشغله وتفجر من داخله طاقات، المصرى لم يكن غبيا ولا متبربرًا وأجمل تعبير ما ذكره المقريزى :

" إذا ساس نفسه تفجرت طاقاته" ، فكان أحسن طبيب وفلكى وبناء حين كانت الحضارة تحبو ، ونحن لن نعيش على أمجاد ماضى ، ولكن نقول أن العقلية التى بنت أهراما عاشت آلاف السنين وجعلت الشمس تتعامد على مقبرة فى أيام ميلاد تولية الفرعون العرش بحسابات فكليه عقلية قادرة على استيعاب العلوم والتقدم .

* * * * *

هوامش الفصل الأول

(١) سيد محمد غنيم : بسيكلوجية الشخصية محدداتها وقيامها ، نظرياتها ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٢) كالفين هول وجاردنر ليندوى: نظريات الشخصية ترجمة فرج أحمد وآخرون ، القاهرة ، ١٩٧٨ م

(٣) اسكندر ولويس : الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى ، القاهرة ، دار النهضة .

(4) Murad Kamel :Coptic Egypt p 24-25.

(٥) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ٦٨ .

(6) Murad Kamel : Coptic Egypt p.24 - 25

(٧) رؤوف حبيب : دليل المتحف القبطى ، القاهرة ، ١٩٩٦ م ، ص ١٩١ .

(٨) رؤوف حبيب : دليل المتحف القبطى ، ص٣.

(٩) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٩٧ م ، ص ١٩٠ .

(١٠) سيدة الكاشف : نفس المرجع ، ص ١٨٢ - ١٩٠ .

(١١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ،ج١، ص ٤٨ .

(١٢) المقريزى : نفس المصدر، ج١، ص ٥٠ .

(١٣) المقريزى : نفس المصدر ، ج١، ص٥٠

(١٤) يوزبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ، ترجمة القمص مرقص داود ، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٣٣١ .

(١٥) هيردوت يتحدث عن مصر : ترجمة صقر خفاجة ، ص٧٢ .

(16) Winter : Daily life , p. 278 .

(١٧) المقريزى : الخطط ، ج١، ص ٤٨ - ٥٠ .

(١٨) المقريزى : الخطط ، ج١، ص ٤٨ - ٥٠ .

(١٩) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٤٨ .

(٢٠) جمال حمدان : شخصـية مصر ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٧٠ .

(٢١) محمود عودة : شخصية المصرى (التكيف والمقاومة الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرى) ، ص ٤٩ .

(٢٢) عودة : نفس المرجع ، ص ٥٠ .

(٢٣) ميلاد حنا : الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٧ م ، ص ٦٣ - ٦٣ .

(٢٤) زبيدة عطا : الفلاح المصرى بين العصرين القبطى والإسـلامى ، ص ١٩ .

(٢٥) فاروق القاضى : موسوعة تاريخ مصر ، ص ٤٤٩ .

(٢٦) زبيدة عطا : نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٢٧) مراد كامل : نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

(٢٨) ديورنت " ول" : قصة الحضارة ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ج ٦ ، ص ١١٥ .

(٢٩) رؤوف حبيب : تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر ، ص ٢٨ .

(٣٠) مصطفى العبادى : مصر من الإسكندر حتى الفتح العربى ، ص ٣٤٨ .

(٣١) رؤوف حبيب : نفس المرجع ، ص ٤٩ .

(٣٢) ديورنت : نفس المرجع ، ج٦، ص ٩٨ - ١١٥ .

(٣٣) رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٥٧ .

(٣٤) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ٤٣

(35) Murad Kamel : op. cit. p. 34 .

(٣٦) رؤوف حبيب : نفس المرجع ، ص ١٢٠ - ١٢١ - ١٣٧ .

(٣٧) زبيدة عطا : إقليم المنيا فى العصر البيزنطى ، القاهرة ، ص ١٢٨ .

(٣٨) انظر : مراد كامل ، موعظة شنودة ، ص ١٨٢ - ١٩١

(39) Saidic Manuscripts , 1150. 1151. 1152. p. oxy. 1149, 1150.

(٤٠) لوكاس : أحد الشهداء يزور مقبرته كل من لدغه ثعبان .

P.Teb. 775- p. oxy . 1166 .

(٤١) جمال حمدان : نفس المرجع ، ص١٩١.

(42) Doxiadis Euphrosyne : The Mysterious Fayum Portrait. Cairo , 2000, p 41 .

(٤٣) عزت قادوس : فنون الإسكندرية ، ص ٨٣ .

(٤٤) عزت قادوس : فنون الإسكندرية ، ص ١٤٨ .

(45) Miline : A History of Egypt under Roman Rule, London, 1924, p. 238 - 251 .

(٤٦) عزت قادوس :أثار مصر فى العصرين اليونانى والرومانى ، ص ٢٠٣ .

(47) Doxiadis Euphrosyne : The Mysterious Fayum Portrait. Cairo , 2000, p 41 .

(48) Doxiadis : op . cit. p 41 .

(49) Doxiadis : op . cit. p 40 .

(50) Doxiadis : op . cit. p 40 -

(51) Doxiadis : op . cit. p 35.

(52) Doxiadis : op . cit. p 35.

(53) Doxiadis : op . cit. p 48 .

(٥٤) فورستر : الإسكندرية تاريخ ودليل ، ص ١١٣ .

(٥٥) فورستر : نفس المرجع ، ص ١١٣ .

(56) Milne : Roman Egypt, p 227 .

(٥٧) رؤوف حبيب : تاريخ الرهبنة ، ص ٣١ .

(٥٨) ديورنت : نفس المرجع ، ج٦، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٥٩) القس منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية ، القاهرة ، ص ٣١ .

(٦٠) ديورنت : نفس المرجع ، ج٦، ص ٢٧٧ .

(٦١) فورستر : نفس المرجع .

(٦٢) القديس مرقص وكنيسة الإسكندرية ، ص٢٢.

(٦٣) يوزبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ، ص ٢١٣ .

(٦٤) يوزبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ، ص ٢١٣ - ٢٣٦ .

(٦٥) بتلر : الكنائس القبطية ، ص ٢١٣-٢٣٦ .

(٦٦) بتلر : الكنائس القبطية ، ص٦٢ .

(٦٧) مراد كامل : الحضارة القبطية ، ص ١٣٨ .

(٦٨) مراد كامل : الحضارة القبطية ، ص ١٤٣ .

(٦٩) سعاد ماهر : الفن القبطى ، ص ٢٣ .

(٧٠) سعاد ماهر : الفن القبطى ، ص ٢٧ .

(٧١) سعاد ماهر : ص ١٢ ، ١٣ .

(٧٢) عمر طوسون : أديرة وادى النطرون ، ص ٧٢ .

(٧٣) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ١٧٤ .

(٧٤) جمال حمدان : نفس المرجع ، ص ٦٣ .

(٧٥) المقريزى : الخطط ، ج١، ص ٤٣ - ٥٠ .

(٧٦) زكى شنودة : تاريخ الأقباط ، ج٢، ص ١٨٥ .

(٧٧) عبادى : نفس المرجع ، ص ٨٠ .

(٧٨) محمود السعدنى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة والرومان ، ص ٩١ .

(79) Daily life , p 15 .

(٨٠) يوزبيوس : نفس المصدر، ص ٥٠

(٨١) إدريس بل : مصر من الإسكندر الأكبر ، ص ٢٢٤ .

(82) P. masp 6705 .

(83) P. masp 667002

(٨٤) زبيدة : الحالة الاقتصادية ، ص٧٥ .

Johnson : Economic studies, p 24 .

(85) Johnson : Byzatine Egypt, Economic st udies Princeton, 1949, p 24 .

(86) P. oxy, 1147 .

(87) P. oxy., 1165 .

(88) P. oxy., 1813 .

(٨٩) فورستر :نفس المرجع ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(90) P. oxy . cxx. 1824 .

(91) P. oxy . cxxx. p.oxy . 1982 . C. Th . XI . 29 .

الفصل الثانى

مجتمع الإسكندرية

المجتمع المصرى فى العصر المسيحى

المجتمع المصرى كان لوحة سيريالية قد تداخلت فيها الألوان وأساليب مدارس فنية متعددة ، وإذا تحدثنا عن مجتمع مصرى آنذاك فإنما نتحدث عن مجتمعين وثقافتين من المفروض أنهما لشعب واحد . مجمتع الصفوة فى عاصمة مصر الغنية آنذاك وأحوال العالم القديم التى وصفت بالإسكندرية المجاورة لمصر ، والمقصود بالمجاورة هى تعريف الإسكندرية عن بقية المدن التى تحمل اسم الإسكندر ، ولكنها تحولت فى الحقيقة إلى المجاورة لمصر فهناك مجتمع مصر عامة ، ومجتمع الإسكندرية كانت له مواطنته الخاصة التى ميزت أهلها عن بقية شعب مصر ، المدينة الكوزموبوليتان التى تضم عصبة أمم بشرية، ومع ذلك فإن المدينة دخلت عليها متغيرات عبر العصور غيرت من مكانها ونوعية سكانها وثقافتها الداخلية، التعديل حدث عبر فترات الزمن ، فغزا المصريون مدارسها الفلسفية اليونانية الطابع والثقافة ، فظهر أفلوطين من أسيوط وأورجين المصرى أحد أشهر أساتذة المدرسة اللاهوتية ، وفى القرن الخامس تحولت إلى مدينة مسيحية العقيدة والفكر ، وضمت أديرتها آلاف الرهبان ، وأصبح لبطركها سلطة تفوق سلطة الوالى، وتغيرت أنماط الحياة والفكر ، ولكنها ظلت الإسكندرية جوهرة العالم القديم التى لها سحرها الخاص، وبدت عملية تمصير واضحة لتلك المدينة الكوزموبولتانية .

وكان يلى سكان العاصمة فى المكانة سكان عواصم الأقاليم المتميزة كبطلمية، ثم بدأ الزحف المصرى وتمت عملية التمصير وخاصة فى الأقاليم ، ويلاحظ أن تلك العملية ازدادت وضوحا مع انتشار المسيحية، وعن مدى الانفصال بين العاصمة وعامة البلاد، أورد الدكتور جمال حمدان توضيحا جميلا فيرى أن هناك انفصالا لا سيما بين العاصمة المتخمة والريف الأنيمى، حتى إن هناك مصرين - مصر

العاصمة إقطاعية لاندوقراطية وبيروقراطية مستغلة ، ومصر الأقاليم - بروليتارية زراعية مأزومة مستغلة. الأولى فقاعة حضارية براقة ، والثانية قوقعة حضارية راكدة .

ومنذ عرفت مصر العواصم الموحدة والعاصمة فيها تحقق حجما هائلا بالنسبة لمجموع حجم الدولة وعلى حسابه، والمركزية تورث الحجم ، وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا إن تاريخ مصر ليس إلا تاريخ العاصمة، بل كان المصريون أحيانا هم الناس والآخرون الأجانب ، وربما ينطبق هذا على العصر الفرعوني ، ولكن هذه العزلة والشعور بالانفصال فى مصر القديمة لم يتحول قط إلى نظرية عنصرية أو إلى كراهية للأجانب ، بل بمجرد دخول الأجانب واستقرارهم كانوا يعدون مصريين ، فالوعى بالذات فى مصر كان إقليميا أكثر منه عنصريا وجغرافيا قبل أن يكون جنسيا ، فمصر مدينة كوزموبولتانية دون أن تفقد قوامها الذاتى، أكدت أن الجوهر الدينى لديها لا ينسخ وإنما يتناسخ ، ويمكننا أن نصفها بأن مصر كلما زادت تغيرا أو تطورا زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدا واستمرارا ، فمن الماضى البعيد كانت مصر تقبل كل جديد، تهضمه وتمثله وتخرجه كائنا مصريا صميم الموجات ، الأجنبية ابتلعتها مصر ومصرتها ، فالدين مصرته وأخرجت نسخته المصرية القبطية[1].

الإسكندرية بدت كمدينة يونانية فى البداية ثم تحولت لمدينة كوزموبولتانية سكنها اليونان واليهود وأجناس خليط من وافدين للتجارة ووافدين للثقافة من فرس وأحباش ورومان .. إلخ[2]، بالإضافة إلى عنصر مصرى فى روافده كطبقة عاملة ، ثم تطور الأمر ودخل العنصر المصرى على مستوى الدارسين والعلماء فى الجامعة، ثم على مستوى الشريحة العليا البرجوازية فى العصر البيزنطى ، وازدادت أعداد الأقباط فى العاصمة بعد ازدياد نفوذ الإسكندرية وبطاركتها ورهبانها، وكان أثناسيوس مصريا وبدت المدينة اليونانية الرومانية تتمصر ثم انتقلت الصبغة الوطنية إلى عواصم الأقاليم بتكوينها الجنسى والثقافى ، وظهرت أسماء مصرية لامعة كأبيون وأسرته ذات الأرشيف الكبير والذى استمد الباحثون منه مادة متميزة عن الحياة فى هذه الفترة ، ولقد تولى أفراد هذه الأسرة الوظائف العليا فى مصر كدوق طيبة والباجاركية والقنصلية .

وبرديات القرنين الخامس والسادس حوت أسماء كبار ملاك من العناصر المصرية بعكس الفترة السابقة التى ضمت أسماء يونانية ورومانية .

وفى القرى تولى المصريون خلال الفترة المسيحية مسئولية المحليات ، ومن الأمثلة على ذلك المحامى فلافيوس ديسقورس صاحب الشكاوى الشهيرة للإمبراطور، وتمتعت أرضه بحق الجباية الذاتية ، وكان يعد أكبر أعيان قريته ، ووصف فى البرديات بأنه رئيس مجلس القرية ، وكان يملك مائة أرورة .

بدأت الفترة المسيحية بالتعامل مع مجتمعين فى دولة واحدة يكادا يكونا منفصلين فى جنسياتهم وثقافتهم وحياتهم الاجتماعية ، وتدريجيا تغلب العنصر المصرى وتغيرت صورة المجتمع وتتضاءلت الفوارق العرقية بين العواصم والريف ، فأصبح التميز على أساس طبقى لا كما كان على أساس جنسى ، ولم تعد فروق فى العاصمة بين فئات سكانها قاطعة على أساس الجنس كما كانت بين فئة اليونان والرومان ، وتلك النظرة الدونية للشعب المصرى كمواطن من الدرجة الثالثة .

فقد بدت الإسكندرية منذ نشأتها كمدينة يونانية خالصة غالبيتها من عناصر أجنبية ناقصة وانتهت ، وكمدينة مصرية بها جاليات أجنبية ذات مزايا .

الإسكندرية

كانت لؤلؤة البحر الأبيض، المدينة التى ظلت لمدة تسعة قرون محورا ومركزا للثقافة العالمية ؛ على أرضها ازدهرت أكاديمية الإسكندرية ، وأضاءت العالم بفلاسفتها وأساتذتها ومكتباتها ، وفيها ظهرت بوادر الدين المسيحى الأولى ، ومنها خرج علماء وأساقفة الدين المسيحى أورجين وأثناسيوس وآباء الكنيسة الأولى ، وعلى أرضها تفجرت صراعات مذهبية .

ولم تكن لؤلؤة الفكر فقط ، بل كانت لؤلؤة التجارة والاقتصاد، موقعها المتميز جعل لها أهمية تجارية وعالمية ومحلية ، التقى على أرضها أجناس من البشر تعلموا أو تاجروا ، يونان رومان سوريون وليبيون وفرس، هذه المدينة الكوزموبوليتانية ظلت حتى الخمسينات من القرن العشرين مدينة تذخر بعناصر أجنبية من يونان إيطاليين وأرمن ويهود ..إلخ ، كتب عنهم لورنس دوريل رائعته "رباعيات الإسكندرية" ، وعاش فيها وكتب عنها كفافيس أشعاره ، فخاصيه الجدل الإنسانى لهذه المدينة ظلت قائمة ، وإن كان الوضع مختلف من كونها مدينة وطنية مصرية وبين وقوعها تحت سلطة أجنبية تفتح المجال أمام الأجانب غلى حساب المواطنين .

المدينة التى وصفت بأنها مجاورة لمصر ، وفى وثيقة على شاطئ مصر، المدينة أنشاها الإسكندر وفقا لأحدث قواعد تخطيط المدن آنذاك ، فاختار لها شريطا من الأرض الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر المتوسط لجفافها وارتفاعها على مستوى الدلتا ، وبعدها عن رواسب فرع النيل الكانوبى وسهولة وصول مياه الشرب إليها ، حيث كانت تمدها بالمياه قناة كبيرة تتفرع عند سيخيديا قرية النشو قرب كفر الدوار ، ولقد وصفها استرابون فى القرن الأول الميلادى بأنها المدينة الوحيدة فى مصر كلها

ذات الموقع الصالح للأغراض التجارية البحرية وللتجارة الداخلية ، بسبب أن النهريحمل وينقل بسهوله كل البضائع إلى هذا الموقع ، وكذلك فهى أكبر سوق فى المعمورة .

هذه المدينة وصفها بطل قصة أخيلس تاتيوس : " مدينة فخمة مقسمة إلى ميادين ؛ هناك مجموعة الأعمدة التى تتقاطع مع غيرها ذات زوايا ، جعلتنى أحدق فى كل شارع ولكن عينياى لم تكتفيا ولم استطع أن استجمع كل جمال المكان بعض الأماكن رأيتها وبعضها بإمكانى أن أراه وبعضها رغبت فى رؤيته وبعضها لم استطع أن أمر به" .

ولقد وصفها كل من المؤرخ يوسفوس وبلنيوس واسترابون وأميانوس ماركلينوس؛ أمام هذا الشريط من الأرض الذى تقع عليه المدينة كانت جزيرة فاروس التى وصلت الأرض بالشاطئ عن طريق جسر أطلق عليه اسم هيبتاستاديون Heptastdium لأن طوله كان استادا حوالى ١٣٠٠ مترًا نشأ عن ذلك ميناءان أحدهما إلى الشرق ويدعى الميناء الكبير ، والآخر إلى الغرب يدعى يونوستوس.

وخلفه يوجد ما يسمى بالصندوق Kibotos حيث توجد أحواض السفن وتنتهى عند القناة التى تربطه ببحيرة مريوط، وهذه القناة فى الطريق الرئيسى لنقل التجارة داخل البلاد إلى الإسكندرية ، ويذكر استرابون أن الميناء الواقع على البحيرة كان أكبر من الميناء البحرى وأن صادرات الإسكندرية كانت أكبر من وارادتها ونستطيع أن نلاحظ ذلك لو كنت فى الإسكندرية أو فى ديكارخيا ميناء بوزلى الإيطالى ومن الناحية الغربية وجدت الأرصفة وبجوارها المركز التجارى Emporion ومخازن البضائع Apostaees وكذلك أحواض السفن Heoro التى تمتد حتى جسر الهيبتاستديون ، وعند وصول البضائع من الخارج كانت تودع فى المخازن ثم تنقل إلى الأمبوريون، الذى كان فى الوقت نفسه مركزا تجاريا عاما مثل ما كانت عليه الحال فى أثينا، وعلى قرية راكودة كانت دار الصناعة وكانت تقع على بعد ١٢ ميل من الفرع الكانوبى وترتبط ببحيرة مريوط .

فالمدينة خططت فى البداية لتكون عاصمة لحضارة بتخطيطها الذى قام به المهندس دينوقراطيس[٣].

وجعل المنطقة على هيئة العمارة المقدونية بشوارع متقاطعة على اليمين واليسار ، حيث خصص خمس هذا الموقع للحى الملكى ، وتم تقسيم الإسكندرية إلى خمسة أحياء حملت الحروف الأبجدية اليونانية ألفا - بيتا - جاما - دلتا - ابسلون ، وتمثل الحروف الأولى لخمس كلمات يونانية وترجمتها الإسكندر الملك ابن الإله.

وخططت على أساس وجود شارعين رئيسين الأول العرضى من الشرق إلى الغرب وفى وسط المدينة ، وهو المعروف بشارع كانوب ومن الغرب باب سدرة، أما الشارع الطولى الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب فهو يقابل الآن شارع النبى دانيال، وكان يحده من شماله بوابة القمر ومن الجنوب بوابة الشمس ، هذا وتتقاطع مع الشوارع الطولية والعرضية شوارع فرعية موازية لهذين الشارعين الرئيسيين مكونة ما يشبه قطعة الشطرنج.

أما الأحياء فهى حى الدركيون ؛ وهو الحى الذى تقع فيه معظم القصور ويمكن تسميته بالحى الملكى ، حيث كان يشمل المنطقة الواقعة بين البحر وبين ما يقع من الشارع الكانوبى وبين ميدان الهيباستاديوم وميدان الجمنازيوم، وكان يضم جميع القصور والمكان ومراسى السفن ومعبد الأرسينوم ثم المسرح والمكتبة والمعابد والمقابر الملكية حتى السوما ، ويشمل كومه الدكة الآن والمرتفعات الواقعة على هذا التل ، وفى كل حى يوجد عدد من الشوارع الجانبية ، فأمام المسرح فى كوم الدكه شارع يعود للقرن الرابع ، فهناك إضافات على فترات زمنية ، واستعمل الشارع عبر عدة قرون ، ثم حتى الموسيون وهو حى الأكاديمية التى أنشاها بطليموس هو والمكتبة وهو أصغر الأحياء [٤].

حى ميدان السباق وهو فى الجزء الشرقى من المدينة، وكان يقطعه الشارع الكانوبى ويشتمل على ميدان السباق وكان أكبرها فى المساحة وأقلها فى السكان، حى راكوتيس وهو الحى الوطنى وكان يسكنه المصريون . ولقد ضمت المدينة مبانى ومعابد اكتسبت شهرة كبيرة عبر العصور . واكتسبت المدينة طابعا حاضريا ، وأشهر

تلك المنشآت الموسيون وهى أشبه بأكاديمية ، وكلمة موسيون تعنى أصلا ربات الآداب والفنون والتاريخ والفلك ، وأصبحت علما على المعاهد الثقافية ، ولقد أسس هذه الأكاديمية بطليموس سوتير الذى استدعى ديمتريوس فاليروس تلميذ أرسطو وأمره أن يقيم معهدا على نسق المتحف الأثينى ، ولكن الموسيون أو المتحف السكندرى سرعان ما اختلف كثيرا عن نموذجه الأثينى ، فقد كان أكثر غنى وأعظم ضخامة لأن الاعتمادات المالية كان يديرها الكاهن المعين حيث كانت الأكاديمية أساسا للبلاط تحت حكم القصر(٥).

ولم يكن الدارسون والعلماء والمحاضرون الذين تدعوهم الجامعة ملتزمين بنفقات الدراسة بل كانوا يتابعون دراستهم بدعم من الدولة ، ولكن الموسيون اقترب منذ بداية القرن الثالث الميلادى، وفى فترة حكم الرومان من الوظيفة التعليمية حين اضطر علماؤه إلى تخصيص قاعات للتدريس لمن يريد من طلاب العلم لقاء أجر بعد أن أوقف الإمبراطور كراكلا دعم الحكومة المادى للموسيون (٦) ، فتوافد عليه طلاب من الإسكندرية فى أنحاء مصر وخارجها، ومما يجدر بالذكر أن الطلاب الأجانب من دارسى العلوم وخاصة الطب استمروا يفدون إلى الإسكندرية حتى نهاية القرن الرابع على الأقل ، ثم مكتبة الإسكندرية الشهيرة والتى كانت ملحقة به وتضم من ٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧٠٠,٠٠٠ كتاب ، وكان بها كتالوجات مفهرسة فى ١٢٠ لفافة (٧) ، ولم تقتصر المكتبة على المؤلفات اليونانية بل وجد بها برديات مصرية وعبرية وفينيقية وغيرها ، ولقد تولى لرئاستها أفضل العلماء، كما تردد عليها مثقفو العالم القديم .

ومن المعالم الهامة المهمة التى لعبت دورا فى تاريخ الفترة معبد السرابيوم ، وهو معبد الإله التوفيقى بين المصريين واليونان ، ويرى فورستر أن الديانات المشتركة هى سمة من سمات العالم القديم ، ففكرة أن أحد الأديان خطأ ، بينما الآخر صحيح هى فكرة مسيحية أساسا ، وهذا لم يحدث عند المصريين ولا عند اليونانيين ، وكان كل منهم يعبد آلهته مثلما يتكلم لغته ، ولكنه لم يفكر أبدا أن آلهة جاره غير موجودة ، بل ربما يؤمن أنها آلهته واتخذت أسماء أخرى ، عملية التزاوج والاندماج بين الآلهة اليونانية والمصرية لم تلق أى استهجان من الجانبين (٨) ، ولقد جسد بطليموس سوتير

هذا فى أن جعل لمدينته الجديدة إلها جديدا وأعطى التقاليد المحلية اسما وتمثالا ليجسد ما كان موجودا بالفعل فى أسلوب عاطفى ، فكان أوزوريس معبودا فى راكودة – القرية المصرية ، فأضاف إليه العجل أبيس معبود ممفيس وتم إحياء عبادته ودمج اسمه فالأصل والاسم للإله الجديد مصرى إلا أن مظهره يونانى ، وملامحه مثل الإله زيوس ملتحيا وينسب التمثال إلى المثال اليونانى برساكيس ويظهره فى ملابس يونانية ، ولقد كان يشبه – أيضا – اسكلابيوس إله الشفاء ، ولقد أنشئت له المزارات المقدسة عبر مصر ، وكان بناؤه المعمارى ذا طابع يونانى ، وكان عبارة عن قاعة فسيحة فى نهايتها يوجد قدس الأقداس ومع مرور القرون أضيفت إليه سمات أخرى ، بل أنشئت داخله المكتبة الثانية العظمى بالإسكندرية ، والمسماة الابنة وظلت مكتبة السرابيوم قائمة باعتبارها مركزا علميا ، وزادت أهميتها بعد حرق المكتبة الأولى فى عهد بومبى ، ثم تم تدميرها فى عهد ثيودسيوس الأول ٣٩١ م على يد ثيوفيلوس والرهبان ، لاعتبارها فى رأيهم قاعدة للوثنية .

المنارة : وكانت من أحد أهم معالم الإسكندرية منارة فاروس، وبما أن الساحل مكون أساسا من الطمى فإن من الصعوبة رؤيته من البحر، ولذا كان من الضرورى أن يتم تحديد موقع المدينة بواسطة منارة وكان ارتفاعها أكثر من أربعمائة متراً وكانت أكبر إنجاز للعقل السكندرى ، بناها سوزتراوس كقلعة ومنارة ومحور الدفاع البحرى ، وتطل على كل من مينائى الإسكندرية وخاصة الشرقى حيث القصر الملكى .

ثم بنى **Sebasteum** وهو معبد أغسطس وفى مواجهة الميناء ، وهو مبنى ضخم يحيط به كثير من التماثيل والصور الذهبية والفضية ، ثم معبد القيصرون وبنته كليوبترا السابعة ، وكان به مكتبة ، ولقد ظل القيصرون قائما فى العصر البيزنطى ، ولكن تغير طابع استخدامه ، فلقد ذكر فى وثيقة تعود لعام ٤٩٩ – ٥٠٠ م بأن المكان استعمل فى وزن النقود **P.oxy 4399** وعبر الفترات الزمنية المختلفة حدثت إضافة لكثير من المنشآت فى المدينة وازدانت بالمسلات ، ومبنى الأرسنيون **Arisnoeen** بناه الملك البطلمى لأخته ارسنوى (٩) .

والمسرح الشهير حيث كان مركزا للتجمع ، ودوره الثقافى الذى حظى بشهرة فى عهد بطليموس الثانى حتى صار أشهر مسارح العالم القديم ، وكانت رابطة المسرح يرأسها الشاعر كليماخوس .

بالإضافة إلى عديد من المنازل والفيلات والمصانع والبيوت المالية والتجارية ، فكل عصر إضافة جديدة وتطور مع ازدياد أهميته الثقافية والتجارية ثم أضيفت المعابد وحلت الكنائس والأديرة ، فالتطور المعمارى والحضارى يختلف وفقا للفترة الزمنية ، واختفت شوارع وظهرت أخرى وفقا للاكتشافات الأثرية ، فالشارع الذى يمتد أمام المسرح فى كوم الدكة وأقيم فى القرن الرابع على أنقاض منزل من القرن الأول [١٠] .

مجتمع الإسكندرية اليونانية

تعددت نوعيات السكان التى عاشت فى هذا المجتمع الجديد ، فهى لم تكن مدينة جديدة الموقع فقط ، بل التكوين أيضا تختلف عن مدن مصر بمواطنيها من السكان الوطنين وطابعها ، فإذا وضعنا فى الاعتبار نوعية السكان التى عاشت على أرض هذه المدينة كان اليونان هو العنصر الرئيسى، وكان الإغريق والمقدونيون ينقسموا إلى قبائل عدة من أيونيين ودوريين والأيوليين ومن الإغريق القادميين من بلاد الإغريق الأصلية ، وقسموا إلى قبائل وأحياء Demai,phylas، وكان هدف البطالمة من إنشاء المدن بالإضافة إلى الإسكندرية أن أنشأوا مدينة بطلمية ، وكان هدفًا مخالفًا تمامًا لم ارتآه الإسكندر ، وكان الهَدفَ لهُ من إنشاء المدينة هى أن تكون بوتقة يختلط فيها الإغريق ، أما اليونان فقد كان هدفهم محاولة لحفظ جماعات من العنصر الإغريقى دون الاختلاط بالأهالى من المصريين ، حتى لا يفنوا فيهم بمرور الزمن ، ولم يكن جميع الإغريق الذين عاشوا فى المدن اليونانية بمصر وخاصة فى مدينة الإسكندرية مواطنين فيها ، بل كانت المواطنة قاصرة على العناصر المختارة ، أما الإغريق الآخرون فلم يتمتعوا بحق المواطنة وكانوا رعايا الملك مباشرة [١١] ، وكان لهم نظام آخر يعوضهم عن حرمانهم من حياة المدينة السياسية وهو نظام Politeuma رابطة تضم جميع أبناء الوطن الواحد من بعض الفئات الإغريقية والمتأغرقة ، فوجدت بوليتيوما للمقدونيين وأخرى لليهود وثالثة للكريتيين ورابعة للبيونيين ، وهى هيئات مستقلة ذات نظام خاص يغلب عليه الطابع العسكرى ، ولكن كان لها - أيضا - وجه آخر من النشاط الاقتصادى والدينى ، وفى البداية كانت كل بولتيما قاصرة على أبناء جنس بعينه ، ولكنها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن .

إذن فالمدن نشأت بوصفها مستعمرة أجنبية على أرض مصرية ، فإذا كان اليونان بشعبهم المختلفة يمثلون قمة المثلث ، فهناك عنصران آخران : اليهود والمواطنون أهل البلد الأصليون ، والذى نضطر لوضعهم فى نهاية القائمة وفقا لتواجدهم فى تلك المدينة .

اليهـــود :

كان اليهود يمثلون عنصرا أساسيا من السكان سكنوا الحى الرابع فى العصر البطلمى، وكانت أعداد اليهود قد جاءت إلى مصر عبر فترات مختلفة، وقد لجأ إليها أعداد أخرى من اليهود الذين نجوا من السبى، ولقد أورد يوسفوس قصة – "وإن كان لا يستند إلى أدلة " وتعود لعهد الإسكندر – وهى أن بعض اليهود كان فى صحبة جنود سنبلط الذين حاصروا صور وأنه أحضرهم معه إلى مصر وأشار لوجود حامية فى جزيرة الفنتين على حدود مصر الجنوبية[١٢] .

وقدر يوسفوس عدد اليهود فى فترة حكم بطليموس الأول بمائة وعشرين ألفًا لكن هذا العدد مبالغ فيه إذا قورن بعدد اليهود الذين كانوا فى الأسر البابلى ٥٨٧ ق م ، فقد كان عددهم لا يتجاوز ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ يهودى .

وديدور الصقلى ذكر أن عدد سكان الإسكندرية الأحرار فى الفترة الأخيرة من الحكم البطلمى هو ثلاثمائة ألف شخص وإذا أضفنا مائة ألف آخرين ممن لم يسجلوا أحرارًا مثل العبيد وبعض الأهالى النازحين من الريف دون أن يكون مقيدين ، فإن مجموع سكان الإسكندرية يكون خمسمائة ألف ، وقدر سكان مصر ككل بثمانية ملايين

لهذا لا يعقل أن يكون اليهود ثلث سكان المدينة مهما تضخمت أعدادهم ، ونستطيع القول أنه منذ بداية الحكم البطلمى بدأت تزداد أعداد اليهود للاستفادة من فرص الثراء التى توفرها تلك المدينة التى أصبحت صاحبة المكانة الأولى فى تجارة البحر المتوسط ، ولقد سمح البطالمة لليهود بوصفهم من جماعات الأجانب بتشكيل جاليات وتشكيل مجالس خاصة بهم ، وكان لهم طائفة من الشيوخ ، وذكر استرابون

الذى زار مصر مع الفتح الرومانى أنه كان على رأس جالية الإسكندرية زعيم يحمل لقب اثناريخيس Ethnarches ولهم مجلس شيوخ كالسنهدرين فى فلسطين ، وكان اليهود الذين هاجروا إلى مصر قد نسوا اللغة العبرية فأرسل بطليموس الثانى إلى الكاهن الأعظم فى أورشليم يطلب منه أن يرسل رجالا ليترجموا التوراة ، فأرسل عددا من العلماء وكان عددهم سبعين شيخا وترجموها فى اثنين وسبعين يوما فعرفت بالسبعينية.

ولقد تأثر عدد من اليهود بالمجتمع الإغريقى وكان لهم فلاسفة مثل أرسطوبولس، والتحقوا بالجمنازيوم وأطلقوا على أبنائهم أسماء إغريقية وترجموا أسمائهم إلى اللغة الإغريقية، وساهموا فى الأدب السكندرى . وأكد أبابيان على وجود تلك التأثيرات اليونانية لمجتمع اليهود فى الإسكندرية وكيفية فقده لخصائصه ولغته (١٣).

بنى اليهود عددا من المعابد Synagogue، وكان لليهود نوع من المحاكم المحلية التى لا تتعدى سلطة التحكيم، أما القضاء الجنائى فهو تحت طائلة القانون الرومانى، والمؤرخ اليونانى بوليبيوس حين حضر إلى الإسكندرية فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد لم يلحظ أى صفة تميز اليهود بل عدهم جميعا إغريقا، فلقد تأغرق اليهود ليحافظوا على امتيازاتهم وقلدوا الحاكمين الجدد .

المصـــريون :

قامت المدينة على رقعة كان يشغل جانبا منها عدد من القرى المصرية، والمنطقة التى وجد بها المصريون هى المنطقة الصناعية، وكان تقسيمهم وفقا لأعمالهم وحرفهم ، فيذكر هيردوت أنهم ينقسمون لسبع طبقات الكهنة والجند ورعاة البقر ورعاه الخنازير ورجال القوارب(١٤) ، ولكن لا تمثل هذه الفئات العدد الفعلى للسكان المصرين فهناك فئات أخرى . كان أفراد كل مهنة منظمين تنظيما دقيقا ، فالإغريق هم العنصر الحاكم المتميز والمصريون هم العنصر المحكوم المحجم فى مناطقه باستثناء الكهنة، ولكن بدأ وضع المصريين يتحسن خلال الحكم البطلمى ، ودخلوا

الجيش البطلمى ٢١٨ ق م ، حيث جند بطليموس الرابع عشرين ألفا منهم فى رفح ٢١٧ ق م وظهرت أسماء قيادية فى الجيش والقصر والإدارة ، ولقد كثرت الثورات التى قام بها المصريون ضد الأسرة الحاكمة فى الإسكندرية ، وشغلت فترات طويلة فى النصف الثانى من العصر البطلمى .

ولقد اتخذ بعض المصريين الذين عاشوا فى الإسكندرية أسماء إغريقية وارتدوا ملابس إغريقية ، وقلدوا اليونان فى حياتهم(١٥) .

ومنذ منتصف القرن الثانى ق م عقدت عقود زواج بين اليونان والمصريين ولم يعد الاسم يدل على جنسية خاصة أو فئة دينية فقد حمل اليونان واليهود والمصريون فى الإسكندرية نفس الأسماء (١٦).

ولم تكن الإسكندرية قاصرة على اليونان واليهود والمصريين بل هناك أجناس مختلفة من ليبيين وسوريين وفرس وأثيوبيين جاءوا للتجارة أو للعلم ، بعضهم تاجر أو درس ثم عاد إلى بلاده وبعضهم استقر فى المدينة .

وكانت اللغة المستعملة اليونانية بوصفها لغة للإدارة والثقافة ، ثم اللغة المصرية لغة الأهالى انقسمت إلى شعبتين : لغة هيروغليفية ، واللغة العامية التى تكتب بالحروف الديموطيقية ، وهذه اللغة الأخيرة وحروفها داخلها كثير من التأثيرات اليونانية، أما المراسيم الملكية والقوانين التى يقصد نشرها بين جميع السكان فكانت تنشر عادة باللغات الثلاث العامية واليونانية والديموطيقية (١٧).

الإسكندرية بين الرومان والبيزنطيين

مع نهاية الحكم البطلمى حدثت تغيرات جذرية فى مجتمع الإسكندرية ؛ أولها تغير جوهرى فى وضع المدينة ، فقد أصبحت ولاية رومانية ولم تعد عاصمة مستقلة للدولة كما كانت ، ودخل عنصر جديد على التكوينة الاجتماعية ، عنصر مسيطر حاكم كان من الطبيعى أن يمثل الشريحة العليا ، وكان من الطبيعى - أيضا - أن أهالى الإسكندرية وغالبيتهم من اليونان يشعرون بكراهية للرومان السادة الجدد ، فهذه الفترة شهدت ثورات دائمة وشغبا فى المدينة التى تضىء علما وثقافة وثراء ، واعتبرها الرومان ثم البيزنطيون من أكثر ولاياتهم إثارة للشغب والمشاكل ، فهى دائمة الثورة والرفض ، ساخرة من حكامها الرومان سلقهم أهلها بألسنة حداد وبنكات .

كانت طبقة الرومان تتكون ممن جاءوا للعمل بوصفهم موظفين للإدارة أو الولاية وجنودا للجيش الرومانى ورجال أعمال وتجارا ، ولقد استقرت أعداد منهم فى مصر وكونوا جالية كان مركزها الرئيسى فى الإسكندرية .

وكانت الحامية الرومانية تضم أفرادا من جميع أنحاء الإمبراطورية وعند تسريحهم منحوا الجنسية الرومانية، العدد الأكبر كان من مواطنى الولايات الرومانية وخاصة فى المائة والخمسين عاما الأولى ، وكثير منهم آثر البقاء فى مصر، وبعد ذلك زاد عدد الجنود المصريين وأصبحوا الغالبية فى جيش مصر البيزنطية، وكان الجيش ومؤسساته العسكرية تتمثل فى ثلاث حاميات ، ثم خفضت إلى اثنين وأخيرا إلى واحدة وبدأ تدريجيا يفقد شخصيته اللاتينية (١٨) .

دخلت العناصر الإغريقية والمصرية المتأغرقة أولا فى القوات المساعدة Auxilia ثم إلى الحاميات الرئيسية به ، وكان القانون الرومانى يمنع زواج الرومان من المصريين

واختـلاطهم بهـم ، ولكن الجنـدى الذى يقضـى خمسـا وعـشرين سـنة فى الجـيش لا يستطيع أن يظل طوال فترة تجنيده عزبا فى معسكر فحدث زواج بالمصريات، وعند تسـريح الجنود اضطرت الدولة للاعـتـراف بزواجـهم Epigamia الذى تم بصـورة غيـر قانونيـة ، وكان الجنود وزوجاتهم وأبناؤهم يمنحون المواطنة الرومـانيـة ، وكـان أبناء هؤلاء الجنود يجندون عادة فى فرق الحاميات الرومانية، ويذكر رسميا أمام أسـمائهم أنهم من مواليد المعسكرات ، كان الرومان سـواء أكانوا ذكورا أو إناثا يسـجلون عند والى الإسكندرية فى خـلال ثلاثين يومـا من مـيـلادهم ، ولم يكن المقـصـود أن يكونوا جزءا من التعداد الرسمى، وكانت تلك الأعداد تحفظ فى Forum augustus أو فى أى مكاتب حكومية أخرى فى الإسكندرية ويصدر إعلان باللغة اللاتينية عن كونه مواطنا رومـانيـا، وكان من الممكن للوالدين أن يأخذوا نسـخـة من هذا الإعلان تأكيدا لوضـع الطفل وكذلك استخدمت صحائف من الشمع لنسخ تلك النسـخة كما حدث عند ميلاد طفلة تسمى هيرنيا كاميلا Herennia Camella ولدت فى مارس ١٢٨ م ، ونتج عن عدم شـرعيـة الزواج بين الرومـان وغيـرهـم وضـع غـريب، فـهـناك امـرأة مـحـررة أنجـبت توأمين ولم تكن تستطيع تسجيلهم لأنهم أبناء غير شرعيين؛ لأنها كانت خليلة لرومانى ولا يستطيع الزواج بها ، فـأعلنت فى وثـيقة أنها تضع نفسـها تحت وصـاية شـخص رومانى ، وهو فى الوقت نفسه أبو الأطفال وأعلنت فى الوثيقة أنها تضع نفسـها تحت وصـاية Caius Julius Saturninus وفى حضـور سـبـعة شـهـود ، وأنهـا لديهـا ولدين عينت اسـميـهمـا ، وأن أباهمـا مـجـهـول فى حين أن الوصـى كان الأب الحقيقى ولا يستطيع الاعتراف بالأولاد (١٩) .

واشـتـغل بـعـض الرومـان بالتـجـارة التى كـانت تمثل عنصـرا رئيـسـيـا فى الإسكندرية ، وأقامت الإسكندرية عددا من البيوت التجارية ؛ وهى مؤسسات اشترك فى تكوينهـا أكثر من فـرد ، كذلك انتشـرت فـيـهـا المصـارف الكبـرى ، وكان لبنوك القسطنطينيـة فـيـمـا بعـد فروع ومندوبون فى مـدينة الإسكندرية ، وشـارك عـدد من الرومـان ثم البـيـزنطيين فى هذه التـجـارة واسـتـقـروا فى مـصـر، ولقد ازدادت مكانة الإسكندرية بحيث أثر ذلك على موانى إيطاليا نفسها كميناء بيتولى "بوزولى" الذى فقد أهميـتـه الاقتـصـادية ، ولم يسـتطع تجار إيطاليا منافسـة الإسكندرية فى التـجـارة ،

واسـتـغل تجـار الإسكندرية هـذا الوضـع ووصلوا ببـضـائعـهم إلى بيـتـولى وديلوس ، وأقاموا لأنفسـهم مـحـلات ومسـتودعـات ، ولقد اسـتـمر ظهور تجار الإسكندرية فى ولايات ومدن الغرب خلال العصر البيـزنطى ، ولم ينافسـهم إلا تجار القسطنطينية نفسها ، وهذا الثراء جذب عدداً من الرومان للتجارة وللاستقرار، كذلك منح الجنود أراضى Geklerouchike ولقـد فـضـل عـدد كـبـيـر منهم الاسـتـقـرار فى الإسكندرية واستثمار أموالهم فى استصلاح وزراعة ما عرف باسم الأوسية Ausia وكانت الأرض تمنح لهم مجانا أو بقيمة اسميه ، وهى إما معفاة من الضرائب أو بضرائب مـخفضة، ولقد استفاد الجنود السابقون وأعضاء البيروقراطية العسكرية من وضعهم فى مصر واستكثروا من الأراضى وأصبحوا يحتلون مكانا ساميا فى الطبقة الأرستوقراطية فى الولايات ، وجندى اسمه بوبليوس فيبوس كان جنديا وحاجبا للحاكم العام فى مـصـر ثم أصـبـح بعـد ذلك عـضـوا فى مـجلس الإسكندرية ، وذا أرض، وأشـرف على أعماله بعد موته وكيل أو وصى نيابة عن ورثته ٢٦٦ - ٢٦٨م [٢٠] .

فهناك ملاك أرض وجنود وتجار من الرومان كونوا طبقة خاصة فى بداية الحكم الرومانى ، وفى الفترة التالية امتزج الرومان بالبيئة التى حولهم اقتصاديا واجتماعيا ودخلوا فى معترك الحياة السكندرية .

ففى الفترة الأولى وما تلاها كان الوالى ومساعديه والأسنارخوس وقادة الجيش الرومانى وأغلب التجار أصحاب البنوك رومان ، ولكن ظهورهم فى الإسكندرية كان يجب أن يعلن أو يصدق عليه .

ولقد انضم إلى الجالية الرومانية مع الوقت عدد كبير من أبناء الطبقة الممتازة فى مصر الذين سمحوا لهم بالخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى ، وكذلك عدد من طبقة السكندريين الأرستقراطية الذين حصلوا على الجنسية الرومانية ، فهناك التطلع إلى الانتساب إلى الطبقة الحاكمة ، وحملت أسماؤهم اسما رومانيا ، وعادة اسم الإمبراطور الذى منحوا فى عهده الجنسية وغالبا اسم يونانى دليل على أصله الأول ، وربما ظهر ذلك نتيجة للزواج المشترك ، ودخلت أسماء يونانية على الرومان ، ولقد أخذ منهم كبار موظفى الدولة وأعفوا أحيانا من بعض الضرائب ، ومن الخدمات

الإجبارية ، وتولوا الوظائف فى المحليات، وكان هذا فى بداية الحكم الرومانى وقبل أن يمنح كراكلا المواطنة الرومانية للجميع فى الإمبراطورية كاعتراف بأمر واقع لعملية التداخل بين الرومان والشعوب الخاضعة ، و Polybios الذى زار الإسكندرية عام ١٠٠ م "ذكر ثلاث عناصر من السكان ؛ المواطنون المصريون ووصفهم بأنهم حادوا الطباع غير مستعدين لتقبل الحياة المدنية .

الفرق المأجورة لم يعد بإمكان الدولة السيطرة عليها ، بعد أن فرضت رأيها على الدولة ، والسكندريون الذين كانوا أقل عنفا ويميلون إلى الحياة المدنية ، وهم خليط وإن كانوا إغريقا فى أصولهم ولم ينسوا طريقة الحياة الإغريقية " .

وفى الإحصاء أو التقرير الذى يعد كل أربع عشرة سنة وخاص بالدخل تضمن وثيقة تخص شخصًا اسمه ثيرموت هريوم Thermout Harlom ذكر مع أبوللونيوس ضامنه وكفيله ، وقد أقسما بتيبريوس كلوديوس الأغسطس ودومتيانوس الإمبراطور، وأنه بكامل قواه العقلية " ، لقد سلمت أسماء أولئك الذين يعيشون فى منزلى وليس هناك أى مواطن سكندرى أو محرر رومانى أو مصرى ماعدا الأسماء سابقة الذكر [٢١].

فهنا التقسيم بين رومانى ومصرى وسكندرى كوضع اجتماعى مختلف غير متعادل كان خلال الفترة الأولى ، ولكن مع الفترة البيزنطية وانتشار المسيحية اختلف الوضع وإن ظل الرومان فئة مميزة .

السكندريون :

طبقة ممتازة حصلت على كثير من الامتيازات ، ومن ثم أصبح لفظ المصريين يطلق على جميع سكان مصر عدا السكندريين من إغريق ويهود ومصريين ، وغيرهم ممن استقروا فى الإسكندرية ، فيذكر حنا كريستموس Chryostoms" فم الذهب" فى حديثه عن الإسكندرية فى القرن الخامس الميلادى أنه رأى أفواجا من الإغريق والإيطاليين والسوريين والليبيين والفنيقيين والأثيوبيين والعرب ثم الهنود والفرس ، كثر

ترددهم عليها فى عهد جستنيان وأثناء فترة الصلح مع الفرس ، ولقد بلغ عدد سكانها فى القرن السادس ستمائة ألف نسمة وكان عادة الرومان اصطناع بعض الأقليات كإيجاد أقلية أرستقراطية أو أقلية يهودية متعاونة يمنحوها الامتيازات .

ولقد أعفى السكندريون من ضريبة الرأس الذى فرضت على كل المصريين ومنحوا حق الالتحاق بالجيش الرومانى ، كذلك كان لهم ميزة اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة ، ولقد كانت سياسة البيزنطيين قائمة على حرية التجارة ، فاحتفظ الأباطرة بالمكوس المعتدلة عند تخوم جميع الولايات وخاصة الإسكندرية ، حيث شجعوا أصحاب السفن والتجارة الذين كانت الدولة فى حاجة إلى خدماتهم كنقابة تجار الإسكندرية ومنحوهم الامتيازات وأعفوهم هم وحرفى الإسكندرية من السخرة فى نظافة القنوات ومجارى المياه ، وكان المصدرون وأصحاب السفن من السكندريين من أغنى الطبقات ، وبالتالى يمثلون شريحة عليا .

ومنذ القرن الرابع الميلادى تملك بعض أثرياء الإسكندرية أراضٍ فى عدد من الأقاليم بعد أن تم السماح بتمليك الأراضى ، ولم تعد قاصرة على الإمبراطور ، وكان لابد لهذه المدينة من أوجه صرف على منشآتها المتعددة ومبانيها العامة من حمامات وساحات سباق ، فخصصت أراضٍ عرفت بأنها أراضٍ تتبع مدينة الإسكندرية للصرف على تلك المنشآت، ففى بردية هرموبوليس " الأشمونين " وتعود للقرن الرابع الفترة من ٣٣٠ - ٣٥٠م ورد ذكر أشخاص يسكنون فى الجزء الغربى من أنطونيوبوليس " الشيخ عبادة " ويؤجرون ممتلكات تضمنت مائة أرورة لمدينة الإسكندرية .

وهنا تظهر الازدواجية التى تدخلت فيها الأضداد فأهل الإسكندرية سعوا للحصول على مواطنة رومانية والتى تعد درجة أعلى من المواطنة السكندرية التى يتمتعون بها ، حيث فقدوا تميزهم كسكان عاصمة الدولة وأصبحوا فى وضع أدنى من الرومان ، وهذا ما لم يستطيعوا نسيانه أو تقبله فى الوقت نفسه الذى ناصبوا روما العداء ، فهم دائمو السخرية من الحكم الرومانى وحكامه ، فقد حرمهم الرومان من مجلسهم التشريعى **Poule** حتى يمنعوا طرح أفكار سياسية وحوار سياسى قد

يؤدى إلى إثارة المشاكل والفتن ، فى حين منح اليهود كطبقة متعاونة معهم موقفا متساهلا واعترف بامتيازاتهم وخاصة مجلس الشيوخ الخاص بهم ، ولقد أدى هذا إلى إثارة السكندريين عليهم واتخذ الرفض للحكم الرومانى بالنسبة للسكندريين مظهرين للتنفيس عن غضبهم المكبوت فى أسلوب السخرية من حكام الإمبراطورية وفى الحرب والثورة على اليهود التى استغرقت فترة طويلة فى تاريخ الإسكندرية الرومانية ، كذلك مساعدة العناصر الثائرة على الحكم الرومانى ثم مناصبة بيزنطة العداء والانضمام للكنيسة فى الفترة البيزنطية .

وبالنسبة للأسلوب الأول الذى اتخذه السكندريون أو أسلوب السخرية من النظام وحكامه فقد كلفهم فى بعض الأحيان كثيرا ، ولقد أطلق الأهالى على الإمبراطور فسبسيان عند زيارته للإسكندرية اسم أبوستة أوبل " يعادل ثلاثين قرشا" طالب بها أحد الأفراد(٢٢) فانتقم منهم وفرض عليهم ضريبة الرأس لإهانتهم ولكن تشفع فيهم ابنه تيتوس فرفعها عنهم .

ولقد عامل تيتوس أهل الإسكندرية معاملة طيبة ، وتيتوس هو الذى دمر هيكل أورشليم، وكذلك سخروا من كراكلا رغم أنه مانح الجنسية لشعوب الإمبراطورية ، ووصفوه بأسماء عديدة مثل قاتل أخيه فقام بتخريب المدينة وقتل عددا من شباب الجمنازيوم ، ولقد منحهم سفريوس مجلس شورى **Boula** ومع ذلك استمروا فى السخرية من حكامهم .

والمظهر الثانى تمثل فى ثورات السكندريين ضد اليهود فى الإسكندرية الذين زادت أعدادهم ، وسكنوا فى حيين : الرابع الدلتا والثانى البيتا ، ولقد ادعى يوسفيوس ثم فيلون فى هجومه على أبيون فى كتاب **Contra Apion** أنهم حصلوا على المواطنة كذبا ، كذلك بالغوا فى إعدادهم، فذكروا أن والى الإسكندرية فلاكوس ٣٢ – ٣٨ م أفاد أن فى مصر طبقتين من السكان: اليهود والإغريق ويقصد " الإسكندرية " ، وهذا قول لا يستند إلى سند حقيقى ، وكذلك ما ادعوه ، وأن عدد اليهود لا يقل عن مليون ، ولكن من المؤكد أنه فى الفترة الرومانية كانت هناك أعدادٌ كبيرة من اليهود .

لقد بدأ الصراع بين اليهود والسكندريين بخصوص ادعاء اليهود الحصول على المواطنة الرومانية ، وقام يوسيفوس المؤرخ اليهودى بالدفاع عن بنى جلدته من اليهود ، وهاجم السكندريين ، وشكك فى انتسابهم إلى الإسكندرية ، واضطر الوالى فلاكوس والى الإسكندرية لجمع سلاح الأهالى خوفا من نشوب نزاع مع اليهود ، ولكنه تفجر فعلا فى عهد كاليجولا ، وكان يلى الإسكندرية نفس الوالى ، وكان ذلك عام ٣٨ م ، وقد كان للإمبراطور صديق مقرب هو أجربا اليهودى الذى عينه ملكا على إمارة صغيرة اميتوريا " شمال شرق فلسطين" ، وعند مروره بمصر سخر منه الأهالى وأطلقوا عليه النكات ثم هاجموا الحى اليهودى بدعوى أن اليهود يرفضون إقامة تماثيل الإمبراطور فى معابدهم ، مما أدى بالوالى إلى الانضمام إليهم أو خوفا من اتهامه بعدم الولاء للإمبراطور، وهاجم هو وجنوده برفقة الأهالى الثائرين الحى اليهودى ، ولكن غضب الإمبراطور مما فعله واليه وقام بعزله ونفيه (٢٣) ، وأرسل كل من السكندريين واليهود وفدا للإمبراطور لكسبه إلى جانبه وكان رئيس الوفد اليهودى فيلون الفيلسوف اليهودى ، وذكر تفاصيل ما حدث فى كتابه " سفارة لجايوس " ، وفى عهد كلوديوس تعرض السكندريون للاضطهاد ، وقد كان الإمبراطور يميل إلى اليهود ، ووجدت برديات عرفت ببرديات الشهداء ، ورغم أن الإمبراطور منح مواطنة الإسكندرية وامتيازاتها لكل من يعيش فى الإسكندرية، باستثناء من كان من نسل جارية ، وجعل اختيار الكاهن بالاقتراع ، فقد عامل الوفد السكندرى بشدة وتعرض قادته للقتل كما حدث مع إيزدورجيمنارخوس "مسئول الجمانيزيوم " فى الإسكندرية ولامسيون ، وفى نفس البردية يصف إيزدور الإمبراطور أنه ابن زنا لسالومى اليهودية .

وفى عهد نيرون ٥٤ – ٦٨ م تغير الموقف ، إذ اتخذ موقفا من اليهود لإثارتهم المشاكل فى فلسطين ، وعين واليا لمصر كان فى الأصل يهوديا ثم ترك دينه وأصبح مواطنا رومانيا وهو تيبريوس يوليوس الإسكندر ٦٦م ، ولقد وجدت الاضطرابات التى أثارها اليهود فى فلسطين صدى فى مصر ، فلقد أرسله قائده فسبسيان لإخماد ثوراتهم ٦٦م .

وفى عهد فسبسيان تجددت ثورة اليهود فى فلسطين فأرسل ابنه تيتوس حيث سقطت أورشليم ودمر المعبد وقبض على شيوخ اليهود ورجال الدين وأخذهم فى موكب وسويت المدينة بالأرض، وفرضت عليهم جزية الإله جوبتر عرفت باسم ضريبة اليهود أو ضريبة الدينارين فرضت على كل يهودى أنثى أو ذكر بعد سن الثلاث إلى سنة ٦٢ (٢٤).

ولقد حاول بعض اليهود الذين لجأوا إلى مصر إثارة يهودها ولكن لم يلق استجابة تذكر .

وقام اليهود بثورة لإحراج الحكم الرومانى أخمدت ١١٠ - ١١٥م ، ثم قام اليهود بثورة فى برقة ، ثم امتدت لمصر ١١٥ ، وقد أثار اليهود فى مناطق الريف فى مصر كثير من المشاكل و الفتن لم يوقفها إلى وصول الفرق الرومانية ١١٦ والتعاون بين الأهالى والإدارة .

ولقد عرفت أعمال الشهداء الوثنيين بمصر Actahermici وذكر أبا أبيان أن اليهود لم يقوموا بثورة بعد عهد هادريان وأصبحوا قلة فى أى مكان بالأرض وأعدادهم لا تزيد عن خمسة آلاف (٢٥).

أما عن موقف المسيحية من اليهود فقد اتخذت موقفا معاديا منهم، ولقد هاجمهم يوزبيوس فى كتابه واعتبرهم أعداء السامية .

وقد قلص الأباطرة فى الفترة التالية من نفوذ اليهود ، فقد منع قسطنطين اعتناق اليهودية، وصدرت قرارات حرمت الزواج بين المسيحيين واليهود وصلت إلى عقوبة الموت ، كما حرموا من امتلاك العبيد ، وطبق هذا - أيضا - على فئة السامرية اليهودية ، وأبا أبيان اتهم المسيحية بأنها حاربت اليهودية وسعت لتقليصها (٢٦) .

ولقد قام البطريرك كيرلس فى ٤١٥ م بمهاجمة أحيائهم وطرد أعدادا منهم من الإسكندرية ، ولقد تراجعت أعدادهم تراجعا كبيرا فى الفترة المسيحية ، وتقلص نشاطهم الاقتصادى عن ذى قبل .

ولقد ذكر أشتور أن اليهود الذين دفعوا الجزية عند الفتح الإسلامى أربعة آلاف ، وهذا من المفترض أنه عدد الرجال ، فإذا اعتبرنا أن متوسط عدد الأفراد فى الأسرة ثلاثة أفراد يصبح العدد اثنى عشر ألف يهودى وهذا يتعارض مع ما ذكره أبا أبيان أن عددهم فى أى مكان لايزيد عن خمسة آلاف .

وبعد الفتح الإسلامى بدأ يهود الإسكندرية فى الرحيل بسبب غزو بيزنطة لشواطئ الإسكندرية ، وبعد استقرار العرب المسلمين كان فى الإسكندرية طائفة صغيرة لم يتطور عددهم إلا بعد عدة قرون فى عهد الفاطميين، ولم تكن الثورة ضد اليهود هى الثورة الوحيدة التى خاضها السكندريون ، بل أيدوا كل من يقوم بثورة ضد الرومان لكراهيتهم له ، وثار إيزيدور أحد الكهنة ١٧٢ ، ضد الرومان وكان المركز الذى انتشرت منه الثورة فى شمال الدلتا ، وكان من العنف حتى كادت تستولى على الإسكندرية ، فأرسل الرومان حاكم سوريا أفيديوس كاسيوس، ولكن كاسيوس ثار على الإمبراطور ماركوس أورليوس فى عام ١٧٥ م ، وناصرته مدينة الإسكندرية لا حبا فيه ولكن كراهية للإدارة الرومانية ، فكانوا يؤيدون كل خلاف ، ولكن الإمبراطور لم يعامل المدينة بقسوة أو يعاقبها على مناصرتها المغتصب ، بل اكتفى بعزل الوالى ، ولكن ابنه كومودوس ١٧٦ - ١٩٢ م قرر الانتقام من السكندريين ومحاكمة زعمائهم ، وأرّخَ لأمر المحاكمة فى إحدى برديات الشهداء الوثنية والتى وصف فى أثنائها الإمبراطور بأنه طاغية .

ورغم الصراعات القائمة وما تعرض له أهالى الإسكندرية الثائرون ضد الحكم الرومانى وأباطرته، فقد استمر النشاط التجارى ومارس أصحاب البنوك وكبار التجار وملاك السفن حياتهم ، وكان غالبيتهم من العناصر غير المصرية وإن بدأت الطبقة المصرية ، تشق طريقها وتخرج من دائرة التواجد المحسور فى الحى الشعبى لتتخذ لها مكانا على الصعيد الثقافى والمالى .

وهذه الثروة التى تدفقت على أثرياء الإسكندرية أغرت أحد أثريائها بالثورة ضد الرومان ، وهو تاجر جمع ثروة طائلة من تجارة البردى والصمغ العربى ويدعى Firmas فيرموس وفى عام ٢٧٢م جمع جيشا من ماله وكان على علاقة بثوار تدمر ،

ولقد أخمد الإمبراطور أورليان الثورة وحوصر فى حى البرخيون فى الإسكندرية ، ولقد تم تدمير الحى تماما وكان مركزا لأهم مبانى المدينة (٢٧).

ولقد كلفت المدينة وأهلها الكثير لتأييدهم للعناصر الثائرة على الحكم الرومانى وتعرض الأهالى لأشد أنواع العذاب، والمدينة للتخريب.

ولكنه كان لابد من التعبير عن رفضهم للحكم الرومانى ولنزول مكانة مدينتهم من عاصمة لدولة إلى عاصمة لولاية ، ولتميز الرومان ، فوجدوا فى السخرية على الرومان، والثورة سواء على اليهود متنفسًا ، بل إنه فى حقيقته ثورة على الحكم الرومانى، وفى الفترة المسيحية تحول الرفض إلى موقف مؤيد للكنسية ولبطريركها ضد الحكم البيزنطى وولاته وقواته .

وفى بعض الأحيان زادت سلطات بطريرك الإسكندرية بما يفوق سلطات الوالى وامتد نفوذه ونفوذ رهبانه عبر نواحى المدينة وأصبحوا القوة الدافعة المسيطرة ، وبعد ٤١٥ م فى مجمع خلقدونية أصبح موقف الكنيسة والشعب ضد الدولة واضحا ، وشهدت الإسكندرية اضطرابات عدة فى مواجهات بين الوثنيين والمسيحيين ، ثم دور الرهبان من الثقافة اليونانية الهلينية ، وتدمير معاقلها ، ثم أسلوب الرفض لقرارات الدولة والوقوف ضد قراراتها ومجامعها .

المصريون فى الإسكندرية

الإسكندرية هذه المدينة الساحرة التى تموج بالحياة والفكر والثراء جوهرة العالم القديم ، وهى التى نشأت مدينة أرستقراطية البشر والفكر، هذه المدينة التى تداخلت فيها عوالم عدة؛ عالم التجارة بثرائه وأسواقه وجنسياته المختلفة، وعالم الفكر بمؤسساته ومفكريه وطلبته ومكتباته وأكاديميته ومدارسه الفلسفية ومجتمعه الذى ضم طبقات متنافرة ومتآلفة من المواطنين فى منظومة غربية ضمت الرومان واليونان والمصريين والمتأغرقين والمستعمرين .

وفى الفترة الأولى بدا المصريون خطوطا باهتة ثم ازدادت الصورة عمقا وألوانا ، حيث أصبح المصرى العنصرالرئيسى فى المنظومة، بدا المصريون مع نشأة المدينة كفئة دنيا من حرفيين وصغار تجار لإمداد تلك المدينة المترفة بطعامها وخدماتها ، فحددت إقامتهم فى حيهم ، ومع الوقت وبالاختلاط الجنسى بالزواج وبانتشار المسيحية بدأ زحف العنصر الشعبى فى مجالات المال والثقافة والدين، هذه المدينة التى وصفها الأباطرة بأنها أكثر مدنهم إثارة للشغب والمشاكل، المدينة التى تسللت إليها المسيحية المناضلة الفتية فقاومتها ، ثم بدأت المسيحية المنتصرة تلعب دورا هاما فى حياة المدينة عن طريق بطاركتها ورهبانها وفكرها ، وخلال حقبة من الزمن تبدلت معالم وظهرت معالم جديدة اختفت معاهدها الفكرية، وحلت محلها مؤسسات دينية ، فتزعمت كنائس الشرق ودخلت نضالا من نوع جديد مع الامبراطورية لم يكن مألوفا فى العصر الرومانى .

ونحتاج إلى الغوص فى أعماق عوالم هذه المدينة الساحرة لنستخرج لؤلؤها من أصداف الزمن ونرى حياتها التى يتداخل فيها عالم المال مع عالم الثقافة والدين .

ولكن لكى نستطيع تكوين صورة واضحة لهذا المجتمع فى ظل المسيحية بطبقاته العليا والوسطى والدنيا نحتاج إلى الإلمام بالتطورات التى غيرت من معالم الصورة .

الطبقة العليا : إذ كنا تكلمنا عن السكندريين وعالمهم فى الفترة السابقة ومزايا المواطنة السكندرية ، فبعد منح المواطنة لسكان الامبراطورية وانتشار المسيحية، وزيادة العنصر المصرى فى المدينة الكوزموبولتين أصبح العنصر المصرى واضحا فى الشريحة العليا، فقد وصل المصريون إلى المناصب الإدارية العليا فى العاصمة نفسها، وظهرت أسماؤهم بين رجال المال وأصحاب السفن والبنوك والتجار ، وقد أوجدت عملية الزواج المختلط جيلا جديدا، بالإضافة إلى زيادة نفوذ العنصر المصرى مع زيادة مكانة الكنيسة المصرية وبطاركتها الذين زاد نفوذهم عن الولاة فى بعض الفترات ، وقد حاولت غالبية هذه الفئة اتخاذ مظهر إغريقى فى الملبس واللغة والثقافة إلى حد ما ؛ هذه الفئة التى سكنت الفيلات والمنازل الجميلة والتى اكتشفت بقاياها فى الإسكندرية، وهى تعكس ثراء وتنوقا فنيا؛ فهناك أرضيات بأشكال جميلة لطيور وحيوانات ومناظر طبيعية من الفسيفساء مذدانة بالرخام ، وتملكت العبيد والإماء والعربات التى تجرها الخيول، وترددت على الحمامات الفاخرة ذات الحجرات والماء الساخن والبارد، والتى كانت تتردد على الحى الكانوبى للهو والتسلية وقضاء الليل هناك والنزهة فى القوارب والتى تراجع أمرها مع المسيحية .

لقد كان المال وحركة التجارة هما العاملان اللذان جعلا من هذه المدينة واحدة من أغنى مدن العالم القديم، ولقد قامت مؤسسات عديدة على هذه التجارة العالمية من بنوك ومصارف وشركات سفن بحرية.

هذه التجارة بصادراتها ووارادتها والتى تدفقت عليها من تجارة خارجية وتجارة داخلية اعتمدت على منتجات مصر ومصانعها، وعلى واردات البحر الأحمر والبحر الأبيض؛ فحركة التجارة خلقت أفرادًا تملكوا الثروة التى استندت إليها الطبقة العليا، والتى ارتبطت بسلطات قوية بالدولة ، سواء من كبار موظفى الدولة وملاك السفن الذين كان عليهم نقل شحنة القمح إلى القسطنطينية ، أو من مديرى المستشفيات الحكومية وأطبائها المشهورين .

وهذا يدفعنا لرسم صورة لعالم المال وحركة التجارة فى خلال هذه الفترة والتى أوجدت الدعم الاقتصادى لهذه الشريحة البشرية وعملت بتجارة البحر الأبيض ووصلت إليها تجارة البحر الأحمر .

لقد تقابلت والتقت على أرضها جنسيات مختلفة ، فاشتغل البعض بالتجارة، ونهل البعض من العلم حيث بهرته المدينة ، فتحول بعضهم من عابر إلى مقيم ، ولو حاولنا أن نرسم صورة عالم التجارة وحركته التى أكسب المدينة طابعا خاصا من الثراء وخلق طبقة اجتماعية مميزة هى خليط من جنسيات ، لوجدنا صورة رائعة لحركة المال ، سواء كمركز تجارى عالمى أو كسوق داخلية .

حركة تجارة فى موانى الإسكندرية تضاءلت أمامها موانى إيطاليا مثل بتيولى ، وتحولت الحركة التجارية فى الامبراطورية بسبب حاجة بيزنطة إلى قمح مصر وتجارة الشرق ، وقام تجار الإسكندرية برحلاتهم إلى مدن الامبراطورية المختلفة ، وظهر التجار المصريون فى صقلية وبلاد الغال وبريطانيا وأسبانيا ، واتخذ النشاط التجارى اتجاهين : اتجاه يتعلق بتجارة مع القسطنطينية ومدن وولايات الامبراطورية البيزنطية ؛ وكانت الإسكندرية فى كلتا الحالتين ، وكان مركزا رئيسيا تتجمع فيه التجارة الصادرة والورادة ، وتمر بها بضائع الشرق الأقصى إلى الغرب ، حيث يتم تصنيع جزء منها فى مصر ويصدر إلى الغرب ثانية، إلى جانب ما تصدره من منتجاتها اعتمادا على خاماتها الطبيعية من منتجات متنوعة ؛ كالنسيج والفخار والزجاج ، وكانت تجارتها بين ولايات الامبراطورية لا تقل أهمية عن تجارة الهند[٢٨] .

وكان البطالمة قد ركزوا النشاط الاقتصادى والتجارى فى أيديهم وأيدى أسرهم والحاشية المحيطة بهم ، وكوّن التجار المصدرون فى الإسكندرية وأصحاب السفن وأربابها وأمناء الشحن أغنى طبقات المجتمع فى المدينة فى تلك الفترة . ولقد فرضت الدولة ضرائب باهظة على الاستيراد ، وكان الرومان قد تراجعوا شيئا فشيئا عن سياسة التأميم واحتكار التجارة عن طريق منح الامتيازات ، وتضاءلت الالتزامات بالنسبة للدولة، وأصبحت تتمثل فى مجرد الوفاء ببعض الضرائب ، وكانت سياسة

البيزنطيين قائمة على مبدأ حرية التجارة ، فاحتفظ الأباطرة بالمكوس المعتدلة عند تخوم جميع الولايات فى ميناء الإسكندرية، وفى الوقت نفسه شجعوا أصحاب السفن والتجارة الذين كانت الدولة فى حاجة إلى خدماتهم كنقابة تجار الإسكندرية ، فقد كانت أهم النقابات نقابة التجارة وملاك السفن ، وكان أفراد هذه النقابة يختارون من بين أسر أعضاء مجلس الشورى الأثرياء ، وذلك على نحو ما فعل الإمبراطور هادريان حيث نظم النقابات وأضاف أعضاء جددا لها، وفى القرن السادس ورد ذكر أعضاء تلك النقابات فى تشريعات جستنيان ، وقد أدوا خدمات للحكومة كنقل ضريبة القمح ، ومد الجند بالتموين (٢٩).

وكانت نقابات أصحاب السفن والتجارة تعرف باسم Navicularl وأعفوا من أعمال العمل الإجبارى بكافة القنوات، ومنحتهم الدولة الامتيازات (٣٠).

ولقد استمر تواجد تلك الطبقة الثرية فى العصر البيزنطى، فقد قامت عدد من البيوت التجارية ؛ وهى مؤسسات اشترك فى تكوينها أكثر من فرد، وربما اشتركت عائلات فى بيوت تجارية ، ولقد انتشرت المصارف الكبرى ، وكان لبنوك القسطنطينية فروع ومندبون فى مدينة الإسكندرية، وكانت تلك البيوت التجارية تحصل على أرباح عالية من التجارة، فلقد صدرت المدينة منتجاتها إلى الغرب والشرق ، ومرت بها تجارة الصومال وشرق أفريقيا وبلاد المغرب والهند، تاجروا فى كل أنواع البضائع؛ الذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج والتوابل والصبغات وأنواع خشب نادرة ، وجزء منها صنع فى مصانع الإسكندرية ثم أعيد تصديره بعد تصنيعه ، وجزء دفعت عنه رسوم جمركية وهو فى طريقه إلى موانى القسطنطينية وولاياتها .

واختلفت البضائع فى نوعيتها ، فأغلب البرديات التى تتعلق بالتجارة الخارجية مع دول الغرب تناولت مواد أساسية كالقمح والزيت والنبيذ والغلال والملابس والفخار، وإن لم تهمل مواد الترف، ولقد استمر ظهور تجار الإسكندرية فى ولايات ومدن الغرب . ولم ينافسهم إلا تجار القسطنطينية ، ولقد ذكرت قائمة الامبراطور دقلديانوس أسعار الشحن من مصر إلى عدد من الولايات التى يصلها إنتاج مصر .

وفى القرن السابع كان لمصر علاقات تجارية مع بريطانيا ، واستوردت القصدير، وكذلك وصل تجار مصريون إلى صقلية حاملين الحرير والصوف والأطباق الفخارية والغلال، وخلال العصر البيزنطى صدرت المنسوجات إلى إيطاليا التى حاولت محاكاتها إلى جانب القمح والبردى ، ووفقا لرواية القديس جيروم تولى تجار سوريا فى بعض الأحيان تسويق البردى مع دول الغرب ، ولقد ذكر بعض المؤرخين رؤيتهم لتجار مصريين فى نهر توسكانيا فى طريقهم إلى روما ، والرحالة السكندرى كوزماس كان فى الأصل تاجرا، ورغم أن كل رحلاته كانت إلى الهند فقد زار البحر الأبيض أيضا ، وكان يعمل على ظهر السفينة التى حملت الوالى سميـنيوس من الإسكندرية إلى قورينه عدد كبير من البحارة المصريين (٣١) .

كذلك حمل التجار السكندريون الحرير والتوابل ولؤلؤ الهند إلى العاصمة القسطنطينية ، وحملوا عند عودتهم منتجات تلك البلاد ، فاستوردوا من إسبانيا زيت الزيتون ، ومن بريطانيا فى القرنين الخامس والسادس القصدير ، ومن بلاد الغال النحاس والعنب والصابون P.oxy.1978, 1851 (٣٢) ، ومن أثينا الثياب والأحذية ، ومن مقدونيا الياقوت الأصفر ، ومن القسطنطينية خيل السباق وبعض المنسوجات الحريرية، ومن عسقلان وغزة جاء النبيذ والسمك المملح، ومن أنطاكية الأقمشة ، وكان صناع وتجار الثياب من السوريين هم أخطر منافس للصناعة المصرية، بل إن المصريين حاكوا بعض طرزهم فوصفت أنواع الأقمشة بالأقمشة الصيداوية والطرسوسية .

هذه الثروة التى تدفقت على الإسكندرية خلقت طبقة ثرية من كبار التجار ، بالإضافة إلى أصحاب البنوك ؛ فقام عدد من البنوك التجارية فى الإسكندرية لوجود هذا العدد الكبير من التجار الذين امتلكوا قدرا من الأموال السائلة سعوا إلى استغلالها فى المشروعات المختلفة فى التجارة والصناعة ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى قيام البنوك ، فأُنشئت البنوك المالية والمصارف الكبرى فى الإسكندرية ، بل فى كل إقليم ، وكان فى الإسكندرية أفرع لبيوت مالية فى القسطنطينية ، وللقسطنطينية أفرع فى الإسكندرية .

ولقد قام شخصان من أهل الإسكندرية باقتراض مبلغا من المال فى القسطنطينية وتعهدا بسداده فى الإسكندرية فى البنك (٣٣).

وكانت هناك بنوك حكومية والبعض الآخر يمتلكه أفراد ، وكذلك وجدت بنوك فى مناطق المكوس ، وكان الامبراطور وخزانته Ficcus يعتبران أهم مصرف يعطى الفوائد ، ويمكن مقارنتها مع إجراء بعض التغيرات بنظيرتها من المصارف المركزية فى العصر الحديث .

وكانت وظائف البنوك الحكومية يتولاها أعضاء بسناتو المدينة الواقع فيها البنك ، أما ما تقوم به المصارف فى الإسكندرية من أعمال فقد تنوع وتعدد، وكان تغير العملة من أهم الأعمال التى تولتها البنوك نتيجة لازدياد حركة التجارة، وكان عليهم التأكد من سلامة العملة وعدم غشها ، وسمح لصياغ الفضة والذهب بنفس العمل، وكانت الدولة تقوم بدفع نفقات المؤسسات التابعة لها عن طريق البنك (٣٤)، وكان يمكن التحويل من حساب لآخر فى دفاتر المصارف ومخازن الغلال، وكانت عملية الدفع متعلقة بأكثر من مصرف، تولى بعض مسئولى البنوك تحصيل الضرائب وإصدار الإيصالات P.oxy . 1050 ، وكان يشترط وجود مسئولى البنك لنقل شحنة القمح الخاصة بالقسطنطينية .

كذلك تولت البنوك الخاصة العمليات الخاصة بالأفراد من إيداع وعقد الضمانات والقروض، وهو أشبه ما يحدث فى بنوكنا، واليوم هذه الطبقة من التجار وأصحاب البنوك مثلت شريحة عليا بالإضافة إلى أصحاب المصانع الكبرى للنسيج والزجاج والبردى، ولقد جنت دخلا وإيرادا بلغ من أهميته مثل ما بلغته التجارة مع بلاد الشرق الأقصى ، بل فاقتها أحيانا إضافة إلى ما تم تصنيعه فى الإسكندرية من عاج وأبنوس وعطور وحلى .

كل هذا أدى إلى وجود طبقة ثرية مترفة انضم إليها كبار موظفى الدولة كالوالى وكبار موظفيه والقادة الرومان ، بالإضافة إلى بعض العناصر الوطنية التى استطاعت أن تصل إلى مناصب قيادية فى الإدارة البيزنطية، ولقد استغل بعضهم جزءا من أموالهم فى الزراعة ، فهناك إشارة إلى ملاك زراعيين لهم أراض فى الأقاليم، ومكان

إقامتهم فى الإسكندرية ، وتمكنت الرأسمالية المصرية من مضاعفة إيرادها ومنافسة كبار الرأسماليين فى روما ذاتها، ويكفى للدلالة على خطورة هذه الطبقة من الإسكندرية أن يذكر أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقى مناصب فى العصر الامبراطورى فى روما ، كما أن أحد كبار تجار الإسكندرية فيرموس Firmus استطاع أن يقود ثورة ناجحة فى الإسكندرية تأييدا للملكة زنوبيا ، وأنه سلح جيشا من تجارة البردى والنسيج .

كذلك اشتهر بعض أفراد فى مهن معينة، وانضموا إلى الشريحة العليا ، فذكر أميانوس ماركلينوس فى القرن الرابع ، أما الطب فقد أصبحت الحاجة إليه ماسة دائمة فى حياتنا الراهنة المترفة ، فدراسته مطردة فى حماسة تزيد يوما بعد يوم ، حتى يكفى لتزكية أى طبيب أن يكون قادرا على أن يقول إنه تعلم فى الإسكندرية [٣٥]، وهناك من تملك مستشفيات خاصة .

ولكن من المؤكد أنه لم يدخل كل أطباء الإسكندرية فى نسيج الطبقة العليا، فالغالبية تندرج تحت مسمى الطبقة الوسطى ، والبرديات تشير إلى أطباء كتبوا عن تقارير حالة بعض الأفراد الصحية ممن تعرضوا لإصابات ، وكذلك تقارير عن وفيات بصفتهم أطباء حكوميين ، ولقد أشير إلى أطباء أُلزموا بخدمة عامة [٣٦] .

كذلك مثل بعض أساتذة جامعة الإسكندرية شريحة عليا من المجتمع نتيجة لمكانتهم الفكرية كهيباشيا وابيهاثيون ، وكانت هيباشيا تعيش على مستوى اجتماعى عالى ولها مكانتها لدى والى الإسكندرية ومجتمعها ، ولكن ممكن أن ننسب غالبية الأساتذة إلى الطبقة الوسطى ، فمنذ إيقاف كراكلا للمنحة التى تدفع لأساتذة الموسيون أصبحوا يلقون محاضراتهم بمقابل مادى .

ولقد ازداد العنصر المصرى فى هاتين الطبقتين خلال الفترة الرومانية ووضح فى الفترة البيزنطية نتيجة انتشار المسيحية [٣٧] التى منحت الإسكندرية طابعا أكثر مصرية من ذى قبل ، فبطاركة الإسكندرية وغالبية رهبانها كانوا من العناصر المصرية كأثناسيوس، وكذلك حدث نوع من التمصير للعنصر الإغريقى والأجنبى عن طريق الزواج ، ونجد انعكاسا لهذا فى مجموعة وجوه الفيوم ، وهى شواهد القبور

والمومياوات الخاصة للمتوفيين ، والتى كان يتم تحنيط أصحابها ، وظل هذا التقليد سائدا إلى نهاية القرن الثالث ، والبعض ذكر أنه استمر إلى منتصف القرن الرابع حيث حاربته المسيحية عامة، وكان لأثناسيوس موقف منه ، ووجدت نفس النماذج فى منطقة مارينا العالمين غرب الإسكندرية ، فنجد الملامح خليط بين مصرية ويونانية وأحيانا مصرية خالصة ، والملابس يونانية رومانية الطراز ، وعلى قدر كبير من الأناقة والترف فى الملبس والحلى والزينة والتجميل وطرز للشعر ، فوجد حلاقون لتصفيف الشعر ، وصنع الباروكات ، والتى أثارت استياء كلمنت السكندرى على أسلوب الحياة هذه حيث تتجول النساء بثياب ذات ذيول طويلة أو ملابس قصيرة تكاد تستر أجسادهن.

والطبقة الوسطى عامة ضمت تجارا متوسطى الحال وطلاب علم وأساتذة فى المتحف ، فرغم مكانتهم الأدبية لَمْ يكن يعد غالبيتهم من الأثرياء، وخلال الفترة التالية تراجعت أعدادهم ، مع تدمير أو إغلاق المدارس الفكرية أصبح الأساتذة من العناصر المصرية كهور أبوللو، ونتيجة لإغلاق مدرسة أثينا الفلسفية فقد ظل توافد الطلبة وخاصة من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى إلى الإسكندرية فى القرنين الخامس والسادس ؛ فوجد نحويون ورجال معاجم أمثال ثيوبور السكندرى وأوريون Orion، وكذلك اشتملت على صغار موظفى الإدارة فى الإسكندرية وجنود مصريين، بعد أن دخل المصريون الجيش كان معظم الجند فى عهد جستيان فى مصر من المصريين ويجندون بالتطوع والإجبار (٣٨)، ولم يكن هناك فرق من المتبربرين الجند المرتزقة إلا قليلا، ومن المؤكد أن العنصر المصرى أصبح غالبا بعد انتشار المسيحية وسيطرة الكنيسة ، وما قام به رجالها من محاولة استبعاد كل ما هو يونانى وأجنبى ، ولكن من الصعب وضع حد فاصل بين العناصر الجنسية ، فالأسماء متشابهة ولا يعنى وجود اسم يونانى أنه ينسب إلى جنس معين، فالمصريون حملوا نفس الأسماء ، والزواج المختلط جعل من الصعب وضع حد فاصل بين الجنسيات ، والملامح فى هذه المدينة خليط من مصرية وأجنبية (٣٩).

ولقد استمر توافد العناصر الأجنبية ، فمازالت حركة التجارة زاهرة ، وبعضهم كون جاليات أقامت فى مصر ، سواء مدن البحر المتوسط أو من الأحباش والفرس .

كذلك مازالت هناك أعداد من الطلبة من جنسيات مختلفة وبعضهم سعى للإقامة الدائمة .

وهذا ينقلنا إلى الطبقة الثالثة فى المجتمع السكندرى وهى الطبقة التى لم يداخلها العنصر الأجنبى إلا قليلا وهى طبقة العامة .

المصريون فى الإسكندرية فى العصر المسيحى

اختلف وضع المصريين أهالى البلاد الحقيقين عن الرومان والبيزنطيين المسيحيين ، ورغم ما قيل عن دور الرهبان فى تدمير معاقل الحضارة الهللينية والفكر الحر ، فلا شك أن المسيحية أعطت لمصر طابعا قوميا متميزا نستطيع أن ندركه من واقع وضع الأهالى فى الفترة الأولى ، والفترة التى انتصرت فيها المسيحية ظهر عنصر دينى بدأ يواجه بيزنطة وإداراتها متمثلا فى بطريركية الإسكندرية التى تولتها عناصر مصرية خالصة وبدا شعور بالذاتية المصرية ، بعكس ما كان فى العصر الأول من تهرب المصريين من أصولهم ومحاولة التشبه باليونان؛ ففى أوائل العصر الرومانى كانت هناك نظرة دونية للمصريين من حكامهم ومن مواطنى المدينة المصرية الأجنبية الإسكندرية من إغريق ورومان ، ففى خطاب أرسله شخص إغريقى لصديق له يعتب عليه : "إنك يا أخى ربما تعتبرنى بربريا أو مصريا غير متحضر" (٤٠) .

وكان للمصريين حيهم الخاص بهم راكوتيس على القرية القديمة راكودة ، وغالبية هؤلاء من فئة الحرفيين فى المصانع ، فالطبقة الثرية التى تمتعت بالقصور والملابس الحريرية والكتانية الموشاة ، واستعملت الأوانى الزجاجية وعطورا فاخرة، والتى ترددت على الجمنازيوم والحمامات والسيرك كانت تحتاج لعمالة فى صناعة النسيج والبناء إلى صغار تجار وموردى أطعمة لإحتياجاتها ، ولصغار بحارة للعمل فى سفنها من العناصر المصرية، وهناك قول نسب إلى الامبراطور هادريان فى مجموعة سير الأباطرة الرومان المعروفة باسم **Historis Augustus** وتعكس صورة العمالة المصرية " إنها مدينة (الإسكندرية) غنية تتمتع بالثراء والرخاء ولا يوجد فيها عاطل من العمل ، فالبعض يعمل فى صناعة الزجاج وآخرون يعملون فى صناعة أوراق البردى ، وكثيرون يعملون إما فى صناعة النسيج أو فى أية حرفة أخرى أو صناعة

أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان وكان لهم عملهم ، حتى من فقدوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين ، هناك الجميع يعبدون إلها واحدا هو المال ، هذا إله يعبده المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى" في الواقع هذا الوصف يعكس صورة مجتمع المال الذى نال المصريون فى البداية فيه الفتات (٤١) .

ولقد حاولت الحكومة الرومانية الحد من العنصر الوطنى المهاجر إلى العاصمة ، فالعاصمة كانت لها أضواؤها المبهرة بالنسبة للمزارعين. والآن يسعى بعضهم لنيل حظه فى الهجرة إليها بحثا عن فرصة جديدة فى الحياة ، أو هربا من ضغط الجباة وقسوة النظام الضرائبى ، فيهجر أرضه ليختفى فى خضم تلك العاصمة، فصدر عدد من القوانين تلزم المصريين الفارين من قراهم إلى العاصمة بالعودة إلى مواطنهم الأصلية ؛ أولها فى عهد الوالى فيبيوس ماكسيموس ١٠٤ م ، وصدر إعلان بأنه بمناسبة الإعداد لإجراء إحصاء عام للسكان ، فيجب على كل من ترك موطنه لأى سبب من الأسباب أن يعود ثانية وأن يستأنف عمله فى الزراعة باستثناء الذين تحتاج الإسكندرية إلى عملهم ، وهؤلاء كانوا معروفين لدى السلطات الرسمية .

والإعلان الثانى كان أيام كراكلا حين زار مصر ٢١٠ م بعد إصداره قرار منح الجنسية وأثاره أهل الإسكندرية بسخريتهم ، فأقام مذبحة لأهلها، ولقد أمر بأن يطرد من الإسكندرية من جاء إليها من المصريين ، واستثنى من ذلك فئات معينة مثل تجار الخنازير ورجال القوارب النيلية وجالبى الحطب لوقود الحمامات ، وهى نفس الفئات التى استثناها بيان مكسيموس السابق، لأن الوقود واللحوم كانا عنصرين هامين ، وتضمن المرسوم إشارة إلى أن بعض الأشخاص الذين هربوا وتركوا أماكنهم ومازالوا يعيشون فى المدينة " الإسكندرية" إنما صدر الأمر أن يعلنوا عن أنفسهم ويدفعوا تالنت للخزانة وإلا عليهم الرجوع إلى أماكن إقامتهم المسجلين فيها فى خلال ثلاثين يوما ، وسيجردون من مكانتهم ، وسيقع عليهم العقاب ويدفعون غرامة (٤٢).

والمقصود بالمصريين الذين يجب أن يغادروا الإسكندرية من لم يكن له إقامة فيها، فقد كان هناك عمال مصريون من سكان الإسكندرية وصغار تجار وطلاب علم،

ومن المؤكد أنه فى الفترة البيزنطية لم تكن هناك إشارة إلى مثل هذه القرارات ، فنجد فى برديات عديدة عددا من الرجال يعملون فى الإسكندرية فى منشآتها ومصانعها ، ولهم أسر فى أقاليم أخرى ، وبعد انتهاء العمل يعودون إلى بلدتهم، فحركة المصريين لم تعد محددة بالقيود الشديدة الأولى .

وكانت مشكلة الحصول على الجنسية الرومانية شاغل الأهالى من المصريين ، وكانت مواطنة الإسكندرية تمنح صاحبها امتيازات عديدة من الإعفاء من الرأس وإمكان الحصول على المواطنة الرومانية فضلا عن المركز الأدبى الممتاز الذى كان يتمتع به السكندريون (٤٣) ، ومن ذلك حرصت فئات السكان على إقحام أنفسهم ضمن مواطنى الإسكندرية دون وجه حق فى نظر الطبقة الإغريقية والرومانية، وأصبحت مصدر قلق لمشرفى المدينة ، فرفع الأمر للإمبراطور كلوديوس ، وأمر كلوديوس بتثبيت المواطنة وامتيازاتها على كل المواطنين فى عهده ، باستثناء من كان من نسل جارية، ولكن من الواضح أن هذا لم يشمل أهل البلاد الأصليين جميعا ، وإن كانت الجنسية منحت لجميع مواطنى الامبراطورية فى عهد كراكلا ، فقد حُرم المصريون فى الإسكندرية فى البداية من مزايا عديدة أولها حرية الزواج ؛ فوضعت القيود على الزواج لمنع اختلاط الأجناس الأجنبية بالأهالى الذين اعتبروهم أدنى مكانة، وقد عهدت الإدارة الرومانية لأحد موظفيها وهو الإيدلوجوس " المسجل" لتسجيل الأسماء والتعداد لارتباط ذلك بالوضع الاجتماعى والضرائبى، والوثائق الرومانية تفرق بين السكندرى والمحلى ، وكانت هناك عملية تسجيل للأسماء مستمرة وتعداد دائم كل عشر سنوات ، وعلى كل شخص أن يذكر أسماء الأفراد الذين يعيشون معه .

وكان الرومان يسجلون أسماءهم عند والى الإسكندرية خلال ثلاثين يوما من مولدهم، ولم يكن هذا من أجل التعداد كغيرهم ، إنما لإثبات مواطنتهم الرومانية هم وأبناؤهم ، ولقد دفع هذا ببعض المصريين لتلمس وسيلة للتحرر من الوضع المتدنى الذين وضعوا فيه للتسمى بأسماء رومانية ويونانية لمحاولة التشبه والتقرب من طبقة السكندريين المميزة لمجرد الطموح الاجتماعى ، رغم أن هذا المسمى الاجتماعى

لم يغير من وضعهم الاجتماعى[٤٤] فى شىء ، فشخص اسمه ايدامون Eedaemon ابن بسواس وتياترس Psois, Tiathres طلب السماح له بتغير اسمه من مصرى إلى إغـريقى بل أسماء والديه أيضا فأصبحوا هيرون وديدام Heron Didyme، [٤٥] ونتيجة لكثرة تغيير المصريين المقيمين فى الإسكندرية لأسمائهم من المصرية إلى اليونانية طلب من الأيدلوجوس تسجيل اسم كل من يرغب فى تغيير اسمه ، وأن عليه تقديم طلب رسمى بذلك ، وأن عدد الأسماء المختلطة التى نقابلها فى الوثائق تبين أن أصحابها قد اكتسبوا اسما يونانيا مؤخرا ، فاستخدموا اليونانى إلى جانب أسمائهم المصرية، وفى الفترة الأولى كانت الأسماء مهمة لمعرفة الوضع الاجتماعى والضرائبى، ولقد ورد فى إحدى الوثائق " فى الحقيقة أن هناك أشخاصا يستخدمون أسماء بدون أن يقوموا بتسجيلها ، وبما أن شخصيتهم ووضعهم واضح فى الوثائق فإنهم يضعون العبارة التالية أحيانا (يسمى) فأصبحت أسماؤهم خليطا بين المصرى واليونانى " فوالد ايدامون Eudaimons كان ماركوس أورليوس أموتاس وكتب أمامه أحيانا : (كان يسمى سرابيون.) وهناك أسماء يونانية مركبة مثل أبولونيوس بطليموس أيذوروس مضافا إليها اسم سرابيس، والأسماء الواردة فى البرديات لا تدل على جنسيات صاحبها فربما كان محررا أو اغريقيا من مصر أخذوا حق Latinita أو مقاتلين حصلوا على Civitas المواطنة بعد ترك الخدمة وكانت تمنح الجنسية لمن أتى بأعمال عظيمة ، وكان منح المواطنة لغير أبناء الإسكندرية فى يد الإمبراطور، وكان من سلطات الوالى محاكمة من أقحموا أنفسهم فى سجل المدينة بغير وجه حق [٤٦] .

وكان الشخص بعد حصوله على الجنسية يقوم بتغيير اسمه باسم رومانى لمحاولة الالتحاق بالطبقة التى ينتمى إليها الشخص ، فشخص اسمه نايل أمون Neilammon غير اسمه إلى Neilammon Marcus هربا من القهر الاجتماعى . لقد كان الرومان المصريون يغيرون جلودهم ، وقام كراكلا ٢١٢ فى مجموعة Constitutio Anto-niniane بمنح جميع الشعوب الامبراطورية فيماعدا الخاضعين ويرى Winter وينتر أن عامة الشعب المصرى تدخل فى هذا المسمى ، ولو أن هناك من يعارض هذا وعامة فى الفترة التالية كانت الجنسية تشمل الجميع .

ومما أدى إلى عملية الامتزاج بين المصريين والعناصر الأخرى فى الإسكندرية وعواصم الأقاليم بالزواج المختلط ، فرغم حذر القوانين فى البداية التى تمنع ذلك فقد حدثت عملية امتزاج واختلاط جنسى بين المصريين والعناصر الأجنبية خلال القرون الثلاثة الأولى، ونجد المثال على ذلك فى مجموعة بورتريهات الفيوم والتى نجد شبيها لها فى مجموعة البورتريهات التى وجدت فى مارينا والعلمين، فإذا كان بوليبيوس وهو كاتب من أوائل العصر الرومانى رأى السكندريين كانوا خليطا وإن كانوا إغريقيا فى أصولهم ، ولم ينسوا أساليب الحياة الإغريقية ، فإن هذا مبدأ يختلف مع الإسكندرية المسيحية ، فعملية الاختلاط الجنسى ازدادت وغلب العنصر المصرى .

وهذا يجعلنا نلقى نظرة على مؤسسة الزواج الرومانية فى الإسكندرية وما طرأ من تعديلات وفقا للمسيحية ، وموقف المصريين منها ؛ ذكر وينتر أن المصريين القدماء لم تكن لديهم عقودا مكتوبة فى الفترة الفرعونية امتدادا للفترة البطلمية ، إنما كانت هناك وثيقة تتعلق بالممتلكات أو قائمة تتعلق بالمهر والممتلكات المكتوبة ، ثم أصبحت عقود مكتوبة ولكنها صالحة فقط وفقا للقانون المصرى ، ولكن الدراسة الوثائقية للدكتورة/ تحفة حندوسة أثبتت عدم صحة ذلك ، فقد أشارت فى كتابها عن الزواج فى مصر الفرعونية أنه بالرغم من أنه إلى الآن لم يتم العثور على عقود زواج من العصور الفرعونية قبل نهاية الدورة الثانية ، وخاصة الأسرة الثانية والعشرين والذى أدى فى البداية لعدم معرفة طبيعة عقد الزواج وحقوق المرأة والأبناء ، ووضع الزوجة فى القرون الفرعونية الأولى وإن كانت تتم تسوية مالية لصالح الزوجة بمناسبة الزواج ، ومن الأسرة العشرين وثيقة زواج رجل من امرأة تدعى تبوبو لم تقبل معاشرته إلا بعد أن حرر لها وثيقة تثبت زواجها منه والتنازل لها ولأولادها عن أملاكه [٤٧].

ولقد اتخذت عقود الزواج من الأسرة الثامنة والعشرين إلى الأسرة السادسة والعشرين ، الفترة التالية من الأسرة الخامسة والعشرين إلى نهاية العصر البطلمى، وفى الفترة الأولى بدأت تظهر عقود الزواج وتسويات مالية مدونة على أوراق البردى، والعقد يذكر "فى هذا اليوم دخل الكاهن فلان ابن فلان منزل الكاهن فلان ابن فلان

ليحرر عقد زواجه من المرأة فلانة بنت فلان، وقرر أن قائمة الأشياء التى سيعطيها إياها مهرا هى دنبات من الفضة وخمسين مكيالا من الحنطة ، وقال أقسم بآمون وفرعون أننى إذا طلقت أختى ملكى فلانة بنت فلان وأكون أنا السبب فى الإضرار بها ، لأنى طلقتها أو تزوجت من امرأة أخرى عليها إلا فى حالة الخطيئة الكبرى من جانبها فإنى أعطيها الخمسين مكيال من الحنطة المذكورين أعلاه وكل ما أحصل عليه من ريع، ويصبح ما سيؤول إلى من أملاك أبى وأمى لأولادى منها " ، ويلى ذلك توقيعات الموثق وتوقيعات الشهود ثم توقيع من الزوج وأبى الزوجة فى وجود شهود ، ويحفظ للزوجة حقوقها تجاه زوجها إذا طلقها بلا خطيئة ويجعل الإرث فى أولادها .

وفى عقد من الأسرة السادسة والعشرين من عهد الملك أحمس الثانى وهو مختلف من حيث الشكل والصيغة ، وقد احتفظ هذا العهد بشكله ومضمونه إلى آخر العصر البطلمى " الشهر السنة الرابعة والثلاثين من حكم الملك أحمس قال الكاهن " فلان ابن فلان وابن فلانة للمرأة العروس فلانة بنت فلانة وأمها فلانة ، لقد اتخذتك زوجة وأما لأولادى الذين سأرزق بهم منك هم أصحاب كل ما أملك وما سوف أملك وكذلك أملاك أبى وأمى ، وإذا طلقتك فسأعطيك قطعتى فضة وخمسين مكيالا من الحنطة ، ويلى ذلك توقيع الموثق وتوقيعات الشهود شهد فى هذا عقد بشروط وشهود وموثق "[٤٨] .

وفى عقد زواج من الأسرة الثلاثين فى عهد الملك نخت نبت ذكرت قائمة بالممتلكات التى دخلت بها الزوجة وتضمنت غطاء للرأس من الشعر المستعار وأردية وخاتم بفص[٤٩] . وعقود تضمنت حق الزوجة فى تطليق نفسها على أن ترد لزوجها نصف المهر المستحق فى العقد ، ولقد وجد أكثر من خمسين عقد زواج مصرى مكتوبا بالخط الديموطيقى تتشابه فى شكلها وتكاد تتشابه فى ألفاظها ومضمونها .

وهناك عقد يعود لعهد كليوباترا ويذكر فى العقد أن الرجل أعطى لزوجته عشر قطع فضة ، وقائمة بالممتلكات التى دخلت بها الزوجة وغالبية العقود تتضمن المهر الذى يعطيه الرجل وقائمة بما دخلت به المرأة وحقوق أبنائها فى الميراث وتعويضها عن الطلاق، وفى بعضها إضافات كعقد بطلمى من الفترة البطلمية يتعهد بتقديم عدد

من كيلات القمح لها يوميا وقطع فضية لكسوتها، وقلد الإغريق المصريين وأدخلوا تعديلات ، وكان للرومان عقود زواج متنوعة مكتوبة، وتتصل بوضعية المرأة فى الفترة الأولى من التاريخ الرومانى وقوانين الإرث ، وكان القانون فى البداية يجعل من الرجل سيدا للمرأة .

ولقد حرم الرومان الزواج بين الرومان والمصريين وكانت القواعد المنظمة تصدر عن مكتب Idiologos، وبرغم الحذر حدثت زيجات بين الرومان والمصريات كالزيجات التى تمت بين الجنود الرومان والمصريين واضطرت الدولة للاعتراف بأبنائهم ومنحهم الجنسية . ولقد وضعت محاذير تمثلت فيما يلى :

١ - الأبناء الذين يولدون لسيدات من سكان المدن (رومان وأغريق) والأب مصرى يأخذون نفس الوضع القانونى للأب المصرى ولكن يرثون من كلا الجانبين .

٢ - إذا قام رومانى من أى جنس بالزواج من امرأة من المدينة Ostos أو من مصرية دون الاهتمام يأخذ الابن الوضع القانونى الأدنى لأيهما .

٣ - إذا قام الرومانى أو أحد سكان المدن من الزواج بزوجه مصرية دون علمه بوضعها فإن الأبناء يأخذون وضع الأب ، وإذا قامت امرأة من سكان المدينة بالزواج من مصرى عن طريق الخطأ باعتقاد أنه من سكان المدن فإنها تلام ويحصل الأبناء على المواطنة .

٤ - Astoi الذين يتزوجون من نساء من الجند ولهم نفس وضعية المصريين وفقا لعقود الزواج يأخذ الأبناء الوضع الأدنى .

٥ - المحررون من السكندريين لا يحق لهم الزواج من المصريين .

٦- الزواج بين الرومان والمصريين لم يكن مصرحا به وعلى الرومان الزواج من الرومانيات .

ويتضح من هذا الوضع الغريب أن المواطن المصرى صاحب البلد لا يحق له أن يتساوى بالمستعمر أو يقترن بفرد من أفراد المجتمع الرومانى واليونانى المميز ، ومع

ذلك فقد استمرت عملية الزواج بين الأطراف رغم المنع فى مصر والإسكندرية خاصة برغم وجود ثلاثة تقاليد لثلاث مجموعات ، عرقية : المصريين والرومان واليونان ، فكل مجموعة لها عاداتها ، وكل منها ينكر تقاليد الآخر ومع ذلك حدث التقارب والاختلاط الجنسى(٥٠) .

وبالنسبة لشروط عقود الزواج فى العصرين الرومانى والبيزنطى فإن عقود الزواج المصرية تضمنت أنه على الرجل ألا يتصرف فى ممتلكاته الحالية والمستقبلية إلا برضى زوجته ، فالعقود الإغريقية تنص حصولها على جزء من ثروة الزوج، واستمرت العقود بصيغتها مع بداية الفترة الرومانية ؛ ففى عقد يعود لأول الحكم الرومانى لاثنين من مدينة بطلمية اليونانية نص على أن يأخذ الرجل مهرا من الزوجة ، وإذا حدثت مشكلة عليه رد نصفه وأن يمد زوجته بالضروريات والملابس فى حدود إمكانياته ، وألا يسيء معاملتها أو يحضر لها زوجة أخرى ، وألا تخرج فى الصباح والمساء إلا برضاه ، وأن تكون على منزلها أو تقيم علاقة مع آخر وإذا طلقها يعيد مهرها ويدفع غرامة .

والشروط فى العقود اختفت فى العصر الرومانى ثم عادت فى العصر البيزنطى(٥١). وكان زواج الجند الرومان من المصريات يعتبر Epigemia وكانت محاولة المصريين اكتساب وضع قانونى فى علاقتهم الإنسانية وأهمها الزواج تمثل مشكلة أساسية ، ومع منح الجنسية أصبح الباب مفتوحا أمام الزواج المشترك . وقام جستنيان بتعديل أنظمة الزواج المتنوعة والتى من الواضح أن بعضها استمر لعصره لتتفق وروح المسيحية ؛ فكان هناك زواج دينى وزواج يعتبر الزوجة مباعة لزوجها وزواج المتعة ، وفى بعضها وقعت المرأة تحت وصاية الرجل ، وكانت بعض أنواع الزواج كزواج المتعة لا يلحق الأبناء بالأب . وجاءت قوانين جستنيان فوحدت نظام الزواج ، وألحقت الأبناء بآبائهم ، وأكدت على وضع الأسرة فى ظل المسيحية . ويلاحظ أن الزواج بأكثر من واحدة كان مسموحا به فى الأنظمة السابقة ، ولكن المسيحية منعت تعدد الزوجات ، ومع ذلك ففى مجموعة الأوستراكا القبطية فى مصر والتى شملت مواعظ لرجال الدين للشعب المسيحى ، وتعود للفترة البيزنطية ينصح

الأهالى بعدم تعدد الزوجات والاقتصار على زوجة واحدة وإلا تعرضوا لحرمان الكنيسة مما يدل على أن هذا الأمر كان موجودا بين بعض أفراد المجتمع المسيحى(٥٢).

ومن الواضح أن هناك مرحلة انتقال بين الوثنية والمجتمع المسيحى ، فنذكر أن البعض طرد زوجته بلا سبب شرعى وأن هؤلاء سيحرمون من الاحتفال الدينى، ونفس الأمر بالنسبة للمرأة التى تترك زوجها لتتزوج من آخر ، والرجل الذى يرتبط بها يحرم من الأعياد الدينية ، الأمر نفسه بالنسبة للزواج من الأقارب المقربين الذين يدخلون تحت باب المحرمات (٥٣) .

وكان الزواج من الأخت شائعا فى العصر الفرعونى ثم أخذهُ البطالمة ، لكن الرومان لم يكن يتقبلونه ، ومع ذلك ووفقا للبرديات وجدت زيجات من إخوة ، فهناك بردية خاصة بامرأة تدعو لاحتفالية زواج ، وفى الغالب خاصة بزواج مشترك بين أبنائها ، والزواج من الأخوة كان شائعا بين المصريين ولكن الرومان وضعوا عليه قيوداً وصودرت أملاك رجل تزوج أخرى (٥٤).

ومن الطبيعى أن تمنع المسيحية هذه الزيجات ، فقد صدر قرار موجه للشعب من القس إبراهيم ضد من يتزوجون من أبناء إخوانهم ومن يتزوج ابنته وأمه أو أخته أو يتزوج أختين فى وقت واحد(٥٥) ، وبالرغم من أن المؤسسة الدينية المسيحية شاركت فيها المرأة كراهية ، فإن البعض عدوا المرأة وخاصة بعض رجال الدين كمصدر للشرور؛ ففى بردية تعود للقرن الخامس أو السادس وهى موعظة موجهة لرجال الدين ضد جنس النساء ووصفتهن بأنهن مصدر الشرور، واستشهد بالكتاب المقدس فتحدث عن دليلة وما فعلته بشمشون ، والنبى يوسف ودخوله السجن بسبب امرأة العزيز ويوحنا المعمدان ، وأن المرأة الشريرة تفوق جميع أمراض العالم(٥٦).

هذا المجتمع بعد أجيال من الزواج المختلط تداخلت عناصره ، وبعد زيادة العنصر المصرى بالمسيحية وجدت عقود الزواج ، فلم يعد هناك تمييز للجنسية فى الإسكندرية للجميع ، وتكونت الطبقة الدنيا من صناع وصغار تجار وصغار رهبان .

وكانت الإسكندرية من أشهر مدن العالم القديم بصناعها، فلقد برع المصريون فى صناعتهم ، وبعضها كان قاصرا عليهم ، واسترابون الذى زار مصر فى بداية العصر الرومانى يذكر أن صناع الزجاج فى الإسكندرية كانت لهم أسرار خاصة بصناعتهم ، وأن تربة المصرى تحوى مادة معينة تصلح لصناعة الزجاج المتعدد الألوان (٥٧) ، ولقد أكد هذا عدد من كتاب القرن الثانى ، أن صناع الزجاج فى الإسكندرية أتقنوا صناعتهم كثيرا ليحافظوا على مكانتهم فى الأسواق الخارجية أمام المنافسة الأجنبية .

كذلك انتشرت مصانع النسيج فى الإسكندرية وخاصة فى المنطقة الصناعية، وكان الكتان خامة النسيج الرئيسية ، وأنتجت مصانع الإسكندرية أنواعا رخيصة وجميلة حيث اشتهر العمال بصباغتها بالأبيض والأرجوان والأزرق.

وكذلك اشتهرت الإسكندرية بصناعة الحرير، وكانت أهم سلعة بيزنطية وكان ينتج فى البداية فى مصانع الصوف ، وعمل فى صناعة النسيج عدد كبير من النساء المصريات ولقد منع فى الامبراطورية استعماله وفقا لقرار ٣٦٠ م و ٤٢٤ م وصدر قانون فى ٨٤٣ م يحرم نسج الحرير فى مصنع جنسيم فى الإسكندرية، وغالبية الأثواب جرى توشيتها بطريقة القباطى وبعضها جرت زخرفته بخيوط قطنية وحريرية (٥٨).

كذلك اهتم البيزنطيون بالأحجار الكريمة ونصف الكريمة وبمناجم المعادن الثمينة ، ووصل الإسكندرية الذهب من شرق أفريقية وبلاد المغرب والهند، كذلك تم استيراد اللؤلؤ والعاج وأعيد تصديره بعد تصنيعه فى الإسكندرية ولقد اشتهر صناع الإسكندرية ، بقطع الأحجار الكريمة وصناعتها، فذكر بلاديو قسيسا فى الإسكندرية وكان ماهرا فى قطع الأحجار الكريمة وصناعتها ، كذلك تم صياغة اللؤلؤ بل وقلدوه، وكان المشترى يسأل عادة عن المصدر الذى جاءت منه الأحجار الكريمة للتأكد من عدم غشها ، والحلى التى وجدت تثبت دقة وجمال الصناعة .

وهذه المدينة التى ازدانت بالقصور والفيلات والحمامات وساحات السباق كانت تحتاج لطبقة كاملة من الحرفيين فى منشآتها من بنائين إلى عمال طوب إلى نقاشين

ورسامين وصناع موزايكو وقيشانى ورخام وفخار وعمال رصاص وحدادين (٥٩) وعمال فى الإدارات الحكومية ، فكان أمر الإشراف على المنشآت العامة وصيانتها يوكل إلى Logistes مسئول السوق وكان عليهم استئجار العمال اللازمين للقيام بأعمال الإصلاح والترميم وعمال البلاط والرسامين ، بالإضافة إلى العمال الذين قاموا بالمنشآت الخاصة .

كذلك اشتهر صناع مصر بصناعة العقاقير ، وأشار سترابون إلى أنه فى الفترة الأولى كان يتردد على معبد سرابيس فى كانوب حتى يسجلوا الأدوية ، ولقد دفعت لكنيسة روما التى كانت لها ممتلكات فى مدينة الإسكندرية قائمة تضمنت كلها مواد مستعملة فى صناعة العقاقير (٦٠)، كزهر النارند والبلسم (٦١) ، وكانت تلك المواد الطبية تصنع وتصدر فى شكل عقاقير ، وكان المركزالرئيسى للصناعة فى مدينة الإسكندرية ، وكذلك عمل الصناع فى الإسكندرية فى دار صناعة السفن وحدد مرسوم الامبراطور دقلديانوس أجور نجارى السفن " وكان نجار السفن البحرية يتقاضى ٦٠ دينارا ، أما من يعمل فى السفن النهرية ٥٠ دينارا ، وكان القارب العادى يتكلف فى القرن الرابع ١٩ قيراطا ، وللقارب المصنوع من الأغصان المجدولة مبلغ ثمنه فى القرن السادس ٦ قراريط ، وكانت هناك أشجار نخيل فى الإسكندرية وأجزاء من الدلتا استعملت فى القرن الرابع والخامس فى إصلاح السفن(٦٢) .

وهناك تجار اللحوم وموردوا مواد الوقود وغيرهم من صغار البائعين فى الأسواق ، ثم ما كانت تعج به العاصمة من صغار الرهبان، وهذه الطبقة مصرية خالصة ، اكتسبت طابع الإسكندرية من الحيوية والعنف وسرعة الإثارة والغضب مع التمسك بالذاتية فى الفترة المسيحية ، وتحدثوا القبطية فلم تكن الوثائق وحدها فى القرن السادس هى التى يجرى تحريرها باللغة القبطية ، بل تحتم – أيضا – مثلما حدث فى أوائل عصر البطالمة ، أن يجرى تحرير العقود العامة باللغتين الرسمية والقومية ، وأصبحت لغة سائدة فى شوارع الإسكندرية ، ومن الأمور البالغة الأهمية للموظفين القادمين من بيزنطة إلى مصر أن يعملوها ، فما كانوا يستخدمونه من ملخصات عن المحادثة اشتملت على اللغات اللاتينية واليونانية والقبطية، ولقد ازداد

الشعور الوطنى فى القرن السادس إذ اشتد المصريون فى مقاومة بيزنطة وصاروا ينظرون إلى بلادهم على أنها مملكة شبه مستقلة، وفى الدليل على ذلك أن المقوقس عظيم القبط فى مصر، كان فى مكانة سائر الملوك (قيصر الروم كسرى ملك الساسانيين ونجاشى الحبشة)، الذى بعث إليهم النبى محمد الرسل يدعوهم إلى الإسلام . واشتد إعجاب المصريين بكل ما هو مصرى وأضمروا الاحتقار والكراهية لكل أجنبى قادم من بيزنطة ، وهذا ما دفعهم لتدمير معاقل الحضارة اليونانية كالسرابيوم والمقتل المأسوى لهيباشيا الفليسوفة (٦٣).

ولقد أورد أحد المؤرخين رأيا متميزا فى هذا " فى أن العنصر المصرى يعتبر أقدم العناصر المعروفة على سطح الأرض » فلم يكن ثمة من استطاع أن يقاوم المذهب الخلقدونى سوى المصريين ، ويشير تاريخ بطاركة الإسكندرية إلى المقاومة العنيفة التى أبداها دير بالوجه البحرى ؛ لما أجراه الامبراطور هرقل من اضطهاد شديد للمنوفزتيين . فما اشتهر به الرهبان من أنهم من العنصر الوطنى ولم تختلط بهم عناصر أجنبية أعطاهم مكانة مميزة فإن تكن من أهل البلد يعتبر ذلك ميزة بلغت من عظم الشأن أن شاعرا من طيبة أشاد بها عند أحد كبار الموظفين (٦٤).

كما أن الشخصيات التى أثارت الخيال الشعبى بما قاموا به من أعمال جليلة ، أو بما ارتكبوه من جرائم كانوا من المصريين ، فكان دقلديانوس فى وصفهم مصريا، وكانت ثيودوا من أصل مصرى ، وزعم المصريون فى غمرة كبريائهم الوطنى أن المسيحية لم تكن إلا من مفاخر عنصرهم، فمصر دون غيرها من البلدان تعتبر أجمل الأوطان .

أما بيزنطة فلم تظهر هذا الإعجاب بالعنصر المصرى الأصيل ، فلم تجد الأهرام وما أحاط بها من تاريخ من المؤرخ بروكبيوس سوى الازدراء ، ولم يعترف بعظمتها أو أهميتها ، أما الصفات الفكرية عند القبط فلم تحظ بشىء من التقدير فى القسطنطينية ، إذ إنهم اعتبروا أن عواطفهم سفيهة، ولا يركن إليهم فى الأعمال الجدية ، ولم تتوافر عندهم الكفاية فى المناقشات الميتافيزيقية ، واشتهر علماء الدين عندهم بالجهل ، يضاف إلى ذلك ما رمى به البيزنطيون القبط من الجهل ، وأنهم

ليسوا إلا رعية، وبرغم ماحدث فى القرن السادس الميلادى من أنه أضحى من المصريين كبار ملاك، ومن لم ينل حظا كبيرا من التعليم ، ومن صار من كبار موظفى الحكومة ، فقد اعتبروهم فى شىء من التجاوز بأنهم ينسبون إلى الأصول المصرية .

وذلك أن بيزنطة ، باعتبارها وريثة للبطالمة والرومان فى حكم مصر، اعتبرت نفسها صاحبة السلطة المطلقة فى تعريف أمور مصر، على الرغم من أنها لم تنجح فى جعل لغتها الرسمية هى اللغة القومية، بينما نجح العرب فى ذلك ، وزاد من سخط المصريين وثائرتهم ما تعرضوا له من قبل هؤلاء الأجانب من السخرية والازدراء ، لا سيما حين زعم هؤلاء الأجانب - باعتبارهم حكام البلاد - لأنفسهم الحق فى أن يعرضوا عليهم مذهبا دينيا، ولقد تفجرت أنواع من الصراعات بين فئات العامة ، وأدى إخمادها إلى تدمير أجزاء وأحياء الإسكندرية ، ومن أهمها ماذكره يوحنا النقيوسى عن ثورة ثلاثة إخوة فى مدينة قرب الإسكندرية، وكانوا يتولون عدد من المدن وعليهم يوفى حاكم الإسكندرية ، وهاجموا مدينة بوصير وأحرقوا السفن التى تحمل القمح إلى مدينة الإسكندرية ، وحدثت مجاعة وثار أهل الإسكندرية (٦٥) ، فثار أهل المدينة على الوالى يوحنا وأرادوا قتله ، ويذكر يوحنا أن الإمبراطور عين بدله بولس من مدينة الإسكندرية ، وذهب يوحنا إلى الإمبراطور الذى أعاده إلى الإسكندرية ، وتم إخماد الثورة بعد أن استعان بالجند وقبض على الأربعة الذين أثاروا الفتنة . وأركبوهم جملا وطافوا بهم مدينة الإسكندرية وقتل ثلاثة منهم ، ونفى أحدهم ، وقبض على كثير من الأهالى ، ونهبت الأموال وتعرضت المدينة لبعض هذا العنف الذى كان يتفجر دائما لرفض الحكم البيزنطى ، فأى حادثة بسيطة كانت تؤدى إلى تفجر الأحداث وقيام ثورة ، كالخلاف بين أحزاب السرك البيزنطى فى الإسكندرية ، وهذا الصراع بين الشعب والسلطة المركزية أدى إلى إضعافها ، ففى كل ثورة تنشب بالإسكندرية ، تعرضت شون القمح للهجوم والنهب ، فيقل الخبز ، فيزداد الناس هياجا ، وكانوا على استعداد لمساعدة أى ثائر كما حدث فى ثورة نيكتاس ٦٠٩ حين غزا مصر وأعلن تمرده على فوكاس(٦٦) .

الحياة الإجتماعية

كان للمجتمع السكندرى طابعه وخصوصيته وتميزه فى عدد من المظاهر الاجتماعية، وبحكم أنه مجتمع العاصمة المميزة ، ولكنه يلتقى مع المجتمع المصرى ككل فى بعض السمات ، فذخرت الفترة بخطابات متبادلة بين رجال عاشوا فى الإسكندرية وتركوا أسرهم فى إحدى مدن وقرى مصر أو العكس، وأسر فى الإسكندرية ، قد ذهب الرجل إلى إحدى المدن المصرية فى عمل ، وهذه الخطابات تعكس النبض الإنسانى الحقيقى بين المحبين، وأفراد الأسرة الآباء والأبناء ، ودعوات زواج ومراسم معينة للخطبة والزواج، ورقيات ضد الحسد وتمائم للحماية من السحر سواء فى عصر وثنى أو مسيحى .

كانت الإسكندرية هى الحلم المصرى والحياة فيها هى المطمح ، فابن يكتب خطابا لأبيه لأنه رفض أن يصحبه معه إلى الإسكندرية، ويذكر فيه أنه لن يخاطب أباه أبدا ، ولن يكتب إليه إذا رفض أن يصحبه إلى الإسكندرية، وهناك العديد من الخطابات من القرن الرابع وماتلاه، وأبناء عملوا بالإسكندرية ولهم أسر فى إحدى العواصم الصغرى ، فالمدينة الثرية جذبت إليها الكثير للعمل وأصبح حلم الأبناء العيش فى تلك العاصمة الراقية .

وكان الزواج وطقوسه من أهم الأمور فى الإسكندرية والمجتمع المصرى عامة، فقد نصت العقود كما ذكرنا على تعهدات من الزوج بالمحافظة على زوجته وحسن معاملتها وإمدادها بالطعام والكساء، بل اشترطت بعضها أن يكون محبا لها وألا يتخذ عليها زوجة ، وألا يسيء لها ومع المسيحية جرى تحديد الزواج بامرأة واحدة، وإن كان أمر التعدد ظل ساريا فى بعض المناطق وخاصة فى الجنوب، من هنا كانت عظات رجال الدين كما فى بعض البرديات القبطية، فالزواج له قدسيته لدى

المصرى ، وفى حالة فشل الزواج كان يعيد للزوجة مهرها أو غالبيته ، وأحيانا يدفع غرامة، وكان على الزوجة أن تكون مخلصة له تدير أمور منزله . وقانون جستنيان أكد على وضع المرأة ومكانتها فى الزواج ، فالزواج فى نظر المصريين رابطة مقدسة .

ومن وثيقة تعود إلى القرن الرابع وهى خاصة باحتفال زواج وهى من الشعر المنثور .

أيها العريس الجمال الرقيق والشرف وهب لك

جراكوس هارمونيا وهبت زواجا شريفا

العروس العزيزة لتكن سعادتك سعادة أبدية

لقد وجدت المرأة المتميزة نعم امرأة رائعة

ولتزداد ارتباطا وليمنحك الله الأطفال

وليمنحهم الله بدورهم أطفالا وذرية

ولتمنح العمر الطويل المديد

وهناك دعوات الزواج التى ترسل إلى الأصدقاء والأقارب ولا تختلف فى مضمونها من فترة إلى أخرى ، ولا يمكن تحديد جنسية الشخص الأصلية أو عقيدته ، فأورجين وأفلوطين مصريون وكذلك القديس أبوللو وميناس ، وهناك مسيحيون كثيرون حملوا أسماء فرعونية ويونانية ، فالدعوات الخاصة بالزواج والاحتفالات لا نستطيع تحديد جنسية صاحبها ، فهناك دعوة من ديونسيس لزفاف أبنائه فى منزل شخص يدعى أسخريون Ischgrior وتعود للقرن الثانى(٦٧).

وفى فترة القرون الأولى كان هناك زواج بين الأشقاء ، ولكن حرمته الدولة وجرمته ، ففى دعوة من سيدة تدعى هيرياس Herais" تدعو السيدة هيرياس للغذاء بخصوص زواج أبنائها فى منزلها غدا الخامس من الشهر الساعة التاسعة ". ولا نستطيع التأكد أنها تخص زواج أشقاء أم هو زواج عادى (٦٨).

وفى دعوة من القرن الرابع ثيون أنى أوريجنز يدعوك إلى حفل زفاف شقيقته غدا ٩ طوبة فى الساعة الثامنة .

والصيغ لا تختلف كثير عما هو مألوف اليوم ، وتلك الحفلات تأخذ طقوسا مشابهة حفظها الزمان عبر القرون ، ومن الملاحظ أن الصيغ لا تختلف فى الإسكندرية عن العواصم الأخرى .

فكان الحفل يتطلب زهورا وراقصين وأنواعا من الأطعمة والفطائر ، ففى إحدى البرديات ورد امرأة تدعى ديونسيا طلبت من أصدقائها إرسال كميات من الورد بلغت ٢٠٠٠ زهرة نرجس ، وكميات من الورود ، وبما أن هذه الفترة لا يتوافر فيها الورد فلقد أرسل لها من طلبت منه هذه الأزهار ١٠٠٠ وردة فقط، وضاعف كمية النرجس فأرسل إليها أربعة آلاف، ولنا أن نتخيل كيف يبدو الحفل بهذا الكم من الزهور ، ومن المؤكد أن الطبقات العليا كان أفرادها أكثر ثراء (٦٩).

ويذكر استرابو « أن اليوسيس وهى ضاحية قريبة من الإسكندرية » ، وواقعة على الفرع الكانوبى نفسه ، وبها منازل وشرفات للذين يبغون العبث من الرجال والنساء، وهى مقدمة الحياة الكانوبية والفجور هناك ، وأن العابثين يهبطون من الإسكندرية بطريق القناة ، ذلك أنها تعج كل يوم وكل ليلة بجماعة من الرجال والنساء يعزفون الناى ويرقصون، سادرين فى غاية الفجور ، وتعج بأهل كانوبوس نفسها ، وهؤلاء يملكون بيوتا واقعة على القناة معدة لمثل هذا العبث واللهو. ومن المؤكد أنه مع المسيحية توقف الذهاب إلى أماكن المتعة العلنية فى كانوب (٧٠).

ومشاعر الحب الدافئة تبدو واضحة جلية فى ثنايا الخطابات ، ففى خطاب مرسل من رجل يدعى سيرنوس إلى زوجته إيزدورا يعبر عن مشاعره تجاهها فيذكر لها من أنه من يوم أن تركها يبكى على فراقها، وأنه من يوم أن دخل الحمام لديها فى منزله فى شهر بؤونة لم يدخل الحمام إلا ١٢ هاتور، وذكر فى الخطاب نفسه أنها أرسلت إليه خطابا يحرك الحجر وأن كلمات الخطاب جعلت رأسه يصاب بالدوار .

وفى خطاب من أم لابنها تخبره أن أخته رزقت بطفل ، وأنها تشكر أخته الأخرى لأنها تركت كل شيء وسافرت معها ، وتذكر أن ابنة ابنتها المدعوه هيراديوس Heraidous ترسل محبتها ، وأنها تذاكر دروسها بجدية ، وتسأل ابنها لماذا لم يرسل لها ٢٠ درخمة حين طلبتها ، وتذكر أمرا غريبا أنها لن تجد وقتا للتفرغ للإله، وإنما يجب أن يأتى إليها ابنها أولا لتمارس شعائرها الدينية ، ومن الواضح أن ضعف الرابطة الدينية يعود للفترة الوثنية ، فالرابطة الدينية غير قوية ، فهى تربط ممارسة الشعائر بعودة ابنها سالما، فهى تشترط على الآلهة (٧١) .

وفى خطاب من القرن الرابع نجد رجلا يحاول التقرب من حماته المقبلة ويحاول استمالتها، فيكتب لحماتة نونا Nonna ويطلب منها تحية خطيبته وأنه أخبر شخصا اسمه سيرنوس عن مدى التعب الذى عانته وتكبدته فى إعداد منزل الزوجية ، وأنه أراد المنزل قريبا من سكنها، فمن الواجب عليه ألا ينفصل أو يسكن بعيدا عنها ، وأنه يحترمها بعد الله كأمه وأنها تعنى كل شيء له ، وإذا لم يكن يناسبها هذا الأمر فلتخطر شقيقه ويذكر أنه أرسل لها كهدايا صندوق به سبع زجاجات من سائل غير موضح ماهو ، وزيت ومخدات وكل ماوجده وأنه أرسل لها خاتما ذهبيا، وأنها تستطيع شراء عطور ، وأنه سيحضر معه أحذية ، وأنها إن رأت أنها فى حاجة إلى شيء بخصوص الزفاف فلتكتب له (٧٢).

هذه الرسائل التى تعكس عواطف إنسانية جميلة، وبعضها عكس معتقدات معينة، وبعض النساء والرجال لجأوا إلى السحر للحصول على رضى الزوج أو الحبيبة ، ففى إحدى الرقيات السحرية " هل ممكن أن نيكى Nike ابنة أبولونيوس تحب بناتوس Pantous، وفى اوستراكا كتب رجل . تعويذة يدعو لطلاق امرأة يحبها من زوجها تسمى ألوس Allous من أبوللونيوس زوجها ، وأن تصاب ألوس Hybris « بالعجرفة » والغرور والكراهية والمشاكل حين تغادر منزل أبوللونيوس ، وكلمة Hybris حل محلها فى العصر المسيحى كلمة Poneros daemon "الروح الشريرة التى تدمر الزواج" (٧٣) .

وكانت الرقيات السحرية لاستجلاب المحبة أو لاستجلاب الشر ضد الأعداء أو الاستخارة للسؤال عن نجاح العمل أو الزواج ، وتلك لم تختلف كثيرا عن عصر فرعونى إلى يونانى امتدادا للمسيحى ، والاختلاف الوحيد أنه بدلا من تلك الآلهة الوثنية، ذكر المسيح والقديسين ، وهناك عقد زواج طريف تضمن شروطا لحماية الزوج من استخدام زوجته للسحر، فامرأة اسمها سباس وعدت بعدم وضع تعاويذ سحرية فى طعام أو شراب زوجها ووضع هذا الشرط فى عقد الزواج .

واللجوء إلى قراءة الطالع والتمائم والأحجبة والرقيات مازال موجودا إلى يومنا هذا .

وكان هذا نوعا من التعبير عن الهموم والخوف الكائن فى أعماق البشر ، ويحتاج إلى نوع من الأمان والدعم النفسى ، فكان سؤال النبوءة والطالع فى الإسكندرية شائع بين جميع الطبقات ، ففى فترة القرون الثلاث الأولى من الميلاد حظى معبد سرابيس بتقديس بالغ كما ذكر استرابون : " معبد سرابيس الذى يعظم بتقديس بالغ ويهب الشفاء حتى إن أشهر الرجال يؤمنون به ويبيتون فيه ويسجل البعض الأودية ، ويسجل آخرون مميزات الوحى هناك " [٧٤].

والأسئلة المطروحة هناك تتناول أموراً شخصية ، هل سيتزوج أو سيفقد عمله؟. ورسالة مقدمة لسؤال الوحى يسأل رجل عن نجاح زواجه من امرأة يذكر أنها كانت زوجة رجل سابق .

ولكن مع أواخر القرن الثالث والأزمة الطاحنة فى الإمبراطورية من بين واحد وعشرين سؤالا نجدها فى ورق البردى ، نجد ثمانية أسئلة على الأقل تحمل طابع ذلك الوقت وتنعكس فيها مخاوف الناس ، والأسئلة كما يلى أيباع كل ما أملك؟ وهو سؤال يشير إلى مصادرة الأموال ، وهناك سؤال يشير إلى الحالة الاقتصادية أأصبح شحاذا ؟ أأهرب؟ ، هل أقبض مرتبى ؟ ورجاء من الوقاية من الخطر أو من تدخل الدولة فى حياة الناس فأصبح من الأمور التى يهرب منها الفرد عضوية المجلس البلدى أو إرساله سفيراً للعاصمة .

ولقد استمر اللجوء إلى الرقى والتمائم والتبرك بالقديسين فى العصر المسيحى وتقديم الأسئلة والاستخارات لهم ، وهناك تمائم ورقى للحماية من الأمراض ذكرت أسماء المسيح والقديسين ، بل كتبت فى برديات استجلاب المحبة، أما الأبناء فقد اهتمت الأسرة سواء فى العاصمة أو فى مصر عامة بأبنائها وبرعايتهم وتربيتهم وتعليمهم . ولقد ذكر استرابون أن العادات المصرية والتقاليد التى يرعونها بوجه خاص أن يربوا كل ما يولد لهم من أطفال وأن يختنوا الذكور والإناث كما هى العادة عند اليهود (٧٥).

والنص يذكر أمراً فسرته بردية تعود للقرن الأول وهو نفس وقت زيارة استرابون ٧٦١ م (٧٦)، فلقد ورد فى تلك البردية وهى رسالة من رجل يعمل فى الإسكندرية ، ولكنه يقطن فى إحدى عواصم الأقاليم إلى زوجته الحامل والتى على وشك أن تضع طفلا " يذكر لها أنه سيبقى فى الإسكندرية حيث لديه ارتباط بعمل وهذا يتطلب بقاءه فترة أخرى " ، وأنه بمجرد تسلم أجره سيرسل لها مالا، ويؤكد على زوجته إن أنجبت ذكرا فلتحتفظ به ولكن إن أنجبت أنثى فعليها التخلص منها وإلقاءها فى العراء.

وهذا أمر غريب على المصريين ، وهى عادة يونانية وليست مصرية وربما الرجل من أصل يونانى ، فقد كان المصريون حريصين على أبنائهم .

ومن الواضح أن هناك ظاهرة فى تفضيل الذكر على الأنثى ، وكانت الدولة تكفل أحيانا الأطفال المشردين ، كما فى حالة عهدت الدولة إلى مربية برعاية طفل وجد فى العراء (٧٧).

وبصفة عامة فإن البرديات ذخرت بذكر اهتمام الآباء بأبنائهم وتربيتهم ومتابعة تعليمهم ، وكانت الأسر الغنية تأتى لأبنائها بمربيات وكن يعملن بعقود، ففى وثيقة حصلت مربية مقابل عملها على سبع درخمات وإنائين من الزيت .

وتضمنت بعض عقود الطلاق حق الزوجة الحامل وطفلها القادم فى أن ينفق عليه أبوه، وأكد القانون على حق الزوجة وأبنائها فى أملاك الرجل(٧٨).

ونستطيع القول إن هذا المجتمع كانت له طقوسه فى أفراحه وأعياد ميلاده، إنه مجتمع له أسلوب معين فى الحياة ، أما النظرة للمرأة فلقد كان القانون الرومانى يضعها فى منزلة أدنى من الرجل وتحت وصايته ، ولكن من المؤكد أنها شغلت فى مجتمع الإسكندرية جزءًا حيويًا ، فمن نساء عاملات مثل هيباشيا ، لعاملات فى مصانع الحرير ، إلى نساء طبقة راقية ، كان لهن تأثيرهن على أزواجهن وعلى حياة المدينة من واقع البرديات ، وكانت الزوجة والابنة والأم لهن مكانتهن ، وحرص الرجال من واقع البرديات على مرضاتهن فهناك من يتمنى حتى رضى حماته المقبلة بالهدايا والسكنى لجوارها ، وقوائم المهور تشير إلى اهتمام المرأة بملابسها وحليها وفى إحدى البرديات " ... ثياب وترزى لتقدير قيمتها" .

وهذا يقودنا للحديث عن أسواق المدينة التى كان عليها أن تعنى بمتطلبات الطبقات المختلفة من عليا وسفلى ، من ثياب وأدوات ترف ومجوهرات وأثاث ، وكذلك ما تحتاجه الطبقات الدنيا من أساسيات ، وتعددت الأسواق فى الإسكندرية لتفى باحتياجات هذا المجتمع ، وكان سوق الإسكندرية يعد أشهر الأسواق الداخلية ، فى مصر خاصة ، ولقد ذكر بروكبيوس فى القرن السادس أن الوالى هيفستوس جعل جميع حوانيت الإسكندرية احتكارًا حكوميا ، وأدى هذا إلى زيادة دخل الإمبراطور جستنيان ، وكانت فى كانوب سوق أخرى ، وكان أهم ما يشغل الدولة توفير المواد الغذائية فى الأسواق والحد من جشع التجار وضمان ضرائبها ، ولقد انتظم التجار فى الإسكندرية كغيرهم من الطوائف فى نقابات كنقابة لتجار الخبز وأخرى لبائعى الجعة وثالثة لتجار النبيذ .. إلخ ، وأجبرت الدولة التجار على عرض جزء من سلعهم بالسوق ، . وإعلان قائمة شهرية بالأسعار ، وكانت اعتبارًا من القرن الرابع ترجع إلى الوالى ، وأحيانا إلى مراقب الأسواق **Logistes** وهو المسئول عن إمداد المدينة بالطعام ، وكان لكل نقابة رئيس يتولى عمله لمدة شهر واحد وعليه العمل لصالح طائفته ، وهو مسئول أمام الدولة عن أفرادها حتى الأوامر الخاصة بإمداد السوق بالمواد الغذائية ترسل إلى رئيسها (٧٩).

ولقد ميزت الإسكندرية تكريمًا لها وتحيزًا للمدينة الموصوفة بأنها متاخمة لمصر . فكان لها ضريبة قمح خاصة بها توزع على أهل الإسكندرية منذ عهد دقلديانوس

وزادت نسبتها ١١ مد يوما فى عام ٤٢٦ م ، واستمرت تلك النسبة فى عصر جستنيان وهى تعادل ٨٠٠٠ رغيف ، ولقد أكدها جستنيان فى قانونه CJ × 28.2 ولم تتوقف إلا أثناء الاضطرابات التى أثارها الأهالى ٥٤٠ لطرد أحد الأساقفة . فلقد عوملت الإسكندرية كروما ثم القسطنطينية التى كان على المصريين إرسال قمحهم لسد احتياجات تلك المدينة والحصول على الخبز المجانى .

كذلك فرضت ضريبة على الفخار لصالح بلدية الإسكندرية للإنفاق على شحنة القمح الخاصة بها ، والإنفاق على الحمامات الخاصة بها ، وكانت السوق الداخلية تتوسط المدينة وعلى جانبيها قامت الحوانيت التى تذخر بالبضائع المتنوعة، فحوت ما اشتهرت به من منتجات وصناعات ومواد تموينية ضرورية ومواد ترف مستوردة ، وكان من المتبع أن كل فئة من التجار تعمل بتجارة معينة تجتمع فى مكان خاص بها فى السوق ، فتجار الأقمشة لهم مكانهم فى السوق ، فتعرض الثياب الصوفية والكتانية والحريرية، وتجار الفخار لهم مكانهم الذين يعرضون فيه أوانيهم وجرارهم .

وكان من الممكن لفرد أو مجموعة الحصول على امتياز تأجير منطقة التجارة لصالحهم مقابل مبلغ من المال يؤدى إلى الدولة ، وكان يتم الحصول على هذا الامتياز عن طريق مزايدة عامة، وكان يحق للشخص التأجير من الباطن لمن يرغب من التجار فى مقابل مبلغ مالى ، والأمر نفسه بالنسبة للحوانيت التى تمتلكها الدولة فى السوق ، فيتم تأجيرها عن طريق مزايدة عامة وعطاءات؛ فيتقدم الأفراد بعطاءاتهم وأعلاها نسبة هو الذى يلقى القبول ، على أن يتعهد بتسليم المكان خاصة ، وكان العمل بالتجارة يتطلب موافقة الدولة ، فعلى الشخص الذى يرغب فى مزاولة التجارة أن يتقدم بطلب رسمى إلى كاتب المدينة Exegetes يطلب فيه السماح له بمزاولة تجارته ، وكذلك نوعيتها ، والهدف من هذا الإجراء ، حصر عدد التجار وفرض الضرائب عليها ، وامتلأت الأسواق بجميع أنواع الأطعمة ؛ فوردت فى البرديات نوعيات كثيرة من الأسماك كالشبوط والقشر واللبيس ، وكانت أسعار السمك البحرى أغلى من النهرى ولحوم البقر والغزال والدجاج والعصافير والخنزير الذى أكله المصريون فى العصر البيزنطى ، وكان هناك بيزنطيون لمتابعة الحيوانات [٨٠].

ولقد وردتْ فى البرديات أنواع بقول قمح وفول وعدس وأرز وسمسم ، ولقد حدد مرسوم دقلديانوس الخاص بالأسعار جميع السلع.

أما الثياب فقد تنوعت خاماتها بين كتانية وصوفية وحريرية ، وكانت مصانع نسج الحرير فى الإسكندرية ، وكان مصنع الحرير فى جنسيم من أشهرها ، واشتغلت به أعداد كبيرة من النساء ، وكانت الثياب توشى بأنواع مختلفة من التطريز ، وكان عمال التطريز أعضاء فى نقابة النسيج ، وجرت الزخرفة بخيوط الصوف والحرير والقطن وأحيانًا بخيوط ذهبية ، وقد مرت الأشكال ونماذج التطريز بمراحل ثلاث أولاهما من أول القرن الأول إلى الثالث رسوم آدمية وحيوانية وأشكال هندسية، أما المرحلة التى تبدأ من القرن الثالث امتدادا للرابع والخامس فتبدأ برسم الصلبان والقديسين وامتزجت بتأثيرات يونانية .

ومن القرن السادس إلى التاسع بدأت عناصر آسيوية، الطواويس والصيد وحملت طابعًا دينيًا، ولقد اعتنى أهل الإسكندرية بملابسهم وخاصة الطبقة العليا والوسطى والنساء فاهتموا بأمر ثيابهن ، فكان منها الثوب القصير والثوب ذو الطيات والمعاطف والقمصان والمناديل المطرزة وحرمت الكنيسة لبس الحرير على الرجال ومع ذلك ارتداه رجال الطبقات العليا (٨١).

وحدد مرسوم دقلديانوس أجور الخياطين ؛ فحدد أجرا قدره ٦٠ دينارًا للخياط المختص بصناعة المعاطف ذات القلنسوة ، وهى نوع من العباءات ، وربما تشبه مايرتديه أهل المغرب ، ولخياط السراويل ٢٠ دينارًا ، وخياط الطوزلوق قماط الساق ٤ دنانير ، وكما هو واضح كان لكل خياط تخصصه فى صناعته .

وذكرت أنواع من الأقمشة وحياكتها لنساء من طبقات مختلفة ، وأثمان الثياب اختلفت وفقا لنوعها وخامتها ومابها من توشية ، وكان ثمن الثوب فى القرن الرابع ٤٠٠٠ درخمة، والمعطف ٥٠٠٠ درخمة، والمنديل ١٤ درخمة، والقرن السادس القميص المشغول ٤٠٠٠ (٨٢)، ولقد وصلت أثمان بعض الثياب لأرقام خيالية فمعطف المرأة يكلفها ١٠٠ أردب قمح، كذلك استخدم الجلد فى صناعة المعاطف على نطاق ضيق ، فقد أرسل رجل إلى زوجته يطلب معطفه الجلدى ، ولقد اختلفت أثمان

المصنوعات الجلدية وفقا لنوع الجلد واستوردت بعض الجلود من الخارج ، وفى القرن الرابع بيعت أربع قطع من جلد بابليون المدبوغ بمبلغ ١٢ ميراد(٨٣) .

وكانت حرفة الإسكافية من الحرف المعروفة فى الإسكندرية، ولقد تنوعت الأحذية فهناك أحذية ، من الجلد من اللونين الأحمر والأسود وصنادل ذات سيور، وقد كتبت عليها عبارات الحب، ولقد حدد مرسوم دقلديانوس أثمان كل نوع من الأحذية. وواضح أن جودتها توقفت على نوعية الطبقة الاجتماعية ، فمرسوم دقلديانوس حدد أحذية أعضاء السناتو ١٥ دينارا وأحذية النساء ٦٠ دينارا وهذا - أيضا - يتوقف على نوعيتها، وكان الدافع للامبراطور دقلديانوس لإصدار هذا المرسوم بتحديد الأسعار القرار النامى الذى ساد الولايات وجشع التجار ، ووضعت عقوبات رادعة وصلت إلى الموت (٨٤).

وإذا نظرنا لنماذج الثياب والحلى وتسريحات الشعر سواء للرجال أو النساء فكانت تدخل عليها تعديلاً وفقًا للفترة الزمنية ، ومع تغيير حكم الأباطرة فقد قلدوا تسريحات وملابس حكامهم ، وما وجد فى مارينا العلمين فى الإسكندرية على شواهد القبور والموميات يعكس أوضاع طبقة عليا ووسطى ، وهذه النماذج تغطى أزياء القرون الثلاثة الأولى ، لأن الفترة التالية حرمت المسيحية التحنيط ، ولكننا نجد نماذج فى المتحف القبطى للثياب والحلى من الفترة التالية وإلى القرن السابع ، الملاحظ أن هناك طرزا ظلت سائدة خلال العصرين الرومانى والبيزنطى ، وإن اختلف التطريز وصوره بعد دخول المسيحية بدخول رموز مسيحية إلى جانب التأثيرات المصرية القديمة واليونانية والآسيوية ، وهى مشغولة على طريقة القباطى .

وكان الرداء الأساسى واحدا فى الفترة اليونانية والرومانية لاتينى Tunic ، أما البيلوس والخيتون وكان يطلق عليه الخيتون الدورى وكان عباءة أو رداء من الصوف ثبت بدبوس على الكتف ، وفى بعض الأحيان كان الثوب يحيط به حزام ، وبالتالى كانت هناك طيات فى الثوب عند منطقة الحزام وتكون ما يعرف باسم Dauch (٨٥).

وهناك شكل آخر به تغيير طفيف حيث نجد أن الثنية المعتدلة أطول ومحاطة بحزام من الخارج وهو مايعرف باسم البيلوس الأثينى .

أمّا الخيتون فهو عبارة عن ثوب من الكتان له فتحة للرقبة ومخاط من الحافتين ، ويترك فتحة للأذرع ويمكن أن يلبس هذا القميص وحده ، أو يلبس أكثر من واحد وعادة اثنين ، وكان التونك الأسفل أبيض وينتهى عند الرقبة بتوشية خفيفة بألوان مختلفة، وفي القرون التى رسمت فيها البورتريهات ، وكانوا يرتدون قميص إلى القدم ، وكانت أثواب النساء طويلة وخاصة المسنات ، أما الأطفال فقد ارتدوه قصيرا، و كان اللون المفضل للنساء الأرجوان ، ويمتد بدرجات مختلفة من لون البنفسج الغامق إلى لون الليلك الفاتح إلى السكلمان، وإن ارتدت النساء – أيضا – ملابس إسبرطية قصيرة ، وكان رجال الإدارة يرتدون تونيك أبيض مع أشرطة بنفسجية مزينة وموشاة تمتد عبر الأكتاف إلى الخلف ، ومن القرن الثانى نرى الأردية ذات أكمام طويلة ، وهذا الطراز لم يكن موجودا فى الفترة السابقة ومشغول على طريقة القباطى .

وخارج المنزل الهيماتيون ويرتدى فوق الخيتون أو " التونيك " وارتداه الرجال والنساء والرجال بصفة أساسية ، وهو قطعة ثياب تلتف على الجسم وتلقى على الكتفين وعادة على الجانب الأيسر ، وكان مربع الشكل ، إلا أنه كان أحيانا مستطيلاً ، وكان الرجال يقومون بارتدائه إما طويلاً أو قصيراً ، ويطوى فى شكل ثنايا على كتف واحد ، وكان يختلف وفقا لذوق صاحبه ووفقا لطبيعة الجو المتاح ، وكانت النساء تختار ألوانه تتناسب مع لون الرداء الذى تحته ، ومع الحلى والزينة وبعضهن كان يرفعهنه إلى رؤوسهن (٨٦).

وهناك معطف ارتداه العسكريون ، وهو معطف أسود الخلاميس أقصر وأضيق من الهيماتيون ويربط بدبوس أو مشبك على كتف واحد ، المشبك على اليمين ربما يعنى مكانه أعلى من الشمال، ويرتدى الجنود معطفا طويلا **Sagum** وكان من اللون الأزرق الغامق ، وأحيانا بنفسجي، أو أرجوانى ، أو أحمر ، ويحوى الثوب العسكرى حزاما للسيف من الجلد يزين بالفضة والذهب ويعلق أحيانا على الكتف الأيمن وأحيانا على الأيسر .

ولقد عرضت Eyphiosyne Doxiad لنماذج من تسريحات الشعر التى شاعت فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى من واقع البروتريهات الجنائزية، ونجد أن نفس النماذج تتكرر بتعديلات بسيطة إلى نهاية العصر المسيحى وفقا لما هو فى المتحف القبطى من تماثيل وحلى وثياب ، ومن المؤكد أن هذه النماذج - أيضا - كانت تخص الطبقتين العليا والوسطى التى اهتمت نساؤها السكندريات بأحدث الموضات من شعر وحلى وملابس ، فالبورتريهات والتماثيل تعكس صورة نساء اهتممن بزينتهن وحليهن ، حتى أن صورهن الأخيرة فى المقابر تمثلهن فى أبهى صورة من ثياب وحلى وأناقة . ونجد وفقا لما احتوته البورتريهات أن تسريحات الشعر تتغير تقريبا كل ربع قرن ، ربما مع فترة الحاكم ، فلقد دأب السكندريون سواء النساء أو الرجال على تقليد طرز شتى وملابس حكامهن من الرومان والبيزنطين ، فأول بورتريه على طريقة الرومان يعود لعهد تيبريوس١٤ - ٣٧ ، وتظهر فيه المرأة بغطاء رأس شبيه بأنطونيا الصغرى جده كاليوجلا ٣٧ - ٤١ [٨٧] .

وتسريحة أخرى تقليدا للإمبراطورة جوليا ماميا ، فتسريحة النساء فى الربع الأول للقرن الميلادى تجعل الشعر مفروقا من الأمام ومعقودا من الخلف، وشعر الرجال تغير بعد ذلك من ٢٥ م إلى ٥٠ م ؛ فرق من النصف مع تجعد الشعر على شكل بوكلات صغيرة ومعقود للخلف، وظل قصيرا مع تصفيف قليل منه على الجبهة من ٥٠ م - ٧٥ م وشعر النساء أخذ شكل بوكلات صغيرة من الأمام وبوكلات تتدلى على الأذنين ، وشعر الرجال أصبح أكثر كثافة ومجعدا ومن ٧٥ م - ١٠٠ م الجزء الأمامى على شكل بوكلات ، والشعر فى شكل ضفائر تجتمع فى الخلف فى واحدة، وشعر الرجال كثير التجعيد ، من ١٠٠ - ١٢٥ م شعر النساء مجعد فى شكل بوكلات ومرفوعا فى الخلف فى شكل دائرة ، شعر الرجال مصفف إلى الأمام على الجبهة ، ١٢٥ - ١٥٠ م ، شعر النساء مصفف على شكل ضفائر ومرفوع من الخلف مع وضع حلية أمامية، وشعر الرجال مصفف مع وجود لحية خفيفة وشارب ١٥٠ - ١٧٥ م ، والشعر مفروق من الأمام مرفوع من الخلف ، وشعر الرجال أكثر تجعيدا وشارب ولحية كثيفة ١٧٥ - ٢٠٠ م ، شعر مفروق من النصف يغطى الأذنين على شكل شنيون فى الخلف ، ٢٠٠ - ٢٢٥ م ، يحيط الشعر بالوجه والرجال شعر ولحية

وشارب كثيف ، ٢٢٥ - ٢٥٠م ، للنساء شعر مفروق وينزل عل الجانبين على الأذنين، فى تجعيدات الرجال شعر قصير ، وذقن وشارب ،٢٥٠ - ٢٧٥ م ، الشعر قصير وعلى الجانبين حلية على الشعر أو مرفوع لأعلى ، ٢٧٥ - ٣٠٠ م شعر مجعد على الجانبين ومرفوع من الخلف إلى الأمام ، الرجال شعر قصير ولحية خفيفة ، وإذا تتبعنا الطرز إلى نهاية العصر البيزنطى سنجدها تدخل فى الإطار السابق بين التجعيد والبوكلات والشعر المرفوع، وبعضهن أضاف شباك للشعر موجودة فى المتحف القبطى، وحلى توضع فى الشعر وكان بعضها من الذهب الخالص وهى على شكل زهرتين تربط بينهما سلاسل (٨٨) وهناك دبابيس متنوعة للشعر وزهور وتيجان ذهبية ارتداها الرجال والنساء كدائرة إيزيس ، بالإضافة إلى البروكات ، ولقد حرصت النساء على التزين بكمية من الحلى الذهبية المزينة بالأحجار .

ولقد استاء "كلمنت" من اتخاذ النساء للشعر المستعار وجعله على شكل ضفائر وتراكيب هندسية وقيام الحلاق بتزيين وجوههن وإزالة الشعر الزائد .

وفى المتحف القبطى مجموعة من الأقراط والسلاسل والعقود والأساور من الذهب بعضها على شكل ثعبان من التراث المصرى القديم ، ومازال هذا النموذج مستعملا لعصرنا ، والعقود طعمت بالزمرد والياقوت واللؤلؤ والفيروز ، وبعضها بدت فيه تأثيرات يونانية كوجه الميدوزا والذى وضع فى منتصف العقود الذهبية لطرد الأرواح الشريرة والحسد ، وأشكال القواقع والمحار وحلقات على أشكال هرمية وعقود من الأحجار نصف الكريمة .

وأوانى عطر وكحل ومرايا فضية منقوشة وأمشاط من جميع الأنواع من العاج والعظم محفور عليها أساطير يونانية ، وبعضها صور للمسيح والعذراء وأقراط على شكل عناقيد العنب وأيقونات على شكل العذراء والمسيح وصلبان (٨٩).

ولقد اشتهرت الإسكندرية بصياغة الأحجار الكريمة ، وكانت تلك الأحجار توزن بالقيراط ، ويقيم سعرها على هذا الأساس ، فالبرديات تشير إلى وزن الذهب ثم وزن الحجر الكريم ، وكانت العملة المضروبة على أساس الذهب على مستويين السكندرى والعادى ، والوزن العادى هو وزن العملة التى قررته الدولة ، أما الوزن السكندرى

فكان أعلى فى قيمته من الوزن المعتاد ، وفى إحدى البرديات أضيف قيراط على كل صولد من الوزن المعتاد لتحويله إلى الوزن السكندرى .

ولقد صنع السكندريون من الفضة أكواب وشمعدانات ومباخر إلى جانب حلى من قلائد وخواتم وتزدان بها منازلهم وقصورهم، وكانت الفضة الخام قيمتها واحد وثلاثين دينارا والمصنعة ٦٢ وفقا لمرسوم دقلديانوس ٣٠١ م ، الصائغ يتقاضى على الصياغة مايعادل قيمة الفضة وكانت صياغة الذهب والفضة تنتظم أيضا فى نقابة تخضع لإشراف الدولة (٩٠).

الصورة تعكس مجتمع ثراء حرص أفراده على ارتداء الثياب الغالية وتزينوا بالحلى وحرصوا على اقتفاء موضات العصر ، فملكوا المنازل والقصور الجميلة ولكنها لم تكن كلها صورة الإسكندرية ، فهناك أحياء الحرفيين ولا يمكن الحديث عن الحياة فى الإسكندرية إلا بالحديث عن عدد من المنشآت الأساسية كعدد من الحمامات والمنازل والمسارح والتى مازال الأثريون يكتشفون الكثير منها كل يوم .

كانت الحمامات الرومانية من أهم مظاهر الحياة فى الإسكندرية ؛ فهى مجال الاسترخاء والاجتماع بما يشبه دور النوادى فى عصرنا ، والحمام متكون من عدة حجرات مزينة بالأعمدة ذات التيجان الكورنثية الجميلة وصنابير للمياه الباردة وأخرى للماء الساخن وغرفة للبخار، وفى بعض الحمامات أضيفت أمكنة للنساء ، وجرى تزيين الحوائط بنقوش بارزة ثم لونت بألوان وصورت الأساطير والقصص اليونانية فى الفترة البيزنطية ، ثم بدأ يغلب الطابع المسيحى فى الفن وهو الفن القبطى، وظهر نوع من الحمامات يعرف باسم **Hypocaust** وتعنى الكلمة الدعامات التى ترفع أرضية كل من الحجرات وكان بالحمام حجرة إعداد الماء **Frigidarium** وحجرة الهواء الساخن **Tepedarium** وحجرة الماء الساخن **Coldarium** وحجرة السونا ، وهناك وحدات لخلع الملابس ، وأشهر الحمامات حمام كوم الدكة بالإسكندرية (٩١).

وهو حمام خاص استخدم فى فترات من اليوم للنساء وفترة للرجال ، وبه حمام خاص لصاحبه وحمام أطفال ، وظلت الحمامات قائمة إلى الفتح الإسلامى وتعرضت لزلزال ٥٣٥ م و لكن أعيد ترميم الحمامات (٩٢) ، كذلك وجدت حلقات للسباق فى

الإسكندرية ، وكان بعض أهلها من مؤيدى حزب الزرق والبعض من مؤيدى الخضر ، ولقد ورد فى عديد من البرديات ذكر حلقات السباق وترميمها ، كذلك فى الفترة الأولى كان لملعب الجمنازيوم أهمية حيث توجد الردهات المسقوفة ، وكان هناك أكثر من استاد وفى الوسط يوجد مقر التحكيم والحدائق .

أما المنطقة السكنية فكانت فى منطقة كوم الدكة حاليا فى الفترات البطلمية والرومانية والبيزنطية، وقد عرفت هذه المنطقة أنواعا وأنماطا من المنازل وجدت بها منازل خاصة ومنازل الطبقات الوسطى والمساكن الفخمة والفيلات .

وقد ظهر التمدن فى الإسكندرية فى شكل نموذج منظم، وكان هناك اختلاف من حى لآخر ، ولقد ذكر جان إيف أمبرور فى كتابه إعادة اكتشاف الإسكندرية ، وهو أحد القائمين بالأبحاث الكشفية الخاصة بالإسكندرية القديمة أن الأحياء تغيرت عبر الفترات الزمنية ، وأن هناك شوارع عديدة تغيرت معالمها ، فمثلا الشارع الجانبى كان يمتد عبر المسرح فى كوم الدكة ، ويعود للقرن الرابع أقيم على أنقاض منازل من القرن الأول، وشارع آخر تمر على جانبيه مجموعة منازل ذات طابع هلينى وظل مستعملا لعدة قرون .

وقد انقسمت منطقة الإسكان إلى مراحل، الفترة البطلمية والفترة الرومانية المبكرة والفترة الرومانية المتوسطة والفترة المتأخرة البيزنطية، ولقد اكتشف حديثا أكثر من منزل يعكس طبيعة العمران من حى إلى حى، وهناك نموذجان أحدهما لمنزل بطلمى وآخر من العصر الرومانى فى حى بروكن **Brucheen** الحى الأرستقراطى جنوب غرب القصور الملكية منزل يعود إلى النصف الأول من القرن الثالث ق . م ، ويتكون من عدد من الغرف فهناك غرفة طعام **Erldinlamp** وأرضية فسيفساء على الطراز المقدونى والمنزل كبير جدا وواضح الديكور الغالى ولم يوضح طابق آخر (٩٣).

وعلى مسافة نحو حوالى ٢٢ ياردة من غرب هذا المكان توصلت الاكتشافات فى منطقة مسرح ديانا لمنزل يعود للقرن الثانى الميلادى له اثنتا عشرة أرضية من الفسيفساء ؛ فى المنتصف ميدالية من الفسيفساء الصغيرة ، وتحوى رأس الميدوزا

وتقوم بحماية الذين يحضرون المآدب وتحويل من يحدق بهم وفق الأسطورة إلى حجر. ويرى أمبرور أن حجم المنزل ٢٠٠ متر مربع ، وأن هذه المنطقة أقيمت بها منازل كبيرة وفيلات ، ولقد تم العثور على منازل فى الفترة الرومانية البيزنطية من القرن الرابع إلى السابع ، وحملت زخارفها أشكال هندسية وطيورا وأشهرها الفيلا التى أطلق عليها فيلا الطيور ، لأن الفسيفساء اشتملت على مناظر للطيور وكانت ترجع إلى عصر هادريان ١١٧ – ١٣٨ ، وظل المنزل مستخدما فى العصر البيزنطى فى الفترة ٢٤٠ – ٥٥٠ . وكان للسكندريين والمصريين عامة طقوسهم فى الموت كما فى الأفراح، ووسائل هذه الفترة تعكس هذه الصورة ، الجذور العميقة للحياة الفرعونية تتضح فى صيغ الدعوات للميت ، ففى القرن السادس دعاء الميت يختلف كثيرا على ما يوجه لروح الفرعونى أو ما يكتب اليوم فى صفحات الوفيات فى العصر الحديث مع اختلاف بسيط فى صيغ الفترة .

وكمثال لأحد المرثيات : " أمنا حواء مثل مريم والله الحى يعلمون أنك يا سيدى عانيت مالم يعانية الرجال الصالحون أو مرتكبوا الذنوب ولكن الله القادر هو الذى يعطى وهو الذى يأخذ إننا ندعو السيد المسيح أن يمنحك الراحة وأن يكون مقامك الجنة حيث تحفظ الأرواح فإنهم يذهبون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونرجو ألا يشمل الحزن روحك ياسيدى ويدمر أعمالك ولكن فليرسل الله رحمته عليك والله لديه كثير من الطيبات ويحول الأسى إلى رحمة وإذا تمنيت رحمته وإنه من خلال الحزن سيتغمدك الله برحمته " .

تلك الأفكار نجدها فى الحياة المصرية القديمة، والمصرى يرى أن أوزوريس يأخذ كل من وصل إلى نهاية أيامه وخلال حكم اليونان والرومان ظل المعتقد ساريا فكان يذكر فى الرثاء "فليمنحك أوزوريس ماء باردا " ، فالمسيحية تقدم وعودا محددة بالتحرر من الجوع والحر والعطش ، والمعتقد الفكرى بالحياة الأخرى ظل فى أعماق سكان وادى النيل ، وحتى العبارات التى تذكر إلى الآن فى مواجهة الحزن، وفى رسالة من القرن الثانى تبدى امرأة حزنها على وفاة شخص عزيز وأسفها وتذكر أنها لا تملك أمام الموت أن تفعل شيئا . أما عن المقابر وطرق الدفن استمر المصريون فى

الإسكندرية وفقا لعاداتهم ، وكان اليونان والرومان عادة يحرقون جثث موتاهم وتوضع داخل قدور ، وتوضع فى فجوات داخل المقبرة ، ويوجد فى الإسكندرية نوعان من المقابر الملكية ومقابر أفراد ، ولنهاية القرن الثالث كان التحنيط شائعا بين جميع الأفراد فى الإسكندرية، وكان الميت يوضع فى تابوت من الجرانيت وأحيانا من الفخار والرصاص ، ويوضع فى فجوة مستطيلة محفورة فى جدار المقبرة ، وهذه الفجوات متوازية يتلو بعضها البعض وتغطى بلوح من الحجر وغالبا مايذكر اسم الشخص المدفون .

وأحيانا تعلو مقابر فوق سطح الأرض مكونة مايشبه الدرج ، وقد يعلوه درج آخر يشبه الهرم المدرج مثل مقابر الشاطبى فى الإسكندرية ، ونوع ثان عبارة عن فجوات محفورة بأكملها فى الصخر يوصل إليها بسلم يؤدى إلى بناء على جوانبه حجرات الدفن ، وهناك مقابر وثنية استعملت فى العصر المسيحى كطابية صالح ، ومقابر مسيحية موجودة فى كرموز تضم أقدم الصور المسيحية ، وفى كوم الشقافة مقبرة ترجع إلى القرن الأول أو الثانى الميلادى ، المقبرة من ثلاث طوابق تحت الأرض الواجهة بها تأثيرات مصرية قديمة ، وفى السقف رسم لمحارة يمتازبها الفن اليونانى القديم ، وهناك عمودان عند المدخل على جانبيهما رسمت صقور ونقوش فرعونية ، وهناك تمثالان واحد لرجل والآخر لامرأة وهما لمالك المقبرة وزوجته وتسريحة الشعر الخاصة بها تعود للقرن الثانى[٩٤] .

والدخول لحجرة الدفن خلال ممر مدخل عليه كوبرا ذيلها دائرى فى نهايته ميدوزا لكى تحل اللعنة على لصوص المقابر وفقا للأساطير اليونانية ، والثعابين ترمز للآلهة Agathadaimon ، والثعبان مقدس عند المصريين ، وكانت الثعابين ترتدى التاج المزدوج لمصر ورسوم لعصا هيرميس وديونيسيوس .

التابوت ذو طابع يونانى ، فالأوراق ورسمات الكروم بالإضافة إلى مناظر مصرية كأبيس ومومياء أوزوريس والإله تحوت وأنوبيس الذى يعد مومياء أوزوريس على سرير على شكل الأسد ، وجرار كانوبية تحوى أحشاء الميت، ورغم أن المقبرة رومانية فمازال الأهالى يتبعون الطريقة الفرعونية فى الدفن .

وبعد سنوات أضيفت غرف أخرى فى المقبرة تعود إلى القرن الرابع لدفن عدد كبير من الموتى ، وكانت تقام احتفالية الميت بالمقبرة ، فتوجد صالة وبها مقاعد حجرية حيث تجرى تلك الاحتفالية الميت بعد مرور أربعين يوما عليه ، وكذلك يحضرون فى الأعياد والسنوية الخاصة بالميت كما يحدث الآن ، ووجد فى مكتشفات تلك المقابر أعداد من الزجاجات والقدور والأطباق الخاصة بإعداد تلك المآدب الخاصة باحتفال الموت .

وفى مقبرة كراكلا فى الشارع نفسه رسمان على تابوت ؛ العلوى فرعونى إيزيس وأوزوريس ، ونقش على الجزء الأسفل أفروديت وهيرا وباريس وبرسفونى وهيداس . فالسكندرى قبل دخول المسيحية لم يجد غضاضة فى الجمع بين معتقدين مختلفين ، وفى القبارى مقبرة هلينية عبارة عن كهوف دفن الأموات فى صفوف ، وتم توسيعها وإضافة ممرات فى عهد قسطنطين، وكان اسم الميت يكتب عند Loculus والأسماء الواردة يونان ولكنها لا تعنى أن صاحبها يونانى ، فالجميع مصريون ويونان حملوا الأسماء نفسها .

مجتمع الإسكندرية الثقافى

المجتمع الذى حوى أجناسا عدة وامتاز بالثراء والترف والذى كان سكانه شديدى التباين وطبقاته التى بدت منفصله عن واقع الشعب المصرى ، حتى ذاك الذى يعيش فى الإسكندرية،وذلك المجتمع الذى كان يشتعل انفعالا وثوره ضد وضع تدنى بهم من سكان دولة إلى سكان عاصمة ولاية كان يموج - أيضا - بالفكر ويشع ثقافة غمرت العالم من حولها كما ذكر اميانوس و ماركلينوس الذى زار مصر فى عصر جوليان ، والفضل يعود للبطالمة فى جعل الإسكندرية مركزا ثقافيا ، فالموسيون ومكتبته الشهيرة التى كانت أسطورة لقرون، فأغلب معارف العالم الهلينى خرجت من هناك فى العلوم والرياضيات، والفلك ، والطب . وتأثيرات ذلك المعهد الإيجابية أدت إلى تطوير البحث العلمى ، وكان طلبتها من سكان الإسكندرية ومن الزائرين من المدن الأخرى ، وتمتع بعض طلبتها بالحماية فأعفوا من الضرائب ووجدوا مقاما فى الحى الملكى ، ولم يكن مفكرو الموسيون ولا المكتبة يفرض عليهم نظرية فكرية أو فلسفية فالفكر هنا ليبرالى حر .

بدأ بمجموعة من الطلبة من القرن الرابع يجلسون معا . ويمارسون حياتهم ويلتقون فى صالات الطعام يوميا فى الموسيون فيؤدى لوجود رابطة بينهم ، وكان من الطبيعى أن تتحول هذه المؤسسة لمركز إشعاع فكرى للعالم.

ولقد دعمها بطليموس بكبار علماء عصره فجاء عالم الرياضيات Euclid وعالم الطبيعة هيرفلوس Herphius والأجرومى Zenddefus. ونقل إليها عدداً من علماء مدرسة أون عين شمس المصريين ، وربما العامل الفعال أن حكام البطالمة الأوائل كانوا من محبى الثقافة والعلم ربما أرادوا أن تكون لهم مملكة تزهو على غيرها ، ينقلون لها

ثقافة العالم اليونانى ومنشاته الفكرية ، وإذ لقت الثقافة دعما من الدولة فإنها تستطيع أن تجد حرية للحركة[٩٥] .

وبما أنه لا يمكن أن يكون معهداً علمياً بلا مكتبه منذ كانت المكتبة التى أنشئت على النسق الأثينى ، والتى أوكل إنشاؤها لدمتريوس، ويقال أن بها ٥٠٠,٠٠٠ – ٧٠٠,٠٠٠ ألفًا ولقد اتبع بطليموس فى جمعه للكتب أحيانا أسلوب المصادرة فكان يصادر أى كتاب موجود على ظهر سفينة ويعد منه عدة نسخ ويعطى إحداها لصاحبها ويحتفظ بالأصل، وأشيع فى العالم القديم أى البطالمة يبحثون عن الكتب ولا يبخلون بالمال فى شرائها ، وعلى ذلك فقد حوت المكتبة كتبا بلغات مختلفة من اليونان وآسيا الصغرى فى الهند بالإضافة إلى الكتب المصرية القديمة .

ولقد وجدت بردية فى أكسرنخوس بأسماء من تولى المكتبة فى القرنين الثالث والثانى من ق م ، وكانوا من العلماء المشهورين فى علمهم وكان أول هؤلاء زينودوس الأفسيسى وكان أول من نشر ملحمتى الإلياذه والأوديسة ، وكان منصب أمين المكتبة أرفع المناصب فى الدولة إذ كان من يشغل هذا المنصب يعمل فى الوقت نفسه معلما ومربيا لأفراد الأسرة المالكة ، ومن أشهر أمناء المكتبة أبولونيوس الرودسى وساعده الشاعر كليماخوس القورينى وعاون فى وضع الفهارس وكتابة تاريخ موجز لحياة أشهر المؤلفين .

ولم تكن مكتبة الموسيون المكتبة الوحيدة إنما هناك المكتبة التى سميت الابنة مكتبة السرابيوم ، ولقد اكتشف مكانتها ألن روى Alan Roule[٩٦] وآخرون عام ١٩٤٠ وذكر أنها من إنشاء بطليموس الثالث يورجيتس ابن فلادلفيوس، وفى النهاية الجنوبية للموقع كان هناك ممران يفتحان على غرف صغيرة ضمت حوالى ١٩ غرفة حجمها ٣ أو ٤ أمتار، ويرجح أنه كانت تستعمل كأرفف للمكتبه. وعلى كل فى الفترة الرومانية تغير الوضع تماما وانتقلت المكتبة إلى داخل معبد السرابيوم وتنوعت الكتب وتوزيعها بين المكتبتين ، لا توجد معلومات عنها إلا من ابيفانوس وهو من مدينة سلاميس ، وهو كاتب مسيحى عاش فى القرن الرابع الميلادى ذكر أن الترجمة السبعينية للتوراة وضعت فى المكتبة الأولى ، وأن هناك مكتبة أخرى أصغر كانت

مسماه الابنة فى السرابيوم ، افسنيوس Aphthonius الأنطاكى الذى زار السرابيوم فى أيام الأخيرة وقبل تدميرها فى القرن الرابع ذكر مخازن الكتب المجاورة للأعمدة، وادعى – وربما بدافع المبالغة – أن المكتبة متاحة لكل من يرغب فى المدينة من المعرفة والإستفادة من الحكمة، وكان السرابيوم أصلا معبدا للإله سرابيس يزدان بصالات ذات أعمدة فخمة وتماثيل كأنها تنبض بالحياة وأعمال فنية ويرى البعض أنه لم يكن يضاهيها شيء فى الفخامة(٩٧) .

ثم مكتبة القيصرون التى أنشأتها كليوبترا على اسم ابنها قيصرون وأكملها أغسطس وتحولت فى الفترة البيزنطية وفقا لبردية فى مجموعة اكسرنخوس إلى مقر شبيه بالقومسيون الطبى الآن للكشف على الموظفين وكتابة تقارير عن حالتهم الصحية.

المكتبة كانت تحوى علوما ومعارف عديدة ولم تكن قاصرة على اليونانية بل نجد أن اهتمامهم شامل مما أعطاه صفة العالمية ، فقد ألف الكاهن المصرى مانيتون Manethon كتابا عن تاريخ مصر الفرعونية لبطليموس فلادلفيوس استمده من المصادر المصرية ، وكتب باليونانية لكنه فقد فى حريق الإسكندرية ٤٧ ق م وأحد تلاميذ كليماخوس المدعو هرميبوس Hermippus كتب تعليقات على أشعار زدانوس من المؤكد أنها كانت مترجمة من الفارسية إلى اليونانية نقل إليها الفكر المصرى من معابد آون ومدارسها ومن معبد رمسيس ومدرسة طيبة ، وتمت ترجمة التوراة إلى اليونانية فيما عرف بالسبعينية ، والتى استعان بها كلمنت السكندرى فى كتابه ستروماتا كما استعان بها أورجين فى كتابه هكسابلا (أعمدة الحكمة الستة)(٩٨) .

المكتبة الأم قدرت كتبها بـ ٤٠٠,٠٠٠ ألف كتاب وقدرها اميانوس ٧٠٠,٠٠٠ وذكر اميانوس الذى عاش فى القرن الرابع والذى زار مصر زمن جوليان أن السرابيوم لا يمكن لوصف أن يفيه حقه ؛ مزين بالأعمدة الفخمة وجميع الأعمال الفنية وأنه يلى الكابيتول الرومانى فى الأهمية والجمال وأن العالم لا يملك شيء أكثر جمالا منه وأن الإحصاء يذكر أن بالمكتبة الرئيسية ٧٠٠ ألف كتاب وفقا للتقارير، ومن هذه المدن جاء ارستوراخوس Aristarchus الأجرومى الشهير وهيروديون Herodian النابغة فى العلوم

وسكاس أمونيوس Amonius Saccas معلم أفلوطين وعدد كبير من الكتاب فى فروع العلم المختلفة والأدب ومنهم ديداموس ، و Chalcen Terus خالكن تروس ، الذى كتب فى نقد شيشرون ، هذه الأسماء التى لمعت من قبل والتى ذكرتها ، فأساتذة ومعلمو الفنون مازالت لهم بصمات حية ، والمهندسون بعض قياسهم يعيد للضوء ما خفت، وتيار الموسيقى لم يخفت بينهم والهارمونى لم يركن للصمت ، الإحساس عاطفة تجاه العالمية ، والنجومية مازالت عند البعض حيه ودافئة وآخرون ماهرون . البعض كذلك فى أمور الأرقام ، وهناك فئة ركزت معارفها فى الدراسات الخاصة بالتداوى والعلاج سواء المسرف أو المعتدل، إن الأعمال الطبية يشير إليها الكل، وشهد الكل ويكفى الشخص ليثبت ويؤكد خبرته الملحة أن يقول أنه درس فى الإسكندرية ، وإذا حاول أى شخص أن يبحث بفكر موضوعى فى المعلومات المقدسة وأصل القداسة لوجد أن هذا الأمر انتشر من مصر إلى العالم أجمعه . هناك رجال اكتشفوا الحقيقة والنشأة وفصلوا الذهب عن التراب وتكلموا عن ديانات مختلفة والآن بكل دقة حموا بدايات العبادة وحفظوها فى كتابات سرية (٩٩).

فالرجل رغم أنه رومانى كان مبهورا بالعلم والثقافة التى خرج شعاعها من هذه المدينة ولكنه عاد لذم أهالى مصر، ولم يكن الموسيون وعلماؤه ومكتبته هم المراكز الحضارية الوحيدة ، فهناك المسرح وهناك شارع حمل اسم شارع المسرح ، وكذلك حمل نفس الاسم عدد من شوارع المدن المصرية ، وكان البطالمة حريصين على استقطاب مشاهير الشعراء والممثلين وتوفير كل سبل الراحة لهم فضلا عما يقدمونه من امتيازات مالية ، وحظى المسرح بشهرة فى عصر البطالمة وذكرت فى الإسكندرية مجموعة من النقابات الحرفية ، والتى كانت مرتبطة بالمسرح والتى يرأس الشاعر فيليسيوس Philisus إحداها ومع المسيحية بدأ دوره يتراجع لارتباطه بعبادة الإله ديونسيوس ودمر فى سنة ٣٦٦ ومن ثم انتهى أمره فى ٨٢٤م حيث حدثت مذبحة فى أحد الاحتفالات .

كذلك كان الجمنازيوم أحد الواجهات الحضارية ، والتى اختفى دورها تدريجيا فى العصر الرومانى ثم البيزنطى .

وهذا يقودنا للسؤال عن مدى مشاركة الأهالى من المصريين فى هذا النشاط الحضارى ، فإذا كان البطالمة استعانوا بكهنة من مدرسة أون وإذا كانوا ترجموا برديات مصرية إلى اليونانية وإذا كان مانتيون المصرى كتب تاريخا للفترة الفرعونية . ولكن على مستوى الدراسين والعلماء فإن العنصر المصرى كان نادر الوجود ، فالغالبية عناصر يونانية وأجنبية ولكن بدأت تظهر خلال العصر الرومانى، ومع الوقت فى الفترة المسيحية الأولى ظهرت أسماء مصرية على مستوى الثقافة كان لبعضها الصدارة الثقافية كأفلوطين وأورجين واستمر تواجدها للقرن الخامس كهور أبللو . وأصبح غالبية الطلبة والأساتذة من العنصر الأساسى . ولكن قبل تناول الفترة المسيحية يجدر بنا أن نلقى نظرة على المرحلة المؤهلة للتعليم الجامعى .

لم يتمتع حكام الرومان بنفس الدرجة من الثقافة والاهتمام بالنشاط الفكرى السكندرى، ولم يولوه نفس الرعاية التى قدمها البطالمة فيما عدا شخصيات محدودة حتى الهبات التى تمنح للموسيون تراجع أمرها وظلت اللغة اليونانية فى القرون الثلاثة الأولى هى اللغة السائدة، لغة الفكر والثقافة، فى حين ظلت اللاتينية لغة الحكام الجدد قاصرة على البيانات الإمبراطورية ، وكانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها فى الإسكندرية ، وكذلك القوانين والأوامر وشئون الجيش ، وقد اضطر كثير من المصريين لإتقان اللغة اليونانية ولغة الثقافة طمعا فى تولى المناصب الإدارية وتحسين الوضع الاجتماعى . فإذا كان البعض يسعى لتغيير اسمه للحصول على وضع اجتماعى مميز فمن الضرورى أن يتقن لغة اليونان ليتمتع بمزايا أفضل فى حين كان الشعب فى الريف يتكلم اللغة الديموطيقية(١٠٠) .

وقد وصلت شهرة مدرسة الإسكندرية وتأثيرها حتى لشعراء وأدباء روما فتأثروا باتجاهات الأدب السكندرى وحاكوا نماذجه .

ولقد استمر العلماء يتلقون العطاءات والامتيازات السابقة من إعفاء من الضرائب وتناول الطعام فى الموسيون بلا مقابل وزار هادريان الموسيون وشهد بعض ندوات الفلاسفة واشترك فى مناقشاتهم ، وبمناسبة الزيارة زاد عدد العلماء والفلاسفة ، فلقد انضم إليه فلاسفة لا يقيمون فى الإسكندرية فكانوا أشبه بأعضاء

مراسلين كما نقول الآن وجعلت عضويته شرفية لبعض الفئات أمثال كبار رجال الإدارة والجيش والأبطال الرياضيين (١٠١).

ولقد أسس الإمبراطور كلاديوس على تل الأكربولس فى الإسكندرية مدرسة للتاريخ عرفت باسم الكلاوديوم ومابقى منها أصبح يسمى فى عصر الإمبراطور أركاديوس فى القرن الخامس باسم الأركاديوم ، وكانت مركزا لمدرسة الإسكندرية، ومنذ عهد الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٠ م ألحق به ديراً وكنيسة سميت باسم يوحنا المعمدان ثم تهدمت عام ٦٠٠ م وأعاد البطريق اسحاق بناءها عام ٦٨١ - ٦٩٤ م واستمرت إلى أن تهدمت نهائيا فى القرن العاشر.

أما الموسيون فلقد بدأ التراجع فى بعض النواحى، فانحدر المستوى الفنى للشعر وأصبح كلاما منظوما بعيدا كل البعد عن مفهوم الشعر الراقى واصطبغ بالصبغة العلمية ، ولكن أهم ما امتازت به هذه الفترة الدراسات الفلسفية ، ولم يكن الرومان بطبيعتهم أهل فلسفة ولكن لم يضيقوا بها ، وتشيع بعض أباطرة روما لمذاهب فلسفية وأخلاقية والى انتشرت مثل الرواقية والأبيقورية وفى مجال العلم حافظت مصر على مشعل العلم ومن أشهر علماء مصر بطليموس الجغرافى والفلكى .

والملاحظ أن الحياة العلمية والثقافية فى الإسكندرية فى العصر الرومانى لم تعد قاصرة على الموسيون والمكتبة ، بل وجدت مدارس وقاعات للدراسة يدرس بها من شاء من هؤلاء العلماء أو غيرهم ، وكان يدرس فى هذه المدارس كثير من الطلاب من الإسكندرية ومصر عموما ومن خارج مصر أيضا .

ولقد أوقف الإمبراطور كراكلا الهبات التى تقدم للموسيون فقام أساتذتها بإعداد محاضرات للطلبة مقابل أجر مما جعلها تشبه الجامعات الحالية بعد أن كانت مركزا بحثيا فقط(١٠٢) .

خلال هذه الفترة طرحت أفكار فلسفية ودينية عديدة ، وكان هذا المجتمع ذو الثقافة المتميزة المحب للجدل وهذه المجموعات المتنوعة من البشر ، فظهرت دعوات جديدة مثل الغنوسية ثم جاءت المسيحية وكلها تؤكد للإنسان أن الأديان القديمة التى

يعتنقها كلها كذب ، وفى مثل هذا الموقف كان على أى إنسان أن يختار ويحكم فكره فيما هو مطروح أمامه .

فأصبح علماء الموسيون والمكتبة والمعاهد المشابهة يمثلون الثقافة والحضارة الوثنية ، بينما نشأت مدراس جديدة، واحدة لدراسة الدين اليهودى وظهر فلاسفة ، وأخرى لتدريس الدين المسيحى الجديد.

ولقد لخص فورستر صورة هذا الجو الفلسفى فى العبارة التالية : كان السكندريون مثقفون إلى أبعد الحدود وكانت لديهم مكتباتهم التى جعلت كل حكمه البحر المتوسط فى متناول أيديهم ، لذا كان من المحتم أن يأخذ إيمانهم طابعا فلسفيا بقضيتهم المفضلة وهى الصلة بين الله والإنسان، أخذوا على الفور يتساءلون ، ليس السؤال عن الدين الجديد.

ما هى الصلة بين الله والإنسان ؟ لقد كانوا يعتقدون بوجود الله ولكن كانت مشكلتهم علاقته بالإنسان، هل كان الله قريبا منه أم كان بعيدا ؟ أو إذا كان قريبا كيف يكون مطلقا وخالدا" (١٠٣).

وقد هاجر اليهود إلى الإسكندرية منذ تأسيسها وتمتعوا بعطف حكامها وظهر منهم جيل يتحدث اليونانية وترجمت التوراة إلى اليونانية الترجمة السبعينية وهذا الجيل كان يونانى الروح وابتعد كثيرا عن اليهود المحافظين فى أورشليم .

وأنتج هذا الفكر قطعة أدبية هى حكمة سليمان مستخدما إرشادات قليلة من الكتاب المقدس الأصولى ، وحاليا محتواه فى الأبوكريف وهى أربعة عشر سفرا، تلحق أحيانا بالعهد القديم من الكتاب المقدس ولكن البروتستانت لا يقرون بها .

وظهرت طائفة الأسينيين Therapeuti Esseniae فى بحيرة مريوط ، وهم طائفة من اليهود تخلت كثيرا عن احترامها للطقوس الموسوية واختارت حياة التقشف والتزمت فى صومهم وحرمانهم من الهيكل ، دعوا إلى الاشتراكية الملكية وحب العزوبية، وكان كل فرد من الجماعة يعيش فى صومعة صغيرة يتعبد فيها وحيدا ستة أيام ، ثم يلتقى الجميع للصلاة فى يوم السبت من كل أسبوع ثم يوما واحدا كل خمسين يوما ويبدو

تأثره بنحل ، مشرقية ويرى البعض أنه تأثر بالنحل الشرقية الهندية، وربما كان التأثير محليا من واقع البيئة المصرية حيث الصحراء بما فيها من قوة منحت خاصيه لأولئك الذين يتملكهم الرغبة فى التأمل والتعمق فى شئون الدين(١٠٤) .

وكان فيلون أول فليسوف يهودى أنتجته بيئة الإسكندرية المثقفة ، فكان دارسا للفلسفتين الرواقية والفلسفة الأبيقورية وهو مذهب نشأه أبيقور قال بأن المتعة هى الخير الأسمى ، والفضيلة وحدها هى المتعة ، وكذلك كان على علم بالطقوس المصرية ، ولقد واجهته الديانة المسيحية الجديدة . ولجأ إلى الاستفادة من منهج الفيثاغورثيين لإقامة الدليل الفلسفى على صدق عقيدته الدينية لكن فى سبيل ذلك تحولت الشخصيات الدينية فى التوراة عنده إلى مجموعة رموز للأفكار المجردة التى كان كثير منها مستخدما فى الفلسفة، ولقد حاول الربط بين الفلسفة اليونانية وبين الحكمة الدينية للعهد القديم ، وكان يمتلك ثقافة الإسكندرية الكموبوليتانية وحل القضّية بالأسلوب السكندرى حيث اعتقد فى وجود وسيط بين الله والإنسان أسماه الصوفية أو الحكمة ، وعرض قضيته بلغة العهد القديم فقال " أنا هو أنا " بمعنى لا شيء يمكن أن يعلن عن الله إلا وجوده ، فالله ليس له صفات ولا رغبات ولا شكل ولا مكان والله كلمة ولا توجد كلمة تستطيع أن تصف الله ، بينما اعتبار الله إنسانا هو ارتكاب لإثم أوسع من كل البحار فالله يكون ولا يوجد ما يمكن أن يقال عنه ولكن هذه الكينونة التى لا يمكن الدنو منها هى التى خلقتنا وكيف ولماذا (١٠٥).

ومن خلال العقل أو الكلمة وهى اللوجس الخاص وهو الحكيم والرسول الذى يمد الجسور على الهاوية أنه التعبير الظاهر عن وجود الله ، فهو من أبدع العالم وأبقاه . وهى إن الله كلمة وربما هى التى أوحت بافتتاحية إنجيل القديس يوحنا " فى البدء كانت الكلمة " وربما كان فيلون هو من كتب هذا ولكنه لم يستطع أن يكتب ، وكانت الكلمة الله ولا أن يكتب ، وفيه كانت الحياة لأن هذا يميز للمسيحية التى تعتقد أن الصلة بين الله والإنسان، يجب أن تكون هى ذاتها الله والإنسان .

واستطاع فيلون أن يجعل من يهوه اليهودى مفهوما ومقبولا من يهود الإسكندرية ، إن هذا المعتقد موجود فى العهد القديم ولكنه اضطر لاستخدام المجاز لتحريف الكلمات " وإنما هناك من خلال الرؤية أولئك الذين يستطيعون أن يروا وهم الذين يرفعون أعينهم نحو السماء ويتفكرون فى غذائهم الروحى وفى العقل الإلهى أما هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يروا فعليهم أن ينظروا نحو البصل فى الأرض"(١٠٦).

وكان فيلون رئيسا للمجمع اليهودى فى الإسكندرية وكان ضمن البعثة التى أرسلت إلى الإمبراطور كاليجولا فى روما سنة ٢٠٤ ، ولم ينجز اليهود السكندريون بعد موت فليون شيئا من الفلسفة ، وظلوا يصوغون نفس القضايا .

ولقد أخرجت المدرسة الوثنية فكرا فلسفيا شكل فكر ذلك العصر وأشهرها فلسفة أفلوطين Plotinus204-262 م ، ٢٠٤ - ٢٦٢ التى ضربت بجذورها فى أرض مدينة الإسكندرية .



الأفلاطونية الحديثة

وهى فلسفة جديدة ولدت فى الإسكندرية على يد أمونيوس سقاس ، ولقد قدمت للبشرية فكرة إمكان الاتصال المباشر باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى وصلت إلى جميع العقول من عقل الإمبراطور إلى عقل العبد ، وانتشرت حتى وصلت وسط العامة الذين استطاعوا أن يتفهموها ، وكذلك بين كبار المثقفين واهتم بدراستها الفلاسفة الكبار مثل القديس أوغسطين ، وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحيين .

أمونيوس :

وهو الذى أنشأ المدرسة وقد ولد من أبوين مسيحيين وبدأ حياته مسيحيا يعمل حمالا على أرصفة الميناء . ولكنه تخلى عن مهنته وأنشأ مدرسة فلسفية فى الإسكندرية أجرى فيها دراسة نقدية لأفلاطون وأرسطو ؛ حاول فيها أن يوفق بين أراء هذين الفيلسوفين ، وليس ممكنا أن نحدد مقدار تأثير المسيحية التى اشتملت عليها فلسفة سقراط ، ويرى د. مراد كامل أنها أخذت على يديه اتجاها يختلف عن اتجاهات سابقة لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن فلسفة فى نظرهم وإنما كانت أيضا نظاما دينيًا أو كما يقول البعض حولت الهلينية إلى لاهوت وقد مات أمونيوس ٢٤٣ م دون أن يخلف لنا كتبا ، وإنما استطعنا أن نفهم فلسفته فى كتابات تلميذه أفلوطين المصرى الأصل من مواليد أسيوط وخليفته بورفيريوس .

كان يقول إن العالم الذى نعيشه نو نسخة ناقصة لعالم مثالى وكان يرى أن العالم ناقص أو غير مكتمل .

أفلوطين :

أكمل أفلوطين تعليمه فى الإسكندرية ثم اشترك فى حملة عسكرية ضد الفرس حتى يكون على صلة بالفكر الفارسى والزرادشتية والفكر الهندى والهندوسية والبوذية ، " وكان بالتأكيد جنديا غير عادى وغير ناجح وفى هذه الحملة التى تكبدت الهزيمة فر أفلوطين هاربا إلى روما وظل هناك يحاضر حتى نهاية حياته ، وبالرغم من إخلاصه وصدقه صار لصيقا بالطبقات العليا ، وقام أحد تلاميذه ويدعى بورفيريوس بتجميع ما دونه أثناء سماعه لمحاضراته ونسخها فى تسعة أجزاء تسمى " بالتساعيات " وهى رائية الترتيب ومعظمها غامض ومبهم ولكنها تحوى نظاما منطقيا فى التفكير . ولم تقدم الإسكندرية بعد ذلك شيئا أعظم من ذلك وهى تتناول العلاقة بين الله والإنسان ، ولقد آمن أفلوطين بالله مثله مثل فيلون ومثل المسيحيين ، ونظرا لأن الإله كان يملك ثلاث مراتب فى نظريته .

كان يؤمن بالثالوث ولكنه مختلف تماما عن الثالوث المسيحى وأكثر صعوبة فى الفهم ؛ فالمرتبة الأولى والأسمى فى هذا الثالوث كان يسميها الواحد هذا الواحد يقين الوحدة ولا يمكننا التنبؤ بأى شىء آخر عنه ، وبالرغم من أنه لا يخلق ولا يبدع إلا أنه يفيض، وكأنه إلى حد ما ينبوع ومن فيضانه أو فيضه تنبثق المرتبة الثانية من الثالوث، وهو مايسمى بالمبدأ العقائدى أيسر فهما . أما الواحد فهو العقل الكونى الذى لا يحتوى كل الأشياء بل يحتوى كافة الأفكار عن كل الأشياء، وهو يبدع من خلال التفكير، ويفكر فى المرتبة الثالثة أى الروح الكلية وهى التى طبقا لهذا تصل إلى الكينونة ، وبهذه الروح الكلية نعترف من مملكة الإدراك ، إنها العلة الأولى فى هذا الكون الذى نعرفه ، وهى التى خلقت كل ما تدركه بالحواس، وفى المقام الأول آلهة الإغريق وغيرها من الآلهة ثم أنصاف الآلهة ثم الأرواح الحارسة Demos، ونزولا فى النظام التراكمى يأتى الإنسان فالحيوان فالنباتات ، فالأحجار ثم المادة الأولى التى تتوقف عندها قوة الخلق، وهذه المراتب وهى الواحد ، والمبدأ العقلانى ، والروح الكلية يصنعون ويؤلفون معا كينونة واحدة وهى الله ، الذى كان ثلاثة فى واحد ، والواحد فى ثلاثة ، وهو الهدف من كل الخلق [١٠٧].

ففي رأيه أن الكون كله ينزع إلى الخير، كلنا عبارة عن أجزاء من الله ، حتى الأحجار بالرغم من أننا لا نستطيع التحقق من ذلك، وهدف الإنسان أن يصبح مقدسا بشكل حقيقي مادام من المحتمل أن يكون كذلك ، ولذا فإن الولادة الجديدة أو البعث ممكنة لكي يتحقق بشكل أفضل بأمر من الله في الوجود الآخر أكثر مما يمكننا أن نتحقق منه في هذا الوجود ، ولذا فإن النظرة الصوفية هنا مقامه .

فلسفة أفلوطين في المقام الأول ذات طابع ديني ، وهي في هذا تتطابق مع كل الفلسفة السكندرية ، ثم إنها تركز على السلوك والتدريب ، فالأشخاص المهيئون للرؤية هم فقط هؤلاء الذين يسيرون . ومن جهة ثالثة فإن رؤية المرء لنفسه هي رؤيته لله ، لأن كل فرد يكون هو الله إذا ما عرفه تماما . وهنا يكون الاختلاف الكبير بين الأفلاطونية والمسيحية، فالمسيحية تعد الإنسان بأنه سيرى الله بينما الأفلاطونية المحدثة شأنها شأن الفلسفة الهندية تعد الإنسان بأن يكون الله ، وربما تحدث أفلاطون مع تاجر هندي أتي المدينة . وفلسفته أقرب لفكر الشرق كان بورفيريوس أحد اتباع أفلوطين فليسوفا ذائع الصيت ، واستمرت المدرسة الأفلاطونية المحدثة في الازدهار على امتداد القرن الرابع الميلادي ، وظل اتجاهها الرئيسي كما هو ، لقد كان منشؤها فيما يتعلق بالعالم الواقعي والإنسان الحالي ، ولكنه كان متفائلا بالنظر إلى المستقبل .

وكان آخر تلاميذ هذه المدرسة هيباشيا الفيلسوفة الشهيرة ابنه ثيون والتي لقت مصرعها على يد المتعصبين .

وفي الصراع بين الفلسفة والدين ، بين العقل والإيمان الذي يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل وجد هذا الفكر انعكاسا في فكر الغنوسيين .

الغنوسية :

وقد ميز الغنوسيون أنفسهم بهذا الاسم عن المؤمنين وقالوا في قيمة المعرفة والحط من قيمة الإيمان ، والفلسفة فوق الدين وجعلوا الفكر الخالص يرفض منه بعض

المعتقدات وينكر المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة، واعتقدوا أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، روح ونفس وجسد ، وقسموا الناس حيث العنصر السائد منهم إلى ثلاث طبقات .

١ - الروحيون : وهم الغنوسيون الذين دفعهم إلى مستوى عالى فوق المادة والحس ويسودهم العنصر الإلهى .

٢ - الحسدانيون : وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس.

٣ - النفسانيون : وهم وسط بين الاثنين، يمكن أن ترفعهم المعرفة إلى درجة الغنوسيين الروحيين، ويمكن أن تتجدد بهم المادة إلى درجة الحسدانيين .

وهكذا نرى أنهم اعتبروا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله وحطوا من قيمة المادة واعتبروها شرا ، فسلك بعضهم طريقة تعادل السمو عن المادة والحس فى الانهماك فى العبادة ، وكان الغنوسيون فى مصر من النوع الأول الناسك، وليس معنى هذا أن الغنوسيين كان جميعهم وثنيين ، وإنما كان منهم مسيحيون أيضا ، ولكن هؤلاء نظروا إلى مذهبهم الذى اختاروه واعتبروا أنفسهم أشخاصا روحانيين (١٠٨).

على حين اعتبروا باقى المسيحيين نفسانيين فقط غير قادرين على النهوض من الإيمان الأعمى للمعرفة الحقيقية ، واعتبروا الناس عاديين أو حسدانيين ورأوا أن نظرية الفداء فى المسيحية هدفها أن يخلص من المادة والجسد ، وقالوا إن هذا كان عمل المسيح الفداء، ولكن لأن الغنوسية قد اشتملت عناصر تخالف الإيمان المسيحى ، فقد طردتها الكنيسة من صفوفها وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد واعتبرت الغنوسية هرطقة وحاربتها ، ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوسية إلى أيام تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن سيمون الساحر الذى حرمه بطرس الرسول كان أحد مؤسسيها الأوائل، على أن الغنوسية لم تظهر قوتها إلا منذ القرن الثانى الميلادى، وقد تكونت مدارس كبيرة للغنوسية فى سوريا ومصر وآسيا الصغرى ، وفى روما أيضا وفى بلاد الغال وقرطاجه وانتشرت فى البلاد التى كانت فيها المسيحية على اتصال قريب باليهودية، وكانت أقوى صورها على يد سرينثس **Cerinthas**

وباسليدس Baslides، وفالنتنيوس Valantinus ١٤٠ م وسرينثس الذى تعلم فى الإسكندرية نراه يقول : إن يسوع كان إنسانا أما المسيح فهو الروح الذى غادرته عند الوفاة ، باسيلدس وهو زائر سورى قال : إنه كانت هناك ثلاث شرائع وهى ماقبل اليهودية والمسيحية ، وكان لكل من حكام هذه الشرائع ابن، وهذا الابن كان يدرك عن الله أكثر مما كان يدركه أبوه ، فالأفنينون عبدوا الثعابين ورأوا أن الأفعى فى عدن كانت حقا رسولا من الله وهى التى دفعت حواء لتعصى خالق الكون يهوه .

فالنتينوس ومن المحتمل أن يكون مصريا تعلم فى الإسكندرية وقام بالتدريس فى روما تمسك بالعقيدة الغنوسية فهو يتخيل إلها أوليا وهو مركز الاتساق والانسجام الإلهى ، ولقد أرسل تجليات من نفسه على هيئة ذكر وأنثى ، وكل زوج كان أدنى مرتبة ممن سبقه، والصوفيةُ أو الحكمة كانت هى أنثى الزوج الثلاثين الذى كان أول الأزواج اكتمالا ، وقد أظهرت عدم اكتمالها ليس كما فعل الشيطان بالابتعاد عن الله ، ولكن بالرغبة المستقرة فى الاتحادية ، واندفعت بقوه من التناسق والانسجام الإلهى (١٠٩).

وهى نفسها قد أنقذها المسيح الأول ، ولكن ليس قبل أن تلد ابنا Demiurge كان هو خالق الكون الذى حكم ، ولكنه لم يكن قادرا على تحقيق أو إبداع أناس من جسد وأناس لهم أرواح وأناس من الجوهر الروحانى لعقيدة الغنوسية . ووصلت على يد فالنتيوس لذروة تطورها واتخذت أشكالا أخرى ، ولكنها كانت متشابهة وذات نزعة خيالية ومتخفية وهى ثلاث عقبات كبرى واجهت نجاحها ، فهى لم تكن عقيدة يمكن للمجتمع أن يتبناها لأنها عقيدة ضد النزعة الاجتماعية، وبحلول عهد قسطنطين انتهى وجودها للأبد .

ولقد عثر فى نجع حمادى على حوالى ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردى بها ٧٤ رسالة فى الغنوسية ومحفوظة بالمتحف القبطى، وكذلك فى مجموعة أكسرنخوس برديات تتعلق بسحر غنوسى وإذا كان قد انضم إلى الغنوسية أعداد من الوثنيين واليهود والمسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة ، فإنه قد انضم إليها أيضا جماعة من المسيحيين من كبار معلمى الكنيسة ، ولكن هؤلاء لم

يؤمنوا بمعتقدات الغنوسية التى حاربتها المسيحية، وإنما كان لهم رأيهم الخاص فى الغنوسية بمعناها السليم الذى لا يتعارض مع الدين بالإسكندرية، ولقد وضع كتابا مقسما إلى ثمانية كتب وأسماها المتنوعات ، وعارض فئة الغنوسية الوثنية ، وقال :
إن الغنوسية الحقيقية يجب أن تبنى على أساس الإيمان والمعرفة العليا التى هى الحكمة الإلهية ، ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها غيره من المسيحين الذين اعتبروها خطرا على المسيحية ، بل إنه أعلن أن الفلسفة خادمة اللاهوت وإن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعيدهم إلى الإيمان المسيحى كما كانت الشريعة النسبة لليهود ، وهكذا اعتبر الفلاسفة أنبياء الوثنية ورأى أن الغنوسي الحقيقى يجب أن يتزود بكافة أنواع المعارف لتساعده على الإيمان وتثبته ، واعتبر أن الذى جَمّع المسيحيين فى حسبهم على الحق هم الغنوسيون الحقيقيون .

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التفكير فى المدرسة اللاهوتية فى الإسكندرية .

مدرسة اللاهوت السكندرى

نشأت مدرسة لاهوتية فى الإسكندرية كان لها تأثيرها الكبير، فإذا كانت المسيحية وصلت إلى الإسكندرية فى القرن الأول فالبعض ينسب المدرسة إلى القديس مرقص، ولكن ظهورها الفعلى يعود للقرن الثانى، وهذه المدرسة خرجت أهم الأساتذة ورجال الدين ووضعت أسس اللاهوت المسيحى وأظهرت صورة رائعة للمسيحية المثقفة.

ويؤكد يوزبيوس القيصرى على أن نشأتها تعود إلى زمن القديس مرقص فى النصف الأخير من القرن الأول وأوائل القرن الثانى، وأنه عهد بإدارتها لتيطس الذى صار فيما بعد أسقفا للإسكندرية (١١٠) ، ولكن تواجدها الفعلى على الساحة الثقافية فى القرن الثانى وأوائل الثالث، ومن أشهر فلاسفة المدرسة بنتئيوس وأكليمنص وأوريجانوس وديونوسيوس، وتوقف نشاطها قليلاً فى القرن الثالث إذ تعرض أساتذتها وطلابها للاضطهاد ، ومالبثت أن عادت فى القرن الرابع على يد مديرها ديدموس الضرير، واستمرت إلى أوائل القرن الخامس، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة المصرية فى الأديرة، وهذه المدرسة أنشأت التعليم بطريقة السؤال والجواب ، وأصبحت مركزا للتعليم المسيحى وكان يدرس فيها اللاهوت – الفلسفة – المنطق – الطبيعة – الرياضة – الفلك – والموسيقى ، فكانت العلوم ضرورة لها لوجودها فى وسط ديانة يهودية مستندة للفلسفة ومدارس يونانية، وأصبحت الإسكندرية بحق مركزا للثقافة الحرة، فالمدرسة يدرس بها مسيحيون ووثنيون تحول عدد منهم إلى المسيحية ، وأصبحت مقصدا لكل الراغبين فى الدراسات العليا فى شتى علوم الدين والدنيا ، وقد انحاز بنتئيوس أحد الرواقيين القدماء إلى تلك المدرسة التى كانت تناظر الموسيون فى العلوم الأدبية والدينية ، وأصبح مديرًا لها ، كذلك اعتنق الفليسوف اثناغورث الدين الجديد ، واستلم إدارة المدرسة من بعده مجموعة من الأساتذة المشهورين ، بنتئيوس درس فلسفة الرواقيين ويقال إنه نجح نجاحا كبيرا فى إدارة المدرسة ١٨١ – ١٩٠م،

وأراد أن يعرف المسيح للأمم التى فى الشرق ووصل حتى الهند، ويقول إنه وجد عندهم من عـرفوا المسـيح ، ووجد هناك إنجيل متى الذى كان قد سبق وصوله إلى الهند (١١١)، ولقد عرج على الحبشة وبلاد العرب وقام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القبطية، ولقد عاونه تلميذه أورجين .

أكليمنـــص :

كان قبل تحوله للمسيحيه فليسوفا وثنيا درس فى اليونان وإيطاليا وفلسطين ومصر ، وقد نبغ فى كافة العلوم الدينية والكنسيّة، وظهرت معارفه الواسعة فى مؤلفاته، وفى الطابع الجديد الذى اتخذته على يد مدرسة الإسكندرية وحددت به العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما فتح الباب أمام تلاميذه لجميع أنواع المعرفة (١١٢).

وهو يرى أنها الغنوسية الحقيقية المضادة للغنوسية الهرطوقية التى انتحلت هذا الاسم وزورته بعد أن عرضوا الإيمان المسيحى على هذا المنوال ، ولقد ولد أكليمنص فى أثينا نحو أواسط القرن الثانى وتفرغ منذ حداثته لدراسة الفلسفة، فتضلع فى الفلسفة الرواقية والأفلاطونية، وإذا لم يجد فيهما ما كانت تصبو إليه نفسه سعى يطلب الحقيقة ، فزار بلاد اليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى ومصر ، وخالط المدرسين المسيحيين فأثر فيه ما سمعه من القديس بتنئيوس والذى خلفه فى إدارتها ١٩٠م، وظل بإدارتها إلى عام ٢٥٢م حيث بدأت اضطهادات سفيريوس فى مصر فاضطر إلى الفرار إلى فلسطين وأنطاكية (١١٣).

وكانت جهوده واضحة فى التأليف بين الفلسفة والدين وتفاسير الكتاب المقدس، وأقام مقابلة بين الآراء المسيحية والآراء اليونانية وساعد على انتشار الفلسفة المسيحية، أما مؤلفات أكليمنص الثمانية كما ذكرها يوزبيـوس المسماة ستروماتا " المنوعات " ولقد سماها " فلاڤيوس أكليمنص ستروماتاتيطس الملاحظات الإرادية المتعلقة بالفلسفة الحقيقية، أما الكتب (المعنونة) (وصف المناظر) فهى بنفس العدد، وفيها ذكر بوتنئيوس بالاسم باعتباره معلمه ، ونقل آراءه وتعاليمه ، وعلاوة على هذه يوجد له مؤلف بعنوان " نصائح لليونانيين "، وكتاب فى ثلاث مجلدات بعنوان (المعلم)،

ومؤلف آخر بعنوان " أيمكن أن يخلص الفتى؟ " ، ومؤلف عن الحج وبحث عن الصوم وعن الكلمات الشريرة ، وكتاب " نصائح إلى المتعمدين حديثًا " ، ومؤلف عن قوانين الكنيسة أو المتهودين ، أهداه إلى الإسكندر الأسقف السابق (١١٤) .

وفى مؤلفه المسمى ستروماتا لم يتحدث بتوسع عن الأسفار الإلهية فحسب ، بل اقتبس - أيضًا - من الكتاب اليونانيين كل ما رآه نافعا وشرح آراء الكثيرين - يونانيين وبرابرة - والمقصود بالبرابرة فى نظره ربما كان هو غير اليونان .

أوريجانوس :

ولد ١٨٥ م فى مدينة الإسكندرية من والدين مسيحيين، وكان أبوه يدعى أمونيوس وله سبعة أولاد أكبرهم أوريجين ، فتعلم العلوم العقلية والرياضية وتفقه فى الكتاب المقدس ، ولقد تعرض أبوه للمصادرة والموت على يد الدولة .

«وكان فى السنة العاشرة من حكم ساويرس، وكان لتينوس واليا على الإسكندرية وسائر أرجاء القطر المصرى، وكان ديمتريوس أسقفا على أبروشيتها . ولأن ممتلكات أبيه صودرت لحساب الخزانة الحكومية أصبح هو وعائلته محتاجين لضروريات الحياة، فوجد ترحيبا من امرأة غنية جدا وكانت تعامل بإكرام عظيم شخصا هرطقيا مشهورا كان يعيش فى الإسكندرية وقتئذ ولد فى أنطاكية وكان يعيش معها لأنها قد تبنته (١١٥).

ودرس على المدرستين الوثنية، درس على أكليمنص الإسكندرى كما درس على أمونيوس سقاص مؤسس الأفلاطونية الحديثة ، وحين اضطر أكليمنص إلى ترك الإسكندرية عهد للبطريرك ديمتريوس بإدارة المدرسة اللاهوتية إلى أوريجين وهو فى الثامنة عشرة وصار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية ، ولم يكن للمدرسة بناء خاص، فكان التلاميذ يقطنون حول مسكن أوريجين يتلقون العلم ، وكان يتلقى محاضراته طلبة وثنيون أيضًا ، ومما يذكر أنه لم يبق فى المدرسة غيره ، ولولا ذلك لتشتت طلبتها ، فقد استشهد عدد من معلمى المدرسة ، وفر البعض وكان الاضطهاد فى عهد أكيلا والى الإسكندرية» .

. وكان يصاحب المساجين إلى الموت فخاطر بنفسه وأدى هذا إلى ثورة الوثنيين عليه ، وكادوا أن يفتكوا به عدة مرات ويذكر يوزبيوس : هكذا كان يعلى مراحل الاضطهاد من نحوه يوما بعد يوم حتى لم تعد المدينة كلها تطيقه ، لكنه كان ينتقل من بيت إلى بيت وكان يطارد فى كل مكان" (١١٦) .

ولقد كان عدد الطلبة الذين يلتفون حوله كبيرا بعد أن عهد إليه ديمتريوس بإدارة المدرسة اللاهوتية، ولقد أبطل تعليم الأجرومية على أنها غير نافعة معطلة للتعليم وباع كتبه، وكان يقنع بالحصول من المشترى على أربع أبولات، وعاش حياة التقشف فى الملبس والطعام والحياة، وهذا الأسلوب فى الحياة والعلم جذب إليه تلاميذا أكثر من المسيحيين والوثنيين ، ولقد استشهد كثير من تلاميذه ومنهم سيدة هى هيرمس التى ماتت وهى لا تزال تحت التعليم ، ورغم أن ديمتريوس هو الذى رسمه لإدارة المدرسة ، فقد حدث خلاف بينه وبين أوريجين ، فحين قام أوريجين يخص نفسه لأنه أخذ معنى الكلمات حرفيا من الكتاب المقدس " يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات " " ٢ حزقيا " وذهب فى فهم معناها الحرفى إلى أقصى الحدود ، واعتقد أنه بذلك يقطع كل فرصة قد يتخذها غير المؤمن للإساءة إليه لأنه كان يلتقى بالرجال والنساء عند تدريس الإلهيات بالرغم من حداثة سنه ، فقد نفذ عمليا كلمات المسيح ، ويوزبيوس يلومه على ذلك ، ولكنه فى نفس الوقت يبدى إعجابه به ، ولقد أدرك بعد ذلك خطأ ما فعل (١١٧) .

ويرى يوزبيوس أن ديمتريوس غلب عليه الضعف البشرى فحقد على أوريجين لذيوع شهرته بين الناس، وكتب إلى الأساقفة فى العالم بأن أوريجين غلب عليه الطيش ولكن أسقفى قيصرية وأورشليم اللذين كانا أشهر وأبرز الأساقفة فى فلسطين اعتبرا أوريجين خليقا بأعظم درجات الإكرام فرسم قسا واستمر يدرس فى الإسكندرية، ويذكر أوريجين : "عندما كرست نفسى للدرس ، وذاعت فى الخارج شهرتى وكفاءتى وعندما جاء إلى هراطقة وأشخاص شغوفون بالعلوم اليونانية لا سيما الفلسفة إلى أنه من الضرورى أن أفحص تعاليم الهراطقة وقف على مايقوله الفلاسفة الحق " ولقد طرح ملابسه العادية ولبس ملابس الفلاسفة وهو مايزال مستمراً فى دراسة المؤلفات اليونانية باجتهاد (١١٨) .

ولقد سافر إلى بلاد العرب بناء على دعوة حاكمها الرومانى " ولاية بلاد العرب الرومانية التى أنشأها تراجان " ثم عاد إلى الإسكندرية، ولكن نشبت حرب شعواء بالمدينة نتيجة ما قام به كراكلا فى السنة السادسة من حكمه للانتقام من سكان المدينة لسخريتهم منه لقتله أخيه، واشتد سخطه على العلماء فاضطر للفرار إلى فلسطين، وأقام فى قيصرية وطلب منه الأساقفة أن يعظ ويفسر الكتاب علنا، رغم أنه آنذاك لم يكن رسم قسيسا، ولقد عاد بناء على رغبة ديمتريوس للإسكندرية، واستخدم عددا من النساخ، بالإضافة إلى فتيات تطوعن لخدمة الكنيسة، وسافر إلى اليونان لبعض شئون الكنيسة ورسمه أساقفة تلك المملكة فسافر إلى قيصرية ، وتعرض أوريجين للاضطهاد فى عهد ديسيوس وقيدت رجلاه فى المقطرة أياما كثيرة ٢٥٠م، ويذكر يوزبيوس أنه أخلى سبيله بعد ذلك ، ويعتبر أوريجين أول من أقام اللاهوت على أسس منظمة، وفى تبويب عقائد الكنيسة وقام بالتبشير فى روما وبلاد العرب للقضاء على البدع (١١٩) .

ووصفه ألكسندر أسقف أورشليم بأنه أستاذ الأساقفة وأمير مفسرى الإنجيل والبطاركة، والذين خلفوا ديمتريوس فى كرسى الإسكندرية كانوا من تلاميذه .

ويقال أنه ألف ستة آلاف كتاب، والبعض يقول إن أشهر أعماله نسخ الكتاب المقدس، ولقد استمر مجهوده فى التأليف ٢٨ عاما فوضع " الهكسبلا " أى الأعمدة الستة، لأنه قارن بين ست ترجمات وعرض لكلا النصين اليونانى والعبرى Hexapla، وترسم لنا الحركة الديرية مع إنجازات مدرسة التعليم بطريقة السؤال والجواب، الشخصية المزدوجة للمسيحية المبكرة فى مصر، والتى تتميز بأنها قد تأثرت جزئيا بالروح الفلسفية للإسكندرية وبتقاليد الهلينستية وجزئيا- أيضا- بمعتقدات قدماء المصريين التى تكمن فى الخلفية ، كانت السمة الأولى للمسيحية المصرية هى العقل بينما كانت الثانية هى القلب، ومع تغلغل الدين فى السياسة والمسائل المتصلة بالكبرياء الوطنى أكثر فأكثر تزايدت سيطرة القلب على العقل تدريجيا (١٢٠) .

ورغم أن أوريجين ، قد شهد بنبوغه فلاسفة عصره اليونان وكثيرا ما ذكروه فى كتاباتهم، وفى بعض الأحيان كانوا يدونون اسمه فى مقدمة مؤلفاتهم وفى كتاباتهم، وفى بعض الأحيان كانوا يقدمون إليه مؤلفاتهم كمعلم ليعطى رأيه عنها، وكان يوزبيوس من أشد المعجبين به وبفكره ومؤلفاته .

ولكن فى الفترة التالية والتى تولى زمام الثقافة الدينية الرهبان فى الأديرة والتى اتصفت بأنها فترة قبطية ومصرية خالصة ، رفضت كل ما ارتبط بالفكر والفلسفة اليونانية، وظهر آباء أمثال شنودة قصروا أديرتهم على اللغة المصرية وآبائها، ورفضوا تعلم اليونانية، وبعضهم كان أميا فتعرض أوريجين لارتباطه بالفلسفة اليونانية ولجوئه إليها فى اللاهوت المسيحى لهجوم شديد، وممن هاجمه بروفيروس وهو أحد فلاسفة القرن الثالث، وكانت غاية فلسفته القداسة وخلاص النفس وليس المعرفة، وأحيانا كان يتهم أوريجين كمسيحى ، واتهمه بأن آراءه فى الماديات تخرج عن طريق الحياة المستقيم ، واتهمه أيضًا بأنه طبق التفسير الرمزى للأسفار اليونانية على الأسفار المقدسة اليهودية وكان رد أوريجين : "عندما كرست نفسى للدرس وذاعت شهرتى فى الخارج عن كفاءتى، وعندما أتى إلى هراطقة وأشخاص شغفوا بالعلوم اليونانية لا سيما الفلسفة بدا لى أنه من الضرورى أن أفحص تعاليم الهراطقة وأقف على ما يقوله الفلاسفة عن الحق وذكر يوزبيوس فى كتابه الثانى "دفاعا عن" ؟؟

ويذكر القس منسا أن الهجوم الذى صور ضد العلامة أوريجين لم يؤثر على مقامه ومركزه عند رهبان مصر المطلعين على مؤلفات عديدة والعارفين بطهارة سيرته ، فترجم شخص اسمه بلاتر فى الغرب بعض مؤلفاته إلى اللاتينية (١٢١) .

وفى الشرق دافع عنه رهبان سوريا وفلسطين خاصة ووافقهم على ذلك بعض الأساقفة ولا سيما ثيودورس أسقف قيصرية ، ولكن أفرام بطريرك أنطاكية كان يكرهه واعتبره مساعدا لمذهب الطبيعة الواحدة، وطلب الرهبان من بطرس الأورشليمى قطع أفرام فأرسل مندوبين من قبله إلى القسطنطينية ليقدم شكواه للقيصر ضد أوريجين وعقائده، وطلب النهى عن مطالعة كتبه ، وبعد ذلك حكم فى مجتمع ٥٥٣م المسكونى الذى جمعه القيصر على آراء أوريجين بأنها سامة للكنيسة .

ومن الواضح أن المجتمع ورهبانه رفض فكر أوريجين ، لتأثره بالفلسفة اليونانية التى استعان بها آباء الكنيسة الأوائل ثم رفض فى المرحلة التالية بعد استقرار أوضاع المسيحية وسيطرة العنصر المصرى على مقدرات الكنيسة .

وبالنسبة لرجال الكنيسة فى القرن الرابع لم يحذوا حذو الأوائل كأوريجين فى الفصل بين الثقافة اليونانية والفلسفة كفكر وبين الوثنية ، فرجال القرن الرابع قرنوا الفكر والثقافة اليونانية بالوثنية، ومن هنا كانت محاربة تلك الثقافة، ووصل هذا إلى أباء الكنيسة الأوائل الذين استعانوا بها .

ديدمـوس الضـرير :

ولد فى سنة ٣١٣م فى الإسكندرية فى السنة التى أوقفت فيها اضطهادات المسيحيين وصدر مرسوم ميلان ، ولقد فقد بصره حينما كان فى الرابعة من عمره ، وكان يحفر الحروف على الخشب ليتحسسها بأصابعه، وفى هذا الوقت كانت حركة الصراع الدينى بين الأريوسيين والأثناسيين. وجاءت كتاباته معتدله ، توفى ٣٨٠م ، وخلف ثمانية وأربعين مؤلفا فى اللاهوت، ومن خلفائه الذين صاروا بطاركة فى الإسكندرية ديونسيوس العالم اللاهوتى وثانيهما ثيوردوس الذى كان نابغة فى الفلسفة والعلوم اللاهوتية (١٢٢)، ولقد درس فيها أثناسيوس والقديس كرلس وجذبت إليها عددا من الباحثين الأجانب الذين أصبحت مساهمتهم فى تأسيس الكنيسة المصرية والفكر المسيحى جزءا لا يتجزأ ولا غنى عنه فى التراث المسيحى من أمثال جريجورى نازلزنزير Narlzenzer والقديس باسليوس والقديس جيروم والمؤرخ الكنسى روفينيوس (١٢٣) .

لكن منذ منتصف القرن الخامس بدأت مرحلة جديدة مع توارى دور المكتبة والموسيون، وتراجع دور المدرسة اللاهوتية، وأصبح هناك موقف دينى وصل لحد التعصب ضد هذه الفلسفة والفكر ومراكزه، وخاصة بعد ازدياد أعداد الرهبان، وكرد فعل للمسيحية المنتصرة ضد الوثنية المنتصرة، ومحاولة تمصير الفكر والثقافة المصرية غير ناظرين لما تحمله تلك الثقافة من ثمار فكرية، فلقد نظروا إليها من منظور واحد وهو ارتباطها بفكر وثنى وسلطات دولة، فنجد الأنبا شنودة الأخميمى له موقف من اللغة اليونانية التى رفضها كوسيلة للتعليم فقط، بل وللتعبير أيضًا، ولجأ إلى استخدام اللغة القبطية، وأصبحت الأديرة التابعة له مصرية خالصة رافضة للعنصر اليونانى والأجنبى عامة، وقد تعرض رموز تلك الثقافة فى الإسكندرية لتعد من العناصر الدينية

المتعصبة كما حدث للفيلسوفة هيباشيا التى لقت مصرعها على أيدى الرهبان والجماهير الثائرة، وخاصة أن المسيحية أصبحت دين الدولة الرسمى فى عهد ثيودسيوس، والذى بدأ فى عهده اضطهاد الوثنيين وتدمير معابدهم، وكانت المناصب الكهنوتية فى الإمبراطورية من عهد نوما إلى عهد تراجان تتولاها عدة هيئات ، فألغيت جميعها واعتبر ثيودسيوس تقديم القرابين عملاً إجراميًا ، ولقد أمر حاكمه البريتورى فى الشرق الكونت بودنيوس والقائد جوفينوس – وهما حنابطان برتب رفيعة فى الغرب – بإغلاق المعابد والاستيلاء على أدوات العبادة ومصادرة الأملاك الموقوفة عليها لصالح الإمبراطور والكنيسة والجيش، وقام الرهبان ورجال الدين بمهاجمة الأماكن الدينية الوثنية وتسوية بعضها بالأرض ومعابدها الفخمة وكذلك فعل أسقف تور فى الغال، أما معبد فينوس فى قرطاجة فقد حول إلى كنيسة .

ولقد تم تدمير أحد أماكن الإسكندرية الثقافية الهامة وهى مكتبة الإسكندرية فى معبد سرابيس بعد احتراق المكتبة الأولى فى الصراع بين بومبى وقيصر، والتى حوت كنوزالمعرفة، وهناك كثير من الآراء حول مكتبة الإسكندرية سينكا فليسوف القرن الأول ذكر أنه حرق ٤٠,٠٠٠ فى الصراع بين قيصر وبومبى وليفى فى كتابه عن تاريخ روما. وبلوتارخ ذكر تدمير المكتبة الكبرى وديوكاسيوس ذكر حريق الكتب حينما قام صراع بين قيصر وكيلوبترا من جهة، وبطليموس الثامن من جهة وإن العديد من الأماكن حرق ومنها مستودع الغلال، وكان به كتب، وأميانوس ماركلينوس ذكر فى تاريخه أن حوالى ٧٠٠ ألف كتاب من مكتبات الملوك البطالمة حرقت فى حرب الإسكندرية عند اجتياح الدكتاتور قيصر لها، وكان هذا تقدير ألوس جالوس Aulus Gellius، و ذكر Orosius وهو مؤرخ من القرن الخامس حرق الأسطول والنار التى انتشرت وأحرقت ٤٠٠,٠٠٠ كتاب (١٢٤) .

ويحاول Roy Macleod فى كتابه عن مكتبة الإسكندرية أن يشكك فى تلك المعلومات ويجعلها قاصرة على مخزن الكتب وأن المكتبة ككل لم تحترق وأن الذى احترق هو ٤٠ ألف كتاب فى المخزن وإلا لاحترق القصر والمتحف والموسيون المجاور وهو مالم يحدد، ويحاول أن يشكك – أيضًا – فى الرواية عن قيام أنطونيو إهداء كليوبترا ٢٠٠,٠٠٠ كتاب من مكتبة برجامه تعويضا عن مكتبتها التى احترقت لاهتمام

كليوبترا بالنواحى الثقافية، وذكر أن القصة رويت اعتمادا على بلوتارخوس Plutarch وأن Calvisius كالفسيوس صديق قيصر ذكر تلك القصة وأنها وصلته عن طريق الشائعات (١٢٤) .

وقد ذكر Suetonius أنه فى بداية القرن الثانى فى عهد دومتيان أهمل أمر الدراسات المتعلقة بالمكتبات لكنه اهتم بالمكتبات التى أحرقت ليعيد إصلاحها وإرسال نسخ، فأرسل دارسين للإسكندرية لنسخ كتب فيها، ومعنى ذلك أن مكتبتها مازالت لها شهرة ؛ ولكن هذا لا يعنى أن المكتبة لم تحرق فربما المقصود الذهاب إلى مكتبة السرابيوم، وفى ٣٩١ قادثيوفلوس Theophilus حملة من الرهبان لتدمير المعابد وتحويلها إلى كنائس باعتبارها معاقل وثنية، وقاومهم الوثنيون فى الشوارع، ولكن ثيوفلوس أخذ الموافقة من الإمبراطور ثيودسوس الأول على إغلاق جميع المعابد بما فيها السرابيوم (١٢٥) . ولقد تم تدمير المكتبة وحرقها، ولقد نال نفس المصير أعداداً كبيرة من المعابد ومكتباتها، وإن كانت هناك إشارة لمكتبة القيصرون فى إحدى برديات أكسرنخوس والتى تعود للفترة التالية، ولكنها تحولت إلى مايشبه المركز الطبى لفحص العبيد والمرضى .

وفى سنة ٤١٦م زار أورسيوس Orosius الإسكندرية ، وذكر أنه رأى فى بعض المعابد كتبا " ولكنها تالفة بسبب رجال من عصرنا " ، من الواضح أن بعض مدراس الإسكندرية الوثنية ظلت مستمرة كبقايا من الماضى، ومن الملامح الأخيرة لتلك الحضارة مقتل هيباشيا والذى واكب فترة الصراع بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية وأباطرتها، وكان لكيرلس سلطات واسعة ، وكان بعد كيرلس عن العاصمة البيزنطية ووجوده ورئاسته لعاصمه كبرى كالإسكندرية ووجود تأييد شعبى من أهالى الإسكندرية سببا فى زيادة نفوذه .

فقد كانت هيباشيا تتمتع بشهرة عظيمة جذبت إليها الطلاب واستمع إليها المسيحيون والوثنيون على السواء، ومن أشهر تلاميذها سينيوس أسقف كنيسة قورنية فى برقة ، وعاصر الفترة التى بدأت تضطهد فيها الوثنية ، ذكر يوحنا الآسيوى : "أنه وجدت وظيفة مفتش عن الوثنية عمله تبليغ الإدارت الحكومية عن الوثنيين " .

ورغم كون سينيوس مسيحيا ورجل دين له مكانته لم يخف إعجابه بتلك الفليسوفة، ولقد أرسل إليها رسائل تفيض بالتقدير والإجلال (١٢٦) .

وكان سينيوس من المعجبين بالإسكندرية وجامعتها وثقافتها ففي رسالة كتبها عن مكانة الإسكندرية بعد زيارته أثنيا " إن رحلتي هذه إلى أثينا .... من أكابر أولئك الذين يتعلمون في أثينا ويعودون إلينا لا يختلفون في شيء عنا ، نحن الأناس العاديين إنهم لا يعرفون أرسطو وأفلاطون خيرا منا، ومع ذلك فهم يسيرون بيننا كأنصاف ألهة (١٢٧) " وفي خطاب آخر : " لم يبق لنا شيء واقعي سوى أسماء البلاد المشهورة، فاليوم قد بلغت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيباشيا ، وكانت أثينا موطن الحكمة أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها" ، وهذه الشهرة أثارت عليها غضب الرهبان فعلاقتها الطيبة بالوالي جعلتهم يتصورون أنها مصدر تحريض ضد العناصر المسيحية (١٢٨)، كذلك لكونها أحد رموز الفلسفة الوثنية التي اتخذت منها الكنيسة موقفا فقامت جموع من الرهبان والجماهير الثائرة بإنزالها من عربتها وقتلها كما قيل بالمحار (١٢٩) .

ومع ذلك فقد استمرت المدرسة الوثنية لفترة تالية، ولكن تضاءلت أعداد أساتذتها وطلبتها، وهناك وثيقة بردية من النصف الثاني من القرن الخامس كتبها هور أبوللو Horoapolla الذي ألف كتابًا عن آثار مدينة الإسكندرية، وهو أحد هؤلاء الفلاسفة الذين تأصلت الروح القومية في نفوسهم، فرغم أن ثقافتهم كانت بلا ريب مصطبغة بصبغة الحضارة الهلينية وتضمنت الوثيقة : " في وسعي إذا لم يكن ثمة خطأ أن يمتدح أني حظيت خلال فترة طويلة بسمعة طيبة بين سكان مدينة الإسكندرية العظيمة حيث أشرفت على إدارة إحدى مدارس جامعتها، كنت أعيش دائما عيشة فاضلة وتذكرت بمواهبي الفطرية النشاط الثقافي وعلمت الفلسفة للراغبين فيها . والواقع أني ورثت اهتمامي بالفلسفة عن آبائي و أجدادي "، وهو أصلا من الصعيد ولم يكن أول من حضر من أسرته إلى الإسكندرية فهناك – كما نعرف – أفراد آخرون من أسرته كانوا يشتغلون بالتدريس (١٣٠) في الإسكندرية. ولقد كان لهور أبوللو تلاميذه وكان البعض ممن يدرس في المدرسة الوثنية يتحولون إلى المسيحية؛ فباراليوس من مدينة كاريا حضر وتعلم ثم اعتنق المسيحية القديس سيفرنوس الذي جاء من أنطاكية، وكان لا يزال وثنيا، وهناك أعلام مثل زكريا من غزة وتوماس وزنيودنوس من لسبوس، وكانت

هناك مناقشات فى قضايا الدين والفلسفة بين الفريقين، وبعد أن أتم سيفرنوس دراسة الفلسفة فى الإسكندرية رحل إلى بيروت حيث اعتنق المسيحية ودخل أحد الأديرة راهبا وأصبح أسقفا لكنيسة أنطاكية فى ٥١٢م ، وقد كانت كل من الإسكندرية وأنطاكية تتبعان مذهب الطبيعة الواحدة، وكانت تربطهما روابط قوية حتى تعرض (١٣١) أصحاب هذا المذهب لاضطهاد الدولة، فسفيرنوس من أنطاكية ولجأ إلى الإسكندرية ويذكر القس منسى أن المدرسة اندثرت فى عهد جستنيان ٥٢٩م، ولم يرأسها بعد جاميك سوى بيروكلوس ودامسوس، ومع ذلك فقد كان هناك شعراء وثنيون كنينوس من أخميم أصلا عاش فى القرن الخامس، ولذلك ظل التواجد الثقافى لأساتذة الإسكندرية، وإن كان أساتذتها فى الغالب قد اعتنقوا المسيحية فقد ورد أن شخصا يسمى يعقوب من مدينة " أوديسا " الرها حضر إلى الإسكندرية فى سنة ٨٦ أى بعد الفتح الإسلامى . ومن المؤكد أن تراجع الثقافة اليونانية ومدارسها بدأ يأخذ منحنى قويا منذ مجمع خلقدونية ٤٥١م الذى استبعد كل ماهو يونانى ، ولا يوجد دليل بعد تدمير مكتبة الإسكندرية على وجود مكتبات عامة، ولكن من المؤكد أنه كانت هناك مكتبات خاصة احتفظ أصحابها بأجزاء من مؤلفات الأدب اليونانى (١٣٢) . فهناك برديات تحوى كتابات أدبية ومسرحيات، وإن كان هناك العديد من المخطوطات البردية تعكس الأدب الشعبى الذى شاع فى هذه الفترة، وهو الأدب القبطى، وهو أدب دينى بالدرجة الأولى وإن حوى مواد أخرى (١٣٣) . وإن كانت مادته الرئيسية تدور فى إطار الإنجيل والكتابات والشروح الدينية، فلقد شاع آنذاك أدب مسيحى وكتابات الآباء اللاهوتية، وكان أساتذة الإسكندرية وبطاركتها هم عمد اللاهوت فى العالم المسيحى، وانتشرت اللغة القبطية ووجدت العديد من المؤلفات الدينية القبطية فى اللاهوت، وظهر أدب المعجزات وحياه الرسل والقديسين وبعض الشهداء، ووجدت العديد من المخطوطات التى اكتشفها كيرزون **Curizon** بأديرة وادى النطرون، بالإضافة إلى الكتابات الأبوكريفية التى رفضتها الكنيسة، وبرديات القرن السابع محصورة فى دائرة ضيقة ، وكثيرا ما نجد برديات فى القرن السابع تحتوى على نصوص مسيحية كتراتيل وأدعية وآيات مقتبسة من الكتاب المقدس، وكانت تستعمل كتمائم، نجدها مضطربة وحافلة بالأخطاء ومما يدل على أن كتابها كانوا لا يفهمون ما يدونوه إلا فهما سطحيا .

أما مدرسة الإسكندرية اللاهوتية فقد خرجت أهم آباء الكنيسة وهو أثناسيوس والقديس كيرلس، ومن الأجانب عدد كبير من الباحثين الأجانب الذين أصبح إسهامهم واضحا فى تأسيس الكنيسة المسيحية والرومانية والفكر المسيحى من أمثال جورج -Na zierzesوالقديس باسيلوس وجيروم مؤرخ الكنيسة وروفنيوس المؤرخ الكنسى المعروف ولقب بطريرك الإسكندرية بلقب قاضى المسيحية وكان أكثر أساقفة العالم القديم تلامذة له .

وذكر يوزبيوس القيصرى فى منتصف القرن الرابع أن المدرسة مستمرة فى عملها إلى أيامه وذكر أن الاثنين اللذين خلفا أوريجين صارا بطاركة للإسكندرية؛ أحدهما ديونسيوس صاحب المعرفة اللاهوتية، وثانيهما ثيوديوس الذى كان نابغة فى الفلسفة والعلوم اللاهوتية، وكان يدرس لتلاميذه جميع أنواع المعرفة (١٣٤) . وظلت المدرسة مزدهرة ورئيسها يلى البطريرك فى المكانة حتى قام آخر رئيس لها بنقلها من مكانها إلى بلدة بإقليم بامفيليا بدون سبب يدعو لذلك فأضرها هذا النقل ضررا عظيما وتناقص عدد طلابها، واستمر هذا التناقص إلى أواسط القرن الخامس ففقدت المدرسة مكانتها، وإن ظل بعض رجال الدين فى القرن السادس يدرس العلوم اللاهوتية فى الإسكندرية، ومن بينهم سرجيوس وهارونى القس، ومن الأسماء المعروفة فى القرن السادس يوحنا فيلوبوس النحوى الذى ألف فى الطب والأدب والرياضة .

ومن القرن الرابع إلى السابع حفلت بكتابات مسيحية عديدة من مؤلفات آباء الكنيسة .

الإسكندرية التى بدت فى القرن الأول تزهو بثقافتها وجامعتها والتى ازدادت ازدهارا مع وجود مدارس فكرية مختلفة، فهذا الحوار الذى نشأ فى الإسكندرية بين المدرستين الوثنية والمسيحية والذى أوجدته المسيحية المثقفة التى مثلها أكليمنص وأوريجين اللذان جمعا فى أعماقها بين الروح الدينية المسيحية وبين فكر وفلسفة الإسكندرية، وفى الفترة التالية بعد أن سادت المسيحية وأصبحت ديانة الدولة الرسمية بدأت تتخذ موقفا من الثقافة التى ربطتها بالوثنية، فكان تدمير مكتبتها وتشتيت أساتذتها، ومع ذلك ظل هناك ضوء خافت قاتم إلى نهاية القرن الخامس، وظل هناك شعراء وثنيون. وبعد ذلك اختفى الأساتذة الوثنيون وحل محلهم مسيحيون، والثقافة

اليونانية ظلت تدرس فى نطاق محدود ، أما المدرسة اللاهوتية فقد ضعف أمرها مع القرن الخامس وتراجع أمرها ، والأدب السائد أصبح الأدب القبطى وهو أدب دينى فى مجمله، وأصبحت الأديرة القبطية هى مصدر ثقافة بدائية دينية خلال تلك الفترة ، وكان غالبية الرهبان لا يجيدون اللغة اليونانية، بل اللغة المستعملة كانت القبطية، ولا يعنى هذا وجود آباء على علم بالثقافة اليونانية، ومنهم من له مؤلفات عديدة فى مواضيع منوعة ، ولكن منذ ٤١٥ أصبحت اليونانية لغة غير مطلوبة فقد رفضوا كل مايربطهم بالدولة البيزنطية .

هوامش الفصل الثانى

(١) جمال حمدان : نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

(٢) سيد الناصرى وسيد توفيق : معالم وحضارة مصر منذ أقدم العصور ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٣) استربون : استرابون فى مصر ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٥٥ .

(٤) قادوس : آثار الإسكندرية ، ص ٨٣ .

(٥) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٦

(٦) فورستر : الإسكندرية ، تاريخ ودليل ، ترجمة حسن بيومى ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص ٦١ .

(٧) فاروق القاضى : موسوعة تاريخ مصر ، ص ٥٠٧

Emepereur J. Y : Alexandria Rediscovered p. 90-91.

(٨) فورستر : الإسكندرية ، ص ٦١

(٩) قادوس : آثار الإسكندرية ، ص ٣٠

10 - Emepereur : op. cit. pp 90-120.

(١١) عبادى : نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

(١٢) يوسفوس : تاريخ يوسفوس اليهودى ، المكتبة العمومية ، بيروت ، ١٨٦٦ ، ص ٢٠ .

(13) Abba Ebani : heritage Civilization and the jews, p. 98.

(١٤) هيردوت يتحدث عن مصر : ترجمة محمد صقر خفاجة ص ١١٨ ، ١٢٢

(15) Daily life : p. 5 - 7.

(١٦) عبادى : نفس المرجع ، ص ١١٦ .

(١٧) عبادى : نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .

(18) Winter : op cit. p55.

(١٩) روستفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، ترجمة زكى على ، ج٢ ، ص ٥٨٨ .

(20) Winter : op cit. p.23.

(٢١) عبادى : نفس المرجع ، ص ١٧٩ .

(٢٢) عبادى : نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(٢٣) مصطفى عبد العليم : تدمير هيكل أورشليم (اليهود فى العالم القديم) ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٢٤) عبادى : نفس المرجع ، ص ١٧٩ .

(25) AbbaEbani : heritage Civilization and the jews, p.98.

(26) Ashtor : The jews of Moslem Spain, pheladelphia, 1937

(٢٧) عبادى : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٢٨) زبيدة : الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ١٧١ .

(29) Ch XIII 50.

(30) johnson : op. cit p.104.

(٣١) روستفتزف : نفس المرجع ، ج١ ، ص ٢٢٠ .

(32) P. oxy. 1078, 1851.

(٣٣) عن البنوك وأعمالها : انظر برديات أكسرنخوس

P.oxy. 165-1284, 1844, 1625, p. Fror. 353. p. Fayum 104.

(34) P. masp 67120.

(35) Ammianus : op. cit, XXII, 16, 17-22.

(36) P. oxy. 3366.

(37) Winter : op. cit p. 96.

(38) Winter : op. cit. p. 25.

(٣٩) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١٢٠ .

(40) P. oxy : XIV. 1681.

(٤١) العبادى : نفس المرجع ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٤٢) العبادى : نفس المرجع ، ص ٢١٥ .

(٤٣) العبادى : نفس المرجع ، ص ١٧٣ .

(44) P. oxy. 1681.

(45) Winter : op. cit. p25.

(46) Winter : op. cit. p. 24.

(٤٧) تحفة حندوسة : الزواج والطلاق فى مصر القديمة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٤٤ .

(٤٨) تحفة خندوسة : نفس المرجع ، ص ٤٧ .

(٤٩) تحفة حندوسة : نفس المرجع ، ص ٦٥ .

(50) Winter : op. cit. p. 20.

(51) Winter : op. cit. p. 24.

(52) Coptic Ostraca, No. 72.

(53) Coptic Ostraca, No. 72.

(54) Winter : Daily life. p. 20.

(55) Coptic Ostraca, No. 24-290.

(56) P.oxy. 1603 Coptic Ostraca, No. 459.

(٥٧) إسترابون فى مصر : ترجمة وهيب كامل ، ص ٦١ - ٧٦ .

(٥٨) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١١٥ .

(59) P. Masp. 67700, p. oxy. 2040.

(٦٠) استرابون : نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(61) P.oxy. 1052.

(62) P.oxy. 1051.

(٦٣) زبيدة عطا : الدولة البيزنطية ، ص ١٧٠ .

(٦٤) عن المذهب الخلقدونى ، انظر رأفت عبد الحميد ، ص ٢٤٧ ، مراد كامل : ص ٤٧ - ٥١ .

(٦٥) تاريخ يوحنا النقيوسى : ترجمة عمر صابر عبد الجليل ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٦١ .

(66) Winter : p. 55.

(67) P.oxy. 3313.

(68) P.oxy. 119.

(69) Life and letters in the papyri, p. 21.

(٧٠) استرابون : نفس المصدر ، ص ٧٦ - ٧٨ .

(71) Catalogue of the coptic Manuscript in collection of John Rlaind p. 44.

(72) P.oxy.

(73) Winter. op. cit. p.118.

(٧٤) استرابون : نفس المصدر ، ص ٧٧ - ١٣٠ .

(٧٥) زبيدة : المنيا فى العصر البيزنطى ، ص ٧٩ .

(٧٦) عن الزواج، انظر : Winter : Daily life, p 17-23.

(77) WInter : op. cit. p. 16.

(78) WInter : op. cit. p . 23.

(٧٩) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ٧٩ .

(٨٠) عن أنواع السمك انظر : P.oxy : 1937

(٨١) سعاد ماهر : الفن القبطى ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

(82) P.oxy. 1277.

(83) P. Lond. 249, P. Michigan No. 216.

(٨٤) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ١٠٦ - ١٠٧ .

(٨٥) قادوس : الإسكندرية ، (86) Doxiades : op. cit. p 234.

Doxiades : op. cit. p . 234.

(87) Doxiades : op. cit. p. 234-244.

(٨٨) دليل المتحف القبطى رقم ٧٥٠٨ ، ٦٤٧٠ - ٧٠٠٥ .

(٨٩) انظر دليل المتحف القبطى رقم ١٥٠ الحياة الاقتصادية ، ص ١٣٥ .

(٩٠) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١٣٤ P.oxy 1938.

(٩١) قادوس : آثار الإسكندرية القديمة ، الإسكندرية ، ٢٠٠١ ، ص ٢٢٥ - ٢٤١ .

(٩٢) عن الحمامات : Ampereur : op. cit. p 45 - 63

(93) Ampereur : op. cit. p. 242-248.

(٩٤) قادوس : آثار الإسكندرية ، ص ٣٣٦ .

(95) Ampereur : op. cit. p . 172.

(٩٦) أنطون سوريال : ص ٨٢ .

(97) Macleod (Roy) : The library of Alexandria, Cairo, 2002, p. 64.

(98) Macleod (Ray) : op. cit. p. 64 - 70.

(99) Ammiani : op. cit XXII. 916, 15 - 17. AD3B.

(100) Ammiani : op. cit. XXII. 16 - 17 - 22.

(١٠١) فورستر : انظر الموسيون ، ص ٦١ ، قادوس : الإسكندرية ، ص ٨١ .

(١٠٢) فورستر : نفس المرجع ، ص ١٠٤ - ١١٢ .

(١٠٣) جيبون : نفس المرجع ، ج١ ، ص ٢٧٩ .

(١٠٤) فاروق القاضى : موسوعة مصر ، ص ٥٠٤ .

(١٠٥) فورستر : نفس المرجع ، ص ١٠٧ .

(١٠٦) مراد كامل : الحضارة القبطية ، ص ٨٤ .

(١٠٧) فورستر : عن أفلوطين ، ١٠٨ - ١٠٩ .

(١٠٨) مراد كامل : عن الغنوسية ، ص ٧٧ .

(١٠٩) مراد كامل ص ٧٧ .

(١١٠) يوزبيوس : نفس المصدر عن إنشاء مدرسة اللاهوت .

(١١١) عن بنتثيوس : انظر فورستر ، مراد كامل ، ص ٨٦ .

(١١٢) والترز : ص ١٨ .

(١١٣) القس منسا : نفس المرجع ، ص ٢٨ .

(١١٤) يوزبيوس : ص ٢٥٧ - ٣٠٢ .

(١١٥) يوزبيوس : نفس المصدر ، ٢٨٧ . :

(١١٦) يوزبيوس : نفس المصدر ، مراحل الاضطهاد .

(١١٧) يوزبيوس : نفس المصدر ، ص ٢٩٥ .

(١١٨) يوزبيوس : نفس المصدر ، ص ٢٩٥ .

(١١٩) مراد كامل : نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(١٢٠) والترز : نفس المرجع ، ص ١٨ .

(١٢١) القس منسا : نفس المرجع عن أورجين .

(١٢٢) عن ديداموس : انظر مراد كامل ، ص ٩٣ .

(١٢٣) فورستر : عن مكتبة الإسكندرية ، ص ٦١ - ٦٣ .

(124) Macleod (Roy) : The library of Alexandria, Cairo, 2002.

(125) Roy : op. cit, p. 72.

(١٢٦) عن هيباشيا انظر :

Socrates Scholasticus Ecclesiastical History Damascius from Damascius's life isdore.

(127) Damascius : Life of isidore.

كذلك كتب يوحنا النقيوسى عنها وإن كان اتخذ منها موقفًا مضادًا بعكس بقية الأراء .

(١٢٨) يوحنا الأسيوى : تاريخ الكنيسة ، ترجمة صلاح عبد العزيز ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

(١٢٩) عن هيباشيا وسينيوس تلميذ هيباشيا انظر :

Roy Macleod : op. cit. p. 154.

عبادى : ص ٣٥١ .

(١٣٠) عبادى : عن هورابللو ، ص ٣٥٠ .

(١٣١) بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص٢٤٨ .

(١٣٢) عزت ذكى : كنائس المشرق ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(١٣٣) بل : نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .

(١٣٤) مراد كامل : نفس المرجع ، ص ٩٦ ، منسى : نفس المرجع ، ص ٢٦ .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية فى عواصم الأقاليم



فى الفترة المسيحية كانت الحياة فى اليونان تقوم على أساس المدينة الحرة، وهذا ما جعل عددا من عواصم الأقاليم المصرية تتمتع بخصوصية ومزايا خاصة متفردة، رغم أن البطالمة لم يتوسعوا فى إنشاء المدن المستقلة Polis، وكانت نقراطيس أول مدينة أسسها الإغريق فى مصر فى القرن السابع ق م فى أثناء حكم الأسرة الصاوية الفرعونية، ومع حكم البطالمة أنشئت مدينة بطلمية فى أعالى الصعيد بالإضافة إلى مدينة برايتونيوم Paraitontum عند مرسى مطروح [1] ، وفى العصر الرومانى أضاف هادريان مدينة أنطونيوبولس، (الشيخ عباده) .

وهذه المدن كانت لعدة قرون مدنا مميزة، يونانية الطابع والسكان، لم يمثل العنصر المصرى فيها إلا فى مجال الخدمات والحرف، فهى امتداد للعاصمة، وتمتع أهلها بجميع منشآت الحضارة من جمنازيوم ومسارح واحتفظوا بتقاليدها الهلينية، وخلال العصر الرومانى كانت تلك المدن تحوى الطبقات المتميزة من الإغريق، وكان الإغريق ينضمون إلى البوليتيما Politeama رابطة جمعت أبناء الوطن، وكانت البوليتيما فى أول الأمر قاصرة على أبناء جنس بعينه، ولكنها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن وأصبحت فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد تضم أفرادا من عناصر أخرى ، وتضم المدينة هيئة من المواطنين يتمتعون بمواطنة المدينة، وانقسم مجموع المواطنين إلى قبائل وأحياء Phyle demos حسب النظام الأثينى ، كان لكل مدينة نظامها السياسى الخاص فتمتع المواطنون بحق ممارسة حقوقهم دون سائر الأهالى . ووجد مجلس شيوخ Boule يضم المواطنين جميعا فى بطلمية ، وهناك موظفون مشرفون على الأسواق والتموين والجمنازيوم، ولها قضاتها .

ولم يسمح لسكان نقراطيس برايتونيوم بالزواج من المصريين والمدن لم تكن حرة تماما، والأوامر تصدر من الملك، وكان المواطنون يعتبرون أنفسهم أعلى من المصريين، فالمدينة هذه صورة مصغرة من الإسكندرية المدينة الأرستقراطية الأجنبية الطابع والثقافة والسكان حيث المواطن القبطى (المصرى) فى مركز متدن أمام الأجنبى .

ولكن مع الوقت بدأ العنصر المصرى تزداد أعداده، وحصل على مزايا عدة فظهرت طبقة مصرية متأغرقة كتلك التى ظهرت فى الإسكندرية، والتى حاولت أن تتشبه باليونان ثم الرومان، وحملت أسماء أغريقية ويونانية كما يتضح من واقع البرديات، والتى سعى أصحابها إلى تغيير أسمائهم على أمل فى تغيير الوضع الاجتماعى.

ولقد دخلت تعديلات على التقسيمات الإقليمية خلال العصرين الرومانى والبيزنطى وحدثت فى نفس الوقت تغيرات اجتماعية، فبعد هزيمة أنطونيو وكليوبترا سنة ٣١ق م أعلن أوكتافيوس فى وثيقته الشهيرة Resgestae تبعية مصر للشعب الرومانى، وجعل حاكما عليها يحمل لقب والى مصر Praefectus Agypti يجمع بين رئاسه الجيش والشئون المالية والإدارة والقضائية .

وتم تقسيم مصر إلى ثلاث مناطق كبرى على رأس كل منها مدير عام Epistrate-gos ؛ وكانت المناطق الثلاثة هى منطقة طيبة ، ومصر الوسطى ، التى سميت بالأقاليم السبعة وأرسنوى ثم الدلتا ، وفى عام ٢٩٧م قام الإمبراطور دقلديانوس بإعادة تنظيم ولايات الإمبراطورية فى وحدات إدارية كبيرة حملت كل منها اسم دوقية Dlocesis، وقسمت مصر باعتبارها ولاية قائمة بذاتها إلى ثلاث أقسام شرق الدلتا Agyptus Her-culia وطيبة ومصر جوفيا Jovia غرب الدلتا وتولى إدارة كل من القسمين الأول والثانى حاكم يحمل لقب متصرف Praeses (٢) .

وكان عدد الأقاليم فى العصور اليونانية الرومانية يتراوح بين ٣٠ - ٤٠ إقليما، ورغم أن تلك العواصم لم تتمتع بالسيادة الإدارية وقد أطلق عليها الإغريق polis، والوحدات الإدارية لم يدخل عليها تغير كبير منذ العصر الفرعونى، واسترابون شاهد الأقاليم المصرية و مدنها وأعجب بها ، فتحدث عن كينوبولس «الشيخ فضل»،

وهيرموبولس "الأشمونين" "وبطلمـوياس" ، المنشـأة وذكر أن لها دسـتور على النسق الهيليني وأنها لا تقل عن ممفيس وكينبولس قفط ...إلخ ، وكذلك كتب أمميانوس ماركلينوس أحد مؤرخى القرن الرابع عن الأقاليم المصرية؛ فذكر أن فى مصر خمسة أقاليم ثلاثة فى الفترة السابقة هى مصر وطيبة وليبيا وأضيف اليهم اوجستامنكا -Au gustaminc وأخذت بنتابولس Pantapolis من ليبيا. ويتحدث عن أهم المدن المصرية ذات الاسم الرنان فيذكر فى طيبة هرموبولس و قفط . وأنطونيوبولس – وفى أوجستا منكا البلوزيوم – وفى بنتابولس قورنية وبرنيقة وبطليموياس و أرسنوى (٣) .

وفى مصر أتريب Athribis وأكسرنخوس وممفيس إلخ ، ومنذ العصر الفرعونى إلى البيزنطى كانت التقسيمات على الوحدات الإدارية بداخلها تعديلات ، وإن لم تكن جذرية فاقتصرت تلك التعديلات على الشكل وعلى اتساع لرقعة واحدة من تلك الوحدات مع تغير أحيانًا فى مجتمعات تلك الوحدة وأعمالها بما يتفق ولغة السلطة العليا الحاكمة ، أو ما ترسمه تلك السلطة من سياسة إدارية تحقق لها السيادة والإشراف التام ، وكانت نواة الوحدة الإدارية للحكم المحلى المقاطعة Hesppl " حسبو بالفرعونية " وقسم الفراعنة مصر إلى عدد من المقاطعات الإدارية سواء فى الوجه البحرى أو تتابع الإضافات التى وردت فى الوثائق حول عدد تلك المقاطعات الفرعونية حيث كانت تعد فيما بين ثلاثين أو أربعين أو خمسين، وتغيرت مسمياتها فى عصر البطالمة إلى Nome وعرفت فى الفترة البيزنطية Toparchia طوبارخية " المراكز " (٤) .

وكان كل إقليم اسمه من اسم عاصمتة فهرموبوليس أعطت اسمها للإقليم الذى ينسب إليها، نفس الأمر مع أكسرنخوس التى اشتهر الإقليم باسمها وتميزت الوحدات الإدارية بانتشارها وأماكنها حسب موقعها من النهر . فكانت هناك مراكز تضاف إلى أعلى النهر، وأخرى إلى أسفل النهر، على حين تميزت مراكز منها بوجودها وسط إقليم أو بالقرب منه، وظلت المسميات الجديدة تتردد طوال العصرين الرومانى والبيزنطى مع إضافات إصطلاحية اقتضتها متطلبات التنظيم الإدارى، وقام الرومان بتقسيم أقاليم مصر إلى ست وثلاثين مقاطعة بدلا من خمسين التى انقسمت إليها فى عهد الفراعنة .

وفى مطلع العصر البيزنطى ظهرت وحدات إدارية باسم المديريات Pagi وكانت أشبه بالطوبرخيات السابقة ،ثم عدل التقسيم الإدارى إلى محافظات Pagarchia وهى عودة للوحدات القديمة Nome ، فقد شعروا بخطورة التفتيت فجمعوها فى وحدات أكبر (٥).

والحياة فى عواصم تلك المدن لها طابعها الخاص؛ فاليونانيون كونوا طبقة متميزة، وظهر الرومان فى تلك المدن وكونوا رابطة تجمعهم Cenventus Civium Roma-noaera ،وفى بردية من أكسرنخوس ذكر اجتماع اشترك فيه موظفو المدينة وشعبها والمواطنون الرومان والإسكندريون المستقرون فيها – وواضح التميز بين الطبقات – ولقد ظلوا إلى القرن الثالث يتمتعون بوضع متميز، إلى أن منح كراكلا المواطنة لشعوب الإمبراطورية، والعديد من الوثائق توضح تميز تلك الفئات بل رفضهم الخضوع للسلطات الإدارية المحلية فى بعض الأوقات، وهى وثيقة تعود إلى ١٣٩م، يشكو موظف أن المواطنين الرومان والسكندريين والجنود القدماء المستقرين فى نوموس فقط والمكلفين بجمع الضرائب عصوا أوامره وادعوا أنهم لا يخضعون لسلطان الأبستراتجوس Epistrategos مثل جامعى الضرائب المحليين ، وكان من سلطات الأبستراتجوس الإشراف على النومات.

ووجدت فى كل نوموس طبقة ممتازة من أهل عاصمتها عرفوا باسم Metropolitai، وكان الطابع الإغريقى هو الغالب على هؤلاء سواء فى اللغة والأدب أو أسلوب الحياة، رغم أن كثيراً منهم أصبحوا من العناصر المصرية المتأغرقة ، ووجد بينهم – هؤلاء المتأغرون – طبقة ممتازة تعرف بأبناء الجمنازيوم Gymnasium وهم المواطنون الذين تعلموا وتخرجوا فى معهد المدينة وكان أبناء الجمنازيوم يكونون ما يشبه الطبقة الأرستقراطية المحلية فى المدن ، وكان منهم موظفوا الحكم المحلى، ولم يعد هناك تمييز رسمى بين المواطنين الرومان والإسكندريين والمتروبولتين. ومن ناحية أخرى القاعدة الجديدة لتجديد مسئولية الأفراد هى الموطن Orio ، وأصبح الرومان والسكندريون المقيمون فى المتروبولات ملتزمين بالدخول فى عضوية المجالس التشريعية المحلية الجديدة، وفى تولى مناصب الحكم المحلى شأنهم فى ذلك شأن المتروبولس سواء بسواء، والاستثناء كان مواطنى مدينة أنطونيوبولس الذين كان لهم امتياز بإعفائهم من تولى مناصب الحكم المحلى والخدمات الإجبارية خارج مدينتهم، ويبدو أنهم ظلوا يتمتعون بهذه الامتيازات حتى عام ٤٥٢ م ثم ألغى بعد ذلك مباشرة وطبق عليهم المبدأ العام من إمكان تولى المناصب فى أكثر من مكان عند توفر الشروط (٦) .

وفى عهد سفيريوس سمح لهم بإنشـــاء مجلس تشـــريعى Boule فى النومات، ولم يكن الهدف تقوية النظم السياسية الحرة فى المدن بل جعل هذه الجمعيات التشريعة الجديدة مسئولة عن ملء الوظائف الإدارية فى النوموس، وألقى عبء الإدارة المحلية على المجلس التشريعى بدلا من سلطات الإدارة المركزية، ولقد قضى دقلديانوس فى تشريعاته على امتيازات السكندريين والرومان معا، إذ أصبح الجميع مواطنين رومان يدفعون الضرائب على حد سواء، ويتحملون نصيبهم كاملا فى الحكم المحلى كل حسب مقدرته المالية ، وكان الإغريق والمتأغرقون من سكان العواصم يدفعون ضريبة الرأس المخفضة إلى اثنتى عشرة دراخمة أو عشر درخمات حسب منزلتهم الاجتماعية، بالإضافة إلى جاليه هلينية وخاصة فى الدلتا والفيوم .

ونلاحظ أن العنصر المصرى زاد تواجده خلال الفترة الرومانية، وبدا أكثر حضورا فى الفترة البيزنطية، والدارس لوجوه الفيوم وهى تشمل غالبيتها طبقة وسطى وعليا بما تعكسه من نماذج ثياب وحلى وتصفيف للشعر وفق الموضة السائدة، سيجدها لها وجوها مصرية خالصة لا يمكن أن يخطئ الإنســان فى ملامحهــا على الأطلاق، ولا يمكن أن تكون يونانية، فأكثر من وجه يحمل ملامح مصرية بشعر مجعد وشفاه ممتلئة وبشرة سمراء، وتعود تلك الصور أو البروتريهات الجنائزية من القرن الأول وحتى نهاية الثالث وبداية الرابع الميلادى . هذا إلى جانب ما وجد من مكتشفات فى المتحف القبطى نجد العنصر المصرى يبدو واضحا ، ونجد التأثيرات المصرية القديمة فى فنونهم وعاداتهم وسلوكياتهم ، فإذا قلدوا العنصر الحاكم اليونانى ثم الرومانى فى ردائه وأحيانا فى لغته، لكن الموروث القديم ظل سائدا والآلهة المصرية قائمة فى العصر الوثنى ثم ظهر عنصر مصرى خالص سيطر على الإدارة المحلية وتولى أعلى المناصب فى الأقاليم وعواصمها، وليس أدل على ذلك من أغلب البرديات التى عثر عليها تعود لأرشيف شخصيات مصرية كانت مسئولة فى أقاليمها كأكسرنخوس المجموعة البردية الشهيرة، والتى كانت لإبيون الذى توارثت أسرته المناصب الدوقية والباجاركية (٧) والعنصر الإدارى فى الإقطاعيات أو الحكم المحلى أصبح غالبيته من المصريين، والأمر نفسه فى أنطونيوبولس ، وغالبية ملاك الأراضى وأثرياء العواصم أصبحوا من العناصر المصرية بدءاً من القرن الرابع بعد أن كانت القوائم فى غالبيتها من الرومان

والإغريق؛ أمّا الأديرة ورهبانها وأساقفتها كانوا من العناصر المصرية، ولا ننسى دور شنودة الأخميمى فى تمصير الأديرة، وجعل اللغة القبطية هى اللغة الأصلية المسيحية برهبانها دعمت العنصر المحلى وتمصرت العناصر الإغريقية فى عواصم المدن، ولقد شعر جستنيان بمدى سيطرة العنصر المحلى فحاول فى قانون ٥٣٨م - رقم ١٣ - إحكام سيطرته على البلاد، فأعطى الباجارك (المحافظ) صلاحيات على شئون المحافظة وما بها من مدن وقرى ومتابعة للشئون القضائيــة ، وهذا كان تلافيا للنظام السابق وما استتبعه من إعطاء رجال الحكم المحلى من الوطنين اليد العليا [٨] ، فسلطات المحافظ فى ظل القانون الجديد تجميع لما كان بيد المديرين من مهام وسلطات، ولكن سرعان ما اتضح عجز القانون رقم ١٣ [٩] واضطر لشغل مناصب حكام الأقاليم والإدارات المحليــة المخــتلفــة من أهالى الإقليم ومن الملاك المحليين، وأصــبح حكام أنطونيوبولس من الشخصيات المصرية وفقا للبرديات، ولكن الملاحظة التى تثير الاهتمام وتوضح الطابع العام الذى ساد من التعسف فى التعامل من طبقة الموظفين المصريين تجاه المواطن المصرى.

ومن الواضح أنه نتيجة سنوات الضغط الإنسانى الذى قد تعرض له المصريون خلال الفترة اليونانية الرومانية، وتحول المصرى فى وطنه إلى مواطن من الدرجة الثالثة، وكما جاء فى رساله أحد اليونان لصديقه: "لا تظننى بربريا أو مصريا غير متحضر " وهذا دفع البعض للتزلف للحكام أو التشبه بالطبقة الأجنبية فى أسلوب حياتها أو محاولة التقرب منها، والذى وصل لتغيير أسماء الأب والأم وحملهم أسماء رومانية وسعيهم للحصول على المواطنة الرومانية والنظرة الدونية إلى علاقة رابطة الزواج بين تلك العناصر الأجنبية من رومان ويونان ومصريين وفرض ضريبة الرأس على المصرى كاملة وإعفاء أو فرضها كضريبة مخففة على الطبقات اليونانية، كل هذا غير جزءا من التركيبة المصرية الأصلية، ولكن الجوهر والسمات الأخرى ظلت قائمة، فهى ليست صفة أصلية بل هى شىء مكتسب من سنوات القهر الإنسانى وتراكم خبرات مريرة، ولذلك فالمسيحية والإحساس الدينى الذى كان فى تكوينة المصرى الأصلية منذ جذوره الفرعونية وجد متنفسا فى تأييد كنيسته ورفض كل ما هو يونانى وأجنبى، وإن ظل البعض من الشريحة العليا من المصريين كديسقورس يهتمون بالثقافة اليونانية كديستورس المحامى أحد أغنياء أفروديتو .

ولنر صورة الحياة فى عواصم الأقاليم وكيف تعامل القبطى مع مجتمعه .

أنطونيوبولـــس :

أحد أهم مدن مصر ويرجع إنشائها إلى العصر الرومانى، ولقد امتازت مدن العواصم بتخطيط يكاد يكون متشابه الطراز، فهى تخطط وفقا للطراز الهيبودرامى؛ حيث كانت شوارعها متقاطعة بزوايا قائمة تشبه قطع الشطرنج، ويتوسطها السوق والأجورا ، وكان يحيط بالمدينة سوق به أربع أبواب ، ويعرف أحدهما باسم باب الكابتيول، وكانت المدن تحفل بالمنشآت والحمامات التى تنقسم إلى أحياء .

ويرجع إنشاء تلك المدينة إلى القرن الثانى الميلادى، وذلك بفضل الإمبراطور هادريان الذى كان شديد الإعجاب بالحضارة اليونانية الراغب فى العمل على إحيائها عن طريق إنشاء المدن ذات الطابع الإغريقى لتكون مركزا للإشعاع الفكرى والحضارى، وكان قيام المدن ذات الطابع الإغريقى من السياسيات التى شجعها الأباطرة الرومان، وتعتبر من ناحية الشكل استمرارًا لنظام دولة المدينة اليونانية التى كانت تتميز فى جوهرها بوحدة سياسية مكتملة الجوانب وبها قاعدتها الاقتصادية ، وكان نظام دولة المدينة قد مر بتغيرات أفقدته تماما جوهره الموضوعى الحقيقى [١٠] ، ذلك أن اهتمام الرومان بإنشاء تلك المدن كان يعنى من وجهة نظرهم التدرج فى خلق مراكز جديدة ، مكونة من أكثر الناس ثراء وحضارة ، وعدت تلك الطبقة الجديدة من سكان مصر مصدرا من مصادر قوة الإمبراطورية، وفى الوقت نفسه مصدرا لإمداد الإدارات الإمبراطورية بما بها من الموظفين الإداريين العاملين دون أجر [١١].

كان هذا جوهر فكر الإدارة الرومانية حين زار هادريان مصر سنة ٦٣م ، وقام برحلة نيلية فى صعيد مصر لمشاهدة آثارها الفرعونية الخالدة ومابها من معابد عتيقة ورائعة ، وعند عودة الإمبراطور من رحلته غرق غلامه المحبوب وهو أنطونيوس بالقرب من المكان الذى قامت عليه مدينة هيرموبولس "الأشمونيين" . وتم تدوين عدد من القصص عن غرق أنطونيوس، هل هو برغبته وعن عمد تفاديا لخطر كان العرافون قد قالوا إنه سينزل بسيده الإمبراطور هادريان ؟ .

وتذهب رواية أخرى إلى أبعد من ذلك حيث عزته إلى رغبة أوحى بها الإمبراطور نفسه بما وقع لغلامه ليكون شبيها بما وقع من غرق هولاس غلام هرقل فى رحلته الإسطورية، وترجع أهمية الروايات السالفة إلى أنها تتفق فى شىء واحد وهو أن غرق إنسان فى النيل كان يرفعه عند كل المصريين (١٢) والإغريق على السواء إلى مرتبة القديسين، ولذا اختار الإمبراطور هادريان المنطقة التى غرق عندها غلامه أنطونيوس وبنى مدينة تخليداً لذاكره، وأطلق عليها اسمه أنطونيوبولس وذلك على الضفة الشرقية للنيل قرب المكان الذى تقوم عليه الآن قرية الشيخ عبادة (١٣) .

وكانت المنطقة التى قامت عليها مدينة أنطونيوبولس تضم قرية فرعونية تعبد الإله (المصرى) بس رمز المرح ودافع الحسد عند المصريين .

وجاءت المدينة الجديدة تحقيقا للأهداف السياسية الرومانية الخاصة بإنشاء مدن ذات طابع إغريقى، ولا سيما فى صعيد مصر ، موطن الحشود المصرية الصميمة إذ لم يكن بالصعيد حينذاك غير مدينة بطلمية النشأة ذات طابع إغريقى منذ عصر البطالمة . ومن ثم أصبحت أنطونيوبولس مركزا لنشر الحضارة الإغريقية بالصعيد ، وامتزجت الديانات المصرية القديمة وآلهة الرومان، حيث أقيمت معابد امتزج فيها الإله المصرى " أوزوريس " بأنطونيوبولس وصار حامى المدينة الجديدة هو أوزويرأنطونيوس Osiran-tionoos وجاء تخطيط المدينة بدورها على الطراز الإغريقى عبارة عن شريط طويل من الأرض محصورا بين الهضبة الشرقية والنيل ويبلغ عرضه أكثر من ثلاثة أميال ونصف ميل . ودار سور حول المدينة من جهاتها الثلاث عدا ناحيتها الغربية المطلة على النيل ، حيث كانت تلك الناحية تمثل جانب الميناء النهرى للمدينة، فاشتملت المدينة على شوارع يونانية الطراز أى ذات زوايا قائمة ، وأهمها شارعان رئيسيان أحدهما يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب والآخر من الشرق إلى الغرب، وعند تقاطع هذين الطريقين قام السوق Agora (١٤) الذى أحاطت به الأعمدة الدورية الشكل ويبلغ أقصى عرض للطريق عشرين مترا ، كما انتهى كل طريق ببوابة عظيمة.

وانقسمت مدينة أنطونيوبولس وفق التخطيط الإغريقى إلى أحياء demes وكل حى انقسم بدوره إلى عدد من الوحدات السكنية Phratry بلغت فى الحى الواحد

ما لا يقل عن ثلاث عشرة وحدة ، وبنيت المنازل أيضا على الطراز الإغريقى وكانت من الطوب اللبن ، أما المعابد وكذلك المنشآت العامة فكانت تبنى من الحجارة، وهذه المدينة تحوى خليطا من البشر؛ فقط طلب الإمبراطور لمدينته الجديدة سكان من بطلمية ونقراطيس وأكسرنخوس من طبقة الإغريق، كذلك الجالية الإغريقية فى أرسنوى "الفيوم" ومن جماعة ٦٤٧ هلينيا ، فضلا عن أعداد من المصريين الوطنيين ومنح الإمبراطور حقوق المواطنة فى أنطونيوبولس (١٥) Civites Antinoni وامتيازات لم تحصل عليها المدن الإغريقية الأخرى بمصر، وعلى ذلك نال المواطنون فى أنطونيوبولس حق الزواج من المصريات Epigaimia فضلا عن حق الالتحاق بالجيش وفرقه الرئيسية من الفرسان ،وتمتع أهل أنطونيوبولس بالإعفاء من أعباء الخدمات Honorsوكذلك من تولى المناصب الإجبارية Munera فتذكر بردية ترجع إلى الفترة من ٥٣١-٦٥١م ، أنه منذ وقع الاختيار بالقرعة على بعض مواطنى بطلمية لينقلوا إلى أنطونيوبولس وإن قرارات الإمبراطور أعفتهم فى مقابل ذلك من القيام بالأعباء والواجبات الإجبارية خارج محل إقامتهم الجديدة (١٦) .

ونالت المدينة امتيازا لم تنله الإسكندرية وهو مجلس الشورى Boule ، ونعمت بمؤسسات ذات طابع يونانى متميز ومنها المتحف Mousioen والجمنازيوم والحمامات العامة والكابيتول، هذا فضلا عن معابد للديانة المشتركة بين المصريين واليونانيين (١٧).

مثل معبد أنطونى إله المدينة الذى قرن بأوزوريس ومعابد لأفرديتو وأبيس وهاتور، وظلت بقايا تلك المعابد قائمة حتى مجيئ الحملة الفرنسية، وبقيت أعمدتها وأقواس النصر ، وهذا دليل على تواجد مصرى لوجود معابد آلهة مصرية عديدة توضح أن العنصر المصرى كان مؤثرًا وازدهرت الحياة الاقتصادية سريعا بمدينة أنطونيوبولس، وغدت مركزا من مراكز التجارة الداخلية والخارجية، فقد حول الإمبراطور هادريان إليها طريق التجارة مع الهند المار من ميناء برنيقة وميوس هورموس Myoshormas " أبو شعر قبلى" ، وغدت أنطونيوبولس محطة كبرى لتلك التجارة الهامة وسلعها إلى مصر وما جاورها من أقطار، وظلت مكانة أنطونيوبولس التجارية عالية خلال العصر البيزنطى .

إذ عززت تلك التجارة وجود عدد من الصناعات الهامة بمصانعها العديدة، ومنها مصانع النسيج والفخار، فضلا عن معاصر النبيذ ، فقد كثر فى إقليم أنطونيوبولس زراعة الكروم ، كما اشتهر بزراعة القمح والنخيل (١٨) .

وقد امتازت هذه المدينة بخاصية هامة وهى وجود عنصر مصرى، والسماح للمصريين بالزواج من الإغريق، ونتج عن ذلك عملية اختلاط جنسى منذ البداية، ومن المؤكد أن الجيل الثانى أصبح يجمع بين الصفات المصرية واليونانية، ومن خلال استطلاع مجموعة الوجوه والبورتريهات التى وجدت فى أنطونيوبولس تتأكد حقائق هامة وهى أن بعض هذه الوجوه مصرى الملامح وبعضها خليط بين المصرى واليونانى، وكذلك الملابس والحلى توضح شريحة عليا من الطبقة الوسطى بمجوهرات من ذهب ولؤلؤ وزمرد وياقوت ، حتى الشعر زين بدبابيس ذهبية وارتدى بعض الرجال تاجا من أوراق الشجر الذهبية ، والأسماء لا تستطيع أن تميز جنسية أصحابها فغالبيتها يونان ورومان، وكما قلنا لا تعنى تواجدا يونانيا إنما حمل المصريون أسماء يونانية ولاتينية، وبعض الأسماء مزيج بين الاثنين، فمن البداية منح مواطنو المدينة الجنسية الرومانية .

التوابيت والأكفان : تحوى شارات مسيحية فرعونية قديمة وتأثيرات يونانية؛ ففيها تمازجت الحضارات، فالمصريون ارتبطوا بالماضى وأضافوا إليه.

تتملك الإنسان الحيرة أمام بعض الأكفان، فهى تحمل علامة عنخ التى وجدت فى المصرية القديمة وفى المسيحية، فلا ندرى هل صاحبها وثنى أم مسيحى . فبالرغم من أن الهدف هو إنشاء مدينة يونانية فإن الجذور المصرية قائمة، فلم يكن من السهل الانسلاخ عن الماضى ، وفى كفن لامرأة من أنطونيوبولس يعود لعهد Severos ١٩٣ – ٢٣٥ رسم على نسيج الكفن بورتريه للمرأة ويدها مرفوعة للصلاة أو ليطرد الأرواح الشريرة ، واليد الأخرى تحمل علامة عنخ علامة الآلهة المصرية القديمة ورمز الحياة وعلامة الصليب، والتى رسمت فى عدد من القبور القبطية، وشعرها على شكل دائرة تبدو كالأحرف CHIRR 6 علامة المسيح، وكلا الرمزين موجودان، فاليد التى تحمل الإكليل والأخرى التى تمسك الصليب وجدت فى بورتريهات أنطونيو، والبعض يرى أن نقل هذه الطرز تم على يد بعض السكان الجدد الذى نقلوا من مدن الفيوم، ومن المحتمل أنهم

نشروها هناك، وأحضروا معهم توابيت أجدادهم كجزء من ممتلكات المنزل، فهناك عادة انتشرت كما ذكر بترى وهى الاحتفاظ بالموتى المقربين لعدة أجيال بالمنزل.

ولقد وضح اهتمام أصحاب تلك الوجوه بزيهم وخاصة النساء، فوجد بورتريه من الجص لامرأة بتسريحة شعر على شكل تسريحة الإمبراطورة سابينا زوجة هادرين (١٩) .

ومن أنطونى وفى عصر الأنطونيين ١٦١ - ١٩٢م ، أحد وجوه الفيوم لسيده ترتدى قلادة وحلق من الزمرد واللؤلؤ يوضح الثراء الذى تمتع به أهالى المدينة (٢٠) .

ولقد اتخذت المسيحية طريقها إليها فى فترات مبكرة من إنشائها، وفى بورتريه لكفن طفل من الشيخ عبادة يعود لعهد سفريوس ١٩٣ - ٢٣٥م يده اليسرى تحمل رمانة رمز الأبدية، والأخرى علامة عنخ وحمامة، وعلى شاهد - مسيحى فى فترة متأخرة - علامة عنخ تعلق على منقار طاووس لتدل على البعث والطفل يرتدى قلاده على شكل خاتم ويحتار المشاهد هل هو مسيحى أو وثنى (٢١).

هذه المدينة لم تعانى التمييز الحاد بين المصريين " الأقباط" والعنصر اليونانى الذى وجد فى بقية عواصم الأقاليم، حيث منحت الجنسية، وسمح بالزواج من المصريين، ولكن من المرجح أنه فى البداية تميزت طبقة الإغريق من حيث الثراء، وكان مع الوقت أغلب العنصر المصرى، وانتشرت المسيحية فى مدينة أنطونيوبولس وإقليمها، وشيدت الأديرة والكنائس، ولاسيما بعد اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية ، وما تلا ذلك من قيام أباطرة بيزنطية بتأسيس الكنائس ، فأسست الإمبراطورة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين الكبير ديرا وزينت جدرانه برسوم تصور قصص الإنجيل، وشيد ثيودسيوس الثانى فى القرن الخامس كنيسة أخرى بذلك الإقليم .

وكثرت بإقليم أنطونيوبولس الأديرة التى كان لها ممتلكات واسعة، ومن ذلك دير زمن ودير أبوديوس، فضلا عن كنائس أنطونى والثلاث قديسين (٢٢) ومازالت بعض الكنائس والأديرة موجودة إلى الآن وتحتفظ بما تحلت به من رسوم مثل صورة شجرة الحياة، وعدد من القديسين وأشجار النخيل والكروم فضلا عن صليب محلى بألوان يغلب عليها اللونان الأزرق والأخضر .

ووجدت عقود خاصة بتلك الكنائس والأديرة أبرمتها مع مزارعين عن الأراضى التى أوقفها الأهالى على تلك البيوت الهامة للعبادة فى العصر البيزنطى المسيحى (٢٣)، وازدادت أهميتها الإدارية فى العصر البيزنطى حيث عدت قاعدة لإقليم طيبة ومقرا لحاكم الإقليم، والمكان الذى تعقد فيه جلسات القضاء الابتدائى والاستئناف، هذا فضلا عن الإدارات الخاصة بحساب الإقليم، وتم تنظيم تلك الإدارات واختصاصها بمقتضى قانون الإمبراطور جستنيان المشهور باسم قانون ١٣ ، وعدت أنطونيوبولس مركز الحضارة المادية والروحية فى مصر، وعدت المدينة الثانية بعد الإسكندرية العاصمة، وتجلت تلك المظاهر فى كثرة المنشآت العامة وقصور كبار الملاك الذين أصبحوا من الطبقة الوطنية المصرية كفلافيوس فيبميون أحد كبار ملاكها ومدير مستشفى حكومى فى القرن السادس .

وإلى نفس تلك الطبقة ينتمى الكونت أمونيوس الذى ظهر نشاطه وسعة أملاكه من القوائم العديدة لحساباته ومقدار ما يؤول إليه من دخل كبير، وكشفت القوائم بدورها عما ساد المدينة من حياة زاهرة مليئة بالنشاط المادى والبشرى ، كذلك فاسمه مازال يحتفظ بالجذور الأولى لاسم الإله آمون رغم كونه مسيحيا، كذلك ارتبطت بأنطونيوبولس عدد من القرى الكبرى كأفرديتو "كوم أشقوه" ، وهى أهم القرى التابعة لها، سكنها واشترك فى إدارة محلياتها عدد من المصريين كالمحامى فلافيوس ديسقورس والذى تملك مكتبة تحوى أسفاراً لهومووس وأناكريون Ancroan وكتب مدائح لحكام أنطونيوبولس (٢٤) .

ورغم أن اللغة القبطية أصبحت سائدة فهناك فئة من السكان المصريين والذين مازال لديهم اهتمام بالثقافة والشعر اليونانى، وقد وجدت بقايا لمؤلفات أدبية وشعرية فى مكتشفات أنطونيوبولس حوت مسرحيات عدة، بالإضافة إلى الأناجيل ومؤلفات الدين المسيحى، ومن المؤكد أن هناك مكتبات خاصة ، فإذا كان فلافيوس ديسقورس يملك مكتبة وهو يعيش فى إحدى قرى الإقليم، فمن الأولى أن يمتلك السادة والأثرياء فى الإقليم مكتبات خاصة، وهى التى وصلتنا منها تلك البرديات، أما عن المنشآت الاجتماعية فقد اختفى دور الجمنازيوم وحلت محله حلقات السباق، وكان هيدروم أنطونيوبولس يتخذ الشكل البيضاوى وينتهى بشكل نصف دائرى، وكان يقام به سباق

للعربات التى تجرها الخيول ، ولقد عثر على بعض صفوف المقاعد ، وكان شرق المدينة خارج الأسوار، وكانت الحمامات من المنشآت الهامة فى المدينة وقد تعددت وكانت تنقسم إلى قسمين مختلفين : فالقسم الأكبر مخصص للرجال والجزء الأصغر للنساء، وهناك مسرح وقوس نصر عند نهاية الشارع العرضى ، ولقد اختفى درو المسرح -أيضا- مع الفترة البيزنطية (٢٥) .

وكان سوق المدينة من أكثر الأماكن تدفقا بالحياة والحركة؛ تأتى إليه البضائع من جميع الأنحاء ، وكان منطقة تكدس للبضائع الواردة، فعجت أسواقه بالمنتجات المصرية والأجنبية ليقضى احتياجات مجتمع يموج بالثراء، وقد أعطت التجارة دفعة للنشاط الاقتصادى مما ترتب عليه ازدهار اجتماعى ، وللأسف فالمدينة الآن والتى تجاور قرية الشيخ عبادة أطلال بها بعض البقايا لأديرة قديمة بعضها مازال يحتفظ بملابس رهبانه وطقوسه زائفة .

وإذا كانت أنطونيوبولس لها وضعية خاصة فهناك مدن أخرى تمتعت بشهرة ولكن لم يكن لها مزايا أنطونيوبولس من مواطنة وحق زواج بالمواطن، ولكن عملية الامتزاج حدثت تدريجيا .

أكسرنخوس :

تعتبر تلك المدينة مركزا من مراكز الحضارة المصرية، وتعود بأصولها إلى العصر الفرعونى وكانت تسمى بيمازيت Pimazet غير أن هذه المدينة الفرعونية تغيرت فى العصر البطلمى إلى مدينة أكسرنخوس أى مدينة القنومة نسبة إلى سمك القنوم (٢٤) الذى يكثر فى تلك المدينة ويقدسه أهلها ، ذلك أن الإغريق الذين تدفقوا على البلاد من العصر البطلمى دأبوا على تغيير أسماء كثير من المدن التى نزلوا بها لتتفق مع أذواقهم وألوان معيشتهم ، وكانت بعض تلك المسميات الجديدة للمدن أسماء لآلهة يونانية متفق فى أصولها وعباداتها مع آلهة مصرية ، ومن ذلك أسماء المدن التى حملت أسماء آلهة مصرية مثل رع وتحوت وحورس، وصارت تسمى هليوبولس وأبللوبولس أو هيرموبولس ، وبعض الأسماء من آلهة محلية أو من طوطم، فاكسرنخوس أخذت من

سمك القنومة الذى كان يقدسه أهل بيمازيت القديمة، ويرون فى ظهوره بالمياه القريبة منهم دلائل خير وبركة على إقليمهم ، امتزج القديم بالجديد، كل مافعلوه أن يغيروا المسمى لمنطوقهم واحتفظوا للإقليم بآلهة وملحات فكر البطالمة ليصير قائما على محاولة المزاوجة بين الأديان، حتى لا يثيروا غضب الشعب، ويضيفوا المسمى المفهوم لديهم، فقد كان المصريون يتعصبون لمعبودهم سمك القنومة ولا يتورعون عَنْ الاشتباك مع من يسيء إلى معبودهم، ومن ذلك أن خلافا وقع ويقع بينهم وبين كينوبولس " الشيخ فضل" والتى كانت تقدس الكلب، والتى دأبت على السخرية من معبود هذه المدينة سمك القنومة . هذا العنف اللاإرادى يتفجر عند المصرى إذا اتصل بالدين والكرامة الإنسانية، فالقهر الإنسانى يفجر الغضب .

تخطيط المدينة جرى على الطراز اليونانى، فكانت شوارعها ذات زوايا قائمة وتتوسطها السوق **Agora** وكان يحيط بالمدينة سوق به أربعة أبواب ويعرف أحدها باسم باب الكابيتول .

وحفلت المدينة فى بداية إنشائها بالمؤسسات الإغريقية مثل الجمنازيوم [٢٧] معهد التربية، والذى اختفى دوره فى العصر البيزنطى نتيجة لتأثير الفكر المسيحى ، والمعابد ذات الطراز الكورنيثية، هذا فضلا عن الحمامات، ووجد عدد منها، من أشهرها حمام هادريان وتراجان، وكان بحمام هادريان [٢٨] غرف للبخار، وقد ازدان بالأعمدة، ولقد استمرت الحمامات، وإن كان الرهبان قد اعتبروا أن لها مزايا ضئيلة . وكانت المبانى مشيدة من الحجارة، أما المنازل فأكثرها من اللبن، وقد كانت تتكون من طابقين وأحيانا من ثلاثة طوابق ، وكانت تضم أجنحة منفصلة أو حجرات استقبال للرجال وأخرى للنساء، وتشير الوثائق إلى مداخل البيوت المزينة ببواكى للاستمتاع بشمس الشتاء وللراحة خلال الصيف، وكانت بعض المنازل تستخدم الحجرات المطلة على الشارع [٢٩].

وكانت المدينة مقسمة إلى أحياء وقبائل تحمل أسماء بعض الآلهة أو أسماء ملوك البطالمة، فذكرت أوراق البردى اليونانية والتى ترجع إلى العصر اليونانى، والتى تم اكتشافها فى هذا الإقليم شارع بمدينة أكسرنخوس يسمى شارع كليوبترا السابعة [٣٠]، وتشير تلك البرديات –أيضا– إلى أراضى فى إقليم أكسرنخوس يمتلكها جنود مقيمون [٣١]

من أصل يونانى وفارسى . فالتمييز الجنسى كان قائما حيث تمتع السكان اليونان بمزايا عالية من دفع ضريبة الرأس بالإضافة إلى جميع المزايا الخاصة بالجمنازيوم ووسائل الحضارة الهلينية .

وذكرت البرديات أن أكسرنخوس كانت فى العصر اليونانى أحد مراكز إقليم طيبة، ولكن هذه المدينة وماحولها صار فى بداية العصر الرومانى إقليما قائما بذاته (٣٢) ، وأشار إلى ذلك استرابون الذى زار مصر فى سنة ٣٠ - ٢٩ ق م ووصف مدينة أكسرنخوس وذكر أن هناك إقليما باسمها .

وانقسمت المدينة فى العصر الرومانى ثم البيزنطى إلى أحياء Demes تحمل أسماء بعض الآلهة، ومن ذلك حى أوزوريس وحى هيرمس وحى أثينا، وشق تلك الأحياء شوارع مهمة منها الشارع العريق وشارع المعسكر، لاحتمال وجود معسكر بالقرب من هذا الشارع، وأخيرا شارع المسرح.

وتم تخطيط المدينة مرة أخرى بعد أن نالت الحق فى مجلس الشورى، وكانت المدينة مقسمة منذ الحكم اليونانى الرومانى إلى قبائل Phylae وعشائر، وذكرت أوراق البردى أنها أسماء القبيلة الأولى والعشائر الدورية، فامرأة تقول أنها من قبيلة وأخرى تذكر أنها تنسب إلى القبيلة السيزية، وظل التقسيم إلى قبائل موجودا إلى القرن الرابع فى عهد أركاديوس (٣٣) ٣٨٦م، فذكر قبيلة فى شارع ثيوريس Thoeris فى التماس يختص بالخدمات الإجبارية، وذخرت المدينة بالمنشآت العامة فى فترة الرومان، وفى بردية ترجع إلى ٣٠٠م . شملت ذكر تفصيلى لأماكن عديدة، فذكرت معابد للآلهة والبعض الآخر للأباطرة، وكلها كانت ذات حراسة دائمة منها مثل معبد لإيزيس، وتم تخصيص ست حراس له يتناوبون العمل فى تلك المعابد، وإلى نفس الفترة بردية أخرى تشير إلى وجود بعض المسارح بالمدينة ولها ذبائح خاصة، وقام إلى جانب المسارح عدد من مبانى الجمنازيوم وعدد من مبانى الكابيتول تركزت فى الجانب الملاحق للأسوار الشرقية للمدينة، وظهرت إلى جانب ذلك مبانى بعض المصارف التى أشرفت على الشئون المالية للمدينة ، وكان للمدينة حلقة سباق ظلت قائمة طوال القرن الثالث ، وكذلك طيلة العصر البيزنطى .

وإذا تخيلنا صورة لتلك المدينة فنجد أن قلب الحياة التجارية كان فى السوق Agora شأنها فى ذلك شأن المدن الإغريقية الطراز، وقامت العديد من الحوانيت على جانبى الطريق المؤدية إلى السوق، وقامت الحمامات العامة بجوار الكابيتول، ومنها حمامات أنطونيوس الدافئة، وظلت تلك الحمامات قائمة فى العصر البيزنطى، وكان لها مشرف يتقاضى ألف درخمة مقابل صيانتها والعناية بها من الكابيتول -حانة للشراب- وامتلأت المدينة بمصانع النسيج والفخار وورش التجارة والمصارف [٣٤] .

وكانت احتفالات الزواج فى العصر الوثنى تتم فى معبد سرابيس، ومع العصر المسيحى بدأ التغير واضحا؛ فالعنصر المصرى أصبح غالبًا، وأشارت العديد من المراجع إلى " أن قبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه كانا فى البهنسا (أكسرنخوس) ثم انتقلا عنها ورجعا إلى القدس .

وقال بعض المقربين فى قوله تعالى فى المسيح وأمه "وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين " ، والمقصود بالربوة " البهنسا " .

وقد كثرت فيها الكنائس والأديرة، فورد ذكر الكنيسة الشمالية والجنوبية، وبعضها يعود بجذوره للقرن الثالث، وتعرض للتدمير فى اضطهادات دقلديانوس، وتحول كثير من المعابد القديمة بها إلى كنائس، وعجت المدينة بالرهبان الذين علا ذكرهم بما اشتهروا به من نسك وزهد، وذكر جيروم أن بها عشرة آلاف راهب وبرغم ما فى هذا القول من مبالغة فإنه يدل على مدى انتشار المسيحية .

واختلفت الحياة فى أكسرنخوس المسيحية عنها فى الفترة السابقة، فكم من الأديرة والكنائس التى وصلتها الهبات حتى أصبحت من كبار الأملاك، بل استأجر منها بعض الإقطاعيين المصريين كأبيون أراض. وشخصية أبيون وعائلته تدل على مدى ما وصل إليه المواطنون، فلقد تولى أفراد هذه الأسرة القنصلية والباجاركية والدوقية ، ويعد أرشيفهم المكتشف أهم أرشيف بردى فى مصر، ويحوى وثائق تمليك وحسابات وخطابات شخصية، فهذا أرشيف هائل يعكس الحياة المصرية بين أفراد الأسرة من احتفالات وأعياد وجنائز وتعليم وعلاقات إنسانية ومنشآت، فقد تملكت الأسرة حمامات وحلقات سباق، وأشرفت على منشآت عامة، وكان لها إقطاع به جيش من الموظفين حمل بعضهم ألقاب شبيهة بألقاب موظفى الحكومة حتى أصبح الفصل بينهم صعبا.

ونجد المصريين شغلوا المناصب المختلفة، وكان منهم صغار الملاك وكبارهم؛ مزارعون ونساء وملاك أراضى وعاملات وراهبات ومزارعات .

وكم البرديات الذى يحوى مسرحيات وأشعاراً وآداباً يونانية يوضح أن الطبقة الأرستقراطية مازالت يرتبط بعض أفرادها بالثقافة اليونانية التى تحتضر (٣٥) .

أما غالبية الأهالى فقد انتشرت بينهم اللغة القبطية، وهناك احتفاليات بأعياد مسيحية لقديسين .

هيرمويولس الأشمونين :

كانت هيرمويولس مثل أكسرنخوس مدينة قديمة وليست من المستحدثات اليونانية أو الرومانية، وكانت فى العصر الفرعونى مدينة تعرف باسم خمنو وتمثل قاعدة مهمة لأحد أقسام مصر الفرعونية، واشتهرت تلك المدينة باحتوائها أسرار الفكر المصرى الذى كان يربط بين العلم والبحث عن السعادة الأبدية فى العالم الآخر ، فالمصرى كان يرى أن الحياة الدنيا زائلة ونعيمها مؤقت بالنسبة للحياة التى تنتظره فى العالم الآخر، ووردت فى بعض البرديات مدينتان أحدهما باسم أشمون الأولى تقع على النيل .

وعند قدوم حملة قمبيز الفارسى لغزو مصر هجرها أهلها والتجأوا إلى المدينة الثانية ، ولقد أطلق البطالمة على المدنية الأولى اسم كليوبترس **Kleopatris** وكان ميناؤها على النيل ويحمل إلى الآن اسم الروضة التى تبعد ست كيلومترات عن المدينة الأصلية (٣٦) .

ونالت هذه المدينة فى العصر اليونانى اسمها وهو هيرمويولس نسبة إلى الإله هرميس جريا على العادة اليونانية فى ربط الآلهة المصرية بالآلهة اليونانية، وارتبطت العبادة الجديدة فى مدينة هيرمويولس بالطائر أيبس الذى تطور فى العصر البيزنطى وأصبح يسمى هرمس المثلث **Hermes Trismegistus** وهو فى الوقت نفسه إله السحر؛ ويصور فى البرديات المصرية على شكل الطائر أيبس وفى شكل قرد ، نفس الأزدواجية بين القديم والجديد(٣٧) .

ولقد تمتعت هيرموبولس بمركز تجارى ممتاز أيضا طوال العصرين اليونانى والرومانى وذكر أميانوس أن الإسكندرية وهيرموبولس هناك من اعتبرهما أشهر المدن (٣٨).

وكان تخطيط المدينة على الطراز الإغريقى كما يتضح ذلك فى الآثار الباقية وبقايا منشآت ومنها بقايا السوق Agora الذى كان يتوسط المدينة، ومازالت بها بقايا بئر رومانية، وغذت من صهاريج المياه التى كانت تمد المدينة بالماء، هذا فضلا عن مجموعة من الأعمدة الكورنثية الطراز وتمثالان للإله تحوت فى شكل قرد، ثم كنيسة مقامة على أنقاض معبد رومانى والكنيسة على شكل صليب، فهناك صفان من الأعمدة يبلغ عددهما تسعة أعمدة كورنثية الطراز، وتمتد على كلا الجانبين الشمالى والجنوبى على شكل نصف دائرة، وفى الجانب الشرقى درجتان حجريتان تؤديان إلى ما يشبه المقبرة، والتى تنخفض عن سطح الأرض مايقرب من ثلاثة أمتار، ومن واقع البرديات فإنه كان هناك العديد من المنشآت .

وكانت المدينة فى البداية واحدة من أكبر التجمعات اليونانية؛ وحوت المدينة منشآت لخدمة هذه المجموعة مثل الجمنازيوم والحمامات والمصارف والعديد من المعابد مثل معبد هيرميس تحوت وآلهة أخرى ومصانع نسيج ومصانع صغرى فى المنازل، وكانت فى بداية الحكم الرومانى إقليما مستقلاً ثم أصبحت تابعة لأكسرنخوس من ٢١٨ – ٢٢١ م .

ومع الفترة المسيحية ظلت الكنائس والأديرة محل المعابد واشتهرت المدينة بثرائها، وكان لبعض الأفراد فى الإسكندرية ممتلكات فى هيرموبولس، ويوجد بالقرب من الأشمونين مدينة تونة الجبل ، واسمها اليونانى Taunis وتعنى البركة وبالقبطى Touni، وكانت تونة الجبل تتبع الأشمونين إداريا فى العصر البيزنطى، واشتهرت بأنها مدينة الموتى، حيث احتوت على سراديب بها جثث الطائر أيبس وتحوت المقدس، كما وجدت بها أعداد من المقابر اليونانية وبئر وساقية ترجع للعصر الرومانى، ويقال إنه خلال فترة اضطهاد دقلديانوس لجأ أهالى الأشمونين إلى تونة الجبل (٣٩) .

أهم معالم مقبرة بتوزريوس وهى مقبرة رومانية بنيت من الطوب اللبن وكسيت بطبقة من البلاط، وجاء تخطيطها على نسق منازل الطبقة، وعلى جدران المقابر موضوعات من الأساطير اليونانية والنقوش على جدران المنازل مثل حصان طراودة أوقصة أوديب وغيرها .

أما المجموعة الثالثة والتى تضم رفات مومياوات الأيبس أبو منجل رمزا للإله تحوت .

مقبرة بتزوريس يجتمع فيها المزاوجة بين القديم والجديد، الكاهن بتزوريس المصرى ورئيس زراعته وفلاحيه يرتدى الملابس اليونانية، منظر زراعه وفلاحيه المزارعين فى ثلاثة صفوف وما يمارسوه من عمل، مشهد مصرى طابور حاملى القرابين ضم إغريقًا ومصريين وفرسًا يقدمون قرابين لآلهة مصرية .

ومقبرة أيزدورا امتزاج مصرى يونانى للفن المصرى والطقوس والتحنيط والرثاء بشعر يونانى مازال محفورا على المقبرة، وهناك منزل منقوش عليه باليونانية قصة ديونسوس وآخر عن أوديب ثم منازل رومانية لأحد الجنود واسمه لبدى إيزيس أى هبه [٤٠] إيزيس، وهذا يشير إلى أن الأجانب فى مصر لم يجدوا حرجا بالتسمى بالأسماء المصرية، من الواضح أن المكان لأيبس وتحوت ، ومقابر يونانية ومنازل رومانية وأماكن استعملت فى العصر الرومانى الوثنى والمسيحى على حد سواء، هنا عوالم تتداخل على أرض مصر وهى مقبولة من الجميع .

ولقد أردت من عرض نماذج لمدن من عواصم الأقاليم إعطاء تصور لنماذج من مدن رومانية الإنشاء ، ومدن مصرية خالصة، وسنلاحظ الاختلاف فى بعض الأمور الأساسية من المدينة الرومانية أنطونيوبولس ومزايا سكانها والمدن الأخرى التى عاش بها اليونان ثم الرومان كطبقة متميزة، وكيف لم يستطع اليونان والرومان نزع ما بأعماق المصريين من معتقد دينى وعادات التغير جاء فى الملبس والمظهر، ولكن التكوين والصفات ظلت كما هى، وهذا يدفعنا لدراسة صورة شاملة لأوضاع سكان العواصم، والذين كانوا يلون مدينة الإسكندرية المجاورة لمصر أو التى على شاطئ مصر فى المكانة والتميز على حساب مواطنى وأهل البلاد الأقباط .

مجتمع عواصم الأقاليم

السؤال الذى يطرح نفسه ماهى نوعية العلاقة التى تربط العناصر الجنسية المختلفة فى عواصم الأقاليم؟ والتى تنوعت بين يونان متميزين يرتبطون بنموذج معين من الحضارة والفكر، وجودهم ليس مقصورا على مدنهم الأربع اليونانية بل شمل جميع عواصم الأقاليم .

وفى الفترة التالية ظهر العنصر الرومانى لينضم إلى منظومة عواصم الأقاليم بفكر وأساليب حياة تختلف عما اعتاده الأقباط المصريون أهل البلاد من فكر ودين وسلوكيات فى الحياة، وبدا العنصران مختلفتين ومتضادين، وكان من الطبيعى أن يتعامدا وعقد البطالمة معادلة صعبة كان عليهم التقرب إلى الشعب لضمان نوع من الاستقرار، فكانت المزاوجة بين الآلهة المصرية والآلهة اليونانية، ليصبح كلا الاثنين قريبا من الآخر، ولكن فى نفس الوقت ميزوا العنصر اليونانى والذى ينتمون إليه، وحرموا زواجهم بالمصريين، ووضعوا فى البداية التقارب الذى حدث فى فترة تالية عن طريق الزيجات المشتركة، تأغرق بعض المصريين، ولكنهم يمثلون قطاعا طفيليا طموحا أو منتفعا يريد الوصول إلى الفكر والمعرفة، فى نفس الوقت تمصر بعض الإغريق نتيجة اختلاطهم بالمصريين، والرومان الذين جعلوا من أنفسهم – بحكم الفتح – عنصرا متميزًا واليونان عنصرًا تاليا لهم هم والسكندريون وكأنهم لا ينتمون إلى مصر، هؤلاء الذين غيروا أسماء هم وأسماء آبائهم ليلحقوا بالطبقة المميزة ، مع الوقت بدأت الطبقة المتميزة تفقد مميزاتها، ووصل العنصر المصرى إلى المناصب الإدارية والقيادية، وتملك الإقطاعات وأصبح من كبار الأثرياء ، وأصبح التميز القبطى لا يحكمه الجنس أو العنصر بصوره حادة كما كان من قبل، بل الثروة، فنجد إقطاعيين كأبيون وأمونيوس وفلاحين بسطاء وحرفين وصغار تجار وكبارهم من العناصر المصرية، ونلاحظ أن الطبقة الثرية احتفظت ببعض اتجاهات اليونان الفكرية من حرص على

إيجاد المكتبات أو المؤلفات اليونانية، والطبقة الدنيا والوسطى غلبت عليها اللغة القبطية، والتـأثيـرات اليـونانيـة واللاتينيـة بدت فى الأسـمـاء والثـيـاب، ولكن خلق المصـريون فنا خاصـا بهم، وشـخصية متميزة، فلم يترك احتلال قرون إلا ثيابا وأسماء وسنوات من القهر والمرارة، زادتهم التفافا نحو المعتقد الدينى والكنيسة التى غيرت فى نوعية الحياة الاجتماعية والسلوكيات فى هذه المجتمعات .

فلو عـرضنا صـورة للمـجـتـمـع وصـورة للتكوين الإدارى الذى ارتبط بالحـيـاة الاجتـماعية التى سخرت لخدمـة الفئة العليا من السكان الرومـان واليونان لوجدناه كالتالى :

لم يكن هـناك خط مـسـتـقيم واضـح بين مـوظفى الحكم المحلى والحكومـة المركـزية وممثليها فى عواصم المدن والأقاليم، ولكن الذى كان يجمع جانبى الفئتين فى المبدأ أن عـمل المجـالس التى صـارت أشـبـه بهيـئـات إدارية تتـوزع داخلهـا الاخـتـصـاصـات والالتزامات مع المسئولية التضامنية فى إنجاز الخطة العامة .

ولقد تولى أمر الإدارة الحكومية عدد من الموظفين المحليين، وكان كل منهم مستقلا عن الآخـر، ولكل منهم اخـتـصـاصـه، ولكن بمضى الوقت أصـبـحـوا يـؤلفون لجنة وكان التعيين بالاختيـار ثم أصبح إجباريا، وكانوا هـم موظفو الإدارة المحلية آنذاك، مسئول معهد التربية **Gymnasiarchus** وكان الجمنازيوم مركز التربية البدنية والثقافية، وحافظ الرهبان على هذه المعاهد، ولكن بدأ أمره يضمحل ابتداء من العصر البيزنطى، واختفت معه وظيفة مسجل معهد التربية ومسئول الشباب [٤١] **Exegets** رئيس الهيئة الإدارية، واستمد وجوده من أصول ترجع للعصر البطلمى، حيث كانت مـهمته فى المدن اليونانية بمصـر المحـافظة على التقـاليد الهلينية والأوضـاع القانونيـة لأهالى المدينة ومراقبة من الأولى له .

أمـا مسئول التموين **Eutheniarches** فكان يتولى إمداد المدينة بالطعام وأستمر الاهتمام به فى العصر البيزنطى وتعددت أعداد هؤلاء الموظفين وأصبحوا سته موظفين، وفى بردية أخرى كان عددهم اثنا عشر **Agoronomes** ثم موثق العقود والمشرف على

تنظيم الأسواق وأساليب التعامل، ومنهم Arcliereus الكاهن الأعلى، وهذه الوظيفة ألغيت مع الاعتراف بالمسيحية.

هؤلاء هم أهم الموظفين، ولقد ظلوا يمارسون أعمالهم حتى قيام مجالس الشورى Boule ، يتولى أمر الإدارة المحلية ويعزى أول مجلس شورى الذى منحه الإمبراطور هادريان لأنطونيوبولس " الشيخ عبادة " ورغم أن الإمبراطور سيفريوس عمم مجالس الشورى فى عواصم الأقاليم (٤٢) رغبه منه فى خلق رباط إدارى يوحد سائر أرجاء البلاد، ولكن مجالس الشورى لم تعد فى ذلك الوقت على نحو ماكانت عليه فى مواطنها الأولى ومركز القرارات الهامة، وإنما عدت مجالس الشورى قاصرة على أمور التشريعات وذات مهام صورية .

وتم تقسيم مدينتى هيرموبولس "الأشمونين" وأكسرنخوس " البهنسا " فى ظل تعميم مجالس الشورى إلى أقسام جديدة، كانت عبارة عن قبائل وأحياء لكل منها نواحيها حسب التوزيع الجغرافى، وكان لكل قبيلة عاملها " أرخون " المسئول عن تسجيل المواليد والوفيات وما يتعلق بالتعداد، ثم إرسال الشهادات الدالة على ذلك إلى الكاتب الملكى Basili Ogrammateus وكان بمثابة مساعد مدير الإقليم ونائبا عنه، ذلك أن السلطات المحلية حرصت على أن يذكر كل شخص ومعه اسم قبيلته والحى الذى يتبعه مع الترقيم ampheleu حتى سهل الحصول على البيانات المطلوبة عن كل من يكلف بأى عمل من الأعمال ، ويسهل حصر الأعداد، وتعددت الوثائق التى تؤكد انتماء الأشخاص ذكورا كانوا أم إناثا إلى أحيائهم، فهذا يذكر أنه من أبناء القبيلة الأولى، وتلك امراة تشير فى أحد عقود البيع إلى أن زوجها من أبناء حى أثينا، هذا أدى إلى تحديد مكانة وطبقة الشخص الاجتماعية والمادية، فبعد أن كان يتم الاحصاء وبيان ما يملكون من مال ومتاع كان يجرى توزيع الأعباء عليهم عن طريق الاقترا ع (٤٣) وكانت تحدث أضرارٌ كثيرة من هذا التوزيع، فتحمل الأفراد فوق ما يحتملون ، ولقد كشف هذا شكوى بعث بها مواطن يسكن حى المعسكر بمدينة أكسرنخوس إلى سيبتنايوس الوالى أنطونيوبولس وهى المدينة التى عدت فى ذلك الوقت مركزا للتقاضى والاستئناف .

وقد ذكر صاحب الشكوى أنه كان مسجلا فى القبيلة الأولى، ووقع عليه الالتزام المادى مقابل هذا التسجيل، فثروته قدرت ١٢٠٠ درهم غير أن القبيلة انضمت إلى قبيلة أخرى، فوقع عليه عبء إضافى هو تعينه سائقا للدواب الخاصة بالنقل فى الدولة، ولهذا هو يقدم بالشكوى طالبا إزالة اسبابها (٤٤) .

وكانت هناك فئات معفاة من الأعباء كمواطنى اسكندرية الذين لديهم أملاك فى الأقاليم ، فقرر جستنيان فى القرن السادس إلغاء الامتيازات التى أعفت أصحابها من تحمل الأعباء ، والتى سبق أن منحها كراكلا ، ٢١٢م للمواطنين، وكان حق الاعفاء يطبق حينا ولا يحترم أحيانا أخرى ، وكشفت أوراق البردى عن مواطن سكندرى تم إلزامه بوظيفة تتعلق بالجبانة فى هرموبوليس التى امتلك فيها بعض الأراضى، وهناك فئات كانت تدفع ضريبة الرأس . بنسب محددة، فئة الجمنازيوم اثنتا عشرة درخمة، والفائزون فى المباريات الرياضية أعضاء نادى ديونسيوس، وكما هو واضح فإنّ التقسيمات تلك كانت تخص العنصر الأجنبى اليونانى والرومانى الذى انقسم إلى قبائل، ولقد ألقى كراكلا تلك القرارات التى تحرم الزواج بين الرومان والمصريين، ثم حدث أن اختفت ضريبة الرأس فى القرن الرابع البيزنطى، فما قام به دقلديانوس فى نهاية القرن نفسه أن قضى على امتيازات السكندريين والرومان معا، إذا أصبح الجميع مواطنين رومان يدفعون الضرائب على حد سواء، ويتحملون نصيبهم كاملا فى الحكم المحلى كل حسب قدرته المالية، فلقد أصبحت الوظائف تلك عبئًا على المواطنين، فالمساواة أصبحت فى تحمل الأعباء، فوظائف إمداد المدن بالمؤن ومشرفى الأسواق وما يرتبط بها من ترميم الحمامات العامة وإمدادها بالوقود تحمل أصحابها الكثير من الأعباء المالية، نفس الأمر مع المشرفين على جباية ضريبة القمح ومنح تصاريح مزاولة التجارة، بالأضافة إلى إدارة المعارف المالية حيث ذكرت إحدى البرديات ضرائب مستحقة على منزل يملكهُ موظف بالمصرف الرئيسى، وهو فى نفس الوقت عضو مجلس الشورى ، وكان من مهام المسؤلين الإداريين **exegeres** ترتيب الأعياد وتحمل تكاليفها مع مراقبة الاصلاحات والترميمات المطلوبة للمدينة وحراسة منشآتها العامة (٤٥) ، وهذا يعنى استنزاف دخل الأفراد ، وبالرغم من أن القوانين حرمت تكليف شخص واحد للقيام بعملية فى نفس الوقت دون مقابل إلا أن الشكوى مستمرة من خرق تلك القوانين .

إذ كلف عضو مجلس شورى بإمداد الحمامات العامة بالوقود ، مع المشاركة فى الوقت نفسه فى نفقات إصلاح البوابة الشمالية للمدينة ، وكان عليهم القيام بأعمال متفرقة مثل إيصال البريد وقيادة الدواب الخاص بالبريد وإمداد الجند بالملابس، وهى أمور جأر أعضاء مجلس الشورى بالشكوى من جسامتها [٤٦] لأنها كلفتهم فوق ما يطيقون . هذا فضلا عن ملاحقة أعضاء مجلس الشورى بالمساءلة عن أى تقصير أو خطأ يرتكبون ، وإلزامهم بتحمل الأعباء كاملة غير منقوصة حتى بعد تركهم مناصبهم .

وكان الإعفاء من ضريبة الرأس يمتد إلى مواطنى الإسكندرية حينما كانوا يمتلكون أراضى فى أى إقليم من الأقاليم مثلهم فى ذلك كالرومان وعبيدهم المحررين [٤٧]. وكانت الفئات الأخرى التى تلى أهل الإسكندرية فى الأقاليم تدفع ضريبة الرأس بنسبة مخفضة كفئة الجمنازيوم وتمتعوا بامتياز؛ وكان عبارة عن دفع مبلغ مخفض من ضريبة الرأس مقداره اثنتا عشرة درخمة ، ونال الامتياز نفسه الفائزون فى المباريات الرياضية ، وأعضاء نادى ديونسيوس، وهو أحد النوادى التى كونتها الطبقة المتوسطة وهى تشمل ثقافة وعلما، ومتأثرة بالحياة اليونانية، وكانت تضم فنانين فى التراجيديا وشعراء وموسيقين، وينسب إلى ديونسيوس إله الخمر، وكانت عبادتة من أشهر العبادات، وتقام له الأعياد، وكان على المواطن من تلك الفئات أن [٤٨] يتقدم فى الثالثة عشرة من عمره إلى الدولة بإعلان منه ببلوغ السن التى يجب أن يدفع فيها ضريبة الرأس ذات الاثنتا عشرة درخمة . وكان هذا الامتياز خاصا بأهالى أكسرنخوس حيث أن أوراق البردى تفاوتت فيها تلك الضريبة من مكان إلى آخر داخل إقليم المنيا . ففى بردية تسجل ميلاد طفل، ذكر أحد الشهود واسمه أبولونيوس بأنه ممن يدفع ضريبة [٤٩] الرأس ذات الاثنتا عشرة درخمة باعتباره عضوا فى الجمنازيوم.

وظل التقسيم بين المواطنين المصريين والفئة المتميزة من الرومان والإسكندريين والإغريق قائما إلى أن منح كراكلا المواطنة ، ولكن هذا لم يمنع من قيام زيجات بين الإغريق والوطنيين، ولقد وردت فى عقود الزواج التى تقود إلى هذه الفترة إشارات إلى زيجات مختلطة نتيجة لوجود جنود مستقرين فى عواصم الأقاليم واعترف بالأبناء كرومان، وكذلك بعقود الزواج بين الرومان والإغريق والمصريات .

والفترة التالية شهدت ازدياد العنصر المصرى فى عواصم الأقاليم ، والمثال الواضح عن عملية الامتزاج هذه ما يسمى ببورتريهات الفيوم، والتى بدأت من القرن الأول الميلادى واستمرت إلى منتصف الرابع ، حيث أمر ثيودسيوس فى مرسوم ٣٩٢م منع العبادات الوثنية ومنع الموميات ذات الوجوه .

ولقد تأثر اليونان والرومان بطريقة الدفن الفرعونية وهى تحنيط الجثة، ومع رسم الوجوه وفقا للأسلوب اليونانى ، فمع القرن الأول الميلادى ومع بدايات الحكم الرومانى تأثرت طرق الدفن المصرية بتأثير يونانى يتمثل فى تزويد مومياء المتوفى بصورة توضح الملامح الشخصية للمتوفى، سواء كانت على جص أو مرسومة على الأكفان ، وكانت تخص سيدات ورجال وأطفال من جميع الأعمار تحمل ملامح ذات سمات خاصة؛ فهى وجوه بيضاوية ذات عيون واسعة وشفاه صغيرة ، وملامح بعضها مصرى وبعضها يونانى وبعضها خليط من هذا وذاك، يوضح أن عملية الاختلاط الجنسى تمت من فترة مبكرة رغم ما سنته روما من قوانين لمنع الارتباط بالعناصر الوطنية ، وتفشت على التوابيت آلهة مصرية مثل أوزريس وأنوبيس، وعلامة عنخ والحيات المقدسة والصقر حورس ورسم عناقيد العنب ورموز يونانية بالإضافة إلى رموز مسيحية، فأصبح من الصعب معرفة ديانة صاحبها وخاصة أن علامة عنخ تستعمل فى المسيحية والوثنية. ارتدى الجميع ثيابا يونانية الطراز رجالا ونساء وإن اختلفت الألوان، ففضلت النساء الألوان الحمراء والبنفسيجية والخضراء للنساء، ولقد بدأ انهيار الكارتوناج منذ القرن الثالث بسبب الانهيار الاقتصادى وانتشار المسيحية ، ولقد سعى القديس أثناسيوس لمنع التحنيط ورأى فيها عودة للوثنية فاعترض على تحنيط البطاركة والشهداء ، وعدم وضعهم فى أسرة للحفاظ عليهم ظنا منهم أنهم يكرمونهم ، ولقد وافق أتباعه على دفنه فى مقبره سرية، وقال لا تسمحوا لأحد أن يأخذ جثتى لمصر ليضعوها فى منازل ، لذلك ذهبت إلى الجبال وحضرت هنا ولقد حاربت وطلبت إيقاف هذه العادة " ولقد هاجمهم (٥٠) - أيضا - يوزبيوس القيصرى .

وكانت وجوه البورتريهات تعكس صورة المجتمع خلال ثلاثة قرون ونصف، وتداخل الأجناس، فهناك وجه لفتاة أثيوبية ترجع لعصر الأنطونيين ١٣٨ - ١٦١ وشعرها مصفف على شكل ضفائر أفريقية تدور حول رأسها وكأنها ترتدى قبعه وترتدى تاجا

على شكل أوراق شجر ذهبية ، وعلى صدورها مجموعة من الحلى الذهبية ووجه لفتاه أخرى أطلق عليها الأوربية من عصر هادريان ١١٧ - ١٣٨م بشرتها وردية ، ومومياء لفتاة مصرية الملامح مكتوبٌ عليها وداعا كونى سعيدة " من أنطونيوبولس الشيخ عبادة" ، ومومياء لفتاة إغريقية الملامح تعود لعصر كاليجولا والفترة الأولى لكلوديان Claudian ٣٧ - ٥٠م والكتابة عليها باللغة المصرية الديموطيقية رغم أنها يونانية الملامح ومكتوب أرينا ابنة ...س هل ترفع روحها أمام أوزرويس - سوكر الإلهة العظمى لأبيدوس؟ ، وصورة لرجل من عصر هادريان وبداية عصر الأنطونيين ١٣٠ - ١٦١م ذى ملامح إغريقية واضحة ، وهناك وجوه بملامح مصرية لاتخطئُها العين ولايمكن أن تكون ليونانى ، وهناك عناصر فارسية استوطنت العواصم، فهناك شاهدان لرجلين فارسيين يعودان لعصر هادريان أو الأنطونيين (٥١) .

ثانيا : لم يكن المصريون يمثلون طبقة دنيا، بل الوجوه ضمت شريحة وسطى وعليا، كنوعية كتان الأكفان وتكلفة الرسامين الذين تقاضوا أجور متنوعة ليرسموا صورة للشخص المتوفى ، والصور تصور بشرا فى ثياب راقية تتبع أحدث موضات العصر ويتحلون بكميات من الحلى من الذهب واللؤلؤ والزمرد ... إلخ ، بل كانت دبابيس العباءات مزينة بأحجار كريمة وذهب .

والملاحظة أن الصور تعكس صورة شباب فلا نجد إلا أمثلة محددة لوجوه مسنة ، ومن الواضح أن المومياوات التى عليها تاريخ الوفاة وعمر المتوفى تعكس أعمار الشباب، فغالبيتهم لم يتجاوز الخامسة والثلاثين .

وهناك شاهد قبر مكتوب عليه ١٥ توت : " من الذى ياحورياس Herios كيف ومتى عاشت هذه الحياة غير السعيدة ثمانية عشر عاما ، ماتت فى عمر الزهور اجعل ترابها مضيئا ياحورياس ورطبه بماء أوزريس النقى حيث تحيا هناك " .

والفتاة وفقا لشاهد القبر والصورة التى عليها تنتمى للطبقة الوسطى؛ وهى لفتاة مصرية، فالاسم والنقش والدعاء والتاريخ القبطى يشير لفتاة مصرية، وفى شاهد آخر تقف المتوفاة مع إيزيس الإلهة المصرية .

وبصفة عامة؛ فمعدل الأعمار بين المصريين لم يكن كبيرا، ولكن يرى أن بعض الوجوه تم رسم لوحات لها وبورتريه زيتى فى حياتها احتفظ به فى منزله واستعمل عند الوفاة، ولذلك حمل ملامح شابه، وأن بعضها رسم مباشرة على الكفن، فمن المؤكد أنه رسم بعد وفاة الشخص، وخاصة ذلك الذى يحمل إكليلاً أو كأسًا فى يده، وربما تكون الملامح أخذت من صورة له وهو شاب، فبعض المومياوات تصور شابا وبالأشعة اتضح أنه تجاوز ٨٩ سنة، وهو حالة نادرة، فأغلب سنوات الوفاة تشير إلى شباب ، وهذا يوضح أن أعمار الأجيال من أهالى هذه المدن قصيرة مما يؤدى إلى تتابع أجيال عديدة.

كذلك فإنها تعكس الحرف التى مارسها أصحابها كما تعكس وضعا اجتماعيا معينا ، فهناك هرميون مدرسة أطفال، وطبقات الكفن الخاص بها ونوعيته والرسم، تثبت أنها تنتمى لطبقة غنية وماتت عن ٢٥ سنة، وهناك كهان لإيزيس ارتدوا النجمة السباعية وشاب رياضى ظهر عارى الأكتاف، ربما يكون من الطبقة الميزة قبل منح الجنسية ephebe أو ربما من عباد إيزيس ، وأعداد من الضباط بثيابهم المميزة وملامحهم الخليط بين مصرى ويونانى، وسيدات من أسر غنية وصفت إحداهن بأنها المرأة الذهبية من كثرة ما ترتديه من الذهب والمجوهرات ، ولقد حرصت جميع النساء فيما ندر على التزين بالحلى فى صورهن (٥٢) .

كذلك فإنها تعكس مدى تقدم الحرف فى تلك المدن ، ولا الرسامين الذين رسموا تلك الوجوه فى الأصل كانوا يونانا من المدن اليونانية والإسكندرية، ولكنها بعد ذلك أصبحت حرفة شائعة فى عواصم الأقاليم، فلم يرسموا البورتريهات فقط بل رسموا القصور والحمامات.. إلخ، وكانوا يأخذون أجرهم أحيانا نقدا وأحيانا عينا ، نوعيات الثياب وخاماتها وألوانها تدل على تقدم الصناعة فى عواصم تلك الأقاليم، ومهارة الحرفيين المصريين وزخرفتها بطريقة القباطى تدل على المهارة والذوق، هناك قطع نسيج من أنطونيوبولس وباويط وهيرموبولس وأكسرنخوس وغيرها بالمتحف القبطى تدل على هذا .

كذلك صناعة الحلى والأحجار الكريمة من الواضح أن لها سوقا رائجة كما تبدت فى صور تلك الوجوه .

من الملاحظ أن عملية الامتزاج خلال الفترة الأولى ليست بين الأجناس فقط المسيحية، ولكن بين العبادات المصرية واليونانية، ثم فقط المسيحية أيضاً ، ومن المؤكد أن تلك التوابيت كان عدد منها يخص مسيحى ، ولكن بما أن المنع من التحنيط لم يطبق خلال القرون الثلاثة الأولى فقد استمر الدفن على الطريقة السابقة، فظهرت الشارات المسيحية إلى جانب الوثنية، فأصبح التمييز صعبا، فهناك صورة لشاب يرتدى التونيك الإغريقى الأبيض بين أوزريس وأنوبيس، والشاب يأخذ الوضع الإغريقى فيقف بثقله على رجل واحدة والأخرى ممدودة علامة الانتقال من الحياة إلى الموت وخلفه معبد، هذا النموذج تكرر فى عدد من الرسوم الجنائزية وصورة المرأة التى تمسك فى يدها علامة عنخ ويدها مرفوعة . هذه نراها فيما بعد فى رسم الأيقونات، والرسم جاء من أنطونيوبولس فى الفترة من ١٩٣ - ٢٣٥م وممكن أن يكون لامرأة مسيحية، وتكرر هذا فى أكثر من صورة لأسماء خليط، فهناك آمون بن أنطونيوس فى الفترة من ١٥٣ - ٢٣٥ القرن الثالث، وأسماء إلين وإيزيس وديميس Demes كذلك الحلى؛ فهناك حلى على شكل الميدوزا اليونانية لتوقف الحسد وسوار مصرى على شكل ثعبان وأقراط على أشكال هرمية، ومن المؤكد أن هذا المجتمع الخليط كان أفراده يخشون الحسد، فالحلية على شكل ميدوزا وختم دائرة ضد الحسد، ولتمنع الأرواح الشريرة، وكذلك اليد المرفوعة لطرد الارواح الشريرة، ولقد اشترك الجميع فى المعتقدات نفسها .

والرموز نفسها صورة لطفل يده اليسرى تحمل رمانة رمز الأبدية، والأخرى علامة عنخ والحمامة رمز مصرى قديم، وأصبح رمزًا مسيحيا، وعلامة عنخ فى فترة متأخرة علق على منقار طاووس دليل على البعث، ويذكر ول ديورنت أن ١٨٠ من الرموز التى أصبحت فيما بعد ذات شأن فى المسيحية، مثل اليمامة الممثلة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسد ، الفونكس phoenix وهو طائر خرافى بعد أن أحرق نفسه (٥٣) فى كومة حريق عاد إلى الحياة، رماده غصن النخيل وشعار النصر أصبح رمزًا للسلام، والسمكة حملت معانى مسيحية، لأن اسمها اليونانى يتكون من الحروف يسوع المسيح ch- th- u- s يسوع المسيح ابن الله المنقذ Jesous - christos - theau - Uios - soter .

وفكرة الراعى الصالح ممثله تمثيلاً صريحًا على تمثال لعطارد يحمل الماعز، وتتمثل أحيانا فى رسمهم الأزهار والكروم والطيور ، والكروم الموجودة على عدد من الأكفان مرتبطة بالمسيح، ورمز لديونسيوس والذى قرنوه فى مصر بأوزوريس واليد أحيانا تحمل gestrure حليه مسيحية .

والاهتمام بالأبدية يترك انطباعة على صور الفيوم وهى عودة للماضى الفرعونى، واذا كانت الكنيسة والأباطره منعوا التحنيط فقد انتقل فى التصوير إلى الأيقونات المسيحية، ولقد رفض أيوزيبوس الأيقونات ورفض أبيفانوس سلاميس Epiphonus sa-lamis فى نهاية القرن الرابع الأيقونات وتقديسها، وأشار إلى أن الرسامين رسموا المسيح والقديسين من خيالهم بشعر طويل، إلا لأنه ناصرى (من الناصرة) وهو الطراز السائد هناك ، والقديس بولس كان أصلعًا وصورة زنوبيا أحد وجوه الفيوم لا تختلف كثيرا عن الفن البيزنطى، وتمثال لامرأة يعود لفترة ٢٥٣ - ٢٦٨ م تحيط بها دائرة التقديس لها صورة مقاربة لملكة بيزنطية، وإن كان هذا قبل إنشاء القسطنطينية بنصف قرن، وقد رسموا العذراء والقديسين بعيون واسعة تنظر للأبدية.

والعين تلعب دورا أساسيا فى الأيقونة ، ولقد أخذت من الإغريق الوضع الأمامى ومن المسيحية الروح التى ترى أن كل شىء أساسه الروح وأن الجسد مجرد وعاء للروح، نفس اليد المرفوعة والأخرى التى تحمل الصليب وجدت فى أنطونيوبوليس فى صورة حائطية للقديس أكزنفون Xenophon فى مذبح العذراء مريم فى دير القديس John theologion فى جزيرة Patmons فيد القديس مرفوعة والأخرى تحمل الصليب، نفس ما وجد فى صور الفيوم أنطونيوبوليس .

التغيرات الرئيسية التى دخلت على تكوين المجتمع فى عواصم الأقاليم بدأت من القرن الرابع، وتحول المسيحية إلى ديانة رسمية تحول الأرض من أرض ملك (التاج) إلى ملكيات خاصة أدى إلى ظهور طبقة عليا مصرية فى عواصم الأقاليم ، والمدن الرئيسية لم تكن هذه المرة إغريقية بل مصرية خالصة، بالإضافة إلى إغريق تمصروا مع الوقت نتيجة لزيجات مشتركة فظهرت طبقة من كبار الملاك تملك الأراضى فى الأقاليم، وعاشت حياة مترفة فى العاصمة وتولت مناصب إدارية فيها أو فى الإسكندرية أو فى الأقاليم ككل أو تملكت مؤسسات .

فبميون كان يدير مستشفى فى أنطونيو [٥٤] وعائله إبيون تولت مناصب الدوقية والباجاركية، وهذه الطبقة الإقطاعية والتى عثرنا على أرشيف كامل لعدد منها تعكس صورة فئة تمتعت بثراء وعاشت فى القصور، وكان لها حراسها الخاصون، وجهازها الإدارى الذى حمل بعض أفراده ألقاب الكونت والباجرك حتى بات عسيراً أن تفرق بينهم وبين موظفى الدولة . وهذه الإقطاعيات لم تكن بأى حال شبيهة بإقطاعيات الغرب التى أدخلت الفلاح فى إطار القنية والاستعباد .

فأبيون أكبر ملاك تلك الفترة لم يملك قرية بأكملها وإنما كانت ضياعه موزعة بين عدد من القرى والأقاليم وإن تركزت فى إقليم أكسرنخوس (البهنسا) وكان لها سيطرة على شئون الحكم المحلى [٥٥] .

وهذه الطبقة تعود بجذورها الى القرن الثالث، وكانت ملكيتها مقصورة على مساحات محدده من الأرض كان يملكها فى الغالب أثرياء الإسكندرية ، ولكن منذ القرن الرابع وبعد تملك أرض التاج بدأ نمو الضياع الكبرى نتيجة للبيع أو المهر أو الزواج ، أو تكونت عن طريق الإيجار كما حدث مع أحد إقطاعي أنطونيوبولس " الشيخ عبادة " الذى أستأجر جزءاً كبيرا من أراضيه من الأديرة [٥٦] وخاصة دير بيتو، فقد ظهرت الأديرة خلال هذه الفتره كقوة مؤثره دينيا واجتماعيا واقتصاديا وتملكت أراض كبيرة فى الأقاليم وكونت شريحة هامة فى المجتمع .

ولقد انتهز كبار ملاك الأرض الفرصة المتاحة وعمدوا الى توسيع ممتلكاتهم وبالتالى الحصول على حق الجباية الذاتية ، وهو تحصيل ما هو مقرر من الضرائب على أراضيهم وتوصيلها مباشرة إلى السلطة المركزية بعواصم الأقاليم ، ولقد كشف سجل مدينة هيرموبولس " الأشمونين" والذى يرجع الى ٣٤٠م عن نوعيات من الملاك الذين كونوا مجتمع الطبقة العليا والوسطى، فغالب أفراد هاتين الطبقتين كانوا ممن يملكون الأرض وهى مصدر دخل رئيسى لهم، بالإضافة الى أصحاب المصانع وخاصة النسيج الذى اشتهرت به مدن منها .

واشتمل هذا السجل على قائمة مرتبة ترتيبا أبجديا بأفراد من الحامية التى كانت ترابط فى هيرموبولس ويمتلكون أراض فى هذا الأقليم ، وبلغت المساحة الكلية لتلك

الأراضى كما ذكرها سجل هيرموبولس حوالى عشرين ألف فدان، منها سبعة عشر ألف فدان حيازة خاصة ونحو ألف وأربعمائــة وخمسين ملكيــة عامة (٥٧) ، فى حــين لا يدخل فى الزمام التابع للمدينة غير عشرة أفدنة فقط، وبلغ عدد الأسماء التى ذكرها سجل أراضى هيرموبولس نحو أربعة وأربعين شخصا ، كانت أكبر مساحة امتلكها بعضهم حوالى ألف وثمانمائة وسبعين فدانا كانت من نصيب ورثة الكونت أمونيوس ، ويأتى الكونت أمونيوس على رأس مجموعة من كبار الملاك فى أنطونيوبولس فى الفترة المسيحية(٥٨) وذكرت مصادر أوراق البردى الكثير عن أولئك الملاك وما بلغوه من نفوذ واسع فى إدارات الحكم المحلى بهذا الإقليم وما تمتعوا به من مكانة اجتماعية .

وفى الإقليم نفسه وجد عدد من النساء كملاك إقطاع ومن الطبقة الثرية، فهناك امرأة تدعى كرستودورا أرملة مالك غير معروف الاسم كان له ضيعة فى تلك المدينة، وأخرى تسمى ثيودورا كانت تمتلك مزرعتين أرض هبة doree وتمتعت بالإعفاء من عدد من الضرائب إلى جانب إقطاع لها فى قرية سلامون، وهناك سجل عن حساباتها فى أربع سنوات ، وبعد وفاتها قسمت بين أبنائها الثلاثة، فحصل ابنها جرمانوس على نصف الإقطاع والاثنين الباقين على النصف الآخر .

وفى مصر العليا تملك شخص يدعى أولبريوس إقطاعاً كبيراً فى الوقت الذى كان يلى منصب القنصلية فى القسطنطينية ، ولقد فرضت عليه غرامة بسبب غير معروف ربما لمحاولة التهرب من الضرائب، ولقد بلغت قيمة الضرائب ألف إردب .

وكان أشهر أولئك الملاك الكونت أبيون وأسرته، وأول من تردد اسمه من أفراد تلك الأسرة فلافيوس أبيون حيث ذكر أنه كان والياً لطيبة وخلفه ولداه فلافيوس استراتيجوس Flavius Strategus وابيون الثانى، وتولى الأول منصب قائد الحرس comes domestcerus والآخر منصب القنصلية Consul ، ثم أصبح دوقاً على طيبة ٥٤٥ م ، ثم أبيون بن فلافيوس الذى حمل لقب شريف Batricus ، ودوق طيبة ثم استراتيجوس أكبر أبناء أبيون، وأبو أبيون الثالث ، وفى عام ٥٩٠ م تردد اسم أبيون آخر أحفاد الأسرة، وهناك قرية فى طمى تدعى أبيون .

واحتفظت أسرة أبيون بمكانها طويلاً فى الحكم المحلى دون غيرها من الأسرات المعاصرة، لأن رب هذه الأسرة أمر أفرادها بعدم تقسيم ممتلكات الأسرة فيما بينهم وإنما تدار لصالح الجميع ، ولقد استطاعت أسرته أن تجعل وظيفة حاكم طيبة مثل (المحافظ حاليا) وراثية بين أفرادها لفترة، وكان للأسرة أملاك فى جهات متفرقة أكسرنخوس " البهنسا" وكينوبولس "الشيخ فضل " وهيرموبولس "الأشمونين " وأرسنوى "الفيوم" ، وهيراكلوبولس "أهناسيا"و تعددت إحصاءات لقرى أخرى تتبع الأسرة مثل قرى باكرا وناكونا ، وبترموس ، وبامبيدا ، وآمون .. الخ .

وفى الغالب لم تشمل إقطاعاته جميع أراضى القرية بأكملها، بل كان هناك ملاك آخرون، ولقد تبع الملاك جيش من الموظفين الإداريين كانوا يمثلون طابعا بيروقراطيا اكتسب صفاتها وسلوكياتها خلال الحقب الطويلة من السيطرة الإدارية، فالإقطاع ينقسم وحدات يدير كل منها وكيل يحمل لقب كونت ، وكانت هناك مجموعتان من الموظفين الأولى تضم جماعات المشرفين pronote المجموعة الأخرى تضم المسئولين عن جباية الضرائب وتسليمها إلى أبيون رب الأسرة ، وكان هناك الجباة وكتبة السجلات وموظفون، وقام الى جانب هذه المجموعة نفر آخر من الموظفين؛ منهم وزان الحبوب والساقى المسئول عن توريد الخمور وقائد سفن وحارس حقول، وفى القرى التابعة لأى إقطاع خضع مجلس قريتها لإشراف المالك .

وظلت أسرة أبيون تمارس خالف عن سالف هذا السلطات العريضة فى مدينة أكسرنخوس طوال قرن ونصف قرن من الزمان إلى ما يقرب من نهاية العصر البيزنطى بمصر ، وصار أفراد هذه الأسرة العريقة موضع احترام بين الأهالى الذين كانوا ينادونهم بألقاب أصحاب السعادة والبيت المقدس، وهذا بفضل ما نعمت به أسرة أبيون من قصور عامرة وحلقات سباق تتبعها وحمامات عامة وخاصة ، وجيش من الحرس الخاص البوكلارى ، ولكن أهم نتيجة على نجاح كبار ملاك الأراضى فى الجمع بين شغل المناصب فى الإدارات المحلية وبين ما لهم من ممتلكات واسعة، فأصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى عواصم الأقاليم .

وفى أنطونيوبولس كان هناك الطبيب فيميون وكان يرأس مستشفى حكوميا (٥٩)، ولكون هؤلاء من الشريحة العليا فى المجتمع بما لهم من ثروة ووضع إدارى نعموا بقصور فاخرة وكثير من الخدم والعبيد، وارتدوا الثياب الفاخرة والجواهر ، وكانت لهم حمامات خاصة مرمرية وحرسهم الخاص " يشبه أغنياء العصر " بل كانت لهم رسائل بريد خاصة لهم ، وذلك فى الوقت الذى تداعت فيه رسائل البريد الرسمية الخاصة بالدول . وصكّ بعضهم عملة خاصة، واضطر الإمبراطور للاعتراف بهذا الأمر ، ولقد أصدر الإمبراطور جستين الثانى قانونا اعترف فيه بأحقية كبار الملاك فى إرسال ترشيحات لمن يشغلوا مناصب الإدارات فى الحكم المحلى، وارتبط عدد منهم رغم مصريتهم بالثقافة اليونانية، وكان هؤلاء أصحاب المصانع وبعض أصحاب المصارف وكبار الأطباء . والطبقة الوسطى شملت أصحاب المصانع الصغرى وصغار ملاك الأقاليم والمدرسين وفئات من الضباط والموظفين الإداريين والتجار .

وكانت فئة الحرفيين تمثل الشريحة الرئيسية من الطبقة الدنيا ، فلقد انتشرت المصانع والمحاجر والمناجم عبر أقاليم مصر بإنتاجها المختلف وصحرائها ، لترضى احتياجات المدن وأهلها من الطبقات العليا والوسطى بالمنشآت والاحتياجات المختلفة من طعام وشراب وكساء أنتجه صناع مصر منه .

ولقد اشتهرت مصر بالعديد من الصناعات أشهرها النسيج : وشمل الكتان والصوف الذى انتشرت مصانعه فى عواصم الأقاليم، بل والريف والحرير الذى اشتهرت مصانعه فى أخميم (بانا بوليس) وإلى الآن ودمياط، كذلك الفخار الذى استهلكت أغلب منتجات السوق المحلية واحتوت المحاجر فى المنطقة من برنيقة الى ميوس هورموس (رأس أبو شعر قبلى) على البحر الأحمر فقط ، واستغلت مناجم الصحراء الشرقيه وسيناء واستعمل الجرانيت والبروفوريه حجر السماق والألبستر والحجر الجيرى والرملى.

وكان الحجر الجيرى هو الخامة الغالبة فى المنشآت فى الفترة البيزنطية والذى شيدت به أغلب المنشآت العامة ، أما المنازل فقد استعملوا فى بنائها الطوب ، وزخرت البردية بإشارات لعمال وبنائين ونجارين ورسامين فى طائفة المعمار .

وكميات الذهب والأحجار الكريمة التى ارتدتها نساء الطبقة الوسطى والعليا وصبغاتها الرائعة والتداخل بين الزمرد واللؤلؤ والذهب فى أشكال منوعة تدل على

صياغة متقدمة لحرفيين على قدر من المهارة، ووجدت مناجم ذهب فى أسوان والعلاقى، ومناجم للنحاس والحديد فى أرمنت وإدفو ووادى حلفا، والزمرد من أسوان، والزبرجد من ميوس هرموس " رأس أبو شعر قبلى" والعقيق من أرمنت، وقوائم المهور والآثار فى المتحف القبطى تحوى تلك النماذج من الأقاليم .

أما عن موقف الدولة من طبقة الحرفيين فقد اختلفت عبر الحقب الزمنية، فلقد حاولت استنزافهم ثم وضعت القوانين التى تحكم قبضتها وأخضعت الصناعات فى العصر البطلمى لاحتكار الدولة . ولقد أمدتنا الوثائق البردية التى نشرها جرنفيل باسم قوانين الدخل لبطليموس فلادلفيوس بمعلومات وافية عن هذا النظام ، وكانت الزيوت والمنسوجات أهم الاحتكارات الحكومية ، ولقد سمح للمعابد بإنتاج الزيت وصناعة المنسوجات التى تكفى احتياجاتهم (٦٠) .

ولقد اختلف الأمر خلال العصرين الرومانى ثم البيزنطى، فقد أطلقت الحكومة يد المواطنين للقيام بالإنتاج الفردى بل وشجعتهم رغم وجود مصانع حكومية تعمل فى نفس الصناعة ، كمصانع أما الصباغه فقد سمح للأفراد بمزاولة تلك الحرفة، بل اهتمت بعض المصانع الصغيرة والقرى وبعض المنازل الخاصة حيث عملت بها الأهالى أو أيدى عاملة حرة .

ولقد تميزت مصر فى مجال الصناعة ، عن جميع ولايات الإمبراطورية بخاصية هامة، وهى عدم اعتمادها على جهود الرقيق ، بل إن غالبية عمال مصانعها باستثناء أعداد قليلة كانوا من الأحرار وفقاً لما تضمنته عقود العمل فى المصانع وبين العمال وأصحاب الحرف (٦١) ، وبين الأسطوات والعمال فى التدريب، والشروط الملزمة لكلا الطرفين وقوائم أجورهم، ولقد احتكرت الدولة المسيطرة عددا من المواد الخام ، كالخشب الذى يدخل فى صناعة النسيج، ومادة النطرون، ويرى بعض المؤرخين أن صناعة البردى كانت احتكارا حكوميا أيضًا، وإن كان البعض الآخر يعارض هذا الرأى ويدحضه بحجج مقابلة ، ولقد سعت الدولة منذ البداية لإحكام سيطرتها على الحرفيين عن طريق نقاباتهم .

وكانت مصر من أوائل الدول التى عرفت نظام النقابات ، ومع ازدهار الصناعة فى الإسكندرية فى العصر الرومانى هاجر آلاف من أهالى الريف إلى عواصم المدن للعمل فى مصانعها ، وكون أرباب الحرف نقابات انتشرت فى عواصم الأقاليم ، فكان فى أرسنوى " الفيوم القديمة " عدد من النقابات المهنية اتخذت عضوية بعضها صورة الإجبار .

وكانت أهم النقابات التى لها صلة بضريبة القمح " الأنونا " التى تمد أهالى روما ثم القسطنطينية بالخبز، وكرابطة الصناع Fabri التى كان عليها إمداد الجيش بالملابس والتموين .

وما كاد القرن الثالث ينتهى حتى كانت الفئات المختلفة من الصناع والتجار قد انتظمت فى شكل نقابات؛ ففى كتاب تاريخ الأباطرة حياة سفريوس الإسكندر ، تكونت أيضاً نقابات لصالح بائعى النبيذ والخضراوات وصناع القوارب وتجار الخضر . ولقد منحهم القانون حق اختيار الأعضاء ووضع القوانين التى تتبعها، وكان هدف الدولة واضحا وهو إحكام قبضتها وسيطرتها على أعضاء النقابات، وفى نفس الوقت تضمن وفاء هم بالتزاماتهم المادية ، ولقد أشرف المجلس البلدى على عمل النقابات التى تتصل بضريبة القمح الشحنه السعيدة " الأنونا " فلقد كان على الشعب المصرى إمداد جياع العاصمة بالخبز وإمداد جيوشهم بما يحتاجونه .

ولقد أصبحت عضوية النقابات إجبارية فى جميع أنحاء الأمبراطورية وذلك لنقص الأيدى العاملة ولهجمات البرابرة خاصة فى الغرب، ثم فساد البيروقراطيه الإدارية فى جميع الولايات، وعدم مقدرة موظفى المالية ومسئولى المجالس البلدية على الوفاء بالتزاماتهم ومحاولتهم التخلص منها ، كل هذه العوامل مجتمعة دفعت أباطرة القرن الرابع إلى تطبيق مبدأ الالزام، بل أصبح العمال يوشمون بالنار ليسهل اكتشافهم فى حالة فرارهم، وإن كان هذا الإجراء غير متبع غالبا فى مصر حيث كان عمالها أحرارا .

ولكن بعد تطبيق نظام الإجبار لم يكن للقبطى مهرب من حرفته، وإذا تركها أُلزم بأعبائها، فأحد الأشخاص فى أكسرنخوس " البهنسا " انضم إلى نقابة الخبازين وكان فى البداية ينتمى الى نقابة البحارة ، فخير بين أن يترك عبء العمل كبحار لأحد أقربائه أو يعمل بصناعة الخبز أو يعمل فى وظيفة البحار أو يدفع أعباء ها من ماله .

ولقد أصبحت الوظيفة الرئيسية للنقابات فى العصر البيزنطى هى ضمان وفاء أعضائها بالتزامتهم المالية وضرائبهم تجاهها (٦٢) . وكان لكل نقابة رئيس يختار شهريا ولا يسمح لأى فرد بمزاولة أى حرفة الا بعد ترخيص من النقابة المختصة ، ولابد للعامل قبل التصريح بالعمل من فترة تدريب على يد أحد الأسطوات ، واختلفت فترات التدريب ومدتها من حرفه لحرفه ، بل اختلفت فى الحرفة الواحدة، ولكنها كانت تتراوح بين عام وخمسة أعوام ، يحصل منها العامل على أجر رمزى، وأحيانا يتعهد الأسطى بطعامه وكسائه ، بعدها يصرح له بممارسة المهنـة ، وكانت النقابـة تحدد ما يحتاج إليه من الحرفيين ، وأحياناً يعين كل إقليم العدد الذى يرغب فيه كل حرفه ، واشتملت بعض النقابات على طوائف عدة يتعلق عملهم بجهة معينة؛ نقابة النساجين مثلاً كان يتبعها ١٢ طائفة يتعلق عملهم بالنسيج كنساجي الثياب ، وعمال التبييض ، وعمال الصباغة وعمال التطريز ، والخياطين (٦٣) .

وكان مسئولو الإقليم يحق لهم فى بعض الأحيان تأجير فرع معين من الصناعة لفرد أو عدة أشخاص مقابل مبلغ من المال، ويتم هذا عن طريق مزايدة عامة فى الغالب، ويترك له حق إدارة الصناعة أو التأجير من الباطن ومنح تراخيص العمل فى الصناعة فى الأقليم، ولقد حدث هذا فى مدينتى نيابولس **Neilopolis** وسكونيوبولس **Soknopolis**، تم تأجيرها لصناعة الصباغة لمدة عام بواسطة أربعة أشخاص (٦٤) .

وفى مدينة أوهيمريا تم منح رجلين أو أكثر الحق فى احتكار صناعة الصباغة لمدة أربع سنوات فى مقابل مبلغ قدره ٢٦٤ درخمة، ودفع أجر ١٠٠ درخمة شهرياً للحصول على حق صناعة الطوب وبيعه، وذلك لمدة ستة أشهر فى كيركتونيا **Kerkenae** (٦٥). وهذه التعاقدات تبدو كنوع من الاحتكار المحلى ، ولكن تطبيق تلك الطريقة يتوقف على القروض المقدمة، فإن لم ترض قيمتها المسئولين فى المدينة تعاد لمسؤول النقابة ، وكانت سلطات الأقليم أحيانا تجبر الأفراد على العمل سنة وفقاً للعقد مع احتياجات المدينة، فأجبر طباخو لحم الخنزير على العمل لمدة سنة، وكذلك عمال البناء فى أكسرنخوس حيث صرح لهم بعد انتهاء مدة تعاقدهم بالرحيل، وكان عليهم إحضار ضامن للعقود ليتسنى محاسبته عند إخلالهم بالشروط (٦٦) ، وان لم يكن هذا الإجراء متبعا على نطاق واسع ، فالصناع كانوا أحراراً يمكنهم أن يتركوا إقليماً الى آخر وفقاً لرغبتهم ، ولكن الدوله قيدتهم بالالتزام بالارتباط بالعمل والنقابة .

وكانت النقابات تسجل فى مكتب اللوجيتوس "مسئول السوق"(٦٧) ، وعلى رئيس النقابة أن يرفع تقريرا شهريا إليه بما لدى النقابة من المواد الخاصة وقيمتها، وقدم النحاسون والخبازون فى أكسرنخوس إحصاء بما لديهم للدولة.

ولم يرد ذكر للنقابة فى العقود الخاصة بالبيع والشراء بالمشاركة فى الصناعة، ويبدو أنها تمت بمسؤولية شخصية كما اتضح فى عقد تأجير مصنع فخار فى أكسرنخوس ، ولقد اختلفت أجور الحرفيين وفقا لنوع حرفهم ونوعية العمل ، وكانت أحيانا نقدية وأحيانا عينية ، وأحيانا أخرى تجمع بين الاثنين (٦٨) ، فرسام حصل فى مقابل رسم صوره على إردب قمح وجرتين نبيذ ، وعمال البناء والرسامون والنقاشون كانوا يحصلون على أجورهم مقابل الذراع من المساحة، فحصل أحد عمال الفسفيساء على أجر مقداره ٥ درخمات على الذراع، والعامل فى صناعة السجاد ومواد الصباغة حصل فى العام على أجر مقداره ٤ صولد إلا خمسة قراريط .

وقد توقفت الأجور على نوعية العمل ودرجته كما هو واضح، وتنوعت الحرف، وأما الضرائب فكانت مسئولية رئيس كل نقابة وعليه دفع ضرائب طائفته ويقوم أحياناً بدفعها إلى epistates رئيس الضباط المسئول عن النقابات، وفى بعض المقاطعات كان هناك موظف مسئولٌ فى النقابة، وكانت ضرائب الحرف فى بعض المناطق التى ازدهر فيها النشاط الصناعى أعلى من تلك التى تجبى على الأرض ، وقد اختلفت الضرائب على الحرف من إقليم إلى إقليم، وترك تحديد المقدار لحاكم كل إقليم (٦٩) ، وهو تقدير سنوى يختلف من عام لعام، وإن كانت بعض الصناعات كصناعة النسيج تفرض عليها ضرائب يجرى تقديرها كل خمس سنوات، وكانوا يدفعون ٤٠٠ ميرادًا شهرياً للخزانة إلى جانب ٣٠٠ كل عام ، أى ١٢ ألف ميراد (٧٠) .

وكانت الضرائب تجمع فى السنة الخامسة أو العاشرة أو الخامسة عشر من الرسوم ، ونفس تلك المدفوعات ذكرت بالنسبة لنقابة عمال المطافىء والمخابز ، حيث دفع كل فرد فى النقابة ٥ قراريط ضريبة عليه، وقد ألغى أنستاسيوس هذه الضريبة .

وأشارت إلى ذلك قوانين جستنيان، ولكن يبدو أن هذا لم يطبق فى مصر، فدفع الصيادون والخياطون وعمال الحديد والبرونز ومبيضو الأقمشة ضرائب الحرف التى

ظلت قائمة إلى نهاية العصر البيزنطى . ولدينا قوائم مدفوعات تعود للقرن السادس، ولقد التزم الحرفيون ببعض الضرائب الفردية إلى جانب الضرائب التى تتعلق بإمداد الجيش والفرق القائمة التى تمد مصر بالمنتجات الصناعية (٧١) .

ولقد تحملت بعض القرى والأراضى نفقات وأجور وعمال المناجم والمحاجر، ولقد اشتهر عمال مصر بالمنسوجات وتوشيتها بطريقة القباطى؛ وهى تجمع على زخرفة من لونين أو أكثر بتقسيم الخطوط إلى مجموعتين متساويتين، ويجرى توزيعهما بالتعادل، وكان الصوف المصرى يأتى فى المرتبة الرابعة بعد صوف تارنتوم ولادوكيا وأوستريا ، وكان الصوف يزيد ثمنه بعد صبغه، ولقد وردتْ أسماء فلاحين وأمامهم أوزان من الصوف كمدفوعات يبدو أنها أخذت كضريبة استثنائية، ولقد داخل الغش الصناعة كما داخل أوجه الحياة لوجود تلك البيروقراطية المستقلة ، فكانت الدولة تمتلك عددا من مصانع النسيج والصباغة ، فلقد أشارت نصوص قانون ثيودسيوس إلى مصانع تتبع الدولة أهمل المشرفون عليها مراقبة الإنتاج وإعداد الصبغات الخاصة بالنسيج حيث داخلها الغش مما نتج عنه عيوب واضحة فى مواصفات النسيج .

"من خلال خطأ المشرفين على المال الخاص فإن إنتاج صناعة الصباغة ومؤسسات النسيج قد تضاءل مما أدى إلى تضاؤل دخل مالنا الخاص ، أما فيما يتعلق بأعمال الصباغة والصبغات فجرى خلطها ، وأنتجت أصباغ مليئة بالشوائب، وعلى ذلك فإن هؤلاء المشرفين سيحرمون من الحماية وحصلوا عليها عن طريق مراكزهم الإدارية، فإذا عارضوا الأوامر فسترفع أسماؤهم من قائمة الرومان وتقطع رؤوسهم ".

ولكن هذا لا يعنى أن صناعة النسيج أصبحت احتكارا حكوميا فقط ، بل كان هناك العديد من المصانع الخاصة، فقد أقام بعض الأفراد مصانع صغيرة فى منزله فذكر مصنع خاص لنسيج الصوف فى هيرموبولس فى منزل قائد إقليم أبوللونوبولس ، واستمر الأمر نفسه فى العصر البيزنطى، فوجد عدد من المصانع فى القرى والمدن الصغيرة فى المنازل (٧٢) . ولقد مارس البعض حرفة الغزل فى منازلهم لاستهلاكهم الشخصى ، ففى برديات متشجن يطلب شخص من زوجته إحضار عشر جرات صوف

لنسجها، ووجد عدد كبير من المصانع الخاصة فى كل من أكسرنخوس (البهنسا) وهيرموبولس (الاشمونين) وأنطونيوبولس (الشيخ عبادة)، ووصلنا العديد من عقود المشاركة فى صناعة النسيج والصباغة، وطبيعة العقود توضح أن العديد من المصانع كانت ملكية خاصة وليست حكومية، وهناك عقود شراء أنوال يدفع أثمانها أفراد عاديون ، وأجور عمال أحرار، فالاحتكار الوحيد كان فى مادة الشب ، وكانت الدولة قد قامت أحيانا بتأجير حرفة الصباغة أو النسيج فى الأقاليم لأحد الأفراد لمدة سنة مقابل سداد الالتزامات المالية، وذكر بلاديوس أن الرهبان قاموا بأعمال النسيج فى أديرتهم، وأغلب عمال تلك الصناعة أحرار، وإن كان هناك عدد من الإماء والعبيد وخاصة فى المصانع الخاصة والتى أقيمت فى المنازل .

ولقد عمل بالصناعة عدد من النساء ، فأغلب عمال مصانع الإسكندرية من النساء، كذلك عملت امرأة بحرفة تبييض القماش واستخدمت لديها عددا من العمال وأعطت أجراً لمن يعمل عندها نقداً ٢,٥ أردب من القمح .

وهذا الأمر ليس بالجديد؛ فالعديد من الرسوم الفرعونية تعبر عن نساء يعملن على أنوال وكانت مصانع الكتان فى مصر السفلى الإسكندرية وتنيس وديبو وشطا ودمياط ودلاص وأشمون وأرسنوى "الفيوم" وأسيوط وأخميم ، وكانت مصانع الحرير فى الاسكندرية وبانابوليس "أخميم" .

ولقد أثبت العمال مهارة شديدة فاشتهر النسيج المصرى بتعدد أنواعه بدءاً من العصر البطلمى الذى أنتج كتاناً رقيقاً اسمه pysos الملكى، وكذلك عرف باسم polymtia الزردخان؛ وهو نوع من النسيج المركب المزركش، وظل ينتج إلى العصر البيزنطى، وأنتج نوعاً من الصوف باسم المصرى ، وكانت الملابس توشى يدويًا، والغالبية على أنوال الزخرفة اليدوية، وكانت باهظة التكاليف، ومنذ القرن الرابع كانَتْ الزخارف على أنوال، ولم تذكر الزخرفة اليدوية إلا نادرًا، والطريقة المتبعة فى العصر البيزنطى القباطى، ولقد جرت الزخرفة بخطوط الصوف لا الحرير، والقطن أحيانا بخيوط ذهبية، ومن النقابات التى ألحقت بصناعة النسيج رابطة صانعى الجلود، وكان يعتمد أساسًا على جلود الماعز، وكانت تستخدم فى الغالب فى صناعة الأحذية، وكانت هناك أحذية من الجلد الأحمر والأسود، بالإضافة إلى المعاطف .

وكان البردى وصناعته من أهم الصناعات التى مارسها العمال فى مصر، ولم تنافسها أى بلد من بلاد العالم آنذاك، وللبردى أهمية بالنسبة للمصريين، فبنوا من سيقانه أول منازلهم، وقلدوها فى نقوش أعمدة معابدهم، واتخذوا منها أول فراشهم، ثم طعامها يستخلصونه من جذوره، واتخذوا منه أكفانهم الأولى، وبنوا منه مراكبهم ، وفى الحقيقة كانوا يلتمسون الحماية من التماسيح لاعتقادهم أن إيزيس حملت زوجها أوزوريس على سفينة من ورق البردى (٧٣) .

وصناعة البردى كانت غالباً ملكاً للحكومة، وتقوم بتأجيرها لمؤسسات أو أفراد يحصلون على امتياز التأجير . أما تجارة التجزئة فكانت حرة كما هو واضح، ولقد أمر جستنيان كتبة القسطنطينية استعمال أوراق تحمل شعارات الدولة فى التعامل الرسمى مع الإدارات الحكومية، وكانت أفرخ الورق تسمى Kolloma ، ولكنها لا تباع منفردة بل تلصق أطرافها بعضها ببعض بمادة خاصة فتكون لفافة طويلة، وكان الوجه يسمى Recto والظهر verso والفرخ الأول يسمى بروتوكول، وكان الشخص يشترى اللفافة ثم يأخذ ما يحتاجه ، وتذكر البرديات أسعار البرديات ونوعيات الكتابة ودرجات الكتبة، الكاتب من الدرجة الأولى تقاضى عن ١٠٠٠ سطر ٢٥ دينارا وكانت درجة ثانية واختلفت الأجور وفقا لكفاءة الكاتب، كذلك استعمل الورق ولكن كان استعماله محدود النطاق (٧٤) ، وكان الرهبان فى الأديرة على دراية بصناعته، والزجاج كانت الإسكندرية المركز الرئيسى للصناعة، ولكن تواجدت مصانع – أيضًا – فى أرمنت ووردت أسماء عمال زجاج فى هرموبولس، وأشاد بتلر بشهرة وادى النطرون .

واشتهرت الأديرة بصناعته؛ وكان دير القزاز ويرجع تاريخه للقرن السادس، كذلك فى دير القديس مينا، ولقد حدد قانون عام ٣٣٧م بإعفاء نافخى الزجاج وقاطعيه من الأعباء لصعوبة عملهم .

ومن الصناعات الشهيرة التى ذكرها بلبيس فى مصر استخراج العطور، وكانت المرأة التى تستعمل العطور إذا سارت أمام الناس انبعثت لها رائحة ذكية، وكانت الأخشاب تحتكر فى العصر البطلمى، وتنوعت الأخشاب كشجر الشربين والنخيل وأشجار الجميز، وإن لم يستعمله المصريون كثيرا، وكذلك شجر اللبخ والسنط للسفن،

ولقد برع النجارون فى صناعة الأثاث وقوائم عقود الزواج وبعض القوائم الأخرى الخاصة بالميراث تحوى ذكر أسرة وأرائك ومقاعد ومناضد، بعضها طعم بالصدف والعاج وطعم بالصلاف، كذلك صنعت أغلب الأوانى المستعملة فى الصناعة من الخشب كالأدوات الخاصة بالنسيج والأدوات المستعملة فى الزراعة وبالمتحف القبطى عدد منها، وليس أدل على براعة النجارين فى مهنتهم من أن أبواب الكنائس كان يمكن تجميع أجزائها بعضها إلى بعض دون استعمال المسامير أو الغراء، وأن بين كل حشوة وأخرى قد تركت مسافة كافية لما قد يحدث عادة فى الأخشاب من تمدد وانكماش ، وفتح باب الاهتمام بالتجارة الداخلية والخارجية، وزاد الاهتمام بصناعة السفن وكان بحارة السفن البحرية يتقاضون ٦٠ دينارا ، أما من يعمل فى السفن النهرية فيتقاضون ٥٠ ديناراً (٧٥) .

وكان هناك عدد كبير من الحرفيين فى جميع عواصم الأقاليم، وكان بعض الحرفيين يتقاضى أجره وفقا للعمل اليومى كما فى مرسوم دقلديانوس، أو وفقاً لنوعية العمل، أو وعند إتمامه ككل ، وكان بعضها نقداً والآخر عينا، فحصل النجار فى ضيعة أبيون فى القرن السادس على أجر سنوى مقداره ٥,٥ أردب و٦ أقداح سنويًا .

وكان الفخار من الصناعات الهامة التى برع فيها المصريون، ولقد اتخذت علامات مسيحية كجرار النبيذ والزيت، وكانت تغطى فوهتها بسداد من الطمى الممزوج بقليل من التبن وتختم حافتها بعلامة على شكل صليب فى الغالب ، كذلك استخدمت كجرار لحقول الغلال، وأوعية يصنع فيها الباعة منتجاتهم، وكقدور للطهى، وأكواب وأطباق لوضع عدد من الأطعمة على نحو يصل إلى تسعة أو عشرة يستعمل لوضع عدد من الأطعمة بدل استخدام عدة أطباق، ووجد فى إدفو وكوم أوسيم وسقارة عدد كبير من تلك الأوانى، وكان باطن الأوانى الفخارية وخاصة ما يستعمل فى ضغط السوائل يدهن بالقار ليخف الترشيح كذلك ، وصنعت المسارج، وكانت تحمل اسم مالكها واسم الكنيسة أو الدير الذى استعملت فيه المسارج، وقد يوجد عليها اسم أو حرف قبطى يرمز إلى المصنع الذى صنعت فيه، ووجد عدد كبير منها فى أهناسيا ، كذلك عمل الحرفيون فى الصناعة الغذائية .

واشتغلوا بعصر الزيوت والنبيذ وتقاضى بعض العمال جزءًا من أجورهم فى شكل نبيذ أو زيت .

كانت صناعة الخبز من أهم الصناعات، وكان هناك موظفون **Eutcheniarch** عليهم إمداد المطاحن بمقدار من القمح يوميا ، وكانت عملية صناعة الخبز تمر بمرحلتين : الطحن ، وصناعة الخبز ، وتملكت الدولة عددا من المطاحن ، كذلك تملكت الكنائس عدداً آخر إلى جانب المطاحن الخاصة .

وكان من يمتلك طاحونة يلحق بها عادة مخبزا؛ ففى أكسرنخوس كان على أصحاب المخابز إبلاغ مسئول الشون **logistes** بما لديهم من الغلال المطحونة وكان الخبز يباع بالرطل، وكان الجندى يحصل على أربعة أرطال خبز يوميا (٧٦) . وصنعوا حلوى وفطائر بأشكال مختلفة، ولفترة قريبة كان الخبز بالرطل فى بعض مدن الوجه القبلى، وأما فى المنازل فإنه كان يجرى طحن الغلال بمطاحن يدوية وإعداد الخبز فى الأفران المنزلية ، وفى المتحف القبطى طاحونة حجر بدائية وقادوس حيث عثر على عدد كبير منها بمنازل القرى وحتى بعض الأديرة الصغرى .

واستُغِلّ عدد من العمال فى المناجم التى خضعت لإشراف الدولة وسيطرتها، وسخر المجرمون للعمل فيها إلى جانب أعداد كبيرة من العمال الأحرار، بعضهم عمل فيها عن طريق السخرة وبعضهم بعقود حيث دفع لهم أجرة مقابل عملهم .

وفى الجزء الأول من القرن الرابع ذكرت مدفوعات مالية أو ضرائبية فرضت على الفرد خاصة للمحاجر والتعدين، وانتشرت المحاجر فى العصر البيزنطى فى ميوس هرموبولس " أبو شعر قبلى "و انطونيوبولس وأرمنت وكلابشة وأخميم، وذكرها استرابو كمنطقة قديمة للحجارة، رغم استمرار محاجر الألبستر والجرانيت فى العمل فإن إنتاجها يبدو محدوداً، أما الأبنية فاعتمدت أساسا على الحجر الجيرى والرملى ، فنشأت القرى واحتفظت بطابعها المحلى ، وبنيت أغلب دورها من اللبن والأغصان الخشبية ، ولقد اهتمت الدولة بصيانة وتجديد المبانى العامة سواء فى العاصمة أو الأقاليم ، وإنشاء الجديد منها مثل الحمامات ومبانى السناتو وحلقات السباق،

واهتمت بزخرفتها وتزيينها بالإضافة إلى اهتمام الأفراد من الطبقتين العليا والوسطى فى العواصم بإنشاء المنازل وتوفير وسائل الراحة (٧٧) .

وكان أمر الإشراف على المنشآت العامة يوكل إلى مسئول السوق logist ، فكان عليه استئجار العمال اللازمين للقيام بأعمال الإصلاح والترميم وعمال البلاط والرسامين لطلاء ورسم الحوائط وتزيينها، وكانت المواد المستعملة كالقصدير والحديد والرصاص، ويخضع عمال كل طائفة لنقابة ،فهناك نقابة الحدادين وعمال البرونز (٧٨) .

وضمت الطبقة العاملة موسيقيين وراقصين ، حتى فى القرى فإن هذه الطبقة العمالية مثلت الطبقة الرئيسية من العامة فى عواصم الأقاليم، وهى مسخرة لخدمة احتياجات الطبقات الأخرى، ولقد ساهمت الكنائس بدور فعال فى الحركة الصناعية، وخاصة صناعة النبيذ والزيت، بل والزجاج وبعض الصناعات المعدنية .

طبقة رجال الدين والمسيحية

رغم أن المسيحية أصبحت الديانة السائدة فى جميع عواصم الأقاليم فقد ظلت بعض بقايا معابد وثنية فى النصف الثانى من هذا القرن ؛ فتشير بعض البرديات إلى وجود عدد من المعابد لأثنيا [٧٩] ، لزيوس وهيرا[٨٠] . ولقد ورد اسم معبد لهادريان فى القرن الرابع ، فذكر رجل يعمل بتجارة الصوف بأنه إن لم ينفذ طلبه فسيلجأ إلى معبدها هادريان، ولقد اعتاد الناس القسم بالإمبراطور فى الالتماسات المقدمة، ولقد وصلت المسيحية إلى مصر منذ القرن الأول، ومع ذلك فإننا لا نجد إشارات لها فى برديات القرن الأول، إنما وجدت إشارات طبقية منذ بداية القرن الثانى، والبرديات الأدبية فى أوائل القرن الثالث تشير إلى انتشار المسيحية فى مصر الوسطى والعليا .

ويرتبط بالمسيحية ظهور الرهبنة؛ وهذا النظام استحدثته مصر، وكانت هبتها الحقيقية للمسيحية ، وكان أول الرهبان من صعيد مصر وهو بولس الطيبى ١٥-٢٧م من إقليم طيبة، وأنطون مؤسس الرهبنة الفردية ولد بكوما العروس بمصر الوسطى ، وباخوم ٢٨٥-٣٦٦ من بانابولس "أخميم" مؤسس الديرية الجماعية بنى ديراً فى قنا، والتف حوله العديد من الرهبان، وتطورت الديرية على يد باخوم وانتشرت ، وبلغت صرامة القواعد التى وضعت للرهبان ذروتها على يد شنودة الإخميمى، ولقد أكسب هؤلاء الرهبان العقيدة المسيحية طابعا قوميا مصريا فى هذه الفترة، وقد شهدت هذه الفترة ظهور الكتابة القبطية على نطاق واسع، وهى آخر صورة من صور اللغة المصرية، وهى الأبجدية الإغريقية بعد إضافة ست حروف إليها فى كتابة النصوص المصرية، وبعد اعتراف ثيودسيوس الأول بالمسيحية كديانة رسمية للدولة قام الرهبان بالسعى للقضاء على جميع منشآت العالم الوثنى السابق، والموقف المعادى لكل ما يتصل بها من أفكار، فقاموا بمهاجمة المنشآت الوثنية والتعدى على الأهالى من الوثنيين، فمازالت هناك بقايا وثنية تحاول الاحتفاظ بالموروث القديم، وقام ماكريوس

أسقف تكوا Tkoau وجماعته باجتياح القرى وحرق المعابد وتحطيم ستة وثلاثين من تماثيل الآلهة والتخلص من الكاهن الأكبر، وقام شنودة الأخميمى بحرق المعابد فى بانابولس "أخميم" فشكاه أهلها للحاكم الذى استدعاه إلى أنطونيوبولس حاضرة الإقليم لسؤاله .

والمسيحية كانت قد امتدت جذورها فى حياة مصر وأقاليمها وأثرت تأثيرا كبيرا ، فتحولت المعابد تدريجيا إلى كنائس فى كل من أكسرنخوس وهرموبولس وأنطونيوبولس وازدادت أعدادها خاصة فى عهد فالنز ، واتسعت أملاكها نتيجة هبة الأباطرة والأفراد حتى أصبحت تعد من كبار ملاك الأقاليم (٨١) .

ومن ذلك قيام فلافيوس فيبميون كبير أطباء أنطونى بمنح أراضى مزروعة كروم لدير القديس جريما ، كذلك وهب أحد ولاة أركاديا فى القرن السادس أرضا للكنيسة ، وتضم مجموعة بردى Grum كروم عدداً من الوصايا عبارة عن هبات من رجال ونساء للكنيسة .

واحتوت سجلات أبيون كبير إقطاعى أكسرنخوس وأمينوس من كبار ملاك أنطونى ، هبات للكنيسة ، كما تضمنت وثيقة أمونيوس هبات لدير، بل إن جزءا من أراضيه كان مؤجراً إلى دير ، ولإظهار تقواهم قام كبار الملاك بدفع هبات للرهبان مثل ما فعل أبيون بهباته لدير برختس Pructhes، البرشا ، ودير بركا Berk، وتقع كلها فى نطاق أكسرنخوس " البهنسا " ، ولقد كان للرهبان مكانة خاصة بالنسبة لعامة الشعب، فحياة التقشف والعزوبية جعلتهم محببين لنفوس العامة، وكان يطلق عليهم فى بيزنطة كلمة الرجل الطيب العجوز . فكان تأثيرهم على جموع الشعب لا يمكن تجاهله، ولذلك فقد شعرت الدوله بخطورتهم وحاول الأباطرة التقرب لكبار الرهبان كأنطونيوس ، وإذا كان المصرى بطبيعة تكوينه أميل الى الدين، فهذا يوضح آلاف الأديرة التى انتشرت عبر أراضى مصر ، ولم تكن قاصرة على الصحراء، بل امتدت عبر مدن مصر، وأصبحت الأديرة والكنائس من كبار ملاك الأراضى لما حصلوا عليه من هبات من أفراد على جميع المستويات تقربا الى الله ، ويلجأون الى الأديرة وقديسيها الذين أصبحت تقام لهم أعياد خاصة كأبى مينا وديره الشهير والماء المجاور له، الذى اتخذه وسيله للاستشفاء، وكان يلجأ إليهم قبل إبرام العقود، وفى الاستشارات عن مدى نجاح

الزيجة، وللشفاء من الأمراض، ولطلب المغفرة، فأصبحوا يمثلون جزءًا رئيسيًا فى فكر الطبقات العامة، بل والخاصة، ومن هنا نمت ثروة الكنائس والأديرة، وأصبحوا طرفا فى عقود أراضٍ كانت جميعها ملكًا للكنائس والأديرة ، وتولى الرهبان تحرير العقود، وقام الرهبان أنفسهم بعقد صفقات تجارية، فهناك إشارة إلى عملهم بتجارة نبيذ وعقد اتفاق بشحن النبيذ الى الإسكندرية ، فقد مارس الرهبان فى الأديرة كجزء من برنامجهم ساعات للعمل، فعملوا فى مزارعهم وحقولهم، وكانت الأنظمة الباخومية أو الديرية الجماعية تتضمن تخصيص ساعات للعمل، يتناوب الرهبان العمل فى الحقول الخاصه بهم ، والمطحنة وإعداد الخبز، يتساوى فى هذا الجميع، وكانت أجود أنواع الحبوب لديهم الكروم، واستغنت بعض الأديرة وفقاً للوثائق عن الوسيط، وشحنت منتجاتها إلى العاصمة الإسكندرية .

وتمتعت الكنيسة فى القرن السادس بحق الجباية الذاتية، فقامت بجمع ضرائب من مؤجرى أرضها ، وتشير إيصالات عديدة إلى دخل الكنائس مثل كنيسة أنطونى وأبوديوس واستأجر ديسقورس شاعر أفروديتو أراضٍ من دير أبوساويرس، وكانت الكنيسة تستعين بجباة تابعين لها فى هرموبولس الأشمونين، وهذا يؤدى إلى إثارة سؤال : هل كانت أراضى الكنيسة معفاة من الضرائب ؟ .

أولا: الأراضى التى كانت عن طريق هبة من الأمبراطور كانت تتمتع بالإعفاء العام، أما أراضى الحيازة فقد رفعت عنها الضرائب ، وكذلك الأراضى التى وصلتهم عن طريق هبات فورية أو بالشراء ، وكذلك دفعوا ضرائب للفرق العسكرية، كما ورد فى سجلات أنطونى ، وحاول جستنيان فى المرسوم الثالث عشر الحد من حق الحماية التى تمتعت بها الكنائس، فلقد استغل البعض حق اللجوء الى الكنيسة الذى منحته الدولة، فقد لجأ الى الكنائس عدد من المتهربين من دفع الضرائب والمختلسين، وطالبت الدولة من مسئولى الكنيسة ألا يعطوا حق اللجوء الا لكل من يحصل على إيصال بتأجيل الضرائب من الموظفين المسئولين، على أن يتعهد بسدادها .

ولقد ازدادت أعداد الكنائس والأديرة زيادة كبيرة مع انتشار المسيحية، مما يعكس وضعاً دينياً واجتماعياً قائماً، ولقد ذخرت برديات الفترة بأسماء الأديرة؛

ففى أنطونيوبولس ورد ذكر أكثر من عشرين ديراً وكنيسة، فهناك كنيسة أبو كريستفور Apo Christophor و كنيسة الثلاثة قديسين وكنيسة الرومان وكنيسة أنطونى ودير القديس فكتور ، ودير بيتو ، ودير زمين Zmin و دير جيرميه .

أما عن أكسرنخوس (البهنسا) فيذكر " فينوس " مؤرخ الكنيسة فى القرن الرابع أن المدينة تواجد بها عشرة آلاف قس وعشرون ألف راهب واثنتا عشرة كنيسة، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة فى عدد الرهبان والقسس لو قسناها بتعداد أى مدينة آنذاك فهو يدل على مدى انتشار المسيحية، وتذكر بعض الروايات أن السيدة العذراء والمسيح كانا بالبهنسا ثم انتقلا للقدس (٨٢) .

ولقد تم العثور فى البهنسا على بردية كانت عبارة عن تقويم كنسى يرجع إلى القرن السادس الميلادى ؛ واشتمل هذا التقويم على قائمة بالأعياد الدينية التى احتفل بها أهل المدينة ورجال الكنيسة فيها . ودارت تلك الاحتفالات حول أعياد حنا الإنجيلى والقديس ميخائيل والقديس كوزماس والعذراء ، ولقد تردد اسم دير برشا Prieches ودير بركا ودير أبوللوس ودير القديس جورج المسمى أبوسيمونيوس ودير أندرياس (٨٣).

ولقد وجد بأنطونين عدد كبير من الأديرة مازال بعضها باقياً إلى الآن بالصحراء ومحتفظاً بنقوشه وألوانه بل بملابس رهبانه ، وفى أعلى الجبل الشرقى فى أبو حنس وتنسب الى أبو يحنس القصير والتى كانت تقع فى نطاق إقليم أنطونيوبولس، ويوجد دير باسم يوحنا الراهب محفور فى الصخر ويرجع تاريخه الى القرن الرابع ، وبالجبل عدد من المغارات الواسعة المنحوتة فى الصخر بها بقايا نقوش وصلبان ودير ميناس (٨٤) الموجود فى ثيود بولس " طحا " وكنيسة البازليكا فى الأشمونين ، ودير بوهور الموجود على بعد ثلاثة كيلو مترات من المنيا . ويعود للقرن الرابع وينتسب إلى بوهر الراهب الذى يقال إنه استشهد فى أيام الرومان، ودير أبو فانا قرب ملوى فى منطقة جقرمور، ويشبه فى بنائه الحصون التى تبنى للحماية من اللصوص وقطاع الطرق، ويرجع للقرن الرابع أو الخامس، ووردت فى العصر الإسلامى أسماء أديرة ، كدير تادرس المشرقى ،

وبيعة أبو شنودة والأنبا الطوبانى ، ودير الخادم ، وبيعة المنشأة ، وكنيسة الماء ، وفيها عيد للشهداء وعددهم واحد وأربعون شهيداً ينسبون لعهد دقلديانوس.

ومن الأديرة الباقية الى اليوم دير الديك ، ودير سنباط ، ودير الهواء ، ودير النصارى إلى جانب عدد من المغارات فى أنطونيوبولس ، وكانت تجرى فى المدن والقرى والاحتفالات بأعياد هؤلاء القديسين مثل عيد أبو بطمان Apo pateman فى أنطونيوبولس (٨٥) ، ولقد عهد نفر من الناس بأبنائهم لأشراف الكنيسة ، مثل كبير أطباء أنطونى حيث وضع أولاده تحت وصاية الرهبان ، ووهب عدد آخر من الأشخاص نفسه لخدمة الأديرة عند ميلادهم نتيجه لنذر سابق أو بعد إصابتهم بمرض (٨٦) .

وأغلب خطابات ذلك العصر تبدأ بذكر المسيح والعذراء وتطلب البركة، وكذلك العقود تبدأ بالقسم بالمقدسات الثلاث وقولها إلى جانب الأدعيات العديدة " يا إلهنا بحق الصلبان التى تحمينا ساعد عبدك أفبوس ، أو يا الهى انظر إلى يكلا " (٨٧) .

والعديد من الخطابات الموجهة لرجال الدين والكنيسة تدل على مدى تأثيرهم على عامة الشعب، فكانوا هم الملجأ الفعلى واحتفظوا بشعبيتهم سواء سكان العواصم والطبقات الوسطى والدنيا ، ومثلت الأعياد الدينية جزءاً من التكوينة النفسية للشعب، فالاحتفالية يشارك فيها الجميع سواء الطبقة العليا والوسطى التى تأثرت بالفكر اليونانى، ولعب الدين المسيحى دوراً رئيسياً فى منظومتها الفكرية ، وعدد من أحرار الطبقة الوسطى إلى جانب اليونانية والقبطية وخير مثال ديسقورس المحامى فى أفروديتو صاحب الشكاوى الشهيرة ضد موظفى الحكومة .

أما عن الاتجاهات الفكرية فى ذلك ، فحسبنا الإشارة إلى أن الرهبان كانوا يمقتون الثقافة الإغريقية، وأن السواد الأعظم من أتباع الكنيسة المصرية كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة ، وإن كان معناه مؤزارتهم للحركة القومية التى تقف موقف العداء من الثقافة السائدة فى العاصمة الإمبراطورية .

ومن الواضح أن الحضارة الهلينستية كانت تحتضر فى القرن السادس، ولكن موتها كان بطيئاً لأنها عاشت طويلاً قبل أن تلفظ أنفاسها، وإذا كانت الهلينية ماتت فإن المسيحية أيضاً أخذت تنمو وتتضح تدريجياً ، إلى أن أصبحت لغة وفكر غالبية الشعب،

ومع نهاية القرن السادس أصبحت القبطية لغة الكنيسة المنتصرة وهى اللغة الغالبة فى عواصم الأقاليم .

وهناك عبارة للمؤرخ بتلر تعكس الصورة الحقيقية عن اللغة والأدب القبطى فى مصر " لا يستطيع أن يفاخر بالشعراء العظام أو المؤرخين والفلاسفة ورجال العلم الذين كتبوا بالقبطية، " ويقصد مقارنتهم بالأدباء اليونان " فالأدب الوحيد لديهم ذو طابع دينى، وينبغى ألا نعتبر عدم امتلاكهم لسحر الكلام أو كنوز المعرفة سبباً لمعاملة لغتهم بعدم اكتراث عجيب لا تستحقه، لأنها لغة لا تباريها لغة أخرى فى عراقتها وبنائها غير العادى وتاريخها الفريد .

إن السجلات التى تعود إلى خمسة آلاف عام مضت منحوتة على آثار مصر ، وما زالت الكلمات التى نطق بها عظماء أثينا تدرس بالرغم من أنها لم تعد تكتب بنفس طريقة الكتابة القديمة، إلا أن هذين الاثنين وهما الكلام المصرى القديم الفاقد للنطق والكتابة الإغريقية القديمة الفاقدة للحروف ممتدان ومحفوظان فى اللغة الحالية، ولا يستطيع الخيال اللغوى أن يمضى إلى أبعد من ربط حديث الفرعون وكتابة هوميروس فى كتاب الصلوات الذى يستخدمه المسيحى المصرى » .

أما المفردات فهى ليست آرية صرفة ولا سامية صرفة، وإنما خليط بين الاثنين، وبالطريقة نفسها نقول إن البناء النحوى للغة القبطية نصف سام ونصف نسيب للغات الأفريقية .

واللغة القبطية جزء هام من التكوينة الدينية لهذه الفترة، فهى اللغة التى استعملها رهبان مصر والكنيسة، ومن ثم أصبحت لغة العامة بل والطبقات الوسطى والعديد من الفئة العليا أصبحت مرتبطة بالمعتقد .

وتعتبر اللغة القبطية هى آخر مرحلة فى تطور اللغة المصرية بعد أن استبدلت رموزها المصورة بأحرف يونانية مع الاستعانة بإضافة سبعة أحرف من الحروف الديموطيقية لم يكن ما يماثلها فى اللغة اليونانية، وسنجد تقارباً بين مفرداتها ومفردات الكلمات القبطية نوتى القبطية تعنى الله وهى نتى الفرعونية ، أنخ بمعنى حياة عنخ ، أرب بمعنى نبيذ، وهى نفسها بالمصرية القديمة ، نوب بمعنى ذهب هى نب ، كيمى

بمعنى مصر هى كمت ، خيمى بمعنى يجد هى حم ، خود بمعنى يقبل هى حدب، المفردات القبطية تتشابه مع الفرعونية مما يشير انها المرحلة الأخيره منها ، هذا الارتباط بالماضى والاستمرارية التى هى من مكونات الشخصية المصرية مع الاستفادة من الجديد واستيعابه فى بوتقة الفكر المصرى هو الطابع الواضح .

وقد يتساء ل البعض لما لجأ المصريون الى اليونانية التى يبغضونها لتكون لغتهم ؟؟

والإجابة تتمثل فى أن اللغة القبطية تكونت من أربعة وعشرين حرفا أضافوا إليها سبعة أحرف أخرى من الديموطيقية وسبب اتخاذ الأقباط للأبجدية استبدلوا الرموز الصورية الهيروغليفية بحروف الهجاء اليونانية، لأن الكتابة الديموطيقية (٨٨) التى هى آخر تطورات الرموز الهيروغليفية كانت غاية فى الصعوبة والتعقيد وتمت إلى عهد الوثنية والسحر، وكانت الكتابة باليونانية أسهل من الديموطيقية وشائعة فى التداول فى مصر وخاصة بين الطبقتين العليا والوسطى من سكانها، كما أنها لغة الحكومة والطبقة المثقفة فى البلاد أثناء العهدين اليونانى والرومانى، كما أن الإنجيل كان قد كتب أولاً باليونانية، وأضيفت سبعة أحرف من العلم الديموطيقى للتعبير عن أصوات خاصة باللغة المصرية القديمة لم يكن هناك ما يماثلها باللغة اليونانية، وقد احتوت اللغة القبطية على لهجات عديدة تشكلت حسب الإقليم كما هو حادث اليوم بالنسبة للعامية المصرية واختلاف اللهجات، ونفس الأمر فى المصرية القديمة (٨٩) .

اللهجة البحيرية :

مستعملة فى إقليم مصر السفلى ولابد أنها استعملت فى زمن العائلة الصاوية السادسة أيام انتقال الحكم من طيبة إلى صالحجر ، ويرى مراد كامل أن اللغة أخذت فترة لكى تصل إلى صورتها النهائية، وأن أول وثيقة مصرية ترجمت إلى الحروف الأغريقية حدثت فى قرن ونصف قرن قبل ميلاد المسيح ، ويرى أن المصريين كتبوا لغتهم بحروف يونانية، وكان ذلك فى العصور الوثنية بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثنى؛ لغتها مصرية، وحروفها يونانية، أما الحروف التى أُضيفت فهى

ساى (س) خاى (خ) هورى (هـ) وجما (ج) وتشيما (تش) وتى (ت) . وأن هناك محاولات فردية من المصريين للتدوين ، وترجع أصول أول النصوص القبطية إلى القرن الثانى الميلادى، وقد كتبت بها أناجيل، وتحمل أوراق بردية صلوات للقديس بولس القبطية تعود لعام ٢٠٠ .

و لقد وصلت إلى صورتها النهائية على يد الأنبا شنودة الأخميمى الذى عرف أهمية اللغة كدعامة من أخطر دعائم القومية، فعمد إلى القبطية ونهض بها حتى أصبحت لغة وطنية صالحة للكتابة، وكان ذلك منشأ الأدب القبطى؛ ويمثل شنودة الروح المصرية المرتبطة بوطنها، فلقد قصر أديرته على الأقباط ورفض اليونان، وبينما كانت الكنائس بأخمـيـوس للرهبـان إلا أن شنودة فـتح كنائس الدير للشـعب . هنا نرى شخصية مصرية تحاول الانغلاق على ذاتها ضد ثقافة وفكر ترى أنه يتعالى عليها، فهى إذن مرحلة الإنسلاخ من التراث الهلينى الثقافى، وهى بخلاف المرحلة السابقة التى تغلبت فيها الثقافة اليونانية على مستوى العاصمة وعواصم الأقاليم .

وقد أدى القهر الإنسانى على المستوى الاجتماعي والاقتصادى إلى فترة انغلاق على الذات وإيجاد خصوصية مصرية ربما قدمت فكرا أقل ثقافة وإبهارا بسيطا إذا قورن بالمعارف التى قدمتها مدرسة الإسكندرية اللامعة، ولكنه يقدم خصوصية مصرية؛ وهى فترة مرحلية وليست دائمة، ولقد كون رهبانها ورجالها مؤسسة خاصة التف حولها العامة كنوع من الخلاص .

وانقسمت اللغة كما ذكرت إلى لهجات عدة :

البحيرية :

لهجة مصر السفلى والأراضى المجاورة للبحر، وهى اللهجة التى وصلت لدرجة اللغة الأدبية واستعملت فى الإسكندرية، وكانت اللغة الرسمية للكنيسة وبطارقتها فى الإسكندرية .

لهجات مصر العليا :

الصعيدية نسبة إلى الصعيد، وهى لهجة طيبة وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلى وكانت تسمى بالطيبية .

الفيومية :

انتشرت فى الفيوم، والأخميمية تكلم بها أهل مدينة أخميم، وقد فتحت المجال للصعيدية. هذه اللهجات الأربع هى اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض اللهجات .

اللهجة المنفية:

نسبة إلى منف، وحلت محل البحيرية والأخميمية الفرعية ، الأسيوطية انتشرت فيما بين البهنسا وأسيوط والبشمورية اشتقت من البحيرية، وقد ذكرها العلماء ولكنها ضاعت، ويرجح أنها لهجة قبطية تكلم بها اليونان فى شرقى الدلتا وكتبت بحروف يونانيه عادية ، واشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نفر منها فى البحيرات بالواحات الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالواحات .

كانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات اندمجت بعضها فى بعض كما نلاحظ أيضاً فى البحيرية ، ويذكر د.مراد كامل أن الدليل على ذلك وجود صيغ مختلفة للكلمة الواحدة ، ويلاحظ على اللغة القبطية أنه دخلت عليها مفردات وتعبيرات ثقافية وبخاصة فى العصر المسيحى ، وأبدلت بعض الكلمات وخاصة الحروف السائلة، كما دخل التعديل على بعض الكلمات مثل أبتى بدل من بت أى سماء ، وكتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة، ولم يعرف الخط القديم إلا الحروف الصامتة ، واللهجة الصعيدية رغم بعدها عن مركز الحياة اليونانية استخدمت العديد من الكلمات اليونانية أكثر من الموجود باللهجات الأخرى التى تعتبر أقرب منها على هذا المركز ، وغالباً ما توجد الكلمات اليونانية التى تكتب فى كلا اللهجتين عندما

تكون اللهجتان متعادلتين، وتوجد نسخة كاملة من الكتاب المقدس مكتوبة باللهجة الصعيدية والكنيسة الآن تستعمل البحيرية (٩٠) .

و ارتبط انتشار هذه اللغة بانتشار المسيحية ورهبانها، ولقد ظلت اللغة مستعملة كلغة أدب وكتبت فى الوثائق الرسمية والعقود، ويرى بتلر أن اللغة انتشرت على المستويين الشعبى حينما زاد نفوذ الأساقفة المسيحيين وأصبحوا يقبضون على السلطة المدنية ، كما انتزعوا مهمة توزيع القمح على الأهالى من بين براثن الدولة كعنصر آخر من عناصر السلطة .

ومن المؤكد أن القبطية استعملت منذ القرن الثالث وكانت أديرة الصحراء فى القرن الثالث والرابع مكتظة بالراهبات الذين كان معظمهم لا يتحدثون سوى اللغة الوطنية (٩١) . ولذلك فإن القديس أنطونيوس الذى لم يكن يعرف اليونانية هو أول من أرسى أصول التفكير فى الحياة الديرية بالاستماع إلى قراءة الإنجيل باللغة القبطية، ويتحدث Palladius عن المقدسات والاحتفالات المنظمة التى حضرها والتى تعنى ضمنًا إقرار الأشكال التى كتبت بها اللغة القومية، وعلاوة على ذلك فإننا نعرف أن المزامير ترجمت إلى اللغة القبطية نحو ٣٠٠م بمعرفة القديس بأخميوس، وبالرغم من أن هذا التاريخ يكون هو أقدم تاريخ مؤكد، فإنه من الصعوبة بمكان تصور أن الحاجة لوضع صيغة مقدسة للكتابة لم تعلن عن نفسها خلال فترة سابقة على هذا التاريخ دون أن تلقى المقاومة، ومن المحتمل طبعاً أن تكون أقدم أشكال الصلاة باللغة القبطية، وكتبت ليس بالحروف اليونانية بل بالحروف الديموطيقية ، وبتلر يرى أن اللغة الهيروغليفية لم تكن مهجورة تماماً على أيام القديس أكلمنص السكندرى، وأنها ظلت معروفة مدة تزيد عن قرن (٩٢) ، ولكن طابعها الوثنى أخرجها عن نطاق المعرفة لدى المسلمين، وهناك قصة معاصرة للفترة تقول أنه أثناء غزو كسرى لمصر حوالى عام ٦١٦م للميلاد كان أحد الرهبان الذى احتمى فى أحد القبور قادراً على قراءة النقوش المدونة على الحوائط، ولكن من المحتمل أن تكون الكتابة قد كتبت بالديموطيقية وليست بالهيروغليفية، ويحتوى الدير الأبيض بمصر العليا والذى شيدته الإمبراطورة هيلانة وجعلت شكله الخارجى حسب طراز العمارة المصرية القديمة على العديد من الأحجار

التى تتضمن نقوشاً هيروغليفية فى وضع مقلوب ، كما يفيد أن البنائين لم يكونوا على دراية بهذه اللغة ، ولقد ظلت بقايا اللغة المصرية قائمة فى العصر المسيحى مع القبطية، فيقال أن سفريوس Severus جمع كتباً عدة خاصة فى السحر واللغة المصرية وأغلق عليها قبر الإسكندر، وأن دقلديانوس جمع كتب الكيمياء وخاصة ما يتعلق بتحويل بعض المعادن إلى ذهب، والتى كتبها المصريون القدماء وأحرقها فى ميدان عام، وبالطبع فإن هذه الكتب مكتوبة بالخط الديموطيقى .

و لقد شقت القبطية طريقها بسرعة، ويذكر أورجين أنه عندما كان اليونانى يريد أن يعلم المصريين كان يضطر إلى دراسة لغتهم أولاً ، وإلا كان جهوده تضيع سدى، والأمر نفسه عند الأدباء الأوائل من المسيحيين، فبعض رجال الدين كان يعرف اليونانية فقط، والبعض المصرية القبطية، فالأنبا بولا الناسك كان يتحدث اليونانية والقديس أنطونيوس لم يكن يعرف إلا اللغة القبطية، وكانت رسائله إلى الأديرة مكتوبة بهذه اللغة، وعند لقائه بالأنبا بشوى لم يستطع كلا القديسين أن يتحدث مع الآخر، لأن كلاً منهما لم يكن يعرف سوى لغته القومية، وتعد فترة رئاسة شنودة للدير الأبيض سنة ٣٨٣ م الفترة التى أضحى فيها مركزاً للأدب القبطى، وعندما فتح مصر كانت اللهجة الصعيدية هى لغة الأدب القبطى عامة، وظلت مستعملة إلى عهد عبد الله بن عبد الملك، حيث أمر أن تكتب السجلات والدواوين باللغة العربية بدلاً من القبطيه ذلك عام ٩٦ هـ وحتى ذلك الوقت كان نظام حفظ الوثائق فى مصر أحد الإجراءات التقليدية فى يد القبط [٩٣] .

ولو حاولنا وضع إحصائية لهذه الطبقة التى تركت تأثيرها فى عواصم الأقاليم ذكر بلاديوس أن عدد الرهبان فى الإسكندرية ٧,٥٠٠ راهباً بالإسكندرية ووادى النطرون ، ومثلهم بالصعيد فى طيبة، بالأضافة إلى عشرة آلاف فى أرسنوى Arsinoe مدينة التمساح بالفيوم ، وذكر روفنيوس أن هناك عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهب بإكسرنخوس وعشرة آلاف فى الفيوم، وذكر كاسيان عدد ٥٠,٠٠٠ فى سكتيا وذكر جيررم أن عددهم ٥,٠٠٠ ويذكر مؤلف كتاب القديس مرقص أن هناك تقارير تعود لعام ٣٩٤م تفيد بأن سكان الصحراء بحجم سكان المدن، ويذكر أن قرية النصارى كان لها كنائس بعدد أيام السنة فى القرن السادس، وكان بها ألفان من

الشباب يرتدون رداء الرهبان بجانب عدد كبير من المتزوجين والمتزوجات الذين رفضوا العالم ،وأنه فى سنة الفتح الإسلامى لمصر ٦٣٤ - ٦٤١ م ذكر أن مدينة سكتيا فى دلتا النيل كان بها ٧٠٠ من النساك وأما هاردى فأشار إلى الذروة التى بلغها عدد الرهبان فى العصر القبطى من ١٠٠,٠٠٠ - ٢٠٠,٠٠٠ ، ولكن أن تكون فى قرية صغيره كنائس بعدد أيام السنة ٣٦٥ قول لا يمكن قبوله، فلا يعقل أن يكون كل سكان البلدة من الشباب، وهذا قول به مبالغة، ولكن من المؤكد أن هناك حركة رهبنة نشطة، ولكن كان هناك مجتمع عامل خارج المجتمع الدينى من مزارعين وحرفيين وأطباء وطبقات اجتماعيــة، وخاصــة أن الإمبراطوريــة اتخــذت فى بعض الأوقـات موقفًا من الرهبنة كما فى عهد قسطنطين، حتى لا ينقص عدد الرجال الصالحين للجندية ولا يتراجع دخل الدولة، فالرهبان معفيون من الخدمة العسكرية والضرائب، وستؤثر الرهبنة سلباً على دخل الإمبراطورية ونظامها الحربي . ويذكر د. رأفت عبد الحميد أن أعداد الرهبان فى الأسقيط خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم مثنى وثلاث ورباع فى جماعات صغيرة، وبينهم عدد من الخبازين لإعداد الخبز، وعدد من النساجين ينسج الكتان ويعمل أرديتهم، وعدد من المزارعين وصناع النبيذ من الكروم كما كان بعض التجار يرتادون هذه المنطقة لشراء ما يزيد عن حاجة الرهبان، وكان بينهم جماعة من الأطباء الرهبان للعناية بالمرضى .

وكان رهبان مصر ثلاثة أنواع من النساك الذين يعيشون فى الصوامع ، والزهاد ثم المتبتلون، وهم الذين يجتمع اثنان منهم أو ثلاثة فى المدن بدون زواج ، وكان بعض الرهبان على قسط من المعرفة اللاهوتية، وأيضاً الحرف الزخرفية، وكانوا كارهين للثقافة اليونانية وليسوا على استعداد للفكر الفلسفى (٩٤) .

ويرى (بل) أن الرهبـان الذين تبعـوا بطارقتهـم إلى المجامع الكنسيـة كانـوا لا يفهمون المشاكل اللاهوتية المعروضة فى بساط البحث إلا فهماً ضئيلاً ، أما الأمر الذى استطاعوا فهمه حقاً فكان معارضة مصر للسياسة الحكومية للإمبراطورية ، وكان من الطبيعى أن تعتنق مصر المذهب المعارض عندما كانت القسطنطينية العاصمة الجديدة تدين بالهرطقة كما حدث على أيام الإمبراطور قسطنطيوس الأريوسى والعكس بالعكس .

ويشير فورستر إلى أن النشاط الفكرى فى مصر توقف بعد ٤٥١ م وهو مجمع خلقدونية، وتعتبر مصر تياراً مضاداً فى مجرى الحركة الثقافية.

وهذا القول فيه عدم تفهم لحقيقة الوضع ، فمصر لم تكن تياراً مضاداً فى الثقافة، فما زالت الإسكندرية لها طلبتها والثقافة الوطنية، وإن كانت لا تحوى مستوى أو مضموناً فهى تعبر عن ذاتية رافضة لسنوات من القهر الإنسانى، ولم يحدث تفرقة بين الحضارة الأجنبية والمستعمر الأجنبى، وأدى هذا الدور لانعزالهم عن التطور الإنسانى الخارجى ، وعلى كل فقد ألف هؤلاء الرهبان طبقة لها تأثيرها فى المجتمع وهى لم تؤثر دينيا فقط بل اجتماعيا وفنيا واقتصاديا، وخلقت ما يسمى بالصفة القبطية وهى المصرية الخالصة .

القرية والفلاح والأرض

كان الفلاح يمثل الشريحة الرئيسية من طبقة العامة، وهى الطبقة المصرية الصحيحة التى لم تخالطها عناصر أجنبية ، ويمثلها قطاع واسع من المزارعين بحكم طبيعة أرض مصر، هذه الجموع التى وصفها المؤرخون بالإنعزال والجمود الفكرى، ولكن الحقيقة أن هذه الجموع امتلكت ذكاء فطريا يمكنها من مواجهة القهر الإنسانى المتمثل فى الحكم الأجنبى وجباته من الأجانب والمصريين على حد سواء، الذين عملوا لديهم، ولم يكن الجابى المصرى أفضل حال من الفلاح الذى يضطهده، فكلاهما فرض عليه نظام وضع فى يد مجموعة بيروقراطية إدارية على قمتها فى الولايات إدارة مستبدة وفاسدة غالبًا، وكون الفلاح والسلطة قطبين متضادين خلال أغلب فترات الحكم فى مصر المسيحية .

هؤلاء المزارعون إرتبطوا بتراث الماضى، وكان الدين يمثل جزءاً أساسيًا من تكوينهم الإنسانى، وحياتهم سارت على وتيرة واحدة من إرتباط بالبيئة وانتظار مواعيد المواسم الزراعية ، والفيضان ، والحصاد، فهو مجتمع محدود المكان مربوط إلى أرضه بمشاعر وأحاسيس قوية، فهى مصدر الحياة والوجود وعبد النهر وقدس الأرض والسماء ، وجعل آلهة للحصاد والزراعة وآمن بالغيبيات والسحر ، كانت أرضه حياته والمصرى لا يترك أرضه بعامل المغامرة، والهجرة لم تكن من طموحاته كشعب بل إرتبط بالمكان ، وإذا كانت الأرض ملكاً للتاج خلال العصرين اليونانى والرومانى فيما عدا قطاعات لفئات من الأجانب فإنه من ٣٣٢م أصبحت غالبيتها فى أيدى مصرية، ومع ذلك فقد عانى الفلاح بسبب سياسة الإستغلال القائمة على يد فئات الإداريين الذين سعوا لإستغلال المصريين، وجعلوا الجابى المصرى يضغط على الفلاح بدافع الخوف من فقد العمل وتوقيع العقاب ، فالقهر الذى مثلته السلطة الإدارية انعكس على المزارع وجعلوا من بعض الجباة جلادين لبنى أوطانهم .

وأمام قسوة الضرائب وجباة الإمبراطورية وموظفيها الذى قال عنهم الإمبراطور جستنيان أنهم أقوى من أوامره الإمبراطورية ، سلك الفلاح بذكائه الفطرى سبيلين : الهرب من دفع الضرائب حتى لو تعرض للضرب بالسياط والتعذيب، أو الهروب من الأرض وأسلوب الشكوى الذى برع فيه المصريون والسخرية المريرة على حكامه .

والوسيلة الثانية اللجوء إلى الدين وهو ما تبلور فى المسيحية، واختياره لغة وأدبًا خاصًا به، بعيدًا عن فلسفات العاصمة وعواصم الأقاليم الأرستقراطية ، أدب قبطى بسيط ليس له عمق الفلسفة اليونانية ويدور حول موضوعات دينية فى غالبية عن اللاهوت والقديسين والشهداء ورجال الكنيسة الذين آمن بهم، والذين كانوا فى غالبيتهم من العناصر المصرية التى رفضت إلا أن تتكلم لغتها الخاصة، وفكرها الخاص المحدود فكر لا يجادل بأسلوب الفلاسفة ولا فكر الأدباء؛ ولكن هو أقرب لفكر هؤلاء العامة ، فكر بسيط يصل إلى أناس بسطاء تقبلوا العقيدة الجديدة ووجدوا بها نوعًا من الخلاص والمتنفس من القهر الإنسانى ، فانتشرت الأديرة فى القرى، ورغم أن الأعداد التى وردت لدى بعض مؤرخى الكنيسة هى أعداد مبالغ فيها ولكنها من المؤكد أنها تمثل ظاهره فعلية، والأعياد والإحتفالات التى كانت تقام لهؤلاء القديسين وجد فيها العامة وسيلة للترويح عن النفس والتقرب الى الله .

هؤلاء لم ينسوا جذور مصريتهم رغم أنهم قطعوا مع ماضيهم الوثنى، فما زالت جذور الفكر الفرعونى تبدو ، فهؤلاء الجموع التى كانت تذهب إلى وادى النطرون لشراء أوانى القديس ميناس التى اعتقدوا أن فيها شفاء من المرض وكانوا فى العصر الوثنى يذهبون إلى تونه الجبل حيث معبد الطائر أيبس وبحيرته المقدسة .

وهذا الإنتقال من النقيض للنقيض والموجود فى الشخصية المصرية والذى أطلق عليه أ.د جمال حمدان القطيعة مع الماضى ، فهؤلاء الذين قدسوا آلهتهم السابقة قاتلوا ضدها و دمروا المعابد الوثنية وساروا وراء رهبانهم فى تدمير معاقل عبادتهم الأولى ، هذه العملية أخذت بعدًا تدريجيًا، فالمسيحيه بدأت فى العواصم ثم دخلت إلى القرى ، وذكرت بعض البرديات أنه فى إحدى القرى النائية فى القرن السادس مازال هناك

بعض المزارعين الذين تم ضبطهم يمارسون العبادات القديمة ، ولكن أعتقد أنها بقايا كانت إلى زوال ولا تعد ظاهرة عامة .

والفضل فى نشر المسيحية يعود لجموع الرهبان والذى إنتشر العديد منهم فى قرى مصر لنشر العقيدة المسيحية . وخاصة أن المسيحية ليست غريبة على الفكر المصري لوجود ظاهر سابقه من تثليث وعماد وغيرها .

فى البداية كان هناك حذر وموقف سلبى من العقيدة الجديدة، ومع إنتشار الأديرة مثلت تلك الديانة نوعاً من الخلاص الإنسانى ، فالفلاح المصري لا يتعمق فى فهم الفروق بين المذاهب ولا العلاقة الجدلية بين المذاهب المسيحية التى ظهرت بدءاً من أثناسيوس وأريوس إمتدادا إلى اليعاقبة والنساطرة ومذهب المونوثلية، ولكن يثق برأى كنيسته وممثلها بطريرك الإسكندرية وتأييده والخروج مع الرهبان فى الثورة ضد بيزنطة .

وهذا يدفعنا إلى تساؤل عن وضعيه الفلاح المصرى ، هل كان حراً أم ربطته قوانين الدولة الحاكمة بالأرض وجعلته قناً؟ وعلاقة السلطة الحاكمة وأنظمتها الإدارية والضرائبية بموظفيها، وكيف يمكن للباجارك تجاهل قرارات الإمبراطور لرفع الظلم عن الشاكين ؟

ومع ذلك فإن الصورة كلها لم تكن رمادية أو سوداء الخطوط، فلقد مارس الفلاحون حياتهم العادية وكانت لهم إحتفالاتهم فى المناسبات والأعياد والتى تخللتها فقرات لفرق راقصة وأنواع من الأطعمة والمشروبات .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : ما هو وضع الفلاح فى مصر ؟ فقد تعددت أنواع الملكيات فى مصر القديمة عبر العصور التى عاشتها مصر ؛ فظهرت الملكية الفردية والملكية الأسرية المشتركة والملكية المطلقة وملكية الإستغلال أو المنفعة، ومنها ما جرت عليه كل أنواع الملكية القانونية ومنها ما هو موقوف على معابد الآلهة والمعابد الملحقة بأهرام الملوك ، والحكام والكهنة القائمين على خدمتها . وكان هناك فارق بين أملاك الدولة وبين أملاك الشعب ، بل بين أملاك الدولة والفرعون على الرغم من إصرار النصوص التقليدية على رد ملكية الأرض وما عليها إلى الفرعون وريث الآلهة وصاحب الحق المقدس .

وإستمر الاهتمام بالأرض خلال العصر البطلمى ، واعتبرت مصر من وجهة نظر البطالمة وجيشهم ملكاً للملك وأرضها ضيعة له ausia ، وعلى جدران معبد إدفو سجل نقش هيروغليفى أن الإله حورس يهدى ابنه الملك حورس بطليموس كل الأرض المزروعة فى كافة أرجاء مصر من الفنتين حتى البحر، وقام البطالمة باستصلاح كل الأراضى المزروعة (٩٥) .

وإن كانت الملكية الزراعية فى واقعها تتدرج تحت عدة أقسام : أرض الملك، وأرض العطاء ، والتى وهبها لعدد من الأفراد، وما وهب للجند لتحويلهم لمستوطنين، وما منح للموظفين المدنيين وكبار مساعديه، ثم أراضى أملاك خاصة وأراضى مدن، وهى الأراضى التى خضعت للمدن الأغريقية.

ولقد حافظ الرومان فى بداية حكمهم على غالبية الأوضاع والنظم السابقة التى وجدوها فى مصر ، والتى ترجع بأصولها للعصر البطلمى فيما يختص بملكية الأرض ونظامها الضرائبى بل وهيئات موظفيها .

ولقد تملك أغسطس الأرض وفقًا لحق الفتح وأصبح يطلق عليها أرض التاج، فيما عدا إستثناءات كالأراضى التى جرى منحها للمستوطنين Catoecia ، بالإضافة إلى أراضٍ تمنح للجند Cklerouchia لتربطهم بالأرض ومصالح الملك ، كذلك منح الأباطرة فى عهد الأسره اليلوكلودية أفراد الأسرة المالكة ورجال العصر هبات من الأراضى عرفت باسم geenodrea وقام بعض أفراد الطبقة الثرية فى الإسكندرية وروما باستثمار أموالهم فى استصلاح الأراضى وزراعتها فيما عرف بالأوسية (٩٦) (فى اللهجة المصرية الحديثة " الوسية ") وكانت الأراضى تمنح لهم مجانًا أو بقيمه اسمية .

أما الأراضى التى قامت الدولة ببيعها فكانت محدودة المساحة ؛ إما أراض خاصة بالإمبراطور أو أراضٍ مهملة، أو تلك التى تظهر نتيجة للفيضان، والأخيرة تباع بأثمان مخفضة وإن لم يسمح بتحويلها إلى ملكيات كبيرة ، فلم تتحول الملكيات الزراعية خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم الرومانى إلى ملكيات إقطاعية شبيهة بما كان سائدًا فى أوروبا، وسجل ضرائب من مدينة كرانيس (كوم أوشيم) يعود للقرن الثانى يخص حدائق وكروم يشير إلى أن الملكية الفردية لم تتجاوز الأرورة

" الأرورة تعادل ١/٥ فدان " ولم ترتفع نسبة الضرائب خلال العصر الرومانى ـ مما كان سائدًا فى العصر البطلمى، ولكن أضاف الأباطرة بعض الأعباء أغلبها نفقات الجباية، ولقد إستمرت تقسيمات الأرض السابقة إلى عهد دقلديانوس ٢٧٨ م، والذى أدخل تعديلات جوهرية فأصبحت الضريبة على الأراضى موحدة وفقًا لنوعها؛ حيث قسمت الأراضى وفقا لنوعها : أرض خصبة كروم مزارع ، فيضانية دون النظر الى نوعية الملكية، ولم ينظر إليها إذا كانت أرض تاج أو أوسية أو هبة، ولقد ظلت تلك التقسيمات قائمة إلى عهد قسطنطين ، فجرت آخر إشارة لأرض التاج ٣٣٢ م، حيث ذكر أحد موظفى فيلادلفيا هروب الفلاحين الذين كان قد استأجر بعض منهم أراضٍ خاصة بالتاج . ويوضح ظاهرة هروب الفلاحين من تعسف الإدارة البيزنطية ، فالفلاح لا يترك أرضه إلا إذا زاد عليه الظلم .

ولقد بدأت الدولة فى تمليك أرض التاج لمزارعيها مقابل دفع ضرائبها، وفى الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السابع جرت الإشارة الى أنواع من الملكيات كما يلى : أرض قرية ، أرض عامة ، أرض مدينة الإسكندرية، وأرض تخص الإمبراطور، وأرض أوسية وأرض إقطاع ، ويحمد للإدارة البيزنطية قرار تحريم تملك الأجانب للأراضى المصرية ، ولقد منح ثيودسيوس النقابات حق ملكية الأرض وجمع الضرائب مع تحريم ذلك على الأجانب ، وأعيدت تلك التشريعات فى مجموعة جستنيان، أى أن الأرض أصبحت فى أيدى مصرية خالصة .

وإذا حاولنا التعرف على وضعية الفلاح الذى كون أحد الثنائية الخالدة فى تاريخ مصر الفلاح والأرض ، وسنعرض لملكية الأرض وأنواعها سواء كان فلاحًا فى أرض قرية أو إمبراطور أو مالك إقطاعى ، سواء كان مزارعًا بسيطًا يملك عدد محدود من الأرورات أو أجيرًا .

ولقد ورد ذكر ثلاث درجات من المزارعين فى المجموعات القانونية والمراسيم الخاصة بالإمبراطور Adiscriptici ، Homologi ، Originals.

أولاً : Originals الفئة الأولى من المزارعين؛ وهم الفلاحون الذين يعيشون على الأراضى الزراعية سواء كانوا أحراراً أو عبيدًا ، أما الأحرار فهم برغم ميلادهم الحر

فإنهم هم وأبناؤهم ذكورًا أو أناسًا كانوا فى وضع أقرب إلى العبيد، وفى الفترة المتأخرة أصبح التمييز بينهم وبين الفلاحين القرار صعبًا لإجبارهم على الزراعة .

ثانيًا : Homologi الفئة الثانية من المزارعين يطلق عليهم Homologi وهو اسم خاص بمصر ، وربما كان يقابل الفئة السابقة، ولم يرد لهم ذكر إلا من القانون ٤١٦ م الموجه لمصر، ولم يحدد وضعهم تمامًا، ولكن كان عليهم القيام ببعض الأعباء العامة بزراعة الأرض، وهم من المزارعين الذين لم يحصلوا على أرض أو فقدوا ممتلكاتهم وأجبروا على زراعة الأرض المهجورة وأصبحوا أعضاء فى مجلس القرية ، وإن كان يحق لهم إيجار الأرض التى تظهر نتيجة للفيضان ، ولقد جرت الإشارة الى أنه فى حالة تركهم الأرض التى عينت لهم وذهابهم لقرية أخرى وجب على القرية أو السيد الذين عملوا عنده إعادتهم، فإذا تأخروا فى ذلك وجب عليهم دفع غرامة وتفويض من كان يعمل عندهم أصلاً، وكما ذكرنا فإنه كان المقصود فى مصر الحد من الحماية (c Th. xi 29) والمقصود بالحماية دخول مالك صغير يتنازل عن أرضه لمالك كبير ثم يستعيدها بالإيجار فى مقابل حماية، ولقد منعت الدولة هذا النظام بقرارات إمبراطورية.

ثالثًا : Adiscriptici والفئة الثالثة من المزارعين ذكرهم مرسوم موجه لحكام الغال ولقد ألحقه ثيودسيوس وجستنيان بسادته، فهو الذى اختار حماية شخص قوى غنى وتولى عنه الإجراءات المالية، وأصبح مزارعًا تابعًا له ، ولقد أصدر أنستاسيوس مرسومًا حدد وصفه ونص على ما يلى : " بعض الفلاحين قرارى وممتلكاتهم ملك سادتهم " وأجبروا على زراعه الأرض ودفع الجزية، وأعيد هذا القانون فى مجموعة جستنيان ، فأعلن أن أولاد الفلاح الحر يظلون أحراراً ، ولكن عليهم زراعة أرض آبائهم عنهم " c.j.xi.49"(٩٧) وهذا النوع من المزارعين لم يكن مألوفًا فى مصر فإذا نظرنا لوضع الفلاح المصرى فى ضوء تلك القوانين والتقسيمات لوجدنا الفلاح المصري كان حراً ولم يتحول إلى قن أى عبد مرتبط بالأرض ، وهناك أدلة عديدة على أن المزارع المصرى كان حرا وغير مستعبد، فمن واقع العقود التى تضمنت أجر العامل والمدة المحددة لعمله ونوعية العمل سواء كان فلاحة أو رى ، وكانت بعض العقود تشترط بقاء الفلاح إلى نهاية الموسم الزراعى، وفى المقابل تنص على أن المالك لا يحق له طرده وحتى من كان منهم يشتغل فى أرض أحد السادة الإقطاعيين نجد أن علاقته بالمالك حددتها العقود .

فالعقد به شروط متبادلة وحقوق متبادلة لا تكون إلا بين أحرار فتضمنت :

أولاً : عقد الإيجار تضمن التعهد بالقيام بأعمال الرى بلا تأخير ودفع الإيجار وإطاعة أوامر المالك، وبعض المؤرخين أخذوا هذا دليلاً على التبعية المطلقة ، ولكن يلاحظ أن أغلب العقود تضمنت شروطاً مشابهة .

ثانيًا : قام مزارعو الإقطاعى أبيون بعقد قروض كانت بضمان أملاكهم (٩٨) ، وهذا دليل على تمتعهم بكامل حريتهم القانونية، فلا يعقل أن يكون المزارع قنا وتكون له أملاك مستقلة ، p.oxy1938 فالقن وما يملك ملك للسيد وفقا لقانون ثيودسيوس، أما ضمانات بقاء المزارعين فى أراضيهم فهى صيغ مألوفة فى جميع العقود، وفى المقابل المالك ملزم بشروط ، وكانت الشروط لضمان عدم تركه الأرض أثناء الإعداد للزراعة أو الانتهاء من الحصاد حتى لا يضار المالك أيا كان، بل أغلب الوظائف حتى وظائف أعضاء السناتو تضمنت هذه الشروط .

وكان المؤرخ رستفتزف يرى أن أزمة القرن الثالث وثورات الجيش التى انتهت بتولية دقلديانوس ما هى إلا تعبير عن الصراع بين الطبقة البرجوازية ومزارعى الأرض (٩٩) ، حقيقة أن مصر كانت أحد ولايات الإمبراطورية الرومانية والتى تعتمد أساسًا فى حياتها على الزراعة، ولكنها لم تشهد التطور نفسه الذى حدث فى الغرب من نمو الضياع الكبرى وبالتالى تحول الفلاح إلى قن .

ثالثًا : إمتازت مصر بالخصوبة الشديدة فلم تتعرض للجفاف والإرهاق الذى تعرض له الغرب.

رابعًا : توافر الأيدى العاملة ورخص الأجور مما يجعل نظام القنية أصلاً غير مثمر إقتصاديا .

أما ما كان يربط الفلاح بموطنه وفقًا للقانون فهو قوائم التعداد التى كان يجبى على أساسها ضريبة الرأس، وإن كان بعض مزارعى ثيادلفيا "بطن هريت" دفعوا ضرائبهم فى عهد تيبريوس فى الإسكندرية حيث كانوا يقيمون (١٠٠) ، ولم يكن مألوفًا إعتقال الفلاح وترحيله من الإسكندرية إلا فى حالات قليلة، فالفلاح المصرى بطبيعته

لا يميل إلى الخروج عن نطاق قريته وترك أسرته إلا فى أحوال نادرة، وإن كان عدد من أبناء الفلاحين قد جذبتهم الحياة فى مدينة الإسكندرية وما قام فيها من أنشطة صناعية، فتركوا الأرض ليحاولوا بدء حياة جديدة، وعملوا فى مصانعها والمرسوم الوحيد الذى نص على عودتهم إلى قراهم كان فى عهد كراكلا، ولم يشر إلى نوعية من طلب إليهم العودة الى قراهم هل هـم مـزارعون أو حرفيـون أصلاً ؟ ، وبصفة عامة لم يكن الهدف من المرسوم ربط الفلاح بالأرض وإنما تخفيف الضغط على مدينة الإسكندرية من الأعداد الكبيرة للأفراد الذين هاجروا اليها ، ولقد جرى تجاهل هذا المرسوم بعد عهد كراكلا (١٠١) .

والحياة فى القرية كان لها طابعها الخاص . ولم تكن المناصب دائمًا مطمع، فبعضهم سعى للخلاص منها مما حملته من الأعباء ومن قسوة الإدارة المركزية وموظفيها .

وكانت مصر قد قسمت فى عهد أغسطس إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة يتولى كل إقليم موظف يحمل لقب strategos ، ولقد ظل هذا التقسيم ساريًا إلى عام ٣٠٨ م، حيث قسمت مصر إلى مجموعة من البلديات civitares تتمتع بالحكم الذاتى وتتبع كل منها منطقة ريفية عرفت باسم choria ، و لقد قسمت إلى مراكز pagi تقابل مراكز النظام القديم Topa و يتولى كل قسم موظف يسمى praepaistas الذى يخضع لموظف يسمى exactor اختصاصاته مالية، وأصبح اللقب يطلق فيما بعد على الجابى .

وفى عهد ليو ٤٧٤ م ظهرت وحده تسمى الباجاركية pagarchia ؛ وهى تطابق الإقليم القديم وتشمل كل ما يحيط بالمدينـة من قرى وما يتبعها من أرض، فالمدينة وما يحيط بها تعتبر وحدة إدارية تخضع للباجارك الذى يخضع للوالى praeses والذى يخضع للدوق حاكم الأقليم .

ولقد أكد جستنيان فى مرسومه رقم ١٣ على أهمية الباجاركات؛ فأصبحوا يقومون بتنفيذ الأحكام، ويخضع لهم مجموعة من الموظفين منهم الجباة والوازن والكتاب والمساعدون والبحارة الذى ينقلون الخراج ، وكان اختياره فى البداية موكولا إلى الدوق، ثم أصبح يختار من الملاك المحليين، وحمل بعضهم لقب كونت ، وفى القرن

السادس أصبحت سلطة هؤلاء الباجـاركات محـدودة بالأرض المحيطة بالمدينة والتى لا تتمتع بالجباية الذاتية لعدد من القرى والإقطاعيات وللكنيسة (١٠٢) . فأصبحت سلطة الباجارك المالية مقصورة هنا على صغار المستأجرين الأحرار وعلى الأراضي الخاصة، وكان وضـع الفلاح الخـاضـع لسلطان البـاجـارك أسوء من زمـلائه فى القـرى المسـتقلة بالجـبـاية ، فـهؤلاء وجدوا مـدافـعين عن صـوتهم فى مـجـالس قـراهم ، وكذلك حـرص الإقطاعيون الى حد ما على مزارعيهم حتى لا تفقد الأرض إنتاجها ، أما الفلاح فقد تعرض لأسوء أنوا ع الإرهاب والضغط .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة، وهـى أن كبار الملاك الذين تمتعوا بالجبـاية كانوا يرسلون أموالهم النقدية مباشرة إلى الوالى فى الإقليم، أما الضريبه العينية من القمح فترسل الى الإسكندرية . وأدى هذا الى وجود عدد كبير من الموظفين يتبعون الإقطا ع ، وإلى وجود هيكل وظائفى يشبه تقسيم الحكومة، وحمل موظفوه ألقابًا مشابهة لموظفى الدولة نجدها خلال سجلات أبيون فى مجموعة بردى أكسرنخوس " البهنسا " التى تعـود إلى القرن السـادس، وتردد عدد من الأسمـاء كـوكلاء لأبيـون (١٠٣) وهم ثيودور وجورج وفكتور وميناس، وجميعهم يحملون ألقاب كونت ودوق مما يجعل من الصعب التـمـيـيـز بينهم وبين مـوظفى الإدارة المحليـة . بل إنَّهُ من الثـابت فـعـلاً أن بعض الباجاركات عملوا كوكلاء لأبيون ، وأبيون نفسه كان باجاركا ودوقا، وبذلك إستطا ع كبار الملاك السيطرة على إدارة الدولة سواء بأشخاصهم أو عن طريق وكلائهم وموظفى تلك الإدارة .

وحين يراسل ميناس أبيون يخاطبه سيدى الطيب (١٠٤) ، فهذا التداخل لم يتح الفرصة لتحقيق العدالة إلى جانب التغيير المستمر لم يتح الفرصة أمام أحدهم لتفهم مشكلات إقليمه .

القـرية :

هى الوحدة الأسـاسيـة فى الريف وجـعلت تشريعـات دقلديـانوس من القـرية أهم وحدة فيما يختص بأمور الزراعة ، وحملت مسؤلية الأراضى المحيطة بها ، وأشارت

المراسيم فيما بعد إلى نقابات للقرى، وكانت القرية مسئولة مسؤلية جماعية عن الضرائب ، ولقد منع القانون تملك أجنبى لأرض القرية فى الوقت نفسه أعطى هذا الحق للفلاح فى القرية نفسها .

وفى بداية العصر الرومانى كان يدير القرية مجلس من كبار السن؛ وكان كاتب القرية يعد ممثلاً للدولة فيما يتعلق بالإحصاء والتعداد وكتابة التقارير عن أهل القرية ومقدار ممتلكاتهم وتعيين الأشخاص الصالحين لتحمل الأعباء ، وكان يتم اختيارهم من بين الملاك ويرفع بهم كشف للأستراتجوس " المدير " ، ولقد تضمنت قائمة عثر عليها فى أرسنوى ويرجع تاريخها للقرن الثالث كشفاً بأسماء موظفى القرى تتضمن قيام بعضهم بأعمال الشرطة والرى ، والإشراف على الحصاد ، وحراسة الحقول وجباية الضرائب (١٠٥) .

ولقد اختفى مجلس المسنين السابق الذكر فى القرن الثالث إلى جانب عدد من الوظائف الأخرى كوظيفة الكاتب الملكى ، وتولى إدارة القرية مجلس أعيان proto-cometes يرأسهم ميزون Meizon فى الوقت نفسه الذى تم فيه إحياء وظيفة " الكومارخ "(١٠٦) ذات الأصل البطلمى ، وأصبح فى كل قريه اثنان تضمنت اختصاصاتهما مسؤلية الإشراف على الضرائب والإسهام فى أعمال الشرطة ، وكان يحصل عادة على أجر من ١ ، ٢,٥ قراط على كل صولد ، ويحق لهما إختيار من يخلفهما فى عملهما (١٠٧) .

ومن موظفى القرية مسئول الخزانة العامة الخاص بالقرية hypodectes إلى جانب قيامه بالمشاركة فى جمع الضرائب ، ثم المسئول عن تسلم القرية لماء الفيضان hydroplion ثم حراس الحقول ويشرفون على القنوات ونظافتها ، وكان عملهم عن طريق السخرة ، وإن كان يصرف لهم مبلغ مالى ثم أعداد من الجباة exactor، ثم الكتاب وعمال البريد ومسئول البنك (١٠٨) .

وكان للقرية خزانة للضرائب تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات يشرف عليها موظف يلقب Logarophus ، يسند له أعداد القوائم الخاصة بالضرائب ، وإثبات أسماء أهل القرية ، وما أداه كل منهم من الضرائب ، ثم عليه إرسال تلك الكشوف إلى مكتب وإلى الإقليم .

وهذه الوظائف جميعها أصبحت تشغل بطريق الإجبار ، ومن هنا سعى أهل القريه للتهرب من تلك الأعباء ، بل أشارت إحدى البرديات إلى محاولة رئيس إحدى القرى التنصل من مهامه والتخلص من الوظيفة ، ولجأت الدولة أمام هذا الإجراء إلى مضاعفة عدد شاغلى الوظائف الحكومية لكى تخفف العبء عنهم ، فجرى الإشارة إلى أربعة كومارخات تم تعيينهم فى قرى البهنسا بدلا من الوضع المألوف وهو اثنين لكل قرية (١٠٩) . ولقد تعرض هؤلاء للمساءلة والعقاب الذى وصل إلى حد السجن فى حالة عجزهم عن الإيفاء بالتزامهم كما حدث فى إحدى القرى، حيث قُبض على إثنين من الكومارخات وحراس الحقول لكى يضمنوا ظهور أزواجهم، هذا عن وسائل الدولة للضغط على موظفها .

ولقد تكرر فى البرديات القبض على الزوجة والأولاد لإجبار الرجل على الظهور. لقد تمتعت بعض القرى بحق الجباية الذاتية وكانت مستقلة ماديًا ، وكان إتصالها بمكتب الوالى مباشرة ، وكانت لتلك القرى خزانة للضرائب تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات، والموظف المسئول عن تدوين الحساب يعرف باسم logarophus ويجرى إعداد قوائم بالضرائب التى أداها كل فرد مع ذكر اسمه ومقدار ضرائبه، ويرسلها مسئول الخزانة بعد ذلك إلى مكتب الوالى .

وكانت الأراضى فى القرى التى تتمتع بالجباية الذاتية إمّا ملكًا لمجموع القرية أو لصغار ملاك أو مستأجرة من الأديرة . وقرية أفروديتو "كوم أشقوه " تعتبر خير مثال للقرى المتمتعة بالجباية الذاتية أفروديتو "كوم أشقوه " فنجد منها عدد من الملاك الأثرياء، وهؤلاء كونوا مجلس نقابتها كديسقورس الذى ورد ذكره فى عدد من بردياتها، وإن كان حجم ممتلكاته لا يتجاوز مائه أرورة أو أكثر قليلاً ، حيث أجر أرضًا من دير أبو ساويرس، وجزءًا كبيرًا من الأراضى أجره المزارعون من كنيسة ريمى ومن الأديرة .

وكان موظفو القرية مسئولين عن الجباية فى قرية أفروديتو ليدفعوا الدفعة الأولى من القمح ، والتى عليهم ومقدارها ٤٠٥,٠٠٠ إردب، وكانت برسم الشحنة السعيدة إلى القسطنطينية، وهو القمح التى تقوم مصر بتصديره لطعام أهل القسطنطينية، والذى فرض على الشعب القبطى، أما الدفعة الثانية ومقدارها ٢٠٠٠ إردب فقد جرى شحنها على سفن صغيرة للمدينة المميزة الإسكندرية لإطعام أهلها .

وكان الفلاح يدفع ايجار الأرض إذا كان مستأجرًا أو ضرائب على الأرض اذا كان مالك صغير، وأحياناً اشتراك المالك مع المستأجر فى دفع الضرائب ، وبالرغم من تنوع شروط الإيجار فإنها تشير إلى فلاح حر، فعقود الإيجار فى القرنين السادس والسابع تؤكد على حق الفلاح فى نصيبه من المحصول ، وما يدفعه للمالك، وما على المالك بدوره تقديمه من خدمات لصالحه، سواء كانت بذورًا أو أدوات زراعية أو آنية لعصر العنب . ومن الأمثلة الخاصة بتلك العقود ويعود بتاريخه للقرن السابع ، هو عقد لمدة عشر سنوات بين مالكة الأرض وهى سيدة تدعى صوفيا وشخص إستأجر أرضها. وكانت الممتلكات المراد تأجيرها تتكون من عدد من مزارع العنب وحقول مرتبطة بها ، ويشير البردى إلى توزيع أماكن الحقول ونوع الثمار وطرق الرى .

وكان المالك أحيانًا يمد المستأجر بالحبوب طبقًا للمحصول الذى يرغب فيه. وتضمن أحد العقود أن المستأجر سيدفع أجرًا سنويا بالذهب، وحدد أوقات الدفع وميعاد الرى وعليه المحافظة على الأشجار ، ويذكر أنه فى حالة تعرض المحصول لرمال الصحراء فى وقت البذر أو بعده فإنه يدفع نصف الإيجار فقط، وحددت الدفعات ووقت تقديمها وفقًا للتقويم القبطي ، وسيدفع نفقات عينية . وكانت أجور العمال الزراعيين أحياناً نقداً وأحيانًا نقدًا وعينًا ، فأحد العمال حصل على أجر ١٠ قراريط وكمية من الزيتون ومقدار من الزيت، والعامل ملزم بالبقاء فى الأرض إلى نهاية العقد وملتزم به إذا رغب الرحيل فعليه دفع غرامة بلا تأخير ولا نقاش، ولقد إرتبطت أجور الزراعيين بسعر القمح فالأخير يتحكم فى الأول، ففى عام ٨٧م كانت أجور العمال الزراعيين فى اليوم فى مدينة هيرموبولس (الأشمونين) من ٣-٥ أوبل، وكان الأولاد يأخذون أجراً أقل، وكان ثمن أردب القمح ١١درخمة [١١٠] .

ومن قائمة القرن الثالث تحوى أجور عمال فى حقول العنب نجد تفاوتا فى أجورهم حسب نوع العمل، فهناك عمال حصلوا على ٣ دراخمة وأوبل وآخرون على دراخمة واحدة وأوبل، وذكر أن المزراعين الذين عليهم حفر الأرض ورى الشتلات يحصلون على ٥ أوبل، وقد حدد مرسوم دقلديانوس ٣٠١م أجور العمال الزراعين ب ١٠٠ دراخمة وكانت كيلة القمح تساوى ١٠٠٠ درخمة، وفى ٣١٤ وصل الأجر فى الأشمونين من ٤٠٠ – ٦٥٠ دراخمة، وثمن كيلة القمح ١٠,٠٠٠ دراخمة، وفى بردية

تعود إلى ٢٦٨ تراوح أجر العمال بين ٢ ،٣ كيلة فى الشهر، وأصبح من المألوف حصول العمال على أجور عينية، ولقد إختلفت الأجور من إقليم لإقليم ومن موسم إلى موسم ٠

والملاحظ أن مواسم الزراعة وتحديد مواعيد البذر والحصاد كان وفقا للتقويم القبطى، وإلى الآن لايزال الفلاح يعمل على أساس الشهر القبطى.

وأخذ التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم، وكان المصريون يستخدمون السنة القمرية ٣٦٠م، وظلت تستعمل فى طقوس العبادة، ثم أخذوا بالسنة الشمسية بالإضافة إلى السنة القمرية، وأكملوها بضم خمسة أيام فى آخر السنة، وهى الأيام التى ولدت فيها المعبودات الخمسة أوزوريس ـ إيزيس ـ ست ـ نفتيس ـ حورس وجعلوها مناسبات أعياد، ولقد وزعت على ثلاثة فصول كل منها أربعة أشهر قسموا الأول للفيضان والثانى لبذر الحبوب والثالث لجنى المحصول٠

ولم تعتمد السنة المصرية فى حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصرى على أساس ظهور الفيضان عامًا بعد عامًا، فهى سنة نيلية تعتمد على طبيعة الفيضان ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العيد ٠

ومنذ الأسرة السادسة والعشرين أى منذ منتصف القرن السابع ق٠م والأشهر ثلاثون يوما وخمسة أيام نسيىء ، والشهور القبطية هى شهور توت – بابه – هاتور – كيهاك – طوبة – أمشير – بشنس – برمهات – برمودة ٠ والتاريخ القبطى للكنسية بدأ يوم ٢٩ أغسطس ٢٤٨م الذى استشهد فيه كثير من المسيحيين ويطلق عليه تقويم الشهداء ، وهو يتبع الحساب اليوليانى ، ولقد زاد اهتمام المصرى بالحساب القمرى على قاعدة وضعها الفلكى منتون فى القرن الخامس ق . م؛ وهى أن كل ١٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهرًا قمريًا كاملاً. واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادى ووضع قواعدها المعمول بها الآن البطريك الإسكندرى ديمتريوس، وساعده فى وضعها الفلكى المصرى بطليموس ، ولقد حمل الفلاح بعدد من الضرائب بعضها نقدى والآخر عينى، وهناك ضرائب على البشر وضرائب على الأرض .

وأولى تلك الضرائب التى فرضت على مزارعى مصر وأهلها عامة من الأقباط ضريبة الرأس loagrophie ، ومقدارها ٤٠ إلى ٤٨ دراخمة على المواطنين المصريين،

وأعفى منها سكان الإسكندرية، أما المواطنون اليونان من سكان العواصم فقد دفعوا بنسبة مخفضة ثم أعفوا منها (١١١) .

ولقد إختلفت ضريبة الرأس بإختلاف الإقليم ولم يكن للكهنة إمتيازات، فقد أعفوا إعفاء محدوداً، ولقد استمرت مفروضة على المصريين حتى لقد منح كراكلا المواطنة لشعوب الإمبراطورية، فأعفى منها سكان المدن، وظلت على الريف ، وفى عهد دقلديانوس أجرى إحصاء لسكان مصر لتحديد من تفرض عليهم ضريبة الرأس وكان فرضها من سن اثنى عشر عاماً.

وإبتداء من القرن الرابع لم تعد تذكر فى سجلات الضرائب، وكان ارتفاع الأسعار سببًا فى خفض قيمة تلك الضريبة التى تجبى نقدًا ، وضريبة الرأس التى كانت تساوى ٤٠ دراخمة أو من ١٠ - ٢٠ كيلة أصبحت فى عهد دقلديانوس تساوى من ٢ - ٣ كيلات، ولكن فى سجلات القرن السادس الضريبية لا نجد أى ذكر لضريبة من ذلك النوع .

ففى الفترة الأولى حين كانت الأرض ملكًا للملك فرضت عليها إيجارات، أما ما حصل عليه بعض الأفراد وأعضاء الأسرة المالكة فلم تكن عليه إيجارات ، أما الضرائب فقد فرضت على من لم يتمتع بالإعفاء الضريبى مبلغ الخمس وتسمى ضريبة الحيازة.

أما الأرض التى قام الأفراد بشرائها من الدولة وإستصلاحها فكانت تفرض ضريبة على الإدارة (الوحدة الزراعية) وعلى المحاصيل المختلفة (١١٢) ، وقد جمعت ضريبة القمح فى عهد أغسطس ٢٠ مليون مد (قدح) = ٦مليون أردب، وكانت تفرض على محاصيل أخرى إلى جانب القمح وهى الشعير والفول والبصل والكتان والزيتون. وكانت فى البداية عبئًا استثنائيًا يفرض فى حالة الطوارئ أو فى حالة المجاعة فى روما لإمداد الجيش بالطعام فى أثناء الحرب ، ولكن منذ القرن الثالث أكدتها مراسيم الأباطرة وعرفت الأنونا أو الميرة الإلهية ، وكان القمح الذى يرسل إلى روما ثم بيزنطة فيما يعرف بالشحنة السعيدة، وكان والى الإسكندرية مسئولاً عن الأنونة الأهلية ونقلها إلى القسطنطينية، وكانت الضريبة تختلف من إقليم إلى إقليم، وفى أثناء الفترات الثابتة كانت تتكون من مسموح عينى (١١٣)، وأكد دقلديانوس هذا فى قانونه؛ فكانوا

يتسلمون مرتباتهم قمحًا وزيتًا ونبيذًا أو ملحًا ولحم خنزير ، وما يكفى الجندى لمدة عام من الغذاء وسميت بالأنونا الحربية annona melitaris ، وكانت تختلف حسب درجة الجندى ، وهناك أيضا مسموح خاص بجيادهم caption ولقد فرض دقلديانوس تلك الضريبة على جميع ولايات الأمبراطورية ولكن لم يثبت مقدارها وكانت تفرض ضريبة نولون naulage على شحن القمح .

ولقد سعى دقلديانوس لإصلاح النظام الضرائبي استجابة لشكوى الأهالي والمزارعين من كثرة الضرائب والجبايات، وكذلك لهجر المزارعين أراضيهم نتيجة التعسف، فأعيد مسح أراضى الأمبراطورية ووضع التقدير الجديد على أساس إنتاج الأرض lugum من الأرض الصالحه للزراعة ، وعدد الأقسام فى الوحدة يختلف وفقًا لخصوبة الأرض؛ فهناك وحدة لزراع العنب ووحدة للحبوب، وهكذا قدرت الضريبة على أساس الوحدة، فالوحدة تمثل هذا الجزء من الأرض الذى يستطيع زراعتها فرد Caput، وكانت المرأة نصف Caput.

وكان تقدير الضريبة يجرى وفقًا للمرسوم الإمبراطورى الصادر برقم ٢٩٧، فجرى كل خمس سنوات، ثم أصبح يجرى كل ١٥ ، وفى مرسوم والى مصر ٢٩٦ م يشير لما تعرض له الفلاح من ظلم " إن تقدير الضريبة العامة لم يأخذ مجرى طبيعيًا بحيث كان على البعض أعباء حقيقية وآخرون أرهقوا بأعباء ثقيلة، وقررنا أن نقضى على ذلك التطبيق السيىء فى ولاياتنا مقياسًا ثابتًا للضرائب وعلى ذلك فإنىّ فرضت نصيبًا على الأرورة وفقًا لنوعها ، والمقصود به نوع الأرض، أرض كروم أو مزارع أو أرض فيضانية أو فواكه أو حدائق ، وسوى فى هذا بين جميع الأراضى سواء كانت أرض تاج أو أوسية " ، ولكن الظلم كان يتجدد وباعتراف أباطرة الدولة أنفسهم مما يدعوهم لمحاولة الحد من جشع جبايتهم وسوء معاملتهم للمصريين .

وفى مرسوم صادر فى عام ٣٢٤ م نص يفيد أن الضريبة التى على الفلاح سترفع عنه وتوضع على ممتلكاته وأرضه لا على شخصه ، فهى ضرائب على الممتلكات حيث فرضت ضرائب لصالح الفرق العسكرية ، ولقد حرص ثيودسيوس فى قانونه على تحقيق العدالة فى الجباية فأعاد ذكر قانون يعود لعام ٣٢٠ م Th.cod.xi.vii3

وبالنسبة لمدفوعات الضـرائب فلن يقـاس أى شـخص من آخـر ومن أيد غير أمينـة أو أحكام ظالمة، ولن يساق بسوط أو يجلد أو يتعرض لتعذيب أو اضطهاد، فالسجون للمجرمين، ووفقاً لهذا القانون فإن دافع الضرائب سيكون فى مأمن" . و لقد عاد وكرر هذا فى فقرة أخرى من قانونه، ويبدو أن الشكوى ارتفعت فى الولايات من ظلم الجباة، ونجد هذا فى قانون آخر يعود إلى ٣٢٠ / ٣٢٥ م أعاده الإمبراطور Cod x x vi.3 أن المزارعين لن يقاسوا نتيجة للإنتهاكات والاعتداءات "(١١٤) .

وفى القرن السادس ذكر جستنيان أن الضريبة تستنفذ عند الجباية؛ والمقصود الضريبة المالية، فإنه جرى تسليم ٨ مليون كيلة من القمح إلى القسطنطينية فى عهده .

وكانت الضريبة المفروضة على الأرض تختلف من إقليم إلى آخر، ففى قرية أفردويتوبولس " كوم أشقوه " وأنطونيو بولس " الشيخ عبادة " كانت أعلى من ضرائب هيرموبولس " الأشمونين " وهذا الإصطلاح وعدم فرض ضريبة مسبقة موحدة على جميع الأقاليم جاء لرغبة الإدارة البيزنطية فى عدم إتخاذ الأهالى فى الإقليم موقفًا موحدًا تجاهها يدفعهم للثورة .

ومن المؤكد أن القوانين المتتالية التى شرعها الأباطرة لحماية الفلاح من ظلم جبايتهم، الذى وضح أنهم استعملوا السياط ووسائل التعذيب ضد الأهالى من الأقباط، كذلك فإن الدولة عانت من استنفاذ الدخل وعدم وصوله، بعض الجباة ظلموا الأقباط وسرقوا دخل الدولة، وهذا يوضح مدى الفساد الذى إستشرى حتى يقوم الأباطرة عبر فترات متتالية باصدار قرارات لمقاومته .

ولقد أوجدت الدولة هذا النظام البيروقراطى، ومن الواضح أنه أضر بها وأضر بالشعب (١١٥) . وكانت هناك بعض الضرائب النقدية غير الدائمة؛ فرضت ضريبة ذهبية وفضية على الأرض، ولكنها كانت تعد ضرائب إستثنائية، وكانت أحيانًا من الفضة والذهب وتقدر على أساس الأوقية والجرام ، ودفعت تكاليف تنقيتها وضربها فى شكل نقود ولا تعد نسبة المدفوعات باهظة القيمة بمعيار تلك الفترة (١١٦) .

وهناك ضرائب للكنيسة ، خصص قسطنطين مقدارًا من القمح لكنيسة الإسكندرية لتصرف على الفقراء، وإن كان جوليان قد ألغاها فيما بعد ، وذكر مؤرخو

الكنيسة أن الأباطرة سمحوا للكنائس بجباية عدد من الضرائب لدعم المؤسسة الدينية، ولم يتوسع أباطرة القرنين الرابع والخامس فى منح المزايا للكنائس فى مصر نتيجة للصـراع الدائم بين أريوس وأثناثيـوس الذى انعكست آثاره على جـميـع أنحـاء الإمبراطورية .

ولقد وردت أدلة فى القرن السادس على تقدير ضرائب لصالح الكنائس، فإيصال صادر عن أحد كبار ملاك أكسرنخوس " البهنسا " يأمر وكيله بدفع ضرائب لصالح الكنيسة ، وكذلك دفع أمونيوس كبير إقطاعى أنطونيو بولس " الشيخ عبادة " ضرائب لعدد من الأديرة، وكذلك قرية أفرديتو قمحًا لصالح الدير .

وإذا كانت هناك ضرائب لصالح الكنيسة فكان عليها فى المقابل دفع عدد من الضرائب العادية فيما عدا ما وصلها عن طريق هبة إمبراطورية، كذلك دفعت الكنائس والأديرة ضرائب لصالح الفرق الحربية (١١٧) .

فإذا حاولنا إحصاء ما يدفعة الفلاح من ضرائب فى القرن السادس وأوائل السابع الى الفتح الاسلامى ، كان كما يلى : ١,٢٥ كيلة للأرورة، وضريبة الأرض ١,٥ قيراط، وضرائب نقدية نصف قيراط، والميرة المحلية وربع قيراط، ثم ضرائب نقل القمح، وبذلك يصل مجموع الضرائب الى أربع كيلات سنويًا (١١٨) .

الفلاح والسلطة

العلاقة بين الفلاح والسلطة تمثل قطبين متعارضين حاول موظفو الدولة سواء كانوا باجاركات أو جامعى ضرائب أو حراس حقول إستنزاف الفلاح، وهذا بدوره سعى جاهدًا إلى الفرار من قبضتهم بكل الوسائل حتى وصل الأمر ببعض القرى إلى سرقة الجباة ومحاولة التهرب منهم ، وذخرت الفترة بشكاوى الفلاحين ضد جباتهم الذين استعملوا أقصى وسائل العنف .

والجابى هنا فى أغلب الأحيان - خاصة فى الفترة البيزنطية المسيحية - مصرى، ولكن القهر الإنسانى الذى تمثل فى سلطة عليا من كبار موظفى الدولة الذين يدينون بالولاء للسلطة الأجنبية، والذين عملوا على إرضائها وجمع ضرائبها جعلت الفلاح والجابى المصرى على حد سواء، يقعان تحت ضغط إنسانى وسعى كلاهما للهروب من هذا القهر.

وكانت الجباية تخضع للأهواء ؛ فجميع موظفى الدولة من الباجاركات إلى جامعى الضرائب سعوا للاستغلال، والدليل على ذلك كثرة الشكاوى المرفوعة ضد الجباة، وتضمنت الشكاوى إنعدام العدالة فى توزيع الضرائب وأخذ الرشاوى وإضطهاد الفلاحين .

فلم يتردد الجباة فى فرض أعباء إضافية على الفلاحين ؛ ففى التماس مرفوع من فلاح يشكو بأن الجباة فرضوا عليه نصيبًا أكبر من زملائه فيما يتعلق بالميرة الحربية، وهى ضريبة الفرق الحربية ، وهناك التماس آخر لوالى مصر من فيلادلفيا ذكر فيه إضطهاد الموظفين والجباة على حد سواء حيث حاولوا فرض أعباء إضافية ، بل حاولوا إنتزاع الأرض منه لصالح حميه.

وحتى فى الاقطاعات فإن كبار موظفيها استغلوا المزارعين عن قصد ؛ فلقد تقدم عدد من المزارعين إلى أبيون ضد الكونت ليمونوس ووكيله، حيث وعدهم أبيون بتأجير أرض تابعة له، ولكن ليمونوس لم يف بالوعد، ويذكر الشاكون أن الكونت لا يخدم مصالح الدوق.

ولقد تعرض مجموعة من المزارعين لمضايقات من جانب وكلاء الإقطاع عند سداد إيجار أراضيهم ، فلقد أرسل فكتور أحد الوكلاء لزميله جورج شخصًا يحمل رسالة تتضمن توصية ويطلب منه أن ينهى حساباته بسرعة ودون تأخير، وعليه ألا يعرضه لمضايقات السكرتاريين أو غيرهم.

كذلك كان موظفو أبيون يقومون بمسح أرض الإقطاع وتقدير الضرائب؛ فكتب وكيله - ويدعى بامبيوس عن مسح الأرض - وكشفًا بالمزارعين والملاك والأراضى التى يصلها الفيضان والأراضى غير المزروعة ، وربما أجحف الموظفون الموكلون بمسح الأرض بالأهالى ، أو فرضوا عليهم أعباء أكثر أو تجاهلوا أحد البنود الأساسية التى يجرى على أساسها تقدير الضريبة ، وهى نوعية الأرض ونوعية المحصول (١١٩) .

وإن كان أبيون وكبار معاونيه قد حرصوا إلى حد ما على عدم الإساءة إلى مزارعيه حرصا على نتاج أرضه، فسوء المعاملة قد يؤدى إلى فرارهم وتركهم الأرض ، فلقد أرسل جورج إلى فيكتور بخصوص جامعى الضرائب الذين أساءوا إلى المزارعين فى إحدى القرى التابعة لهم وقبضوا على رئيس القرية واغتصبوا حصانه، فطلب منهم إعادة الحصان وترك رئيس القرية وحملهم مسئولية ماحدث ، وكان لموظفى الإقطاع سلطة الشرطة مما زاد أهميتهم وسلطتهم تجاه المزارعين ، هؤلاء الجباة لم يجدوا غضاضة فى سرقة المزارعين وتلقى الرشاوى، وخير ما يوضح لنا أسلوب العمل رسالة من أحد موظفى الضرائب إلى أحد الجباة : إحضر حالاً ومعك كل ماطلبته منك ، لأنى فى حاجة ماسة إليه وأرسل رؤساء الحقول لجمع الأعباء وحثهم على تجهيز كل صولد ، واقسم بالله إذا لم يثبتوا حماسًا فى الجباية لأنزلن بهم العقاب ، واحضر جميع المال الجاهز حاليا بسرعه واحضر معك قدرًا من النبيذ والجبن " (١٢٠) ، ومن الواضح أن الموظف يضغط على مرؤوسيه فى الوقت نفسه الذى يتقاضى فيه رشاوى .

وكان الجباة يصحبون معهم فى الإقطاعية الخاصة بوكلارى (١٢١) جنداً عرفوا باسم Buclari وهم جنود مهمتهم المساعدة فى الجباية وتوفير الأمن فى الإقطاع مثل الحرس الخاص أو " البودى جارد فى أيامنا"، ويرسل ثيودور السكرتير إلى السكرتاريين الآخرين " أرجو تعيين إبراهيم ونيكتاس حاملى هذا الخطاب كبوكلارى إبتداء من شهر برمهات وادفعوا إليهم مسموحهم من الحبوب لأنكم تعلمون أننا نحتاج لجنود يعينون بلا تأخير "(١٢٢)، وذكر فى كشف آخر أسماء لهؤلاء الجنود من بينهم اسمان لجرمان وذكر أجورهم، وكان لأبيون سجن خاص، وهناك محامون يتبعون الإقطاع، فجنود الإقطاع مثلوا عنصر ضغط مع الجباة على الأهالى .

ولقد قام كبار الموظفين بالضغط على الجباة وحثهم على إستخدام كل الوسائل للضغط على الأهالى، ففى خطاب موجه من كاتب حسابات يتبع الإقليم يأمر الجباة بالإبقاء على المحاصيل فى الحقول لأنه لم يجر تسليم بقية الضرائب، ويذكر أنه لم يتم الضغط جيداً على الموظفين المسئولين على الجباية (١٢٣) .

وأمام هذا الضغط سعى الفلاحون إلى الهرب من دفع الضرائب، وفى وثيقة وهى رسالة غالباً من باجارك إلى موظفيه فى مدينة هيراقلوبولس "أهناسيا" يأمرهم بجمع ضريبة النولون ؛ وهى ضريبة نقل القمح والدخل الإمبراطورى والضريبة عامة ، ويبدو أن الفلاحين تأخروا فى دفع ضرائبهم، فجمعوا ضريبة قسم متأخر فى العالم التالى .

وحاول الجباة بدورهم التهرب من أعمالهم لضغط كبار الموظفين وتهرب الفلاحين؛ فيذكر أحد الجباة أنه جمع من قرية مشيوس إحدى قرى " كينوبولس أبو صيربانا " من الضريبة الذهبية فى القسم الثانى وضريبة القمح ١١ صولد سلمها إلى رئيس القرية بالإضافة إلى ٣٤ كيلة قمح، ولكن حيث ذهب لقرية برينيوس بقى يومين ولم يحصل على شيء ، ويذكر أنه يرغب فى التخلص من عمله (١٢٤) .

وفى خطاب لزوجة أبيون الإقطاعى " إن الجباة لم يسلموا الجباية رغم التنبيه عليهم " ، وتكرر هذا القول فى خطاب آخر من كريستوفر أحد رؤساء الجباة أرسل إلى جورج وكيل أبيون أن فلاحى أكريو Acrio لم يسلموا إلى يوسف الجابى خراج أراضيهم، ويطلب أن يرسل شخص آخر لمساعدة الجابى المذكور .

بعض موظفى الإقطاع سببوا المشاكل للأهالى عند سداد ضرائبهم، فقد تعرض مجموعة من المزارعين لمضايقات من جانب وكلاء الإقطاع عند سداد إيجارهم فلجأوا إلى الوساطة والتقرب للموظفين لحل مشاكلهم ، فلقد أرسل فيكتور أحد وكلاء الإقطاع لزميله جورج شخصًا يحمل رسالة تتضمن توجيها له أن ينهى حسابات الشخص حامل التوصية بسرعة ودون تأخر وإلا يعرضه لمعارضة السكرتارية أو غيرهم .

صغار الجباة ظلموا من كبارهم؛ فوظائف الإقطاعات الإدارية لم تكن من الأمور المجزية فيما عدا المناصب الكبرى كالكونت والقمص وما إليهما، حيث نال هؤلاء أجورًا عالية . ولكن فى المستويات الإدارية الصغرى المتمثلة فى السكرتاريين وصغار الوكلاء فالصورة تختلف؛ ففى رسالة للدوق يذكر ثيودور المحامى " أن سكرتير حنا مسجل الأراضى لم يتسلم راتبه فى السنة الجديدة، ويذكر أنه ليس من المستحب ألا يدفع مرتبه لمدة طويلة " (١٢٥) ، فهنا الجابى والموظف الصغير لا يتقاضى ما يعينه على الحياة فيضغط على المزارعين بدورهم .

ولم يكن عمل الجباة بالسهل إذ كان عليهم الحصول على الجبايات فى الوقت المحدد وإلا تعرضوا لغرامات وللعقاب فلجأوا إلى الشدة مع المزارعين ، فالجابى خضع لسلسلة من الموظفين البيروقراطيين يعلونه فى المرتبة، فأخذ الوكلاء يتعهدون بالعمل لمدة سنة لدى أبيون فى قريته والمنطقة المجاورة، ويعدون بالتعاون مع عدد من الموظفين وتنفيذ الأوامر وتسليم المحصول للموظف المسئول والمال لمسئول البنك، وجميع الإيصالات التى تصدر للمزارعين تحت مسئوليتهم، وإذا حدث عجز كان عليه تحمل المسئولية.

هناك تعسف على مستويات عليا إنعكس على الفلاح والجابى ، إضطر الجابى بدوره للتعسف مع الفلاح، فكبار الموظفين سواء التابعين للدولة أو للإقطاع ضغطوا على الفلاح والجابى الصغير ، وكان البعض منهم من المصريين ، ولكن التعامل مع القوة الأجنبية المسيطرة جعلهم ينسون وطنيتهم ويسعون لإستغلال وقهر الجميع .

ولقد حاولت الدولة مقاومة تعسف موظفيها بوسيلتين؛ أولهما فرض عقوبات على كبار الموظفين من دوقات وولاه وحكام أقاليم ، إذ أهملوا فى تطبيق العدالة، فلم يسلم

منهم الأجير أو المزارع الصغير أو حتى أعيان القرية كديسقورس أحد أعيان أفروديتو، والذى شكى باجارك بمدينة إقليمية [١٢٦] .

فباجارك أنطونيوبولس قام بالتعدى على الأهالى بالقرى المتمتعة بالجباية الذاتية ، وكانت تسلم له ماجمعته من ضرائب القمح كذلك الضرائب المالية ، ففى بردية تعود للقرن السادس يذكر سكان قرية " أنهم دفعوا الضرائب من خلال الجابى وهذا قام بتسليمها لمسئول البنك والباجارك جوليان، ورغم دفعهم الضريبة فقد قام الباجارك جوليان بفرض ضريبة إضافية مقدارها ٤٠ قيراطا رغم انخفاض مستوى الفيضان، مع أن أراضيهم رملية وليست جيدة الخصب " [١٢٧] .

فرغم أن تعليمات الإمبراطور بحق القرية فى الجباية الذاتية، فلقد تدخل فى جبايتها، والأمر نفسه بالنسبة للبجارك ميناس لإغارته على قرية أفروديتو من أجل الحصول على الضرائب وبصحبته جنوده، فاعتدوا على النساء والراهبات وسدوا القنوات وهاجموا القوافل وأخذوا دوابهم وحصلوا منهم على ٧٠٠ صولد لم يسلموا عنها إيصالا، وكذلك فرض عليهم غرامة ، ولقد تعرض ديسقورس وهو أحد ملاكها للاعتداء والمصادرة، فقد أراد الباجارك جوليان إخضاع القرية لضرائبه ، فلما رفض الأهالى تعرضوا للاضطهاد والمصادرة ، ولقد ذهب ديسقورس إلى الإمبراطور جستنيان يشكو له ماتعرض له هو وقريته على يد الباجارك، فيذكر فى شكواه " أنه وأسرته كانوا من كبار الملاك وتولوا الجباية من خلال مجلس القرية الذين كانوا أعضاء فيه، ويذكر أن شخصا يدعى سيولوس اغتصب منه الجباية ولم يسلمها إلى المكتب المسئول مما اضطر الفلاحين إلى الدفع ثانية " .

وبذلك حاقت الخسارة بكل من الخزانة والفلاحين، وقام ديسقورس بزيارة ثابتة إلى القسطنطينية لتقديم شكواه لعدم تنفيذ الباجارك لأوامر الإمبراطور، مما دفع الإمبراطور لتوبيخ الدوق على عدم تنفيذ الأوامر" إن ديسقورس حضر إلينا وأخبر أنه جاء من قريته فى طيبه ، وأن والده كان أحد كبار الملاك هناك واعتاد أن يجمع ويسلم جميع ضرائب المنطقة إلى وكيل المجلس، ولقد تعرض لظلم فادح من حكام هذه الأيام الذين لم يطيعوا منزلنا المقدس ، ومارسوا حمايتهم ، وسيودثيوس المعظم استغل ميزه

غياب الأب الحامى فجمع ضرائب القرية ، ولم يدفع شيئا للخزانة العامة، وعلى ذلك فإن الجباة المحليين عادوا ثانية إلى جمع الضرائب وفرضها عليهم ، ولقد حصل الشاكى على خطاب مقدس منا إلى فخامتكم بخصوص هذا الأمر ولكن مكائد هذا الشخص كانت أكثر فاعلية من أوامرنا وتعرض الملتمس لمتاعب دفعته إلى المجيىء إلينا والتعرض للتأخير (١٢٨) .

وعلى ذلك قررنا أن عليكم أن تعطوا الفاعلية لخطابنا المقدس عن هذا السؤال الذى للملتمس أنه وقريبه لن يجردوا تماما بعد عام مما هو حق لهم، ويجب ألا يتعرضوا على هذا الأساس للاستنزاف بسبب مدفوعات الضرائب العامة ، وعلى ذلك فقد ذكر أن بعض المسئولين فى القرية سرقوا من الملتمس عددا من الممتلكات وقاموا بإجراءات ضد العدالة؛ ولذلك قررنا أن على فخامتكم فحص هذه الحالة، وإذا وجدتها كما أبلغنا فيجب تحقيق العدالة للملتمس وأخته وفق القانون ، ولقد أخبرنا أن جوليان الباجارك فى إقليم أنطونيوبولس رغب فى وضع القرية تحت سلطان باجاركيته الضرائبية، رغم أنها تتبع نظام الجباية الذاتية وتدفع الضرائب مباشرة للمكتب المحلى، ولما رفضوا هذا الوضع هاجمهم، وإنّه ليعد مدانا بسبب استيلائه على ممتلكاتهم ، وباختصار استغل سطلته عليهم وعلى قريبهم، ولذلك قررنا أن على سعادتك فحص الحالة بعدالة ووفقا للقانون، وإذا وجدته على حق هو وأهالى قريته فلن يخضعوا لسلطان الباجركية الضرائبى ، وتمنع جوليان السابق الذكر من التعرض لهم وتجعله يتصرف تصرفا عادلا تجاه الملتمس، ويزيل الأضرار التى لحقت به نتيجة لتصرفه السابق " .

أمام هذا التدخل المستمر فى أعمال مجلس القرية حاول أعضاء مجلس القرية التهرب من وظائفهم وواجباتهم ، وتعيين غيرهم مع تحملهم للأعباء المالية، فثيودور وهو أحد ممولى الدولة يتعهد بأن يعطى كل السلطات للشخص القائم بعمله ويتعهد بأن يدفع عنه الأعباء .

وأمام الظلم الذى تعرض له المزارعون نشأت وظيفة الحامى وتعود لعهد فالنتيان ٣٦٠ - ٣٦٤م ، والهدف منها حماية الفقراء من ظلم الأغنياء والمزارعين، ومن

ظلم الجباة وتحقيق العدالة، وكان الحامى يعتبر من نفس هيئة نواب البلدية ويشارك فى الإدارة المالية والقضائية (١٢٩) .

وفى البداية كان ينتخبه والى الشرق، ولكن منذ عام ٣٨٧م أصبحت المدينة تنتخب حاميها، وكان دافع الدولة إلى ذلك أن أهل المدينة أقدر على اختيار من يمثلهم، وكان يجرى انتخابه من بين رجال الدين والأعيان، وبناء على رغبة كبار الملاك عادة، وأدى هذا إلى سيطرة كبار الملاك على تلك الوظيفة ، ففقدت هدفها ومعناها ، بل أصبح لعبة فى يد الملاك، فهل كان باستطاعة الحامى الوقوف أمام شخصية كأبيون وأفراد أسرته الذى كان منهم الباجارك والدوق والقنصل وتحول عدد منهم إلى نواب له كأمنياس الحامى الذى ورد فى برديات P.oxy 1858 - 1549 ككاتب للسجل ومقدر لضرائب أبيون (١٣٠) . وكان حامى مدينة كينوبولس " أبوصيربانه " . فى الوقت نفسه ، وفى خطاب من ميناس إلى جورج الذى يرد فى نفس المجموعة كوكيل لأبيون يطلب منه راتبه المخصص لوظيفته عند أبيون، ومن لهجة الخطاب تتضح كيف كانت العلاقة بين الموظف المفروض فيه العدالة ووكيل المالك بخلاف خطابى فأنا أرسل عظيم تحياتى إلى أخى النبيل وأدعوا الله أن يرعاك ويحافظ على عظمتك، وأنا أجد من المناسب توقير شخصك لأن الله يعلم كيف أشكرك وأبلغ شكرى إلى سيدنا ذائع الصيت مندوب المالك، وأنا أرجو أن تمنحنى عطفك ، وأن تأمر بالمبلغ الذى يعطى لى كالمعتاد، لأن الوقت حان وفى النهاية يذكر : " سأرسل شكرى لفخامتك وأرجو أن تقبل عذرى ياسيدى لأن خادمكم أبى هو الذى كتب الخطاب وأنا أكتب لك مع عظيم تقديرى لفخامتك طالما أراكم " (١٣١) .

وفى خطاب آخر يرسل ميناس إلى ثيودور وكيل أبيون هدية من السمك بمناسبة الاحتفال بأحد الأعياد ، وبذلك يتضح كيف كانت العدالة؛ فالحامى موظف عند الإقطاعى أو يتحصل منه على مبالغ مالية ويتقرب لموظفيه بالهدايا (١٣٢) .

وكان الهدف من إنشاء الوظيفة أساسا حماية المزارعين من تسلط الأغنياء والموظفين، ولكن تحولت إلى قبول الالتماسات فى الأمور القانونية البسيطة بعد فشل من تولوها فى تحقيق الهدف الذى أنشئت من أجله، وهناك بردية تشير إلى التماس

للحامى بخصوص دين غير مدفوع يخص أحد أفراد أسرة أبيون، ويطلب الشاكى إجباره على الدفع، وللأسف لم توضح البردية ما تم ولا موقف الحامى ضد الأسرة التى يعمل فى خدمتها .

ومن أكسرنخوس رفعت شكوى إلى الحامى بخصوص شخص يدعى سريوس يذكر أنه ضرب إلى درجة الموت ويطلب المالك الذى يعمل عنده سريوس برفع الأمر للوالى للتحكيم فى الأمر، لأن جابى الخراج هو المسئول عما حدث ، فالشاكى هنا يرى أن الحكم النهائى للوالى، وأن الحامى رفع الأمر فقط رغم أن الحامى كانت له سلطات قضائية ، وفى الفترة الأخيرة أصبح حامى المدينة من الوظائف التى يتم التعيين فيها عن طريق السخرة ، وأصبحت مدة ولايته سنتان [١٣٣] .

وهناك عبء السخرة الذى فرض على الفلاح وسميت فى بداية الإمبراطورية بالخدمة الوضيعة Munerea Serdide ؛ وهى سخرة الخمسة أيام التى يفرض فيها العمل كرها فى مشروعات الدولة كبناء السدود وشق الترع، وكان يمكن الإعفاء منها مقابل دفع أجر مالى ، وكذلك كانت تسخر الدواب فى نقل الغلال التى تحتاج إلى الشحن، ومع أزمة القرن الثالث قل الاهتمام فتهدمت الجسور واضطرب نظام الرى، ورغم ذلك فقد استمرت الدولة فى فرض عدد من الأعمال عن طريق السخرة كحارس الحقول ووظائف مجالس القرية والكومارخ الذى كان من مهامه مراقبة منسوب الفيضان ومنع الماء أو كسر الجسور قبل بلوغ الفيضان المنسوب المطلوب، وذكر ثيودسيوس فى مرسوم له عقاب من يسرق الماء من الجسور قبل أن يصل للمنسوب " .

ولقد ألزم عشرة من كل قرية بالعمل فى القنوات والجسور فى بعض الأحيان ومنحوا أجرا يتراوح بين ١,٥ إلى ست قيراط [١٣٤] ، ولكن عملهم بطريق الإجبار نتيجة هذا القهر والتضارب بين السلطات الحكومية والإقطاعية من كبار الملاك واختفاء فاعلية السطلة وانتشار الفوضى، ووجد الناس متنفسا عن غضبهم فيما صار من نزاع بين القرى والأهالى وازدياد نسبة الجرائم وفى اللهجة الذليلة التى حملتها خطابات ذلك العصر المرفوعة إلى الولاة وسادة الإقطاع، ففى خطاب إلى أبيون يطلب المزارع التسامح فيما عليه من الضرائب " أنا عبدك البائس أتقدم بهذا الالتماس ، إنى أخدم سيدى كما خدمت آباءك وأجدادك وأدفع الضرائب سنويا ، ولكن أراد الله أن تموت ماشيتى فى القسم ١١، ١٢ واقترضت ٥صولد لأستطيع شراء ماشية بدلا منها وعلى

ذلك ألتمس من سيدى الرحمة فخدم سيدى رفضوا أن يعينونى وإن لم تدركنى برحمتك ياسيدى فإننى لن أستطيع البقاء فى ممتلكاتك أو خدمة الإقطاع وأنا أرجو من عظمتك أن تأمر بالرحمة بى " ، فمن الواضح من لهجة الخطاب الذليل مدى الضغط من السلطة الحاكمة بإدارتها حتى أصبحت طابعا سائدا بين الرئيس والمرؤوس .

واتخذ المتنفس عن الغضب صورة النزاع بين القرى أو بعضها ببعض، وازدياد نسبة السرقات، وكانت المشاكل تنشب بين القرى لأتفه الأسباب، وظهر عنف لم يكن فى الطبيعة المصرية، ولكنه نوع من التنفيس الغاضب الذى يحمل فى طياته شعورا بالظلم لم يستطع أن يوجه ضد من يملكون السلطة والقوة .

ونرى فى أحد البرديات ضابطا يأمر شخصا تابعا له بأن يذهب إلى القرية التى هاجمها جيرانها لحمايتها من تكرار الهجوم ويهدد بالتدخل المسلح إذا عاودوا الهجوم، ويحمل رؤساء تلك القرية المسئولية، وأرسل رئيس قرية أخرى إلى زميله رئيس قرية تكيوتا أن الرعاة فى قريته تشاجروا مع رعاة تلخيص وأخذوا بعض خرافهم وطالبه بإعادة ممتلكاتهم (١٣٥) ، ومن قرية أسبينيا أرسل موظف إلى الباجارك يطلب مندوبا لمحاولة التوفيق بين قريته وقرية أخرى ويطلب إعادة ماسرق، بل إن رئيس القرية نفسها سرقت ممتلكاته واتهم عددا من الملاك من المنطقة بسرقته (١٣٦) ، وفى بردية أخرى يذكر رجل فى خطاب إلى أبيه فى ليكوبولس " أسيوط " " أن زوجته وابنته كادتا تقتلان خلال نزاع بين قريته وقرية أخرى "(١٣٧) .

ولم يكن هناك تعاون بين الأقاليم بعضها وبعض ، فقد حدث أن سرقت امرأة فى إحدى الكنائس ولجأت إلى قرية أخرى ورفض رؤساء القرية الثانية تسليمها ويشكو رئيس القرية إلى حاكم الإقليم ويطلب تسليمها إليه" (١٣٨) .

وحدث نزاع بين قريتين من قرى الأشمونين فى القرن السادس بسبب سرقة ماشية وكتبوا إلى المالك أن يكتب إلى رئيس القرية ليقضى على الخلاف ، ولقد حضر وكيل المالك وفض الاشتباك ، وأرسل موظفين للتحقيق فى سرقات جرت فى قرى ، ويشكو رجل من امرأة اعتدت على زوجته وسرقتها بل امتد الأمر إلى أعيان القرى ؛ فاثنين من الملاك وهم من المحامين حدث خلاف حول جمل يخص أحدهما نزل أرض

الثانى فأصابه حراس الحقول وتعرضوا لمزارعى وحراس الحقول الخاصين بالطرف الآخر، ويهدد المالك زميله بأنه إن لم يتخذ إجراء سيتدخل كما سبق أن فعل مع آخرين، وبذلك بدأ الأهالى فى تصفية خلافاتهم بالعنف دون الرجوع إلى السلطات رغم خضوع تلك المناطق لسلطان الباجاركية ، فهنا خلق الحكم البيزنطى بإدارته ونظمه بيرقراطية ذليلة تحكمت فى الأهالى ونفست عما تعرضت له من إذلال وظلم فى جموع مواطنها المزارعين ، وهؤلاء عبروا عن غيظهم بنزاع واشتباك مع بعضهم البعض الذى أصبح سمة عامة .

الحياة اليومية فى ظل المسيحية

الحياة فى عواصم المدن كانت تعكس حياة طبيعية تمتعت بقدر من مباهج الحياة ، احتفلت المدن بأعيادها وأعياد ميلاد أفرادها وزيجاتهم ، تزينت نساؤها بالحلى وارتدين الثياب على أحدث طرز العصر، فى الفترة الأولى كان أفرادها يذهبون للجمانيزيوم والمسارح ، ومع المسيحية فإن الأمر تغير فى بعض المظاهر ، فلقد أصبحت الأعياد الوثنية مسيحية، اختفى دور الجمنازيوم ونوادى الشبيبة والمسارح ، ولكن كثرت حلقات السباق واستمرت الحمامات حتى فى القرى الكبرى ، وظهرت الأديرة والكنائس كأماكن للعبادة والاستشارة .

أما القرى فلم تخل من مباهج صغيرة فى احتفالات الأعياد والقديسين وحفلات الزواج التى تنوعت بها الأطعمة .

وكان تخطيط المدن اليونانية كالإسكندرية وبطلمية ونيتوكراتيس وأنطونيوبولس الرومانية على أنماط الفن اليونانى ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمنشآت العامة وخاصة اليونانية الطابع كالجمنازيوم والمسرح ، فيما عدا معابد الآلهة المصرية فكانت أعمدتها تحمل أكتافها منها نباتا على شكل أوراق البردى ، بالإضافة إلى وجود معابد يونانية .

وكان تخطيط المدينة فى عواصم الأقاليم على شكل خطوط منتظمة متقاطعة وفقا للطراز اليونانى فى البناء ، وكانت على شكل زواية قائمة ذات أعمدة ويقطعها شارعان أساسيان أحدهما من الشمال إلى الجنوب والآخر من الشرق إلى الغرب ، وعند تقاطعهما توجد سوق **Agora** تزينه أعمدة دورية الطراز ، وكان كل حى مقسم إلى عدد من الوحدات السكنية والمنازل وكانت من الطوب اللبن أما المعابد فمن الحجر.

أما عن المنزل فمن واقع برديات أكسرنخوس " البهنسا " كان يتكون من عدد من غرف النوم والطعام وحمام ، وكان يجرى تأجير غرف منفردة فى بعض الأحيان ،

ونرى فى بعض البرديات إشارة إلى طلاء المنزل والحمام بالملاط وتحولت المعابد إلى كنائس فى الفترة المسيحية .

وتعكس أوراق البردى فى غالبيتها حياة اجتماعية لطبقة وسطى مازالت بعض مظاهرها إلى الآن فى احتفالاتنا بالمناسبات والأعياد ، وكانت الاحتفالات يجرى بعضها كما يحدث اليوم فى "النوادى" والجمنازيوم ، هذا فى الفترة الرومانية ؛ ففى دعوة للعشاء أقيمت لشخص بمناسبة توليه وظيفة إدارية تضمنت صيغة الدعوة مايلى " إيدمون يدعوك للعشاء فى الجمنازيوم بمناسبة تعيين ابنه تيلوس الساعة التاسعة ، كذلك دعوات لحضور زفاف تضمنت إحداها(١٣٩) " ألكسندر سيفربوس يدعوكم لحفل الزفاف الساعة التاسعة مساء(١٤٠).

وكانت تطلب فرق موسيقية تتكون من عازفى الآلات والراقصات ، بل طلبت هذه الفرق فى القرى للترفيه عن الأهالى فى الأعياد ، ولقد اهتم الأهالى بجميع المناسبات سواء شخصية أو دينية أو عامة ، وقاموا بإعداد المأكولات المختلفة مع المبالغة فى محتوياتها ، من عسل وشطائر ونبيذ ، وتعددت الإشارة فى البرديات إلى طلب السمك المملح "ويطلب الآن فى شم النسيم " ونبيذ وزيت نقى وأنواع مختلفة من الأطعمة .

ولقد حوت الرسائل المتبادلة عواطف إنسانية وعائلية دافئة ؛ ففى رسالة من أكسرنخوس " سراميتس إلى عزيزه ديسقورس لقد أرسلت مع القس آمون وعاء زيت لاستخدامه فى الإضاءة وأرسلت مع أخى ثيودورس أربع سلال للوقود للتدفئة وزيتا بلا غطاء ، من أجل الطعام وجرة نبيذ لكى تشربها أثناء الاحتفال بالعيد ، وأرسلت مع إلياس سلة للوقود ، وإذا قابلت ثيودورس فتعال معه وأحضر فطيرة اللبن إذا أحضر البردى ، إنى أدعو لك بالصحة وسلم الخطاب إلى والدتى"(١٤١) . وفى خطاب آخر يعود إلى ٣٦٠م سيدة تطلب جرتين نبيذ لأحد الأعياد ، ويلاحظ أن الأسماء فى غالبيتها يونانية وهى لمصريين فى حين يحمل القس اسما فرعونيا ، وإلى الآن مازال عدد من المسيحيين يحملون أسماء فرعونية كرمسيس ونيتوكريس .. إلخ "(١٤٢) .

وكانت ربات البيوت تعد كشفا بالاحتياجات المنزلية ، فجاء فى إحدى البرديات التى تناولت حساب مصروفات شخصية لأحد المنازل ، وكانت أشبه بكشف لما تقدمه اليوم ربات البيوت وكان على النحو التالى :

الميراد " عملة رومانية "[١٤٣] لسلطة السمك المجفف ٧٥٠ ميراد للتوابل ٢٥ ميراد للكرنب - جبن ولحم أويل - ٧٥٠ ميراد للخبز ، ٤٠ ميراد للإفطار - العسل ٨ميراد ، وكان العسل والزيت من المتطلبات الدائمة للأفراد والمنازل ، وتنوعت أنواع الخبز والفطائر ، ويتضح من قائمة أحد المخابز فى مدينة البهنسا تنوع الإنتاج من الخبز والفطائر، والمتاح منها فى المخبز لقائمة إنتاج ثلاثة أيام فقط " ثمن خمسة أرغفة كبار دينار واحد - عشرون زوجا من العيش الجاف - ثلاثة دنانير - رائحة الكحك ثلاثة دنانير - وأربعون رغيفا أحد عشر دينارا ودرخمتان ، أربع كعكات صغيرة ونصف كعكة خمسة دنانير وثلاث درخمات عشرون زوجا من الكعك الصغير ثلاثة دنانير مكيال من الرائحة الطيبة ستة دنانير[١٤٤].

ولقد انتشرت المطاحن والمخابز فى عواصم الأقاليم وفى قائمة مرفوعة إلى مسئول السوق فى أكسرنخوس ؛ إن ما يستخدمه الخبازون فى صناعتهم خلال شهر هو ثلاثون كيلة ، وكان إمداد المدينة بالطعام والخبز مسئولية أعضاء مجلس الشورى وعليهم إمداد المطاحن بالغلال .

وتردد الأهالى فى الفترة الأولى على الجمنازيوم والنوادى والحمامات، ولقد أصبحت الحمامات جزء من التكوينة الهامة لأى مدينة فى العصر البيزنطى ، فاهتموا بتزيين الحمامات وإمدادها بالماء الساخن وغرف البخار ، وكانت الحمامات على ثلاث مستويات ، أشهرها حمام تراجان وهادريان[١٤٥] وحمامات أنطونيوس الدافئة فى أكسرنخوس ، وتشير بردية إلى إيجار حمام فى هيرموبولس فيه غرفة للنساء ، وكانت الحمامات تزين من الداخل برسوم فرسان من مدينة أكسرنخوس التى وصفها بالعظمى " فالمدن أطلق عليها أهلها الكبرى والعظمى والأكثر شهرة ، رغم انهيار أوضاع بعضها فى الفترة الأخيرة من الحكم البيزنطى ، ولكن عادة إذا تدنى الوضع يحتاج الإنسان أن يغلفه بهالة من العظمة ، كتب أنه ذهب ورسم الأجزاء التى احتاجت للإصلاح فى الحمام العام فمن الواضح أن هناك حمامات عامة أقامتها الدولة وحمامات خاصة أقامها الأفراد فهى ظاهرة عامة ، وكان الحمام الذى أصلحه هو حمام تراجان وهادريان ، حيث ذكر أن المداخل والمخارج وصفوف الأعمدة وغرفة

البخار وإن كل هذا يحتاج لإعادة رسم ، والتكلفة عشرة آلاف دينار فضة ويبدو أنه كان عليه إحضار المواد التى يستعلمها فى عمله ، وكانت هناك إيصالات من سباكين لإصلاح أنابيب الحمام فالحمام جزء من الحياة اليومية للعوام ، وهى تشبه النوادى حاليا وهى أماكن للقاء بين الأصدقاء .

ولقد اهتم سكان عواصم الأقاليم بسباق الخيل والعجلات اهتماما كبيرا ونجد إشارات عديدة للسباق، وقام أبيون فى أكسرنخوس بإصلاح حلبة السباق على نفقته ، ووجدت حلقات للسباق فى جميع العواصم ، وفى بردية تتعلق بإنشاء حلقة سباق فيذكر حجر وارد من مقدونيا لحلقة السباق وزنه خمسة مينا ومائتا درخمة ، وغراء للنجار بمبلغ ميناء واحدة وربع مينا لعجلات السباق " .

وبعد تحول فرق السرك إلى أحزاب سياسية انقسم الناس فى عواصم الأقاليم بين الفريقين الزرق والخضر ، وكان لكل منهما أنصار فى مصر وحين قدمت جيوش الفتح الإسلامى كان هناك خلاف وصراعات واشتباكات بين الفريقين فى أقاليم مصر ، فلم يتوقفوا عن الشغب والخلافات رغم تقدم الجيوش الإسلامية آنذاك ومحاصرتها الإسكندرية ، وكان الزرق بقيادة دومتيانوس والى الفيوم[١٤٦] ، والخضر يقودهم الدوق ميناس . وفى القرون الثلاثة الأولى وإلى القرن الرابع كان الأهالى يترددون على الجمنازيوم والمسارح وكان روادها من اليونان والطبقة المصرية المتأغرقة حيث كان يجرى تمثيل النصوص المسرحية اليونانية التى وجد العديد من أصولها فى أكسرنخوس وأنطونيوبولس مثل مسرحيات أرستوفانز وسوفوكليس[١٤٧] .

وكانت تقام استعراضات الشباب خلال الاحتفالات الرسمية بأعياد الأباطرة فى عواصم الأقاليم ، وكان الفائزون فى الألعاب الرياضية يحصلون على مكافآت مالية ، وهناك عدد من الوثائق يشير إلى مصارعين وملاكمين وإلى تكاليف احتفالات وأجور أولئك المصارعين ، ونال أحد المصارعين فى أنطونيوبولس ميدالية لفوزه على اثنين من منافسيه[١٤٨].

ولقد تعددت وسائل التسلية والترفيه فى عواصم الأقاليم وقراها ، ولقد استمر الاحتفال بعدد من الأعياد الوثنية خلال القرن الرابع ، فهناك قوائم بأعياد للآلهة

متعددة فى أكسرنخوس وأنطونيوبولس تعود للفترة البيزنطية ، ولقد استمر الاحتفال بها إلى النصف الثانى من القرن الرابع ، وكان لكل إله عيد خاص به يستمر عدة أيام ، فهناك عيد للآلهة جرنوس Grnosis[١٤٩] ؛ وعيد أمسيا Ameysia وهذه غالبا إله الحصاد ، وهو من الأعياد التى كانت تجتمع فيها العائلة لارتباط المصرى بالأرض ، وكانت هناك أعياد لإيزيس وأوزوريس واحتفالات فى أكسرنخوس خاصة بذبائح تتعلق بتولية الأباطرة ، كما حدث حين تولى الإمبراطور هادريان خلفا لتراجان ، واحتفالات بتعيين مكسميوس قيصرا ، ولقد اتخذت أكسرنخوس من تاريخ القضاء على ثورات اليهود فى حكم تراجان وهادريان عيدا سنويا استمر لفترة طويلة[١٥٠]. وكذلك مولد الأباطرة وأقربائهم كان من المناسبات والاحتفالات ولكن لم يحصل منه الأهالى على إجازة عامة ، حيث اقتصرت الإجازات العامة على الأعياد الدينية فقط ، وأخيرا كانت هناك أعياد أنطونيوس إله أنطونيوبولس وغلام هادريان .

وفى العصر المسيحى جرى الاحتفال بالأعياد المسيحية للقديس مثل الاحتفال بأعياد شنودة والقديس يوسف وسفريوس وغيرهم ، وأشرف رجال الدين على تلك الأعياد ، وقام الأهالى بتقديم الهبات للكنائس فى تلك المناسبات، وفى خطاب من القرن الرابع إلى أحد رجال الدين يتضمن إرسال عشرين جرة نبيذ ، وعشرين بلحًا وأوانٍ من عسل ، وماء ورد ، بمناسبة الاحتفال بأحد الأعياد الدينية[١٥١] وفى إحدى البرديات فى القرن السادس جرت الإشارة إلى احتفالات فى البهنسا لأعياد القديسين ، وذكرت أسماء سرنيوس وحنا الأنجيلى وميخائيل والقديس يوسف وميناس وفيكتور وكوما وفيلوكسينوس والعذارء[١٥٢] .

وكان الإعداد للاحتفالات من مسئولية مجلس الشورى سواء فى الفترة الوثنية أو المسيحية ؛ فمن بردية لاحتفال عام فى الفترة الأولى يطلب ممثلين ومنشدين لأشعار هومير ، بلغت أجورهم وهداياهم فى إحدى البرديات نحو أربعمائة وست وأربعين درخمة[١٥٣].

وأشارت برديات من أنطونيوبولس إلى زينات وإقامة خيام فى مناسبة الاحتفالات ، وكان أفراد الفرق المصرية يحصلون على أجورهم أحيانا عينا وأحيانا نقدا وكانت أحيانا تستمر لعدة أيام .

وإذا كانت وجوه الفيوم عكست فى الجزء الأول الحياه الاجتماعية لسكان الأقاليم بما ارتداه أصحابها من حلى وثياب حرصوا على نقلها فى صورهم الجنائزية وعلى أكفان الكتان الفاخر والتوابيت والشواهد التى حوت مومياتهم فى المقابر ، فإننا نستطيع أن نعرف مدى ما تمتعت به الطبقة الوسطى والدنيا فى الفترة المسيحية من مباهج وممتلكات وطرز ثياب وحلى فى قوائم المهور ، فعادة تكتب قائمة بكل ما تدخل به العروس من ثياب ومهر للزوج لتصبح وثيقة على الزوج لما قدم إليه وفى وثيقة من أكسرنخوس " أولياسياس ابنة أيدمون أحضرت معها مهرا لابنتها من الذهب المعتاد فى أكسرنخوس " البهنسا " عقدا بأحجار كريمة تزن ثلاثة قراريط ، مشبكا ذهبيًا بخمسة أحجار ، وهو من الذهب وتزن الأحجار أربعة قراريط وزوجا من الأقراط بخمس عشرة لؤلؤة يزن بدون اللؤلؤ ثلاثة قراريط ، وخاتما صغيرا يزن نصف قيراط . " مما سبق يتضح أن الزوجة على قدر من اليسار ، وهذه القائمة تشبه ما يكتب اليوم للاحتفاظ بحق الزوجة فى ممتلكاتها ، وفى المتحف القبطى عدد من قطع الحلى تعود لتلك الفترة ولا تختلف صياغتها عما هو مألوف اليوم ، فقرط على شكل هلال وصلبان ذهبية ، وسوار على شكل حية ، وسوار به وحدات زهور ، وتجمع طريقة الصياغة بين الفن المصرى القديم والتأثيرات المسيحية(١٥٤). وكانت النساء يحتفظن بمجوهراتهن فى صناديق منقوشة ، وفى المتحف القبطى صندوق لحفظ الأشياء الثمنية وجد مغمورا فى أكوام أحد المقابر .

ولقد اهتمت النساء بزينتهن ؛ فهناك مجموعات من المكاحل من البرونز وقارورة من العاج ذات غطاء مدبب وكانت تستعمل إمّا للكحل أو لحفظ الدهون والعطور ، وتعود للقرن الرابع ، وأخرى من الخشب المزخرف عليها رسوم امرأة بجانب شجرة(١٥٥).

فالمرأة اهتمت بعطرها ، والدهون " تعادل الكريمات الآن" والكحل وصباغة الشعر وارتداء ضفائر الشعر المستعار ، والتى أعدها حلاقو تلك الفترة ، وتبدو فى التسريحات التى جرى تعديلها وتغير موضاتها من منسدل إلى بوكلات إلى شنيون .

حتى الأمشاط المستعملة كان منها ما هو مصنوع من العاج وعليه رسوم ونقوش على الوجهين وأحداها على وجهه صورة للسيد المسيح داخل إليل يحمله ملكان ، وعلى

الوجه الآخر شخص على ظهر إنسان، وعلى آخر صورة تمثل قيام العاذر من الموت وتعود للقرن الخامس أو السادس ، فالتأثر المسيحى بدا حتى فى أدوات الزينة .

والبرديات والآثار الموجودة فى المتاحف تعكس صورة الاهتمام بالأدوات المنزلية سواء كانت أدوات للطعام أو مفروشات منزلية أدخلت البهجة عليهم فاستخدموا أوانٍ من النحاس والبرونز والفخار ، وكانت الأوانى النحاسية والبرونزية عليها حفر وصور زخرفية يجمع بين الفن المصرى واليونانى ، وكانت أغطية بعض أوانى الطعام عليها تماثيل صغيرة لنساء ورجال وطيور وحيوانات وصناديق مغطاة بلوحات نحاسية دقيقة برسوم بارزة[١٥٦].

واستعملوا المعالق والسكاكين والأطباق وأوانى الحساء ، وفى قائمة معدات تسلم لجندى من فرقته تضمنت أوانى للطعام من البرونز وتعود للقرن الرابع تضمنت أطباق خاصة بسلطة السمك ومعالق وسكاكين وأكواب وإناء الحساء .

كذلك كانت هناك أوانٍ من الفخار وجرار لحفظ الزيت والنبيذ ، وكانت البضائع تباع فى أوانٍ فخارية ، وصنعت أطباق ذات عدة فجوات تصل إلى تسعة أو عشرة لوضع الأطعمة ، وتم زخرفة الفخار بالألوان المائية ورسوم على شكل حيوانات وجلود وأسماك وطيور كالبجع والحمام ، ثم بدأ تأثير المسيحية فى رسم الصلبان والقديس إلى جانب تأثير يونانى فى رسم عناقيد العنب[١٥٧]. وكانت الإضاءة عن طريق المسارج ، وتفننوا فى صناعتها على أشكال طيور وضفادع وزخرفتها بعناقد الكروم ، وكانت أحيانا تحمل رسم مالكها ، وقد يوجد عليها اسم أو حرف قبطى يرمز إلى المصنع الذى صنعت فيه ، ووجدت مصانع فخار إلى جوار الأديرة ، وأشهرها القديس منياس وأوانيه الفخارية التى تمتلئ بالماء تبركا ، وأزيار لحفظ الماء.

ونجد أن قوائم المهر تحوى إشارة إلى أسرة وأرائك ومقاعد ومناضد طعمت بالصدف والعاج وحفرت على خشب ، وضم المتحف القبطى ستائر مطرزة على طريقة القباطى وملونة وتدل على اللمسة الجمالية لأصحابها ، كذلك وجدت بسط صوفية وفوط مصنعة بمهارة تحوى رسوما زخرفية بعضها لراقصين وراقصات ورسوم منوعة ، وفى أنطونيوبولس ، وجدت ستارة تعود للقرن الخامس عليها اثنان من الحواريين وصورة

المسيح وملابس منوعة بطريقة القباطى وبمهارة . وهناك ملابس للنساء وأخرى للرجال تعددت ألوانها وزخرفها .

وحظى الطفل باهتمام أبويه فصنعت له اللعب من الخشب على شكل طائر وفارس يمتطى جواد بعجلات خشبية ، وحوت البرديات اهتماما بالأبناء من يوم مولدهم إلى العناية بهم صغارا إلى الاهتمام بتعليمهم ودراساتهم ، وهناك العديد من الخطابات تهتم بالأبناء وجلب مدرسين لهم ، ولقد عملت النساء كالرجال بالتدريس سواء الصغار منهم أو فى جامعة الإسكندرية ، وتحوى الرسائل عواطف إنسانية تجمع بين الأبناء والآباء والحرص على الارتباط بالأسرة والتواجد فى الأعياد وتوفير سبل الراحة .

واختلف وضع المرأة فى عواصم المدن ؛ فقد تمتعت السيدات فى منازلهن أو قصورهن بوافر من متع الحياة ، وامتلكن إماء كان عليهن الخدمة بالمنزل، ولكن بعض النساء خضن معترك الحياة العملية ، فهناك مصانع صغيرة تملكتها نساء ، واستخدمن نساء عاملات - أيضا - فى حرفة النسيج ، وهناك بائعات فى الأسواق ، ومن المهن التى مارستها مهنة القابلة وهى لا تقتصر على عملية توليد النساء وإنما عملت كطبيبة ، فبعضهن التحقن بعمل يخص الدولة للكشف على النساء اللاتى يتعرضن لحوادث ، فقدم رجل شكوى أن زوجته كانت وحيدة فى المنزل ذات مساء وحضرت امرأة اسمها تابسيس **Tepesis** وتقيم فى نفس المنطقة بعيدا عن منزلهم ومعها جارة لها تدعى فيكتوريا ، وقامتا بضرب زوجته بعنف ومزقتا ملابسها وسرقتا ذهبها ويطلب قابلة من قبل الدولة لتقوم بفحص زوجته وكتابة تقرير عن حالتها الجسمانية ليقدمه فى المحكمة[(١٥٨)]، ولقد ذكرت القابلة عدة مرات فى وثائق مختلفة .

وظهر العنف بين النساء فى عدد من البرديات، ففى بردية تعود للقرن السادس ضربت امرأة أخرى ضربا عنيفا بمفتاح أو أداة صلبة وتسبب فى جروح شديدة وظلت الضحية فى السرير أربعة أيام فى حين هربت المهاجمة إلى مقاطعة أخرى ، والخطاب مكتوب بخط إغريقى سيىء ، وربما صاحبته مصرية متأغرقة أو العكس[(١٥٩)].

وهناك عدد من الراهبات حظين بشهرة كبيرة وأقيمت على أسمائهن أديرة كدير سانت كاترين والسبع بنات .. إلخ .

ولقد وجد فى هذا العصر معتقدان متضادان تجاه الصحة وطرق العلاج ، فنجد إيمانا بالسحر طلبا للشفاء، فى الوقت نفسه وجدت المستشفيات العامة والخاصة والأطباء التابعين للدولة والأطباء المزاولين للعمل الحر ، وفلافيوس فيبميون كان يمتلك مستشفى خاصا آلت إلى ابنه ، كما كان هناك طبيب آخر فى أنطونيوبولس تولى عمله مقابل أجر سنوى مقداره ستون نوميزما . وهناك أطباء تابعون للولاية وكان عليهم على نحو ما يحدث اليوم الخروج للكشف على الموظفين للتأكد من مرضهم فى حالة تغيبهم عن أعمالهم ، فلقد أرسل الوالى اثنين من الأطباء هما هريون وأيد موساس من أكسرنخوس لإجراء الكشف على أحد الضباط وفحصه وكتابة تقرير عن حالته ، ولقد قاما بالمهمة خير قيام ، ولقد وجدا المريض يعانى فعلا من الحمى ورفعا تقريرا إلى الوالى وكان الوالى يعتقد أن الرجل يتمارض كى يهرب من الخدمة .

وأرسل أربعة أطباء لفحص عبد أحد الموظفين الكبار فى مدينة أكسرنخوس والأطباء الأربعة هم أطباء عموميون وكان فلافيوس **Flavius Martgrius** وعبد له مارين خلال المدينة لعمل ، ويبدو أن العبد تعرض لإصابة ، ولقد قاموا بفحصه فى منزل أنتتيوس التربيون ووجدوا فى يساره جرحا ، وهناك إيصالات خاصة بالمرض ووصفات العلاج وأدوية ، وهناك وصفات لعلاج أمراض العيون وهى من الأمراض الشائعة ، فنساج للأقمشة من أكسرنخوس عهد بعمله لآخر لأنه مصاب بكتراكت " مياه زرقاء" وتسبب هذا المرض فى إعفائه من الخدمة والحبس ، وشهادة طبية أخرى تشير إلى حالة صاحبها من الصرع والبرص ، أما الجانب الآخر فهو الإيمان بالسحر والأحجبة والتعاويذ التى تساعدهم على الشفاء ، فقد اعتقد المصريون فى السحر ، ولم يختلف الأمر كثيرا فى العصر المسيحى عنه فى العصر الوثنى ، وكان الاختلاف الوحيد هو إحلال المسيح والقديسين محل الآلهة الوثنية ، والسحر يرجع بأصول إلى العبادات المصرية القديمة ، وكان المحور الرئيسى الذى تدور حوله برديات السحر الآلهة هيرمس تحوت **Hermes Toth** إله الحكمة وأطلق على كتاب السحر أهم هيرماتيك **Heremtic** ووجدت نسخ منه فى أرشيف أكسرنخوس(١٦٠).

وتضمنت تلك البرديات ذكرًا لإيزيس ربة الحكمة وذكرا لهرميس والبحث عن أوزوريس ، وأضيفت آلهة يونانية كأفروديتو وآلهة يهودية كيهوا وموسى ، أما عن صياغتها فاشتملت على ألفاظ وتعبيرات غربية، إلى جانب أسماء الآلهة .

وفى العصر المسيحى ذكر المسيح والقديسين ، واقتباسات من الإنجيل واستنجاد بالآلهة الغامضة وسحر غنوسى إلى جانب أدعيات ورسوم ملائكية ، ومن بردية سحرية من أكسرنخوس ترجع إلى القرن السادس جاءت عبارات سحر ضد الأفاعى والأمراض . وهناك مجموعة من الأحجبة والتعاويذ للشفاء من الحمى والصداع بل هناك حجاب للشفاء من الثرثرة .

وهناك احتفالات خاصة بميلاد الأطفال ودعوات للطعام ورقيات خاصة بهم ، أما فى الحزن فهناك احتفالات مراسيم الجنازة والدفن والذهاب للمقبرة وسنوية المتوفى ، ووجدت فى المقابر بقايا موائد دينية ، وكانت هناك نساء نائحات .

الأدب القبطى

أثرت المسيحية فى مفاهيم وتفكير عامة الشعب وأدت إلى ظهور نوع جديد من الأدب وهو الأدب القبطى الذى كتب باللغة القبطية، وهو فى الغالب أدب دينى حوى موضوعات إنجيلية ولاهوتية، ولكن هناك وثائق قانونية ووصفات طبية مع تعاويذ ورسائل وإيصالات تجارية وخطابات خاصة وكلها كتبت على أوراق البردى وعلى الخزف[١٦١].

ولقد أضفى المفكرون الدينيون معان صوفية على كثير من الأساطير المصرية كأسطورة إيزيس وأوزوريس ، والأدب القبطى فى مجموعه لا يرقى إلى مستوى الأدب اليونانى ، بل يعتبر تراجعا للمستوى الثقافى ، فعامة الرهبان كان مستواهم العلمى والثقافى – فيما عدا صفوة منهم – محدودا وليس لديهم معرفة باللغة الإغريقية ، وأدى هذا بدوره إلى تراجع المستوى الفكرى خلال القرنين السادس والسابع ، فلقد انعزلت الرهبنة المصرية عن العالم الخارجى منذ مجمع خلقدونية ٤٥١، وكان الرهبان لهم نصيب وافر فى تكوين فكر هذا العصر ، ولكن ارتبط هذا الفكر برفض كل ما هو أجنبى من فكر، وخاصة بعد الموقف المعادى الذى اتخذته الكنيسة من الدولة البيزنطية .

ولقد اكتشفت عام ١٩٤٦ م برديات نجع حمادى وتضم أربعة وأربعين مكتوبا من ضمنها بعض الأناجيل الأبوكريفية ، مثل إنجيل يوحنا وإنجيل المصريين، وهو المدعو باسم الكتاب المقدس للروح الخفى الأعظم، ورؤيا يعقوب إنجيل توما، وهو يضم بعض أقوال غير معروفة للسيد المسيح، وكانت التعبيرات القوية لها أثرها على عقلية المصريين الذين تركوا عبادة الأوثان حديثا ليعبدوا الله، وهذه الروح نفسها قد فتحت الطريق لتغلغل المانشية خلال القرن الثالث، ومجموعات البردية المانشية التى اكتشفت فى الفيوم ١٩٣٠م، يمكن ربطها بما تقدم به الأسقف سيراليون فى القرن الرابع فى دفاعه عن المسيحية ضد المانشية .

وفى أكسرنخوس عدد من البرديات القبطية ترجع إلى القرن الثالث الميلادى مما يدل على وصول المسيحية إليها قبل هذه الفترة، وبعضها عبارة عن مسامحات واعتذارات تشير إلى المسيح والجماعة المسيحية ، وما تعرضوا له من متاعب واضطهاد ، وبردية أخرى تعود للقرن الثالث عبارة عن حوار ضد اليهود وبها اقتباسات من العهد القديم ، وكذلك نسخة من إنجيل يوحنا ومجموعة من المزامير تنسب لنفس الفترة (١٦٢).

وفى بردية ترجع إلى القرن الرابع (ويعتقد أنها قبل اعتراف قسطنطين بالمسيحية)، خطاب من رجل إلى امرأة مكتوب على قطعة ورق يخاطب السيدة بالأخت العزيزة دون ذكر اسمها ربما لخوفه لو وقع الخطاب فى يد أحد لا تعرف صاحبته ، ويطلب منها استعادة جزء من إنجيل عزرا ، ويذكر أنه أعارها سفر التكوين ولذلك نستنتج أنه قبل ٣٢٣م . ولقد ظهر إنجيل عزرا فى قائمة كتب بعض كنائس من القرن السابع إلى الثامن(١٦٣) .

ومع الاعتراف بالمسيحية فى القرن الرابع نجد هناك عددا كبيرا من البرديات القبطية التى تتناول نصوصا مسيحية، فهناك إنجيل وأسئلة تختص بتعاليم المسيح واقتباسات من إنجيل لوقا والقديس يوحنا، ثم مجموعة من الترانيم ، ووجدت نسخ من رسائل لأيوزبيوس مؤرخ قسطنطين وأسقف قيصرية وتاريخ إثناسيوس ، وكيرلس الأسكندرى والنسطورية ، وبرديات تتعلق بيوم الحساب ، ولقد استلهمت عددا من القصص من حياة آباء الكنيسة ، فبردية(١٦٤) عبارة عن حوار بين إثناسيوس وزاخريوس "Zacharus" زكريا ، ثم أدب العظات فى شكل مواعظ تتعلق بالأمور الدنيوية مما يعرف بأدب الحكمة ، إحداها موجهة ضد النساء السيئات التى يؤدين إلى الشك والخطيئة ، ثم كتب الحكمة على نسق ما كان يوحى لإيزيس موجهة للعذراء مريم ، ومجموعات ورسائل يوحنا الدمشقى وأعمال القديس بطرس وتنسب كتابتها للقرن الثالث حوالى ٢٠٠/ ٢١٠ (١٦٥).

وهناك مجموعات عثر عليها لأعمال الغنوسيين ، وهى مذهب لشيعة دينية فلسفية ومبدؤها أن العرفان الحق ليس العلم بواسطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة،

إنما هو العرفان الحدسى التجريبى القائم على اتحاد العارف بالمعرف وهذا يفسر ذيوع مذهب يوحنا فى مصر المتأثر بالغنوسية .

ولقد ترجمت مجموعة المزامير من اليونانية إلى القبطية بمعرفة القديس باخميوس(١٦٦) ، وفى بردية من القرن الرابع تناولت زيارة يوحنا إلى أفسوس فى مقابلة للشيطان وتصديه له، وهى مأخوذة من شهداء Mattaci ، ثم رحلته الثانية وعودته لأفسوس(١٦٧) وكتابته الأسطورية ؛ وتلك تعود إلى القرن الثانى، واستعملها كلمنت السكندرى، وفى أكسرنخوس - أيضا - برديات من الأعمال اللاهوتية باسم رعاة هيرمياس Sheperd of Hermais ضد الهرطقات ونبوءة عذرا التى تتعلق بالاضطهادات بين ١٢٠-٣٠٠ .

وهناك مجموعات تتعلق بالقديسين Act Apostolram مثل قصة شنودة وعلاقته بأحد الأباطرة ، ويرد اسم زينون، وبردية تتعلق بقديس كان أبوه وثنيا وأمه مسيحية، ربما إشارة إلى إثناسيوس وتتضمن القصة سقوط تماثيل المعبد عند دخوله ، وقصة راهبين عاشا فى الصحراء وكيف ذهب أحدهما لزيارة الآخر وقطع أميالا خلال الصحراء ، ثم برديات الشهداء مثل شهداء Panli ، وهناك الكثير من تلك البرديات التى تتناول فترة اضطهاد دقلديانوس Brit. Mas., Doc xxix, Greek Papri. Series. Cxlo .

وهناك نصوص تتناول الأعياد المسيحية ، ووفقا لمنشور أرسل فى الفترة البيزنطية المتأخرة حوالى ٥٧٧م تحدد فيه عيد الشرقيين أرسله بطريرك الإسكندرية للكنائس المصرية، واعتمادا على الفلك المصرى ، وذكرت أعياد كيرلس وإثناسيوس ، ثم مجموعة من الدعوات وقسم بالثوب المقدس وأدعيات صيغت شعرا مع عدد من الرسائل التى تتعلق بالرهبنة ، ورسائل للعفو عن الرذائل والتسامح، مثل ليس هناك خطيئة أكثر مما لو قابلت الإهانة بالإهانة .

وكانت غالبية هذه المؤلفات الدينية باللغة القبطية، وقليل منها باليونانية، وكان غالبية مؤلفيها من رجال الدين، فهى تخص قديسين أو شرح أناجيل بأسلوب ركيك وخاصة فى الفترة الأخيرة من العصر البيزنطى، إذ كثرت الأخطاء اللغوية التى تدل على مدى انحدار المستوى التعليمى لكاتبها ، وكان الغرض منها العظة والحث على الفضائل أكثر من أى شىء آخر دون اللغة والحوار.

ولكن وجدت مكتبات فى أغلب الأديرة والكنائس ووجد فى الدير الأبيض قريبا من سوهاج مايزيد عن مائة مخطوطة مكتوبة على الرق، وكذلك وجد فى دير القديس الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا اللذين عاشا فى الجبال أقصى الصحراء الشرقية مكتبتان عتيقتان[١٦٨].

وجود هذه المؤلفات لم يمنع من وجود مكتبات خاصة حوت المؤلفات اليونانية ومسرحيات لكبار الكتاب الأغريق .

المكتبات الخاصة :

كانت هناك مكتبات خاصة كمكتبة ديسفورس الشاعر والمحامى فى أفرديتو ، ورغم أن ماكتبه من شعر لا يمثل مستوى رفيعا ، ولكنه كان يملك مكتبة تحوى مؤلفات عدة منها مؤلفات أناكريون الذى ولد فى القرن ٦ ق م ، وشعره فى خمسه أسفار تتناول الغزل والنسيب ووصف الطعام ، ومن المؤكد أنه كان هناك غيره ممن لديهم مكتبات خاصة من الشريحة العليا أو الوسطى المثقفة فى عواصم الإقاليم .

وكان من أشهر الشخصيات الأدبية شاعر بانابوليس " أخميم " نونوس **Nonnos** الذى كتب ملحمة ديونسيكا . ولقد قامت حوله مدرسة أدبية فى هذا الإقليم .

ولقد اكتشفت برديات أدبية ، وكانت المراحل التى اجتازها الأدب اليونانى مقسمة إلى أقسام. أولا : العصر السابق لهوميروس منذ نشأة الأدب اليونانى إلى القرن العاشر ، ثم العصر الأوربى أو عصر هوميروس إلى القرن السادس ق م ، والعصر الأتيكى الخامس والرابع ق م، وعصر الإسكندر يمثل القرنين الثالث والثانى ق م ، وفيه ازدهرت مدرسة الإسكندرية ، وآخر العصر الرومانى من القرن الأول ق م إلى الخامس الميلادى ، والشعر الذى وجد فى أكسرنخوس نوعان : الأول يخص شعراء اليونان زمن هوميروس والعصر الأتيكى ؛ وهو الشعر اليونانى الخالص وتمثله مؤلفات هوميروس وسوفوكليس وأرسطوفانيز وغيرهم، ثم شعراء مدرسة الإسكندرية ، وكانت أحب ألوان الشعر إلى قلوب أهل الإسكندرية الشعر الحماسى **Epic** والمرثيات **Elegg**

والشعر الغنائى والسباعى Lambus ، وكان شعراء الأسكندرية يميلون إلى إنتاج القصائد القصيرة ولم يهتموا بالشعر المسرحى إلا قليلا ، والشعر كان إغريقيا لا يمت إلى مصر بصلة ، بل إن الشعراء حين يصفون الطبيعة كانوا كأنهم يصفون أرضا يونانية .

ومن الشعر اليونانى الخالص الذى ينسب للفترة الأولى إلياذة هوميروس وتدخل فى الشعر الحماسى ؛ وتدور حول الحرب بين طروادة والإمارات اليونانية[١٦٩] . ووجدت نسخ من الإلياذة ترجع لفترات زمنية مختلفة غالبيتها دراسات واقتباسات من شعراء آخرين ، وهى غالبا نصوص دراسية ، فقد كانت الكتاب الرئيسى فى التعليم . ولقد وجدت مؤلفات شعرية للميناندر Menander وهو أكثر المؤلفات انتشارا فى أكسرنخوس ، ووجدت نسخ من مؤلفاته فى القرن الثانى والثالث والخامس والسادس، وتجاوزت مسريحاته المائه منها التحكيم وبناة ساموس ومؤلفات هزيود Hesidus ، وهو شاعر أخلاقى ينسب للشعر التعليمى ، ويهدف هذا الفن إلى تزويد الفرد بمختلف الحقائق المتعلقة بالفرد والمجتمع والطبيعة[١٧٠].

ومؤلفات سافو ؛ وهى شاعرة ولدت فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق م ، وعاشت فى ليسبوس وقصائدها يطلق عليها القصائد الشعبية وتتألف من قصائد شعبية عامية اللغة .

ومؤلفات سوفوكليس Sophocles ولد فى أثينا ٤٩٥ ق م[١٧١]، ويقال أنه ألف حوالى مائة وثلاث وعشرين قصيدة كتبت بطريقة الرباعية ووجدت فى أكسرنخوس مسرحية انتيجون ومسرحية ناوبلوس Nauplius ومنها أكثر من نسخة تعود للقرن الثانى والثالث والرابع وعدد من مسرحيات أرسطوفانيز Aristophanes تعود للقرن الخامس ، وقد كتبت البرديات بخطوط متعددة ، وكذلك مؤلفات يوروبيدس Euripides وهو أحد أدباء التراجيديا[١٧٢] ولد فى عام ٤٨٠ ق م بجزيرة سلاميس وتم الكشف عن عدد من مؤلفاته فى ١٩٠٦ فى أكسرنخوس ، وتحوى عددا من تراجيديات منها نسختان من هيكوب Hecube إحداهما تعود للقرن الثالث والأخرى للخامس وهيبيسبيل Hypsipyle[١٧٣].

ثم مؤلفات شعراء الإسكندرية ، ولقد تمتع شعراء الإسكندرية فى القرن الثالث ق م بشهرة واسعة ، حتى قلدهم شعراء الرومان فيما بعد فى نماذجهم الشعرية ، وطرق المعالجة ، ومن أشهر شعراء الإسكندرية الذى وجدت له مؤلفات فى اكسرنخوس كليماخوس **Callimachos** ووجدت قصيدة السبب **Aitia** وكانت تتكون من ٣٠٠ بيت من الشعر وهى مزيج من المعلومات التاريخية والجغرافية والميثولوجية ، وقصيدته هيكلى **Hecale** ، وعدد من القصائد الأخرى إحداهما وجدت فى القرن السادس عن مدح هيرمس ابن ثيون أحد أعضاء الجمينازيوم(١٧٤). ويتضمن ذكر الاحتفالات والألعاب التى تقام بالإستاد .

ثم قصائد أبولونيوس الرودسى **Apollonius Rhoduis** وهو أصلا من نقراطيس أو الإسكندرية وأصبح أمينا لمكتبة الإسكندرية ٢٤١ ق م ، ووجدت نسخة لقصائد فى أكسرنخوس بعضها يعود للقرن الثالث وهى قصيدته أرجونتيكا عن بحارة أرجو وترجمت إلى اللاتينية(١٧٥) .

ووجدت فى أنطونيوبولس " الشيخ عبادة " مؤلفات ثيوكراتيس **Theocritas** وهو من شعراء الإسكندرية فى القرن الثالث ق م ، ولقد اشتهر برباعياته التعليمية وكذلك وجدت نسخ لمؤلفاته فى أكسرنخوس ، وهناك عدد آخر وجد فى عواصم المدن فى أكسرنخوس وأنطونيوبولس وأفرديتو ، كذلك اكتشفت مؤلفات لمؤلفين رومان مثل مؤلفات شيشرون وأخيلوس تاتيوس ، وأجزاء من إنيادة فرجيل أشهر شعراء الرومان وتعود للقرن الخامس الميلادى .

كذلك وجدت مؤلفات تاريخية كمؤلفات هيرودوت ٤٨٩ -٤٢٥ أشهر مؤرخى اليونان ولقد زار مصر تحت حكم الفرس، وكتابه يتألف من تسعة أجزاء ، ووجدت أجزاء من كتبه خلال القرنين الثانى والثالث والرابع ، كذلك مؤلفات ثيكوديدز **Thucy-dides**، و اكزنفون اكتشفت بردية تاريخية وفلسفية وجغرافية تعود للقرن الثالث ق م عن إغريق وأجانب(١٧٦).

ووجدت بردية تعود للعصر البيزنطى تحتوى على أسماء أشخاص وأمور تتعلق بالحرب ، وهى قريبة من الوثائق التعليمية وتحمل قائمة مؤرخين وأدباء لاتين ويونان

مثل بلينى ، وأسماء أمناء مكتبة الإسكندرية .كذلك وجدت بردية أخرى تضم مجموعة من الأدباء والخطباء والمؤرخين تعود للقرن الثالث[١٧٧]. ومؤلفات فلسفية ؛ فوجدت أجزاء من كتب لأرسطو ولأفلاطون ولسقراط فيها نسخ من كتاب السياسية تعود للقرون الثانى والثالث والرابع وكتاب أرسطو المحاورات ، وكتاب أرسطو يعود للقرن الرابع ، ومجموعات قانونية نسخ من مراسيم جايوس ، وأجزاء من قانون جستنيان [١٧٨].

فمن المؤكد مع كم البرديات والمسرحيات اليونانية ومؤلفات أدباء الإسكندرية أن الحضارة الهيلينية[١٧٩] مازالت تعيش فى فكر البعض من الطبقات العليا وشريحة من الطبقة الوسطى ، فرغم مسيحيتهم فقد تملكت مكتبات بها تلك المؤلفات ولعلهم من العناصر المصرية السابقة التى تأغرقت، أو ذات الجذور الإغريقية التى تمصرت .

الحياه العلمية والأدبية فى الفترة المسيحية

كشفت أوراق البردى التى تم العثور عليها فى الأقاليم المصرية عن حياه علمية وأدبية حافلة استمدت ينابيعها من التيارات الفكرية المختلفة التى تدفقت على مصر منذ فجر تاريخها على امتداد عصور البطالمة فالرومان وأخيرا البيزنطيين (١٨٠) .

ولقد عاصرت الفترة البيزنطية والتى انتشرت فيها المسيحية نوعين من الثقافة ؛ إحداهما الثقافة اليونانية والهلينية وما تحويه من عيون المؤلفات فى الأدب والفلسفة والتاريخ والرياضيات والطب والتاريخ الطبيعى (١٨١) ، وهذه الثقافة هى نتاج مدرسة الإسكندرية الفكرية التى ازدهرت فى عصر البطالمة ، حيث قدم الإسكندريون أنفسهم على أنهم ورثة الأدب اليونانى ، وتأثرت كافة أنواع الشعر الإغريقى فى القرن الثالث ق م بالشعر السكندرى ماعدا الكوميديا ، ولقد اتخذ شعراء الرومان منذ القرن الأول إلى الخامس شعراء الإسكندرية نموذجا لهم ؛ فحاكوا مؤلفات كاليماخوس وثيوكراتس ، واشتهرعدد من الفلاسفة والجغرافيين مثل أخليس تاتيوس وفيلون وبطليموس، وكذلك اشتهر علماء معهد الإسكندرية الموسيون مثل أرستافانيس ومدرسة هيرودكس وأرسيتفراتوس فى الطب وكذلك علماء مكتبتها .

وكان للإقاليم – أيضا – دور فى هذه الحركة الأدبية فى العصر الرومانى، ولقد ولد العالم أثينايوس فى نقراطيس والفيلسوف بلونينوس وأفلوطين فى ليكوبوليس أسيوط ، ونونوس الشاعر فى القرن الخامس الميلادى ، وإلى جانب تلك الأسماء الشهيرة ورد ذكرهم من خلال جماعات ديونيسوس . وتلك المؤسسات اضمحل أمرها خلال العصر البيزنطى مع انتشار المسيحية (١٨٢)، رغم وجود العديد من المؤلفات اليونانية من أدبيات وأشعار ، ولكنها كانت لدى فئة معينة هى الطبقة الأرستقراطية فى

عـواصم الأقـاليم والشـريحـة العليـا فى الطبـقـة الوسطى أو أعـيـان القـرى الكبـرى كديسقورس .

أما عامة المجتمع فقد وجدت التعبير عن نفسها بعد اعتناقها المسيحية فى الأدب ذى الطابع الدينى الأدب القبطى الذى كتب باللغة القبطية .

التعـــليم :

هناك قول شائع عند الإغريق فى مصر فحواه أن التعليم هو المصدر الرئيسى للتفكير ، ولقد اهتم الإغريق فى العصر البطلمى بالتعليم اهتماما كبيرًا واستمر هذا الاهتمام فى العصر الرومانى البيزنطى ، وكانت أولى الفئات اهتماما بالحضارة والثقافة اليونانية الفئة العليا فى المجتمع ، وكانت خلال العصر الرومانى من العناصر الإغريقية والمتأغرقة فى العاصمة وعواصم الأقاليم ، ولكنها أصبحت فى العصر البيزنطى تضم أبناء الطبقة الأرستقراطية المصرية وأفراد الطبقة الوسطى فى عواصم الأقاليم الذين سعوا للتعليم للحصول على الوظائف الإدارية ، وكانت تضم مصريين وبقايا العناصر الأغريقية (١٨٣).

أمـا عن التـعليم فـقـد كـان طلاب المرحلة الأولى يرسلون إلى المدارس أو بمعنى أصح إلى مدرسين يعيشون على ما يدفعه التلاميذ ، وكانوا لا يستقرون فى مكان واحد بل ينتقلون حيث يوجد عدد مناسب من التلاميذ، ولا توجد معاهد لتخريج هؤلاء المدرسين بل يشترط حسن السمعة وإجادة المادة .

ويتعلم التلاميذ القراءة والكتابة وهجاء الكلمات بالحروف الأبجدية ثم الكلمات التى تتكون من مقطعين ويعطى الطالب نماذج مختلفة لنسخها ، ثم مطالعة النصوص ، وقواعد اللغة والنحو ، وكذلك كان الطلبة يلقنون الرياضيات ، ولكنها كانت محدودة النطاق ثم الدراسات فى التاريخ والجغرافيا(١٨٤) .

والكتـاب الرئيسى فى التـعليم كـان الإليـاذة لهـومـيـروس ، وفى إحـدى برديات أكسرنخوس سألت أم ابنها عن مدى ما وصل إليه فى دراسته لأجزاء الإلياذة ، وتم

اكتشاف كثير من برديات هوميروس فى أكسرنخوس ، وعدد من هذه المؤلفات يرجع إلى القرن السادس والسابع مما يثبت أن هوميروس كان مايزال مقروءًا (١٨٥) .

ورغم أن الأناجيل حلت محل الكتب اليونانية فى العصر المسيحى، كان الطلبة يعتمدون على التفسير والشروح إلى جانب نماذج الشعر اليونانى والحكم الأخلاقية والخطب ، وكانت تكتب على الأوستراكا والألواح الخشبية والبردى وألواح مكسوة بالشمع أحيانا وبالورق وعلى الورق أحيانا أخرى .

وكان التعليم مختلطا فوجدت مدارس خاصة فى المدن وعواصم الأقاليم ، وذكر فى بردية ؛ أرسل الأستراتجوس أبولونيوس ابنته لمعلم وأرسل إليه هدايا ليعتنى بها حيث أرسل له هدية من الحمام ، وفى خطاب آخر تشير امرأة لحاجة ابنها لكتاب Heraidous هيرودوت ، وهناك عقد مع مدرسين تضمن أن يطيع الأولاد أوامرهم ويتحدد الأجر ، " وأم ترسل إلى ابنها أن يبحث لنفسه عن أستاذ بعد رحيل أستاذه الأول، ورساله من أب لابنه ألا يضايق أحد فى المنزل بل يكرس نفسه لدراسته فقط وكتبه ، وسينال الفائدة عن طريقهم فقط " (١٨٦) نفس النصائح التى تلقن لأبنائنا الآن .

وابن يطلب من أبيه ألا يقلق من أجله وأنه يهتم بدراسته وأنه أخذ راحة ، وآخر أرسل إلى أبيه أن الأستاذ لن يبدأ فى الدروس حتى يأخذ أجره.

وهذه المدارس كان يؤمها من يرغب فى الثقافة الهلينية من أفراد الشعب ، وكانت غالبيتهم من الطبقة الوسطى . ولقد حلت دارسة الكتب الدينية بالنسبة للطلبة وإن ظل هناك مدرسون يدرسون الآداب الهلينية ، وإن كان فى نطاق محدود ، وبالنسبة لطبقة الإداريين كان لابد من الإلمام بقواعد اللغة والنحو (١٨٧) .

أما الطبقة الدنيا فغالبيتها إن لم تكن كلها من الأميين ، ولدينا العديد من الوثائق كتبها كتبة عموميون لجهل أصحابها ، فيذكر الكاتب العمومى فى نهاية الوثيقة كتبها نيابة عن صاحبها لجهله وكان البعض يمضى العقود بعلامة الصليب (١٨٨) ، وكانت مادة الكتابة الأساسية هى أوراق البردى ، ولدينا العديد من الوثائق تتعلق بأثمان البردى وأنواعه وأدوات الكتابة المستعملة وأجود الناسخين (١٨٩) .

ولقد ذكر أحد الشهود فى بردية بأنه يعمل فى مدرسة المراسلين التى تتبع والى أركاديا ، ولقد أصدر أحد الولاة منشورا نص على تعليم البيان لطبقة الموظفين وكتبة المحاكم .

وبعد تلك الدراسة الأولية خلال الفترة الرومانية والتى امتدت إلى القرن الثالث كان الشاب فى عواصم الأقاليم ينضم إلى منظمة الشباب **Ephepoi** ليصبح مؤهلا لدخول الجمنازيوم ، وكانت هذه المعاهد لها اشتراطاتها ، وهى تجمع بين الثقافة العلمية والتربية البدنية وهى شبيه بنظيرتها فى العالم الهلينى ، وتعد بمثابة مرحلة ثقافة عامة ، وكان يشرف على شئون التعليم عدد من المدرسين وموظف يلقب مشرف التعليم **Kosmetes** وكانت إلى جانب ذلك تعد كمندتيات للإغريق ، وبدأ أمرها يضمحل فى العصر البيزنطى .

وكان الشاب يستطيع أن يستكمل دراسته العليا بأن يذهب إلى الإسكندرية ليلتحق بالموسيون معهدها أو معاهد الإسكندرية .

الفنون فى العصر المسيحى

ظهر فى هذه الفترة فن له خصائصه ارتبط بهذه الفترة وعرف بالفن القبطى ، ولقد استمر التواجد على الساحة الفنية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى من العصر الإسلامى إلى أن ظهر فن إسلامى خالص .

ولقد تأثر الفن فى العصرين الرومانى والبيزنطى بتيارات عديدة ، ولقد تأثر الفن بتيارين : أحدهما يونانى ؛ ويبدو واضحا فى الفترة الأولى الممتدة من القرن الأول إلى الرابع ، وإن داخلته تأثيرات محلية فى كل من العمارة والنحت فى عواصم الإقاليم .

أما الفترة التالية ؛ فقد ازدهر فيها أسلوب فنى جديد وهو ما يطلق عليه القبطى ، أما التأثر الهلينيستى فيبدو واضحا فى المدرسة التى ازدهرت تحت ملوك البطالمة قائمة فى الإسكندرية ، وظلّ تخطيط المدن والمنشآت المعمارية المختلفة كالجمنازيوم والمسارح وعدد كبير من المعابد وفقا للطراز اليونانى ، وإن كانت بعد الصروح الدينية وبخاصة للآلهة المصرية حافظت على الطابع المصرى القديم فى القرون الثلاثة الأولى .

وبما أن الإسكندرية مدينة اللهو والمرح فقد انعكس هذا فى نحتها ونقوشها ؛ فرسمت عنقايد العنب والإله كيوبيد إلى جانب رسوم المناظر الطبيعية ومناظر الصيد والأعمدة ذات نقوش الأكانتا ، ولقد امتازت التماثيل بالواقعية ورقة التفاصيل ، أما الموضوعات التى تناولتها الفنون العامة من نحت وتصوير ومنسوجات فهى مناظر الصيد والأساطير اليونانية إلى جانب عدد من الأساطير المصرية كأسطورة إيزيس وأوزوريس ، ولقد استمر استخدام الأساطير اليونانية فى فنون العصر التالى رغم أن محورها وثنى .

أما الفترة التالية فقد ازدهر أسلوب فنى جديد وهو مايطلق عليه الفن القبطى . ولقد ذكر البعض أنه مدرسة شعبية فى الفن البيزنطى ولكن هذا الرأى خاطئ ، فهو فن مستقل وضح طابعه فى فنون الفرسكو والنحت وصناعة الأيقونات ، وهو انعكاس للروح التى سادت هذه الفترة وتمثلت فى اللغة والأدب والفن ، وينبع من نفس الوعاء الفكرى الذى دفع الرهبان لرفض الحضارة الهلينستية ، وكانت تعبر عن رفض المصريين للحكم البيزنطى ، ولقد تأثر هذا الفن بكل من الفن السكندرى والفارسى والسورى فى موضوعاته (١٩٠) .

ولقد بعد الفنان القبطى عن الطبيعة فى الرسوم الآدمية والحيوانية ، ولقد وسعى إلى تجريدها ، فهو كمسيحى مخلص كره الماديات فاتجه إلى الرمز. وبدأ الفن القبطى يهمل النسب التشريحية فى الرسوم الآدمية فأصبحت رسومه ركيكة محددة الألوان (١٩١) .

أما عن تأثيرات مدرسة الإسكندرية فاتضحت فى الزخارف الهندسية والنباتية ثم الأساطير اليونانية التى كانت عنصراً من العناصر التى تناولتها فنون العصر القبطى من نحت ورسم وتصوير ونسج ، وخاصة فى القرنين الثالث والرابع ؛ كما يتضح ذلك من الآثار القبطية التى تعود لتلك الفترة الموجودة فى المتحف القبطى ، وتمثلت فى الآثار التى وجدت فى مدينتى أنطونيوبولس وهرموبوليس ، فزخارف الكرانيش وأفاريز المبانى والعمائر الشرقية تصور أسطورة دافنى وهى فى شكل امرأة عارية تخرج من جسدها أوراق شجرة الغار ، وكذلك تصور حوريات على درفيل وأسطورة ليديا والبجعة إلى جانب الاهتمام بالآلهة اليونانية وخاصة ديونيسوس إله الخمر وهرقل وأفروديت والقوقعة وأورفيوس (١٩٢) .

وفى القرن الخامس بدأ يتضح التأثير المسيحى فصورت القصص الدينية المسيحية كقصة آدم وحواء ويوسف وإبراهيم والعذراء ، وعدد من النماذج الفنية يعود لباويط إحدى المدن التابعة للأشمونيين فى تلك الفترة ، ويبدو امتزاج التأثير المسيحى والوثنى فى عدد من القطع الفنية فيها استمرارية مع الماضى .

فمن ملوى جزء علوى من قبلة من الحجر الجيرى ، فى أعلاها نقش صليب داخل إكليل الغار يحمله طفلان عاريان .

أما التأثير الساسانى فيبدو فى رسوم الأزهار والحيوان والطيور المواجهة لبعضها مثل مناظر الفرسان والصيد بين الأحراش والغابات والطاووس وأشجار الكروم وعدم ترك فراغ فى الرسوم .

وأما التأثير السورى فقد بدأ فى آثار باويط التى تعود للقرن الخامس، أما عن الآثار الفنية التى تعود لمدينة أنطونيوبولس وهرموبولس وأكسرنخوس ومنها محفوظ فى المتحف القبطى ومتحف اللوفر وفيكتوريا ، وليون ومازالت تجرى الحفائر بالقرب من ملوى ودير القصر قرب المنيا فى منطقة أبوفانا (١٩٣) .

وفى الفن يتداخل الماضى بجذوره مع الحاضر، عالم الفراعنة بفنونه مع لمسات يونانية لتصطبغ بالمسيحية الوليدة لتوجد شيئا خاصا، ربما ليس فيه جلال حرفة النحات المصرى القديم ولا جمال الجسد اليونانى ، ولكن له طابعه ذلك الذى أبعده عن المقاييس ، البعض اعتبره تراجعا يواكب التراجع فى الأدب ، ولكن البعض اعتبره مرحلة تعكس صورة حقيقية لمجتمع اختار أسلوبا معينا من الفكر الذى دخلت جذوره فى كل شىء ، الجسد والنسب ، وربما فقد الفنان مهارته ، وربما ابتعد عن تقليد الطبيعة ، والمزج بين الماضى والحاضر انعكس فى فنون هذا العصر .

وانعكس هذا – أيضا – على صناعة النسيج حيث انتشرت مصانع النسيج فى أكسرنخوس وأنطونيوبولس وهرموبوليس وامتازت منتجاتها الصوفية بجودة الخامة والصناعة ، فتعددت الزخارف والألوان ، وكانت مصر تعد أهم المدن المصدرة للمنسوجات (١٩٤) .

ولقد اشتهرت مصر بنسيجها منذ العصر الفرعونى والذى وجد بالمقابر المصرية ، ومازال محفوظا بالمتحف المصرى ويذكر هيرودوت أن المصريين يرتدون ثيابا من الكتان محلاه بهداب حول الساقين يسمونها كالاسيرس ويلبسون فوقها معاطف من الصوف الأبيض ينسدل على الكتف ، وإن كانوا لا يلبسون الملابس الصوفية عند دخولهم للمعابد ولا يدفنون بها، واستمرت شهرة النسيج فى العصر البطلمى وظهر

النسيج الوبرى المعروف بالزردخان ، وفى العصر الرومانى استخدم الكتان والصوف والحرير، وإن كانت صناعة الحرير تعرضت لتقييد ، فالمراسيم الإمبراطورية ٣٦٥/٤٠٦/٥٢٤ ، سعت للحد من صناعة الحرير الرقيق ، وكان الإمبراطور جستنيان قصر استعماله على القصر الإمبراطورى ، ولكن أبيح استعماله بدليل وجود برديات عديدة خاصة بعقود زواج فى أكسرنخوس تحوى ذكرا لثياب من الحرير والكتان ، أما القطن فكان استعماله نادراً ولم يوجد إلا فى التطريز وغالبية الثياب التى وجدت فى أكسرنخوس منسوجة بطريقة القباطى ، أقدم المنسوجات المزخرفة وهى أول زخرفة نسجية مكونة من لونين ، وأكثر غالبية الثوب كانت من اللون الأبيض والكحلى أو الأرجوانى ، وكان ثمن الثوب فى القرن الرابع حوالى ٤٠٠٠ درخمة ، والمعطف ٥٠٠٠ درخمه ، والموشى فى حدود ٧٧٠٠ (١٩٥).

وفى المتحف القبطى عدد كبير من قطع النسيج من الأقاليم تنتمى إلى فترات زمنية مختلفة ، وتصور ما دخل على التوشية والنسيج عبر تلك الفترات من تغيرات مع التأثيرات المسيحية الواضحة فى النماذج ؛ فالمرحلة من القرن الأول إلى الثالث تمتاز بكثرة استعمال الرسوم الآدمية والحيوانية بجانب العناصر النباتية والهندسية ، وتمتاز بتعدد الألوان والحركة ، فصورت راقصات وصراعا مع الحيوانات ، وقطع النسيج التى تعود لتلك الفترة بالمتحف القبطى منها قميص شفاف من أنطونى من أحسن أنواع الكتان المزخرف بخيوط صوفية دقيقة جدا ، منسوجة بطريقة القباطى داخل أشرطة رأسية ، وعقود مثلثة الشكل ينزل منها جامات صغيرة وكأنها جواهر تسطع ، وقرب نهاية القميص تتدلى أربعة أشرطة صغيرة موازية لشريطين كبيرين بهما جامات صغيرة أيضا ، وزخرفت جميعا بثمار وزهور الرمان والزهور المختلفة الألوان داخل مجموعات على شكل أوراق نباتية والرمان يحمل إشارة مسيحية (١٩٦).

وقطعة نسيج شهيرة ، وهى عازف المزمار الذى يرتدى ثياباً تجمع اللونين الأحمر والأخضر ، وهى من أجمل قطع النسيج.

والمرحلة الثالثة تشمل القرنين الرابع والخامس ،وهى وسط بين الإغريق والرومان والقبطى ، وبدا التأثير المسيحى واضحا فى رسوم الصلبان والقديسين ، وإن كان

التأثير المسيحى امتزج بالتأثيرات اليونانية السابقة ، فأصبحت الزخارف تجمع بين الرموز المسيحية والأساطير اليونانية السابقة ، وامتدت إليها بعض التأثيرات الأسيوية ، فقطعة من الكتان الرخيص وهى غالبا قميص وتعود لمدينة أنطونى عليها رسوم آدمية باللون الأسود وفى الوسط قنطور داخل دائرة ، وهو مخلوق خرافى نصفه الأعلى بوجه آدمى، وبقية الجسم على شكل جواد ، وعدد من المناظر الدينية التى تمثل حياه القديس أنطونيوس .

والمرحلة الثالثة التى تمتد من السادس إلى التاسع فإن أصولها مختلفة ، حيث تضم عناصر مصرية وإغريقية وآسيوية كما تصور قصصا ذات طابع دينى ، وكذلك استعملت الزهريات والسلال وعناصر زخرفية ورسوما آدمية وحيوانية وطيورا . كما استعملت رسوما هندسية تتكون من الدوائر وأنصاف الدوائر ، وكانت الألوان المستخدمة براقة ومتنوعة ، ويوجد عدد كبير من المنسوجات من أنطونى وباويط يعود لتلك الفترة . فهناك أجزاء من قميص على الصدرية ينزل منها كنار بألوان، وجميعها مزينة برسوم ملائكة مختلفة وصلبان وثوب آخر من الصوف محلى بأشرطة، والجامات مضاف إليها زخارف متعددة منسوجة بطريقة القباطى ، وكان قوام الزخارف رسوما تمثل القديسين وترجع إلى القرن السادس والسابع ، ونلاحظ كثرة استعمال زخارف قوامها عناقيد الكروم والنباتات والطيور فى جوانب المنظر الزخرفى (١٩٧).

وستارة من الكتان الرقيق من أنطونيوبولس تعود للقرن الخامس والسادس تمثل السيدة العذراء فى الوسط بين اثنين من الحواريين أو القديسين ، وعلى جانبها رسم آنية يخرج من كل منها ساق نباتى يتفرع منها أغصان وأوراق وعناقيد الكروم ، ويلاحظ على كل فرع منها شكل طائر ، وتتكرر نفس الموضوعات فى ستارة أخرى من الكتان من إنتاج المدينة نفسها ، لها ثوابت من القماش فى كل جانب لتعليقها ، وعليها رسوم رقيقة باللون الأرجوانى قوامها فى الوسط شكل إكليل به ملاكان وعلى حافتها ورأسها رسوم نباتية (١٩٨).

والملاحظ أن الرموز والتطريز يرجع إلى أصول فرعونية بجانب التأثير اليونانى والمسيحى الذى أخرج نموذجا خاصا ببعض الرموز كانت تجمع بين الرموز الفرعونية المسيحية ورسم القديسين فيما يشبه الرسوم على التوابيت المصرية .

أما فن النحت والتصوير فى الفترة المسيحية فمن السهل تميزه، فمن الوهلة الأولى تستطيع أن تدرك أنه فن له كيانه الخاص، حقيقة لم يرق إلى الفن الفرعونى أو اليونانى إلاّ أنَّهُ يعبر عن الدين الجديد رغم أن جذوره تعود إلى الفنون السابقة .

ولقد امتازت رسوم الفترة الأولى التى تمتد إلى القرن الرابع أن غالبيتها هلينية الطابع مستمدة من الأساطير اليونانية ورسوم الصيد والفرسان إلى جانب الزخارف النباتية ونجدها على المنشآت العامة فى الحمامات والجمنازيوم والمعابد وغيرها فى عواصم الإقاليم (١٩٩) .

أما رسوم القبط فتمتاز بالخلط بين الأساطير القديمة والقصص الدينية المسيحية كآدم وحواء، وداود ويوسف وموسى ويونس وقصة ميلاد المسيح ، والعشاء الربانى ، ولقد أمدتنا آثار باويط بصور مختلفة لقصة إبراهيم وإسماعيل ، والفداء مرسومة على قبلة ، وقبلة أخرى من الطمى عليها رسوم ملونة من موضوعات فى الكتاب المقدس (٢٠٠)، وآدم وحواء قبل الخطيئة وبعدها يحيط بها إطار من الأشكال الهندسية عبارة عن دوائر بالألوان الأحمر والأزرق وفى مقابر البجوات نجد التأثيرات المسيحية الواضحة (٢٠١) .

وكلمة البجوات تحريف لكلمة القبوات وهى أضرحة الموتى قد غطيت بالقباب. فالبجوات الاسم العربى المحرف لمدينة الموتى، التى كانت تشرف على مدينة الواحة الخارجية الرومانية والتى كان يطلق عليها واحة طيبة .

والتصوير على جبانة البجوات تصوير مسيحى به قصص من العهد القديم فى غالبيته مع وجود تأثيرات من الفن الرومانى والبيزنطى.

وكان من الطبيعى ألا تظهر التأثيرات الفنية المسيحية فى الفترة الأولى، فمع الاضطهادات كان لا يمكن للمسيحين أن يعلنوا عن عقائدهم خوفا من إجراءات الدولة ونتيجة لمواقف الأباطرة من العقيدة الجديدة ، وظل هذا الأمر إلى منتصف القرن الثالث.

فمقابر البجوات كانت مستخدمة أولا لدفن الوثنيين واستخدمها المسيحيون بعد ذلك ، وتحوى الجبانة مجموعة هائلة من المزارات بعض هذه المزارات مزينة بالصور المسيحية والمخربشات القبطية القديمة .

واشتملت على كنيسة ومجموعة مقابر بعضها رومانى ومقبرة على شكل البازليكا ، ومقابر جماعية فى الشمال الغربى ربما لأسرة ومقبرة ذات طراز مميز فى الشمال الغربى كانت لأحد النبلاء ، مومياؤه فى حالة جيدة وعليها أختام طبيعية ، ومقابر شملت جميع الطبقات الاجتماعية وهى مقابر بسيطة وعليها شاهد قبر وكنيسة وبناء ربما خصص للولائم التذكارية وهناك آثار لتجهيز الموائد .

وأهم المزارات الخروج والسلام، الخروج يعود للجزء الأول إلى القرن الرابع صورت فيه سفينة نوح وأدم وحواء ودانيال والأسود وتقدمّه أشعيا ومعه يونان وقصة إبراهيم وأيوب وإسحق وأرميا أمام معبد أورشليم .

وهناك رسم لعلامة عنخ وموسى مع شعبه يقف تحت شجرة ويرتدى قميصا ذا لون وردى ورسم صليب فى كل مكان، ورغم أن الصور الموجودة تعود للعهد القديم فقد ظهرت الشخصيات ترتدى ملابس رومانية ، والتأثر اليونانى على الجدران يبدو فى الأبنية ذات الخطوط المستقيمة والمسننة .

والزخارف مزجت بين الفرعونى واليونانى فضلا عن التأثير البيئى الخاص بالمنطقة ، ويمكن ملاحظة العشوائية المعمارية فى عملية تعديل المقبرة على شكل مبنى أورشليم وكتب عليه أورشليم باليونانية ، وتصورها وفقا للتوارة بالنسبة للأنوار ذات الواجهات المتعمدة يتوسطها البوابة الرئيسية ذات العقد النصف دائرى .

وهناك طابق ثان فى الواجهة عبارة عن نوافذ معمدة أيضا ، ووصف أورشليم وجد على التوابيت المسيحية المبكرة داخل كل عقدين، وكان يصور بداخله معجزة من معجزات السيد المسيح [(٢٠٢)] .

ونلاحظ الاختلاف عن مقابر الفيوم التى تعود للقرون الثلاثة الأولى ، فلم يعد الميت يلقى التحنيط الفاخر وتجسيد صور الميت والحرص على إظهاره فى أجمل صورة من ملابس وحلى ، فهو هنا تجرد دينى ومقابر بسيطة ذات رسوم دينية .

وإن كانت علامة عنخ قاسم مشترك فمن الواضح أن النسب فى أشكال الأفراد لم تكن بدقة وجمال المقابر الأخرى ، ولكن الفنان المسيحى كان رساما بسيطا بتأثير الدوافع الدينية ، رسم ونحت فنا قبطيا ، فهو قد لا يملك موهبة وحرفية سابقيه ولكنه يعبر عن المجتمع والبشر والدين أو عن حياة الفترة التى عاشها .

ومن الرسوم المسيحية التى تأثرت بنماذج الفترة السابقة ، فهنا صورة القديس الفارس الذى يقتل التنين وهى مأخوذة من صورة حورس على حصانه يقاتل التماسيح .

وفى باويط رسم يمثل الإلة المصرى القديم مرتديا ملابس رومانية ساحقا التماسيح ، وعلامة عنخ فى رسمها تشبه الصليب وصورة نيقية آلهة النصر فى شكل امرأة تخرج منها فروع أشجار ، كذلك جرى تصوير الأساطير اليونانية ومنها أفروديت أوفينوس ، وكانت تصور فى الفن القبطى على شكل امرأة عارية جالسة أو قائمة أمام قوقعة ويحلى جسدها بالزهور ، وقصة المرأة الأمازونية المحاربة وليديا والبجعة (٢٠٣).

وكذلك يتضح التأثير المصرى القديم فى معالجة فن الكاركتير ، فمن باويط رسم بالألوان المائية يمثل وفدا من الفئران حضر لاستعطاف قطا ليظفر بمطالبة (٢٠٤) ، إلى جانب الموضوعات القديمة كرؤوس الزهريات الهلينستية .

كذلك رسوم الرعاة بقطعانهم ، والملائكة وهى رسوم واقعية وقديسات يحملن إكليلا من صلبان ، ويقال أن الأصل الذى أخذت منها هو الإله سوخير **Schouair** الذى يحمل بين ذراعيه إلهة السماء نوت ، ثم حالة التقديس فى الفن المصرى القديم ، وأخذ من الفن الساساني مع عدم ترك فراغ (٢٠٥). والصور تعزوها الحياة والحركة .

وفى أنطونيوبولس وباويط وأكسرنخوس العديد من الرسوم على حوائط كنائسها وأديرتها ، فصورت فى أحد أديرة أنطونيوبولس صور رهبان ، وأشجار العنب ، ورسوما نباتية وطيورا ونخيلا ، أى جمعت بين التأثير المسيحى والوثنى . وفى دير جبل أبوحنس الذى يعود للقرن الرابع صورت القصص الدينية ، وقصة هيرودوس ويوحنا المعمدان والهروب لمصر . وهناك عدد من المغارات فى الجبل بها نقوش وصلبان ، ويعتبر دير أبوفانا والذى يعود إنشاؤه إلى القرن الخامس الميلادى ويبعد عن منطقة هور حوالى خمسة كيلومترات ، نموذجا لفن التصوير الدينى ، والذى مازال يحتفظ

بأغلب زخارفه فى الجانب الغربى من الدير ثلاث غرف متجاورة وتحتوى الغرف على نقوش مسيحية وأشكال زخرفية ونباتية ملونة .

وفى باويط صورة للسيد المسيح بطريقة الفريسكو وللسيدة العذراء والمسيح يحيط بهما القديسون وتعود للقرن السابع الميلادى (٢٠٦).

وفى القرن السادس صورة المسيح على العرش تحيط به المخلوقات الأولية المذكورة فى سفر الرؤيا واثنا عشر من الملائكة ، ورسوم قبلة للمسيح وهو يومئ بإشارة البركة بيمنه ويحمل الإنجيل بيساره ، وإلى جانبه اثنان من القديسين .

والملاحظ أن تأثير القبط يبدو واضحا فى التماثيل ؛ ولقد بدأ هذا فى عهد أنطونيوس بيوس ثم علا فى عهد قسطنطين ، وازداد فى عهد ثيودسيوس وقلما توجد تماثيل فردية ، أما النحت البارز فقد كانت الأشخاص تنحت منعزلة عن بعضها وليس لديها أية صلة بالموضوع الخلفى إلى جانب عدم المحافظة على النسب ، ولم يراع فى التماثيل قواعد التشريح ، كما لم يراع فيها تأثير الضوء والظل على الأجساد (٢٠٧).

وهناك العديد من التماثيل ذات التأثير المصرى الهلينستي، تعود إلى تلك الفترة ، وهى قليلة ونادرة وتمتاز بالصور الدقيقة المحاطة بأهداب . أما المواد المستعملة فكانت من الجص واللبن والحجر الجيرى ثم حجر الأماتست ، ولم يستعملوا الجرانيت كثيرا ، وهناك بعض القطع النادرة من حجر البروفريه .

وهناك العديد من قطع النحت البارز لأفاريز شرفات تعود للعصر البيزنطى وتصور أساطير يونانية ، فيها نقش من الحجر الجيرى يمثل ليديا والبجعة (٢٠٨) ، وأخرى يمثل حورية مستلقية على دلفين بحرى ، وأفروديت إلهة الجمال خارجة من قوقعة ، وفى كل جانب من جوانبها درفيل بارز الرسوم . كما هناك نقش فى وسطها صليب صغير ، وابتداء من القرن السادس بدأ البعد عن رسوم الآدميين والاتجاه إلى النقوش الزخرفية للنباتات والنقوش الهندسية (٢٠٩).

وفى القرن نفسه " السادس " ومن بنى مزار أفريز محفور على الوجهين به زخارف نباتية قوامها زهرية يخرج منه فروع تنتهى بعناقيد العنب ، ويشاهد عصفور يأكل من العنقود ، وعلى الوجه الآخر زخارف هندسية أخرى من أوراق العنب وعناقيده .

وكانت هناك شواهد قبور فى القرن الرابع تحمل بعض الملامح القديمة لوجوه الفيوم ، فشاهد من الحجر الجيرى يمثل آدميا واقفا بالحجم الطبيعى ، داخل فجوة ويمسك زهرة بيمينه وعصا بيساره ، وهو من كوم الراهب قرب مدينة سمالوط ، وفى الفترة المتأخرة أصبحت تذكر أسماء القديسين وكتابات قبطية ، فأحدها وهو من أنطونيوس عليه اسم القديس بقطر وفيبمايون ، وعلى الوجه الآخر طائران متعاكسان . وشاهد آخر من بلدة أنطونى عليه نقوش أشبه بواجهة الهيكل يعلوها شكل صليب داخل نصف دائرة وبأسفل العمودين كتابة محفورة بالقبطية تاريخها ٦٢١ م وعليه آثار باللون الأحمر (٢١٠).

وتبدو التأثيرات المصرية القديمة أكثر وضوحا فى الحفر على الخشب ، وهناك مجموعة من أعمال الحفر على الخشب فى المتحف القبطى وتعود للقرن الرابع والخامس ، وهى فترة الانتقال بين الفن الهلينستى والفن القبطى ، ولقد كثر رسم المناظر النيلية ومنها ما يذكرنا بالموازيكو الرومانى ، ويتكون من شخص وعلى يساره بطة تأكل سمكة ثم أنواع أخرى من السمك ، ومنظر آخر عبارة عن أسماك وبط وشخص عار يسبح ليقطف زهرة اللوتس الحمراء، ونحت يصور التماسيح وشخص يمد يده إلى الماء بينما تهاجمه التماسيح ، ومركب محمل بالأوانى. وكذلك تأثرت النقوش بالفن الهلينستى ، ويبدو واضحا فى مناظر الكروم وجمع عناقيد العنب ، فى الفترة التالية بدأت تدخل التأثيرات المسيحية وبالتحديد منذ القرن الخامس، فرسمت الطيور ذات الدلالات المسيحية كالحمام وموضوعات الإنجيل والقديسين وبعض الكتابات اليونانية القبطية وخاصة على شواهد القبور الخشبية ، ويوجد من باويط نقش يمثل شنودة واقفا داخل فجوة أشبه بالهيكل وهو يحمل الإنجيل (٢١١).

وهناك نقش آخر يجمع بين التأثير المسيحى والهلينستى مثل نقش للمسيح داخل إكليل مزخرف ويحمله ملكان طائران ، وصور لتادرس المشرقى فى دار الفرسان الرومان وهو من باويط (٢١٢).

وكانت هناك تأثيرات ساسانية تبدو فى نقوش آتان وحشية وغزلان ، نفس الرسوم ظهرت على الأوانى الفخارية فى الكنائس وأغلبها يرجع إلى القرن السادس ، وعليها رسوم مائية لطيور وحيوانات ، وفى المتحف القبطى وتتدلى منها عناقيد العنب ، وتم العثور فى أنطونيوبولس على العديد من الأوانى الفخارية والأشكال والأحجام تحمل زخارفها رسوما بأشكال هندسية ورسوما آدمية باللونين الأزرق والأخضر (٢١٣).

وهذه الاستمرارية من القديم إلى الحديث وعملية التواصل نجدها فى فن آخر هو الموسيقى ، ومنذ العصر الفرعونى صورت على مقابر الفراعنة آلات موسيقية وتستخدم فى المناسبات الاجتماعية والدينية ، وكانت لهم أنشودة تسمى لينوس وكانت أغنيتهم الوحيدة (٢١٤) ، ولكنهم كانوا يستعملون الآلات الموسيقية فى الأعياد مثل الطبول والمزمار وأنهم كانوا يغنون ويصفقون .

وذكر ديمتريوس الفاليرى حوالى ٢٨ ق م أن الكهنة فى مصر كانوا يرتلون بالأحرف المتحركة السبعة واحدا بعد الآخر بالتتابع ، وكان هذا النوع من الغناء يرتل بهذه الأحرف إلى اليوم ، ولقد ذكر الفيلسوف السكندرى فيلون الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، أنَّ الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبسوا ألحان عبادتهم من الأنغام المصرية القديمة ، ومازالت بعض الألحان الشائعة فى الكنيسة المصرية يحمل أسماء بلاد اندثرت منذ بعيد ، فاللحن السنجارى نسبة إلى بلدة سنجار التى تقع شمالى محافظة الغربية والأتربى نسبة إلى أتريب القديمة بالقرب من الدير الأبيض والآخر بمنطقة أخميم والموسيقى الكنسية كما وصلتنا ترتلها جوقة لا تستخدم الآلات الموسيقية .

وهنا مدرستان بخصوصها ؛ الأولى تنادى بأن الموسيقى القبطية قد انتصرت على الموسيقى البيزنطية بعد دخول المسيحية إلى وادى النيل .

أما المدرسة الثانية فتنادى بأن هذه هى بالفعل الألحان القبطية منذ قديم الزمان ، ولم يطرأ عليها تغير كبير ، وهم يستندون فى هذا الرأى على أنه بعد مجمع خلقدونية وما تسبب فيه من انقسام ومتاعب فى منتصف القرن الخامس ، استبعد كل ما هو ذو صبغة يونانية فى الأدب واللغة ، وبالتبعية لابد أنهم استغنوا على الألحان البيزنطية وارتبطوا بأماكنهم التى ترتبط بمراسيم العبادة المسيحية وخدمة القداس.

المسيحية والمجتمع

دخلت المسيحية إلى مصر منذ القرن الأول الميلادى ، وقدر لها أن تشكل تاريخ مصر السياسى والاجتماعى فى القرون التالية .

وعن بدايات المسيحية فى مصر يذكر القس منسى حنا زيارة السيد المسيح ووالدته إلى مصر ، ولقد اختلف المؤرخون حول تحديد مولد المسيح ، فبعضهم أرجعه - إلى ٣٤٩ من بناء روما، ويرى البعض أنه هرب لمصر ، وسنه ثلاث سنين واستمر بها سبعة أشهر وبها بلغهم موت هيرودوس، ويدلل البعض على عدم صحة هذا بأن يوسف والسيدة العذراء ذهبا إلى أورشليم وإلى الهيكل بعد مولده بأربعين يوما ولو كان هيرودوس حيا آنذاك لقتل السيد المسيح .

وتواريخ الكنيسة ذكرت أن السيد المسيح جاء إلى مصر مع والدته ويوسف النجار عن طريق صحراء سيناء ، ودخلوها من جهة القرية الواقعة بين بورسعيد والعريش ، ومنها أتوا إلى مدينة بسطة فلم يقبلهم أهلها، فنزلوا بظاهرها أياما ثم ساروا منها إلى مدينة سمنود فلم يقبلهم أهلها أيضا ، فنزلوا بظاهرها أياما واجتازوا غربا بجبل النطرون برية شيهات ثم سارعوا إلى مدينة أشمون ودخلوها ومنها إلى قرية تسمى منليس حيث قضوا أياما ثم مضوا إلى القوصية فطردهم أهلها فتحصنوا بقرية ميرة، ومات حينئذ هيردوس بالشام فنزل يوسف بابليون فى المغارة الكائنة الآن بدير القديس سرجيوس " أبوسرجة " بمصر القديمة ، ثم وصلت الأسرة المقدسة إلى المطرية ، واغتسل أفرادها فى عين ماء ويقال أنه كان قريبا منها فى ذلك الوقت هيكل مشهور لليهود واسمه هيكل "يانوس" ، شبيه بهيكل أورشليم ١٦٠ ق م ، ولقد ذكر يوزبيوس القيصرى أن ميلاد المسيح كان فى السنة الثانية والأربعين من حكم أغسطس

وفى السنة الثامنة والعشرين بعد إخضاع مصر وموت أنطونيوس وكليوبترا اللذين انتهت بموتهما أسرة البطالمة .

ويفترض بويوزبيوس أن حكم أغسطس بدأ بموت يوليوس قيصر كما يقرر يوسفوس ، ولذا فهو يرجع تاريخ ميلاد المسيح فى ٧٥٢ لبناء مدينة روما أى سنة ٢ ق م ، وهذا يتفق مع ما قرره أكلمينص السكندرى الذى قال أن المسيح ولد بعد غزو مصر بثمانٍ وعشرين سنة ، ويؤيد هذا أبيفانوس - أيضا - أما تريليانوس فيقرر أن المسيح ولد ٧٥١ لبناء روما أى ٣ ق م ، وعلى أى حال فقد كثر النزاع حول تحديد تاريخ ميلاد المسيح ، ولكن لابد أن يكون قبل موت هيرودس الذى حدث فى ربيع ٧٥٠ لبناء مدينة روما ، ٤ ق م ويرجح أنه ولد ٧ ق م ، ويرى بعض مؤرخى الكنيسة القبطية يوم ميلاده ٢٥ ديسمبر .

ساد انتشار المسيحية فى القرن الأول فى مصر بعض الغموض، وهناك أراء متعددة طرحها المؤرخون ، فالبعض يرى أنها وصلت إلى مصر فور ظهورها فى فلسطين ، والبعض ذكر أن جماعة **Therapautai** الإسنيين **Essenians** والذين كانت لهم بيعه فى مريوط ومارسوا حياة الزهد والانقطاع وكانوا من أوائل من اعتنق المسيحية (٢١٥) .

وقد ورد فى أعمال الرسل الفقرة التالية " ثم جاء إلى أفسس يهودى اسمه إيلوس ، وكان قد ولد فى الإسكندرية ، وكان رجلا مضحيا مقتدرا فى معرفة الكتب ، وكان هو بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب ، عارفا معمودية يوحنا فقط " (٢١٦).

ويذكر يوزبيوس أن القديس مرقص هو الذى أسس كنيسة الإسكندرية بالرغم من أن البعض يشكك فى هذا، ومعنى ما أورده يوزبيوس أن الفضل يرجع إلى القديس مرقص فى نشر المسيحية فى مصر .

والبعض أرجع وصول المسيحية وانتشارها إلى جموع التجار الذين كانوا يفدون على العاصمة الكوزموبولتين ومعهم تعاليم العقيدة الجديدة .

ومن الممكن أن تكون العوامل تلك أدت إلى انتشار المسيحية فى القرون الأولى حيث ساد الغموض بعض الشىء ، ولا تلقى البرديات الإ بظلال بسيطة وخاصة أن المسيحين فى القرون الأولى كانوا لا يستطعيون الجهر بعقيدتهم خوفا من الاضطهاد ، وهناك بردية تعود إلى أوائل القرن الرابع قبل الاعتراف بالمسيحية أرسلها رجل يطلب من سيدة أجزاء من الإنجيل ولم يذكر اسمها خوفا من وقوع الرسالة فى أيدى شخص قد يسبب لها المشاكل .

وهذا يقودنا لسؤال عن بدايات انتشارها ، وفى أى جزء من مصر، وبين أى فئات لقيت استجابة ؟

من واقع الأدلة والكتابات التى تناولت الموضوع فانتشارها الأول كان فى الإسكندرية ، هذه العاصمة التى تموج بالتيارات الثقافية والفكرية والتى يؤمها أجناس مختلفة من تجار وطلبة علم ، ولقد أشارت بعض الكتابات إلى انتشارها بين شريحة عليا من المجتمع، ولكن أرجح أن انتشارها بدأ بين فئة المثقفين السكندريين الذين شغلتهم فكرة العلاقة بين الله والإنسان ، ولذلك كان ظهور مدرسة الإسكندرية اللاهوتية مبكرا ، ثم انتشرت من العاصمة إلى عواصم الإقليم ثم الريف، وول ديورنت أشار إلى أن سكان الريف كان آخر الفئات التى وصلت إليها .

وإدوارد جيبون يرى أن المسيحية ظلت زمنا طويلا مقصورة على نطاق مدينة واحدة ، كانت مستعمرة أجنبية وفى رأيه " إن أسلاف ديمتريوس ظلوا حتى نهاية القرن الثانى هم الأحبار الوحيدون فى الكنيسة المصرية ثم رسم ديمتريوس بيده ثلاثة أساقفة وزاد عددهم إلى عشرين فى أيام خلفه هرقل ، أما جمهور المواطنين وهم شعب يتميز بالصلابة الكئيبة ، فقد استقبلوا الدين الجديد فى فتور واشمئزاز ، وكان من النادر فى أيام أورجين **Origen** أن تلتقى بمصرى تغلب على تعصبه القديم للحيوانات المقدسة فى بلده . والحق أن طالما اعتلت المسيحية العرش انقلبت حماسة هؤلاء المنويرين للرأى المقنع السائد وذخرت مدن مصر بالأساقفة وعجت صحراء طيبة بالنساك " ، ورغم مافى هذا القول من تجنى على المصرين الذين وصفهم بالبربرية والجمود، فهذا الشعب حوى فلاسفة ومفكرين مصريين ، ولم يكن الغباء

من صفاته ، وعامة فهو يشير إلى أن المسيحية بدأت فى الإسكندرية ثم انتقلت بعد ذلك لبقية مصر .

والأمر نفسه فى العاصمة ، فإذا كانت المسيحية فى البداية اعتنقها عدد من المفكرين وبعض فئات من الطبقة الوسطى والثرية فإن عامة السكندريين اتخذت موقفا من المسيحية فلم يكن من السهل الانسلاخ عن الموروث القديم، وكما ذكر يوزبيوس فقد تعرض المسيحيون فى البداية للاضطهاد على يد جموع الدهماء والعامة فى الإسكندرية .

ولكن بعد ذلك شقت المسيحية طريقها ، وبعد أن كان هناك متعصبون ضدها أصبح هناك متعصبون لها . ولقد لعبت الرهبنة والتى كانت هبة مصر للمسيحية دورا هاما فى عملية نشر المسيحية ، وخاصة أن غالبية الرهبان كانوا من العناصر المصرية ، فأمكن تغلغلهم فى الريف ومخاطبة السكان بلغتهم ، وخاصة أن سكان الريف غالبيتهم كانوا أميين ، وخاصة أن ماحوته المسيحية من عناصر كان بعضها قريبا من الموروث السابق ، وخاصة فيما يتعلق بالتثليث كما ذكر الأنبا جريجوريوس .

وعلى كل فإن بدايات المسيحية يحيط بها الغموض ولا تستطيع التحديد الدقيق ، فقد اقتضت حكمة العناية الإلهية كما ذكر البعض أن تسدل على طفولة الكنيسة الأولى حجابا غامضا حتى اشتد عود العقيدة المسيحية .

وكان لروما موقف تجاه كل من الوثنية والمسيحية ، فلقد نظرت إلى الوثنية على أن الوئام الدينى فى العالم كان يعزوه – فى الأساس – القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة منها نحو التقاليد الأخرى ضد أى طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشرى ، ويحتقر بالضرورة حكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الإلهية أى لون من العبادة باعتبارها ضلالة ووثنية اللهم إلا عبادته فحسب ، وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بنفس القدر ، وكانت هذه الحقوق تضيع عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة ، وكان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا عن دفع الجزية ، وهذا هو الباعث الذى دفع بالحكام الرومان إلى التعامل مع اليهود من هذا المنطلق ، ويرى جيبون أن هذا هو الدافع لموقف الإمبراطورية ضد المسيحية [٢١٧].

ومن المؤكد أن الإمبراطورية نظرت إلى المسيحية على أنها جزء من الديانة الموسوية ، بل نظروا لها فى البداية على أنها محاولة لتفسير شرائع ونزاع حول العقيدة اليهودية ونبوءاتها، وكانوا يعتبرون أنه لا يليق بمكانة روما وعظمتها أن يبحثوا بحثا جديا فى الخلافات الغامضة التى تنشأ بين شعب يؤمن بالخرافات فى نظرهم . وكثيرا ماثبت أن قضاء الحاكم الذى كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودى ، وإن كان المسيحيون اضطهدوا على أنهم شيعة يهودية عند تدمير هيكل أورشليم على يدتيتوس " .

ولقد نظرت إليهم الإمبراطورية بعين الشك بعد امتناعهم عن تقديم القرابين فى المعبد الإمبراطورى وانعزالهم فى أماكن خاصة .

ولقد كان هناك موقفان على المستوى الشعبى وعلى مستوى الدولة من المسيحية، فاختلف موقف الأباطرة تجاه المسيحية ، فهناك من اضطهد المسيحية واعتبرها أداة لتدمير أمن الإمبراطورية ، وهناك من كانت سياسيته تجمع بين النقيضين ، أما على المستوى الشعبى فقد بدأت بين طبقات معينة وفئات معينة فى العاصمة ، ولكنها لقيت مقاومة على مستوى العامة ، والدهماء فى العاصمة والأقاليم ، فسنجد أن الموقفين الشعبى والحكومى يلتقيان فى البداية ولكن بانتشار المسيحية السريع بين جميع الفئات أصبح الموقف الشعبى فى مواجهة الموقف الحكومى لحماية المسيحية .

ولقد تعرضت المسيحية فى البداية لموقف معاد من أعداد كبيرة من العامة ، فعند وصول القديس مرقص إلى الإسكندرية ، ومرقص ولد لأبوين من أثرياء اليهود هما ريستوبولس ومارى من قورينة ، ولقد ولد وقت ميلاد المسيح تقريبا واسمه الأصلى جون وهو اسم يهودى أما الشهرة فهو مارك ، وحل مارك محل العبرى جون كما حل بطرس محل سيمون (٢١٨)، وبعد مولده بقليل هاجرت الأسرة إلى فلسطين وأقامت فى قانا وبعد أن فقد أباه قام بطرس الذى تزوج استرابولا وهى إحدى قريبات والد مرقص بالإشتراك مع أمه وأخيها برنابا فى تربيته ثم اعتنق المسيحية ، ورافق بطرس القديس برنابا إلى أنطاكية (٢١٩).

ووصل الإسكندرية ٥٥م ويزعم ابن كبر أن دخوله إلى الإسكندرية ٥٨ م فلا يوجد تاريخ مؤكد ، وهناك من يرى أن هذا حدث ٦٠ م فى حين ذكر السينسكار القبطى أنه حدث فى ٦١ م ولقد تعرض كل من كامل نخلة وعزيز سوريال عطيه لتفنيد هذا الرأى .

وعلى كل لم يلق مرقص استجابة تامة من جموع الأهالى فى الإسكندرية الذين كان غالبيتهم من العنصر اليونانى مع أخلاط شتى من الأجانب ، وأعداد من المصرين الحرفيين وصغار التجار القائمين على تقديم الخدمات لتلك المدينة ، واعتبروا ما يعرضه تحديا لآلهتهم ، فلقد زادت الشائعات فى المدينة بأن المسيحيين سيقلبون نظام العبادة فى البلاد ، وتصادف فى عام ٦٨ م أن كان عيد القيامة موافقا لعيد سرابيس ، فتجمعت الجموع الغاضبة فى المعبد واندفعوا فى مسيرة صاخبة إلى المدينة ليحتفلوا بالعيد فى بوكالين وقبضوا على مرقص وطوقوا عنقه بحبل وجروه جرًا فى الطرقات حتى تمزق جسده وانفصل رأسه عن جسده [٢٢٠]، ودفنه المسيحيون بعد ذلك تحت مذبح الكنيسة ، وكان عمل العنف هذا لا دخل للسلطات فيه ، فقد كان عمل له جذوره ؛ فقد كان اليونان آنذاك يمثلون غالبية أهل الإسكندرية ينظرون بريبة إلى مرقص الذى ينادى فى رأيهم بشريعة يهودية غريبة، يبدو فى مضمونها الثورة على الدولة وعلى المجتمع ، وكان المتعصبون للآلهة الوثنية يرون فيه خطرا على الآلهة ومدعاة لتفكك العائلات واستجلابًا لنقمة السماء والويلات التى تحل بالزرع والضرع .

وإذا كان دور وثنيى الإسكندرية جاء أولا فإن الدولة رأت فى القضاء عليهم محاولة لإقرار السلام واستتباب الأمن وإزالة أسباب التوتر وإن اختلف موقف الأباطرة ، وإن كان ماحدث لمرقص جعل المجتمع المسيحى فى الإسكندرية أكثر حذرا ، واتجه المسيحيون إلى التصرف فى هدوء وعدم إثارة العواصف ، فى الوقت نفسه حددت المسيحية موقفها من اليهودية فيذكر يوزبيوس القيصرى " إن المصائب التى حلت عاجلا بكل الأمة اليهودية نتيجة لمؤمراتهم ضد مخلصنا " [٢٢١].

ولقد نسب البعض إلى مرقص إنشاء المدرسة اللاهوتية ، وكذلك وضع أسس الرهبنة ، وكانت تسمى المدرسة الكاتشيس أى تعلم قواعد الإيمان بالسؤال والجواب ، وكان الغرض من إنشائها تعضيد الديانة المسيحية نتيجة لما لاقاه المسيحيون من

مصاعب فى الإسكندرية ، فبالإضافة إلى مالاقاه الأهالى من غضب على عبادة آبائهم وأجدادهم فقد ربطوا بين المسيحية واليهودية واعتبروا اليهودية أساس الدين المسيحى ، وكان شعب الإسكندرية يكن كراهية قوية لليهود تمثلت فى الصراعات والحروب بين الإغريق واليهود فى الإسكندرية .

وكان علماء الموزيوم الذى كانت فى أيديهم إدارة الثقافة أقل استعدادا لقبول تعاليم مصدرها كمصدر الدين المسيحى من أصول يهودية ، فرأى المسيحيون من وضع تعاليم على أساس فكرى يمكن به محاورة معارضيهم وخصوصا فى مدينة اختصت بالفلسفة ، وكان عليهم الرد على تلك المدراس الفكرية لمن يريد معرفة أصول الدين .

ولكن نستطيع القول أن الوجود الحقيقى للمدرسة اللاهوتية والتى أوجد لها شهرتها الكبيرة كان فى أواخر القرن الثانى على يد بنتثيوس أحد الرواقين القدماء وانضم إليها أعداد من الفلاسفة الوثنين مثل إثناغورس الأثينى والذى اعتنق المسيحية .

ولكن فى خلال القرن التالى لعبت المدرسة اللاهوتية دورها وتعرضت المسيحية آنذاك على المستويين الشعبى والحكومى للعديد من الهجمات والضربات ، وانتشرت شائعات حول المسيحين ، وكانت ترجع إلى عزوفهم عن الاشتراك فى الحفلات العامة التى تقام بمناسبة الأعياد الوطنية للإمبراطورية .

وامتناعهم عن تناول الأطعمة فى المطاعم العامة على اعتبار أنها قدمت أصلا قربانا للآلهة ، وامتنع عدد منهم عن الزواج من وثنيات أو تزويج بناتهم من الوثنين، فى الوقت نفسه الذى امتنع الوثنيون بدورهم عن تزويج بناتهم لهم ، وزاد الأمر سوءا أن أثرياء المسيحيين رفضوا تقلد الوظائف العامة ، وكانت مناصب تشريفية إلزامية ، ورفضوا الانخراط فى سلك الجندية بل وراحوا يظهرون الشماتة إزاء كل مكروه ينزل بالإمبراطورية ، ويفسرون الكوارث التى انتابت الدولة بتحقيق النبوءات التى جاءت فى الكتاب المقدس عن تدمير بابل وعودة المسيح (٢٢٢).

ولقد انتشرت شائعة مغرضة حول المسيحيين لتثير الكراهية ضدهم بين بقية الشعب ، فأشاعوا أنهم يقتلون أطفالا ويشربون دمائهم فى أعياد ماجنة للإساءة بها ،

وتفجرت مراجل الغضب ضدهم وقاحة فى عهد ليزون ، ولقد التصقت بالمسيحيين حرق مدينة روما وتم تعذيبهم فى مقابل هذا (٢٢٣).

أما عن موقف الدولة فبعدما تعرضوا له من اضطهادات على يد نيرون ثم جاء فسبسيان ، ويذكر يوزبيوس أنه لم يصدر منه شىء يسىء إلى المسيحيين رغم أن فى عهده دمر هيكل أورشليم على يد ابنه تيتوس . ولقد فرت عناصر من يهود فلسطين إلى مصر وحاولت تأليب اليهود بها للثورة ضد الرومان ، ولكن لم يصيبوا نجاحا كبيرا ، وإن كان المسيحيون تعرضوا للاضطهادات بصفتهم شيعة يهودية ، وكان تيتوس قد أحسن معاملة أهل الإسكندرية وأقام حفل تكريس للعجل أبيس .

ولقد تعرض المسيحيون إلى الاضطهاد فى عهد دومتيان ٨١ - ٩٦م وفى عهد تراجان ٩٨ - ١١٧م ، وأكد يوزبيوس أن الاضطهاد كان قائما فى أماكن كثيرة وكان على الأفراد تقديم القرابين والحصول على شهادات (٢٢٤).

ووضع الإمبراطور قاعدتين مقيدتين لسياسة الاضطهاد غالبا ما كان فيهم غوث للمسيحيين ، فإنه رغم توجهه إلى الحكام بأن يعلنوا كل الأشخاص الذين" أدينوا بتحقيق " فى الوقت نفسه حرم التحقيق مع المجرمين المشتبه فيهم " المسيحيين " ، كما أنه لم يكن مرخصا للحكام فى أن يتخذوا إجراء بشأن كل بلاغ أو إخبارية تصل إليهم ، كما أن الإمبراطور يرفض الاتهامات الغفل من الإمضاء ، ورد تراجان كما أورده يوزبيوس " بأن المسيحيين يجب أن لا يبحث عنهم ، بل يعاقبوا إن وجدوهم مدانين (٢٢٥) .

أما هادريان الذى زار الإسكندرية وأبدى تعجبه من انتشار المسيحية ، فقد ذكر يوزبيوس أنه أرسل إلى واليه سيرنبيوس جرانيانوس رسالة فى صالح المسيحيين ذكر فيها أنه ليس من العدل قتل المسيحيين دون اتهام معقول فى محاكمة قانونية لمجرد إشباع شهوة الغوغاء .

" إن استطاع سكان الإقليم أن يثبتوا بسهولة دعواهم ضد المسيحيين بحيث يعطون إجابه شافية أمام المحكمة ، فليسلكوا هذا الطريق وحده، ولكنهم لا يجب أن يزعنوا لرغبات الناس أو صحبتهم ، لأنه إن رغب أحد فى تقديم أى اتهام فمن اللائق

جدا أن تفحصه ، ولذلك إن اتهمهم أحد وأثبت أنهم ارتكبوا أمرا مخالفًا للشرائع فيوقع القصاص بما يتناسب مع شناعة الجريمة ، ولكن وحياة هرقل وإن قدم أحد اتهاما لمجرد الوشاية فاحكم عليه بحسب جريمته واعطه ما يستحق من القصاص " .

ولقد أصبح توجيه التهم للمسيحيين عادة ، فإذا ألمت كارثة بالإمبراطورية كالطاعون أو المجاعة أو حرب غير متوقعة ، أو الزلزال أو لم يأت الفيضان ادعى الوثنيون أن المسيحيين نتيجة كفرهم بالآلهة مسئولون عنها ، وأن الذى أبقى عليهم إفراط الحكومة فى الرفق واللين ، وأنّها استنزفت العدالة الإلهية ، وما كانت الأساليب ولا الإجراءات القانونية لتراعى وسط جمهور غاضب ، وتخرج صيحات الجمهور تتوعد المسيحيين بأنهم أعداء الآلهة والبشر ، وقضت عليهم بأشد العذاب ، بل بلغت بهم الجرأة إلى حد تعرضهم للاتهام بالاسم إلى نفر من ألمع أفراد الطائفة، وطالبوا فى ثورة غضبهم الذى لا يقاوم بإلقائهم للسباع ، وكان حكام الولايات حيث تصدروا الاحتفالات العامة يميلون عادة إلى إرضاء نزعات الشعب وتهدئة خواطره بتقديم بعض الضحايا ، ولكن قضت مراسيم هادريان وأنطونيوس بيوس على مطالب الجماهير ولا يجوز أن يسلم بها كدليل قانونى لإدانة وعقاب أولئك الأشخاص التعساء الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية ، وكان هدفهم إجبارهم على ترك عقيدتهم .

أما ماركوس أورليوس فقد احتقر المسيحيين طوال حكمه بوصفه فيلسوفا ، وأوقع بهم العقوبات بوصفه ملكا . وفى عهد كومدوس ١٧٦ - ١٩٢ أوقف الاضطهاد نتيجة لشفاعة صديق له . وسبتميوس سفريوس ١٩٣ - ٢١١ بدأ عهده بإيقاف الاضطهاد ، وأوقف بطش القوانين ، وقنع حكام الولايات بتسلم هدية سنوية من الكنائس الواقعة فى دائرة اختصاصهم ثمنا ومكافأة لوقف اعتدائهم، ولقد زاد عدد المسيحيين ، مما أدى بالإمبراطور إلى تغيير سياسته وأصدر قانونا ضد المسيحيين يقضى بالعقاب على المرتدين الجدد أى المسيحيين ولكنه رغم ذلك لم يكن من الميسور تنفيذه ، وحين وفد على مصر وأخذ يتجول فى أنحائها حتى وصل مدينة طيبة هاله ما شاهده فى سياحته من الانتشار السريع الذى أحرزته الديانة المسيحية، وأبدى ضيقه من كثرة عدد أهلها ، ولذلك جعل الاضطهاد قاسيا وخاصة فى الإسكندرية ، وشتت مدرسة الإسكندرية ولزم أساتذتها منازلهم أو فروا خارج البلاد ، ولقد قتل أبو أورجين أحد أعلام مدرسة

الإسكندرية ، وكان سنه لم يكتمل ١٧ سنة وصودرت ممتلكات أبيه لصالح خزانة الحكومة ، وفى عهد الوالى أكيلا تعرض أورجين للاضطهاد وتكتل الأهالى ضده وطاردته جموع الشعب ، وكان يزيد مرجل الاضطهاد نحوه يوما بعد يوم حتى لم تعد المدينة ، كلها تطيقه ، وكان ينتقل من بيت إلى بيت ، وكان يطارد فى كل مكان بسبب الجماهير الغفيرة (٢٢٦) " .

ولقد اشتهر عدد من تلاميذه مثل بلوتارخوس هيراكليوس وهور وسيرنتوس ومن النساء هيرمس التى ماتت وهى لا تزال تحت التعليم ، ومنهم يوتانينا وقد تمسكت بمسيحيتها وتعرضت للاضطهاد ، ورفضت أن ترضخ لشهوات سيدها لأنها مسيحية ، ولما سيقت للموت حاول الشعب الإساءة إليها وأهانها الضابط بألفاظ بذئية ، ولكن أحد الضباط أبعد عنها أولئك المسيئين ، ولقد اعتنق المسيحية وقتل هو الآخر.

جاء بعد سفيروس مجموعة قياصرة لم يكن لهم شأن يذكر مع مسيحى مصر حتى ملك كراكلا ٢١١ م ، وأراد أن تزيد الجزية التى يدفعها له مسيحيو مصر ، وسن قانونا يقضى على المسيحيين الذين قاوموا الحكومة بالصلب أو بالطرح للوحوش الضارية ، وإن كان عبدا ذليلا يظل فى عبوديته .

وكان عهد اسكندرسفيروس ٢٢٢ م والذى اتخذ الشك الفلسفى عهدا فريدا للديانة المسيحية ، فوضع فى معبده الخاص بالقصر تماثيل إبراهيم وأورفيوس وأبولونيوس والمسيح تكريما لهؤلاء الحكماء الموقرين الذين هدوا البشر إلى الطرق المختلفة ، التى يظهرون بها إخلاصهم وولاءهم إلى الإله الأعظم للكون كله ، وشوهد الأساقفة فى قصره .

ولما مرت والدته وصاحبة النفوذ القوى جوليا ماميا بأنطاكية أبدت رغبتها فى التحدث إلى أورجين الذى سمعت عن شهرته ، ورحب أورجين بهذه الدعوة رغم أنه لم يكن يأمل فى هذه المرأة الطموح إلى المسيحية ، وأصغت فى سرور إلى عظاته وصرفته مكرما إلى مأواه فى فلسطين .

أما مكسيمنوس الذى تولى ٢٣٥ م فقد اشتد على مسيحى مصر حتى اضطر البطريرك باروكلاس أن يترك الإسكندرية فرارا منه ، وتعرض الكثير للاضطهاد،

أما جورديان فقد نعم المسيحيون فى مصر بفترة سلام لم يلبث أن جاء فيليب العربى وأعاد الاضطهاد .

ولكن جاءت واحدة من أعنف موجات الاضطهادات تجاه مسيحى مصر فى عهد ديقيوس ٢٤٩ - ٢٥١ م ، ومن الواضح أن هذا الاضطهاد شاركت فيه جموع كبيرة من الأهالى فى الإسكندرية ، فقد قرر الإمبراطور فيما وصفه أنه خرافة عقيدة مستهترة آثمة أن يقضى على كبار الأساقفة فى المدن بالنفى والإعدام ، وقال المسيحيون أنه أهون على الإمبراطور أن يحتمل منافسا على العرش على أن يرى أسقفا فى العاصمة ، واعتبر خلفاء القديس بطرس أخطر منافس لخلفاء أغسطس [٢٢٧] .

ولقد تعرض أورجين للاضطهاد ، كذلك تلميذه ديويسقورس واضطر للهرب بعد أن تعرض للتعذيب ، ولقد روى يوزبيوس قصة وأورد الخطاب الذى أرسله إلى فابيوس أسقف أنطاكية ، ويتضح أن جموع العامة فى الإسكندرية بدأت العنف قبل أن تصدر أوامر الإمبراطور بالاضطهاد [٢٢٨].

"ولم يبدأ اضطهاد بصدور الأمر الملكى ، بل سبقه بسنة كاملة أن مخترع ومصدر الشرور فى هذه المدينة ، إيمًا كان قد سبق فحرض وهيج ضدنا جماعات الأميين ، ونفث فيهم من جديد سحر وخرافات بلادهم ، وإذ هيجهم بهذه الكيفية ، ووجدوا الفرصة كاملة لارتكاب أى نوع من الشر ، اعتبروا أن أقدس خدمة يقدمونها لشياطينهم أن يقتلونا ، فألقوا القبض أولا على رجل متقدم فى السن اسمه متراس وأمروه بأن ينطق بكلمات كفر، ولكنه أبى أن يطيعهم ، فضربوه بالهراوات ومزقوا وجهة وعينيه بآلة حادة، وجروه خارج المدينة ورجموه .

ولقد تعرض المسيحيون على أيدى الوثنيين من ضرب وتمزيق للثياب فى الشوارع ، كما حدث مع امراة تدعى كونيتا إذ جروها لمعبد سرابيس وعذبوها ، ونهبوا منازل المسيحيين ، وكان ذلك فى ٢٤٩ - ٢٥٠ م ، وأصدر الإمبراطور ديقيوس أوامر باضطهاد المسيحيين فأصبح الاضطهاد على المستوى السياسى والشعبى .

ويذكر ديونسيوس أن الاضطهاد توقف قليلا بسبب فتنة نشبت بين أهالى الإسكندرية من الوثنيين ، وتوقف الاضطهاد الشعبى ضدهم ثم صدر أمر الإمبراطور

بمعاقبتهم ، وأمام الاضطهاد الحكومى اضطر عدد من المسيحيين للارتداد وخاصة من كان يعمل بالحكومة ، والبعض تملكه الخوف من التعذيب ، وبعضهم ارتد بعد التعذيب " تقدم فى الحال الكثيرون من البارزين ممن اشتدت بهم حالة الخوف وانجرف الآخرون بسبب واجباتهم الرسمية، إذ كانوا فى الخدمة العامة والآخرون دفعوا دفعا بواسطة معارفهم ، ولدى المناداة بأسمائهم اقتربوا من الذبائح الدنسة ".

ففى فقرة تالية " على أن البعض تقدموا إلى مذابح الأوثان بكل جرأة، معلنين أنهم لم يكونوا قط مسيحيين ، وعن هؤلاء تصدق نبوءة ربنا بأنهم يعسر إخلاصهم أما الباقون، فالبعض تبعوا هذه الجماعة ، والآخرون تبعوا جماعة أخرى ، البعض هربوا والآخرون ألقى القبض عليهم ، وبعض هؤلاء الآخرين ظلوا أمناء رغم القيود والسجون، والبعض جحدوا الإيمان قبل تقديمهم للمحاكمة حتى بعد سجنهم أياما كثيرة ، والآخرون تراجعوا بعد أن تحملوا التعذيب وقياما [٢٢٩].

ويذكر أنهم كانوا يلجأون للتشهير بهم ، فرجل كان مريضا بداء المفاصل حمله اثنين من رفاقه المسيحيين ، ولقد أنكر أحدهما المسيحية ، وحمل كلا الرجلين المسيحيين على جملين وطوف بهما فى شوارع الإسكندرية ، وضربا ثم أحرقا فى النار فى وسط جموع العامة الغاضبة ، ولقد تعرض للاضطهاد عدد من النساء بل الصبية .

ومن واقع البرديات وما أورده يوزبيوس يشير إلى التواجد المسيحى فى الأقاليم ، فبعض البرديات التى تصف منشآت فى أكسرنخوس ورد فيها ذكر كنائس ، ولقد ورد فى خطاب ديونسيوس الذى أورده يوزبيوس ما يشير إلى انتشار المسيحية فى عواصم الأقاليم والمدن والقرى ، وأنهم وجهوا بالوثنيين وتعرضوا للاضطهاد والقتل مما دفع بعضهم إلى الهروب إلى الجبال والبرارى ، أو اللجوء لبلاد أخرى " فهناك آخرون كثيرون فى المدن والقرى مزقهم الوثنيون إربا " ، وذكر أن أسقف مدينة فيلوس "قرب منف" هرب مع زوجته إلى جبل العرب "الجبل الشرقى" ولم يعودا وتبعهم كثيرون.

ولقد أطلق على أسقف الإسكندرية هرقليس ٢٣٢ - ٢٤٩م لقب بابا قبل أن يطلق على بابا روما .

جاء جالوس Gallas ٢٥١ - ٢٥٣ م بعد ديقيوس وحكم لم يتجاوز العامان ويرى يوزبيوس أنه سار على سياسية سلفه من الاضطهاد ، ولقد أثيرت خلال هذه الفترة مشكلة بخصوص من ارتد عن مسيحيته إلى الوثنية وأراد العودة بذلك ، وهل يظهر بالمعمودية ؟ وأثار خلافًا بينهم، وتولى إميليان كإمبراطور لمدة شهور ، ثم جاء فاليران ٢٦٠ م ، وكان قد بدأ عهده بالتسامح مع المسيحيين ودعوتهم قصره ومجالستهم ، ولكن بعد فترة قليلة أنقلب عليهم وصار من ألد أعدائهم ، وهذا أوقف موضوع الخلاف على عماد المرتدين .

وكان الإمبراطور فى البداية على علاقة صداقة مع البابا يوسنيوس البطريرك ، ولكنه انقلب عليه نتيجة تأثير وزير معجب بالديانة المصرية القديمة، ولقد نفى البطريرك وعند عودته ذكر أنه لم يجد إلا ثلاث شمامسة فى الكنيسة ، مع أنه ترك عددا وافرا منهم ، فقد مات بعضهم وظل البعض مختفيا.

يوزبيوس يصف الفترة الأولى من حكم فاليران وكيف كان قصره مليئا بالمسيحيين وأساقفتهم " كان كنيسة الله " ، ويتهم ما يسميه "رئيس مجمع المجوس المصرى ولعله يقصد كبار الكهنة المصريين " ، وقدر أن المسيحيين عطلوا التعاويذ السحرية والعرافة وتقديم الذبائح وإن مكريانوس قائد جنده هو الذى خدع الإمبراطور وأنه وراء الموقف الذى اتخذه ولقد سقط الإمبراطور فى يد الفرس ٢٦٠ م .

بمجرد أسر فاليران تولى ابنه جالينوس Callienus، ولقد أوقف الاضطهاد وأمر أن يعاد الأساقفة لممارسة وظائفهم ، وكان نفس القرار " الإمبراطور قيصر ببليوس جالينوس ، بيوس فيلكس أغسطس إلى ديونسيسوس وبيناس وديميتريوس والأساقفة الآخرين ، لقد أصدرت أوامرى بإغداق هباتى على كل العالم ، وأن يبتعدوا عن أماكن العبادة وبهذا يمكنكم من استخدام هذه الصورة من أمرى لكى لا يزعجكم أحد ، وهذا الذى تستطيعون جعله الآن شرعا قد سبق أن منحته منذ زمن طويل ، لذلك فسيتولى تنفيذ أمرى هذا الذى أعطيته أوريليوس كيرينيوس المتولى إدارة جميع الشئون ، وهناك القرارات التى أرسلت إلى أساقفة فى أماكن عديدة لتملك أماكن عبادتهم ، ولكن مكريانوس الذى كان له نفوذ واسع فى الشرق كان يتلكأ فى تنفيذ أوامر جالينوس .

ولقد حدث شغب وفتنة فى الإسكندرية وصفها أحد الأساقفة، وكان من عادة أساقفة الإسكندرية إرسال رسائل قبل عيد الفصح تتضمن نصائح وتحديد وقت العيد ، فوصف قلب المدينة بأنه شائك جدا واجتيازه أصعب من اجتياز الصحراء ، وأن الموانى الهادئة أصبحت كالبحر الذى انشق ، ولقد تبعه انتشار الأمراض والوباء مما أثر على أعداد المسيحيين فى الإسكندرية . ولقد اتهمهم الوثنيون بأنهم سبب ما حدث .

ولقد ظهرت بدعة تنسب إلى نيبوس وكتب كتابا تضمن " إن المواعيد التى أعطيت للأتقياء فى الأسفار الإلهية يجب أن تفهم بروح يهودية، وأنه سوف يكون هناك ألف سنة تقضى فى تمتع جسدى على هذا الأرض" وعنوان الكتاب " تفنيد الرأى القائل بتفسير الكتاب مجازيا" ، ولقد ساءت تعاليمه فى أرسنوى مما نشأ عنه انشقاق بل ارتداد فى كنائس برمتها ، مما دفع الكنيسة لدعوة القسس فى المدن والقرى للرد على الهراطقة (٢٣٠).

وفى عهد أورليان بدأ بداية طيبة كما ذكر يوزبيوس ، ولكن ذكر أنه غير سياسته بعد ذلك تجاه المسيحيين نتيجة وشايه من مستشاريه ولكنه قبل أن يوقع أمر الاضطهاد توفى ، وكان حكمه لمدة ستة سنوات ، وخلف بروبس وكان قد حكم ٢٧٠ - ٢٧٥، وخلفه ناثنيوس ستة أشهر ، ثم خلفه بروبس ٢٧٦ - ٢٨٢، ثم جاء بعده كلاوس وأبناؤه وبعدهم دقلديانوس ٢٨٤ ، فمن الواضح أن أمور الإمبراطورية لم تكن مستقرة حين ظهر دقلديانوس وإليه تنسب أشهر موجه اضطهادت ، ومن عهده اتخذت الكنيسة المصرية طابعها الخاص وتاريخها الذى بدأ به التاريخ القبطى .

وإذا نظرنا لمحصلة الفترة السابقة نجد أن المسيحية انتشرت تدريجيا بين جموع السكان فى العاصمة والأقاليم ، علما بأنها بدأت فى العاصمة أولا ولقيت استجابة من بعض المثقفين والطبقة الوسطى وفئات من الطبقة العليا ، والإسكندرية أخذت قالبها الفلسفى على يد مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الفلسفية، ولكن هذا الانتشار وجه بمعارضة على مستوى العامة والحكومة وإن كان أحيانا المستوى الشعبى كما ذكر الأسقف يوزبيوس يسبق الموقف الإمبراطورى ، وكان يصل إلى أقصى درجات العنف ،

ومع ذلك وفقا لوصف الشخصيات المسيحية التى تعرضت للاضطهاد ، فلقد شملت قطاعات مختلفة من رجال دين إلى حرفيين إلى موظفى دولة إلى ضباط إلى نساء من مختلف الأعمار والطبقات ، ومعنى هذا أنها انتشرت بين الفئات المختلفة وامتدت إلى الأقاليم بمدنها وقراها بدليل وجود الأساقفة فى تلك المدن ووصول بعض الهراطقة والبدع إليها ، مع ذلك فمازال الأغلبية للوثنيين وبعض البرديات التى تسبق فترة دقلديانوس تشير إلى وجود كنائس مسيحية وفى تخطيط لمدينة أكسرنخوس وجدت أسماء حراسات لعدد من المنشآت وإن كانت هناك كنيستين فى مقابل أعداد كبيرة من المعابد .

وسياسية الأباطرة تراوحت بين العنف والتسامح مما أتاح للكنيسة فرصة لالتقاط أنفاسها وكان يحكم هذا الموقف شخصية الإمبراطور ، فبعض الأباطرة غير موقفه من المسيحية أحيانا من النقيض إلى النقيض وهناك خطابات مسيحية شخصية عديدة فى مجموعة أكسرنخوس تعود لأوائل القرن الرابع وتسبق فترة الاعتراف بالمسيحية كتبها أشخاص مسيحيون إلى أصدقائهم ؛ كالخطاب الذى كتبه رجل إلى امرأة لاستعارة أحد أسفار التوراة أو الخطاب الذى بدأه رجل بذكر المسيح المخلص .

دقلديانــوس :

تعتبر فترة دقلدنايوس ذروة الاضطهادات المسحية ، ويعتبر آخر الاضطهادات الكبرى ضد المسيحيين ، وبعدها جاء قسطنطين لتصبح ديانة مصرح بها ، ولم يبدأ عهد دقلديانوس بداية عنيفة تجاه المسيحية بل كان على العكس ، فقد نعموا بالتسامح ما يقرب من ثمانية عشر عاما ، فالموقف الذى اتخذه نبع من فكرة حرصه على الإصلاحات الأساسية فى الإمبراطورية لإعادة رونقها وتصور أن المسيحية ستصبح عقبة فى طريق تنفيذها .

وخلال حكمه انتشرت المسيحية حتى وصلت لقصره الإمبراطورى ، فقد اعتنقتها بريسكا **Prisco** زوجته وفاليريا **Valeira** ابنته ، كذلك آمن به عدد من الشخصيات

المقربة إليه من خصيان كوسبان ودوروليوس وجورجونيوس وأندور الذين لازموا شخص الإمبراطور وحموا العقيدة الجديدة ، وحذا حذوهم العديد من رجال العصر رغم ما التزموا به أحيانا بمصاحبة الإمبراطور فى تقديم الضحايا والقرابين فى المعبد ، وكان هؤلاء الموظفون وزوجاتهم وأولادهم وعبيدهم نعموا بالحرية فى ممارسة الديانة المسيحية .

ولقد تولت بعض الشخصيات المعروفة بميلها للمسيحية المناصب ، وكان لكل من الأساقفة نفوذ كبير فى ولايته ، وكانوا يلقون معاملة طيبة ،وفى كل مدينة كانت هناك كنائس لا تتسع للعدد المتزايد من المسيحيين فاقميت كنائس أكبر وزاد نفوذ الأساقفة ورجال الدين وبدأوا يتطلعون إلى السلطة السياسية .

وازدياد نفوذ المسيحيين أدى إلى إثارة الخوف وخاصة أن المسيحيين وصفوا مواطنهم بالبعد عن جادة الصواب وأوجدوا أشكالا جديدة للكفارة ، ودخول الدين ، واعتبروهم وآباءهم على خطأ ، واعتمد كل منهما على الفلسفة فى البداية وإن رأت الأفلاطونية المحدثة أن تقف بجانب كهنة الوثنية فواجهت المدرسة الوثنية المدرسة اللاهوتية المسيحية (٢٣١).

وكانت سياسية دقلديانوس وقسطنطيوس تتجه إلى التسامح ولكن شريكهما مكسميان وجالريوس أضمرا السوء للمسيحيين وديانتهم ، ويذكر جيبون أن نور العلم لم يجد سبيلا إلى عقل هذين الحاكمين ، ولم يصقل التعليم طباعهما ، وهما مدينان بعظمتهما للسيف ، واستندا وهما فى أوج مجدهما بأراء الجنود الفلاحين المبنية على الخرافة ، واستغلا اندفاع المسيحيين للدين للإيحاء للإمبراطور دقلديانوس بالموافقة على سياسية الاضطهاد .

ولقد لقى ذلك استجابة لدى الإمبراطور الذى أراد إعادة الإمبراطورية إلى مجدها بعد ظهور بوادر الانهيار عليها منذ القرن الثالث ودخول عوامل الضعف من ضعف السلطة الإمبراطورية والانهيار الاقتصادى والفساد الاجتماعى وغش العملة وثورات فى الولايات نتيجة لسوء الإدارة ، فقام بإصلاح إدارى شامل كان محوره تقوية سلطة الأوتقراط الحاكم ليؤدى إلى ضبط الأمور وإحكام قبضة الدولة ، فقسم الإمبراطورية

لأربعة أقسام حمل اثنين من حكامها لقب أغسطس واثنين لقب قيصر ، فكان ومكسميان من حمل لقب أغسطس، وقسطنطنيوس وجاليروس أصبحا قياصرة ، وأعاد تقسيم ولايات الإمبراطورية ، وأوجد نظام إدارى بيروقراطى وفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وقام بإصلاح نظام الضرائب ووضع تسعيره للأشياء . وكان حريصا على إصلاحاته ، وكان من أهمها فتح باب الجندية أمام جميع العناصر للدخول فى الجيش بما فيهم البرابرة والجرمان، والترقية تحكمها موهبة الشخص ومقدرته ، فكان يرى فى الجيش دعامة حقيقية تحمى نظامه ، وهو نفسه كان أصلا جنديا من نيقوميديا ، ولقد أراد بعث فكرة الإمبراطور المؤلة ، ولكن حين رفض المسيحيون الاشتراك فى الجيش أو الخدمة تحت راية إمبراطور وثنى رأى فى ذلك تحديا لجميع ما قام به وفتح باب الفوضى أمام إصلاحاته .

ولقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى شاب أفريقى يدعى مكسميليانوس ، قدمه أبوه على أنه فى سنّ التجنيد ولائق له ، ورفض الانخراط فى سلك الجندية، كذلك ما قام به ضابط المائة مارسلوس **Marcellus** دون حساب للعواقب حين ألقى الضابط بحزامه وسلاحه وشعارات وظيفته فى يوم عيد ، وصاح بصوت عالى أنه لن يطيع إلا يسوع الملك الأبدى ، وأنه سيترك الأسلحة الدنيوية ، كما يطرح خدمة سيد وثنى ، وقبض عليه الجنود وحوكم بمعرفة رئيس قسم فى مدينة **Tingi** فى موريتانيا وقتل .

وقام جاليروس باستبعاد المسيحيين من الوظائف ووافق الإمبراطور دقلديانوس على عقد مجلس من عدد من الموظفين والعسكرين والذين أثاروا مخاوف الإمبراطور تجاه المسيحيين . وأنهم قد يدعون للانفصال وتكوين شعب مستقل فى الولايات وحدد يوم عيد **Terminalia** ٢٣ فبراير ٣٠٣ لوضع القيود على المسيحية وبدأو بكنيسة نيقوميديا ودمروها ، ونشر المرسوم فى اليوم التالى مرسوم الاضطهاد التام ، ونص المرسوم على أن كنائسهم فى كل الولايات يجب أن تهدم من أساسها ، وسيصدر الحكم بإعدام كل شخص يجرؤ على عقد أية اجتماعات بقصد العبادة الدينية ، وأصدروا أمرا يحتم على الأساقفة أن يسلموا كتبهم المقدسة إلى الحكام الذين أمروا بإحراقها بطريقة علنية مهينة ، وبمقتضى نفس المرسوم صودرت فى الحال أملاك

الكنيسة وبيعت أجزاؤها لمن يدفع أكثر، أو ضمت لأملاك الإمبراطور أو وهبت للمدن والهيئات أو منحت لرجال الحاشية بالجيش .

وبعد هذه الخطوات للقضاء على المسيحية رؤى أن تكون هناك خطوات أبعد لأولئك الذين رفضوا دين آبائهم ، فاعتبر الأشخاص الأحرار ذوى المنبت الكريم محرومين من الحصول على أية أمجاد ووظائف ، وحرم العبيد إلى الأبد من أمل فى الحرية وحرم الشعب المسيحى أية أمجاد ووظائف ، وحرم العبيد إلى الأبد من أمل فى الحرية ، وحرم الشعب المسيحى بأجمعه من حماية القادة ، ورفض القضاة ، فى الاستماع والحكم فى أى قضية رأى مسيحى ، ولم يكن مرخصا للمسيحيين فى الشكوى من أى قرار أو ضرر يصيبهم ، وقام أحد المسيحيين فى نيقوميديا بتمزيق القرار فحكم عليه بالإعدام وأحرق بالنار علنا [٢٣٢].

ولقد شب الحريق فى قصر الإمبراطور مرتين ووصلت النار إلى غرفة نومه ، فاتجهت الشكوك للمسيحيين وأنهم دبروا مع خصيان القصر مؤامرة ضد حياة الإمبراطور ، ولقد قتل فى نيقوميديا رئيس الكنيسة والآلاف من المسيحيين، فأودع المسيحيون السجون واستخدموا ضدهم أبشع وسائل الإرهاب ، ونفذ فيهم حكم الإعدام ، وكان القانون تاما ومطبقا فى جميع أنحاء الإمبراطورية وأرسل جميع الولاة ، ورفض المسيحيون تسليم أناجيلهم فتعرضوا للقتل ، وإن كان هناك عدد من المسيحيين استسلم وسلم أناجيله وقدم القرابين ، بل إن بعض رجال الدين الذين وصفوا بالخيانة فعلوا هذا .

ولكن غالبية المسيحيين تمسكوا بدينهم، وبالنسبة لتنفيذ القانون فاكتفى فى بعض الولايات بإغلاق أماكن العبادة المسيحية ، وإن كان البعض الآخر أكثر تمسكا بحرفية نصوص المرسوم ٣٠٣م فنزعوا الأبواب والمقاعد والمقابر وقبضوا على رجال الدين وصدر مرسوم ثان حث على اللجوء إلى كل وسائل العنف ضد المسيحيين وإلى العودة لعبادة الآلهة ، بل فرضت عقوبة صارمة على أى شخص يعاون مسيحى حرم من حماية القانون .

ولقد عانت مصر كثيرا خلال هذه المحنة ، فرغم أن دقلديانوس قبل قرارات الاضطهاد كان له نوع من الشعبية ، فعند حضوره لمصر قمع ثورة أخيليوس Achilleus الذى أعلن نفسه إمبراطور فى الإسكندرية ، وعد هذا تهديدا للإمبراطورية وتهديداً صريحًا لأسطول القمح الذى يصل إلى روما ، وحضر دقلديانوس لمصر وبعد حصار ثمانية أشهر قمع الثورة بعد أن دمرت أجزاء من المدينة ، ولأن حالة المدينة كانت سيئة جدا فقد أمر بتوزيع جزء من القمح المرسل إلى روما بين السكندريين ، ومن المؤكد أن أهل الإسكندرية أظهروا سعادتهم بهذه المنحة من الإمبراطور بأنهم أقاموا له ذلك العمود الضخم المعروف باسم عامود يومبى ، ولا يزال موجودا باسم عمود السوارى ، ولكن انقلب الحال وذاقت مصرأقسى أنواع الاضطهاد (٢٣٣).

ويصف يوزبيوس الاضطهاد الذى تعرض له المصريون فى طيبة ، ومن المستحيل وصف أنواع التعذيب التى تكبدها الشهداء فى طيبة ، فقد كانت تكشط كل أجسادهم بالمحار بدل المناجل حتى يموتوا ، وكانت النساء يوثقن من إحدى القدمين ويرفعن فى الجو بماكينات خاصة ، وأجسامهن عارية ، ويعرض هذا المنظر المخجل القاسى لكل المتفرجين، كذلك أوردوا وصفا لما تعرض له المسيحيون فى الإسكندرية استنادا لأحد الذين قتلوا فيما بعد على يد الرومان فى هذه الفترة وهو فيلياس الذى ذكر أنه له شهرة عظيمة فى العلوم العالمية ، وقتل أسقف الإسكندرية ومعه عدد من رجال الدين (٢٣٤).

ولقد استمر الاضطهاد عشر سنوات ، ولكن تنازل دقلديانوس عن العرش لظروف صحية واعتزل فى نيقوميديا بعد عامين من الاضطهاد .

ولقد اختلف موقف الأباطرة والقياصرة من الاضطهاد ، فهناك اشتد مثل جاليروس ومكسميان ، ومن تسامح نسبيا كقسطنطينوس أو نفذه على مضض وحاول التخفيف من أسلوب الاضطهاد . واعتزل دقلديانوس ٣٠٥ وتلاه مكسميان ، وكان من الطبيعى أن يتولى إمبراطوران آخران ، ولكن تم تجاهل قسطنطين الشاب ابن قسطنطينوس وعين سفريوس الثانى فى الغرب ومكسميانوس فى الشرق ولكن توفى قسطنطينوس ٣٠٦ م ، ونادت قواته بقسطنطين (٢٣٥) ابنه فاضطَر جاليريوس إلى

الاعتراف به قيصرا ، ولكن مكسنتيموس بن مكسيمان أعلن هو الآخر أن له الحق فى تولى العرش ليصبح أغسطسا ، واستطاع كسب إيطاليا بجانبه [٢٣٦] .

وفى ٣٠٩ م كان هناك ستة يحملون لقب أغسطس، ولقد اتخذ مكسنتيموس سلوكا متسامحا تجاه إيطاليا وقرطاجة ، ولكن أسقف روما **Macellus** هو الذى أثار المشاكل بما فرض من كفارة على عدد كبير من المسيحيين الذين كانوا قد تنكروا للدين فى فترة الاضطهاد السابق ، وهنا تصارع المسيحيون مع بعضهم البعض ، ولكن عاد الإمبراطور لاتخاذ سياسة غير متوازنة .

أما فى الشرق فإن يوزبيوس يذكر أن الاضطهاد بدأ يتراجع بعد السنة الثامنة ثم توقف فى السنة العاشرة ، وكان جاليرٔوس أشد القياصرة عنفا ضد المسيحيين فى مملكته ، ولقد هرب العديد من أفراد الطبقة الوسطى الذين لم تحد من حريتهم قيود الثروة أو إعلان إلغائه ولجئوا إلى الغرب الأكثر اعتدالا ، وإن كان إقليم إيليريا وولايته أقل الأقاليم ترحيبا بالمسيحية ومبشريها ، ولكن حين تولى حكومة الشرق فقد اتسع نفوذه وزاد من حدة الاضطهاد فى كل من سوريا وفلسطين ومصر ، ولكن سياسية الاضطهاد لم تؤتى ثمارها وأدخلت الإمبراطورية فى فترة صراع زادت من حدة مشاكله على جميع المستويات ، إلى جانب اعتلال صحته فقد أصيب بقروح فى جسده فوجد أن سياسية العنف لا تجدى فأصدر مرسوم تسامح بإيقاف اضطهاد المسيحيين وتضمن " من المهام الخطيرة التى تشغل أذهاننا من أجل مصلحة الإمبراطورية والحفاظ عليها ، أن اتجهت إرادتنا إلى تصحيح كل الأوضاع وإعادة بنائها وفقا للقوانين القديمة ، والنظام العام عند الرومان وإنَّا لشديدو الرغبة بصفة خاصة أن تهدى إلى طريق العقل أولئك المسيحيين المضللين الذين نبذوا الديانة والطقوس التى شرعها آباؤهم والذين تبجحوا وازدروا شعائر الأقدمين ، ومن ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة أملاها عليهم خيالهم، وشكلوا مجتمعا متعدد الألوان فى مختلف أرجاء الإمبراطورية ، إن المراسيم التى أصدرناها لغرض عبادة الآلهة عرضت كثيرا من المسيحيين للخطر والكروب ، فقضى الكثيرون نحبهم على حين ظل عدد أكبر سائرين فى حماقتهم الملحدة ، حيث جردوا من الحق فى الممارسة العلنية للدين . ومن هنا اتجهت إرادتنا إلى أن نبسط مزايا رحمتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد التعساء [٢٣٧] ،

ولذلك نرخص لهم فى إعلان أرائهم الخاصة فى حرية تامة ، وفى عقد اجتماعتهم السرية دون خوف أو إزعاج ، شريطة أن يظهروا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة ، ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام فى مرسوم آخر وإنا لنأمل أن يحفز تسامحنا المسيحيين إلى الصلاة والتفرغ إلى الإله الذين يعبدون من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورفاهيتهم هم أنفسهم وسلامة الدولة ورخائها" ولقد توفى بعدها ٣١١ م ، ولكن مكسيمنوس حاكم الشرق لم يعجبه مطلقا محتوى مرسوم التسامح فتقاعس عن إرساله إلى الولاة الخاضعين له وأعطاهم أوامر شفوية لتخفيف وطأة الحرب ضد المسيحيين ، أما أتباعه فقد نقلوه كتابة ومن رسالة مرسلة إلى ولاة الأقاليم " بأنه إن وجد مسيحى منشغلا فى العبادة التى يتمسك بها شعبه وجب عليك أن لا تزعجه أو تعرضه للخطر ، وإن لا تظنه ضروريا أن يعاقب أى واحد لهذا السبب فقد دل الاختبار الطويل على أنهم لم يتضرروا من تعميمهم بأى حال ، لذلك احرص على أن تكتب لأولياء الأمور والقضاة ورؤساء كل مدينة لكى يعرفوا أنه ليس من الضرورى أن يهتموا فيما بعد بهذا الأمر "(٢٣٨).

وبناء عليه فقد نقلوا عن الإمبراطور إلى الولاة والقضاة والرؤساء فى كل إقليم كتابه ، بل سعوا لإتمام رغبة الإمبراطور المزعومة ووهبوا الحرية لمن سبقوا أن سجنوهم ، وأطلقوا سراح من كانوا قد أرسلوهم إلى المناجم للاقتصاص منهم ، وكان هناك أعداد من الأقباط قد أرسلت إلى مناجم صور .

ولكن عاد الإمبراطور إلى أخذ موقف من المسيحيين ؛ ويقال أن أهل أنطاكية أرسلوا إليه سفارة بألا يسمح للمسيحيين بالإقامة فى بلادهم واتخاذها ذريعة للإساءة للمسيحية وإعادة إقامة تماثيل ومعابد للآلهة وعاد نفوذ الكهنة ، ويقال أن جاليريوس مات فى ٣١١ م فتم تعيين مكسيمينوس بعد ستة أشهر من وفاته ويذكر يوزبيوس أنهم زوروا سفرا من أعمال بلاطيس والمسيح وأمروا نسوة ساقطات فى سوق دمشق بالإدعاء بأنهن كن مسيحيات ، ويمارسن الفجور ، ونشر هذه الوثائق فى الإمبراطورية للإساءة للمسيحيين ، ولقد ترتب على هذا متابعة المسيحيين وخاصة رجال الدين ، فقتل بطرس أسقف الإسكندرية وعدد من الإساقفة فى مصر (٢٣٩) ، ولقد نقشت على أعمدة

نحاسية وسط المدن للتذكار ما قيل ضد المسيحيين والأوامر الإمبراطورية ، وهى طريقة لم تتبع من قبل بالإضافة إلى تدريسها لصبية المدارس سفريسوع وبلاطس .

ولقد كتبت فى المرسوم أن النكبات الطبيعية من أعاصير وزلازل ونقص الأمطار سببها المسيحيون .

فى ٣١١ م بعد وفاة جاليروس تم تقسيم الإمبراطورية ؛ فأخذ قسطنطين الغال وبريطانيا ومكسنتنيوس إيطاليا وآسيا وأفريقيا ، وليسنيوس أليريا وبلاد الأغريق وتراقيا ومكسيميان وكل مايلى البسفور ، وفى البداية كانت علاقة قسطنطين بهم ودية فلم يكن ليسنيوس بالحاكم المستبد ، فى حين كان مكسيميان قاسى وعنيف ، أما مكسنتنيوس فلقد اتحد ضده الجميع ، ولكن ما لبث أن دخل لسينيوس ومكسيميان فى صراع ، كذلك قسطنطين ومكسنتيوس فقد اتحد ضده الجميع وانضم لسينيوس إلى جانب قسطنطين .

ولقد التقت قوات مكسنتيوس بكل من قوات قسطنطين وليسنيوس ثم اتجه إلى روما ، وفى ٢٨ أكتوبر ٣١٣ م [٢٤٠] حدثت معركة ساكس روبرا **Saxa Rubra** أو جسر ملفيان وأحاطت بعض القوات بمكسنتيوس وأجبرته على المحاربة فى المنطقة خلف التيبر ، واستطاع قسطنطين هزيمة مكسنتنيوس الذى سقط قتيلا فى التيبر ، وأصبح قسطنطين سيدا للغرب ، ويرتبط بهذه الحملة حدث هام بالنسبة للمسيحية ، قصة الصليب التى رواها يوزبيوس ، فيذكر أن قسطنطين رأى عند غروب الشمس صليبا لامعا وقيل له ستنتصر بفضل هذا ولقد رآه جيشه أيضا وفق رواية يوزبيوس، وفى المساء رأى حلما طلب فيه المسيح واتخذ رأية هى **Labarua** عليها الصليب ذو الرأس المعقوف شعارا له ، وهو عبارة عن عمود خشبى له رأس حديدى يتقاطع معه قضيب مستعرض ولقد نُقشت عله صور قسطنطين ، وعلى رأس العمود تاج من ذهب بداخله شكل صليب ، والحروف الأولى من اسم المسيح **Christos**.

وكان لتلك الرواية تأثير نفسى كبير أثناء حروب قسطنطين ، إذ أشيع بأن نبال العدو لا تنفذ إليها، ولقد لقيت هذه القصة معارضة من بعض المؤرخين الوثنيين **Lacantius** ونازريوس ، وإذ حاولنا معرفة دافع قسطنطين فإنه يحيط به الغموض

كفالبية تصرفاته ، ولكن فى الغالب كان دافعه أن مكسنتيوس اتبع سياسة شديدة المناهضة للمسيحية ، فكان من الطبيعى أن يسعى منافسيه لالتماس مخالفة المسيحيين ، وإن كان عددهم آنذاك لا يزيد عن خمس سكان الإمبراطورية ولكنهم كانوا من أقوى الطوائف الدينية فى الإمبراطورية لو قارنهم بالمثيرائيين مثلا ، وعلى كل فقد تشابه صليب المسيح **Labarum** مع صليب إله الشمس أبوللون ، وقسطنطين نفسه لم يسع للتفريق بين الاثنين ، فجنوده فى الحال يحاربون تحت صليب إله الشمس والمسيحيون تحت صليب المسيح ، ومازال قوس النصر الذى أقامته السناتو والشعب ٣١٥ م مكتوبا عليه بفضل البواعث الإلهية **Instinctus Divinatis**.

ولقد بقى قسطنطين فى روما شهرين ثم تركها إلى ميلان حيث التقى بلسينيوس وعقد اتفاقا وأصهره اخته ، واتفقا على مجابهة مكسيميان ، وأيا كان فأهم ما قرره هو ما يختص بأمر العقيدة المسيحية ، وكان يشمل على صيغة تسامح تجاه المسيحيين ، ولقد فقد النص الأصلى ، ولكن أيوزبيوس أورد فى تاريخه ردًا مقاربا ، ولقد صدر باسم قسطنطين ولسنيوس تضمن أن من حق كل فرد أن يمارس العقيدة التى يختارها بدون تدخل من الدولة . وبذلك أصبح من حق كل من أراد أن يعتنق المسيحية أن يعتنقها بدون خوف من ضغط أو إرهاب .

إننا إذا أدركنا منذ عهد طويل أن الحرية الدينية يجب أن لا يحرم منها أحد بل يجب أن تترك لحكم ورغبة كل فرد أن يتمم واجباته الدينية وفق اختياره ، أصدرنا الأوامر بأن كل إنسان من المسيحيين وغيرهم ، يجب أن يحتفظ بعقيدته وديانته (٢٤١) ، ولكن نظرا لأن فى تلك الأوامر التى منحت بمقتضاها الحرية لهم ، قد أضيفت حالات مختلفة كثيرة على ما يظهر ، فبعضهم ربما كانوا قد امتنعوا عن مراعاتها بعد قليل ، وعندما حضرنا إلى ميلان فى ظروف طيبة ، أنا قسطنطين أوغسطس وأنا لسينيوس أوغسطس، وتأملنا فى كل ما يؤول إلى الخير العام ورفاهية الشعب اعتزمناه ، أو على الأصح اعترفنا أول كل شىء أن تصور الأوامر التى تعود بالخير على كل واحد من وجوه كثيرة ، أى تلك التى تحفظ الإكرام لله وتقول به ، أى أننا اعتزمنا منح المسيحيين وكذا كل الناس الحرية لاتباع الديانة التى يختارونها ، أى أية ديانة سماوية توافق كل

من يعيش تحت حكمنا . ولقد أعيدت الكنائس السابق الاستيلاء عليها لأصحابها بدون مقابل لأصحابها المسيحيين .

وكان إصدار مرسوم ميلان فيه إحراج لمكسيميان حاكم مصر وسوريا وفلسطين حيث أعداد المسيحيين قوة لا يستهان بها ، وأمره قسطنطين بتنفيذ المرسوم فى أراضيه ، واضطر لإصدار مرسوم تسامح ، وذكر أن موظفى الدولة ارتكبوا كثيرًا من الآثام والشرور ، وكانوا وراء الاضطراب ، وكانت فى تزايد مستمر لخراب مواطنينا ، الذين نود دواما أن تبذل معهم عناية كاملة ، وإن ممتلكاتهم كانت تتبدد نتيجة لهذا، ولقد أرسلت رسائل فى العام الماضى إلى حاكم كل مقاطعة أمرنا فيها إن أراد أحد تأدية أى نوع من الشعائر الدينية يجب السماح له بإتمام غايته من دون مناقصة ويجب أن لا يعوقه أو يمنعه ، ويجب أن تمنح الحرية للجميع ليتصرفوا كما يريدون دون خوف أو شك، وعلى أننا لا نطيق أن نرى بعض القضاة يحرفون أوامرنا ويعطون شعبنا فرصة للشك فى معنى تدابيرنا ويجعلونهم يتلكأون فى تأدية الشعائر، وكانت محاولة من مكسيميان لكسب الشعب ، وهذه بعد سنة واحدة من الأوامر التى نقشها ضد المسيحيين على الأعمدة ، وقد حاقت بمكسميان فى ٣١٣م هزيمة ساحقة ووقع أسيرا فى قبضة ليسنيوس ومات .

ولقد تلى ذلك إصدار ليسنيوس مرسوما أكثر تسامحا من مرسوم ميلان فى ١٣ يوليو ٣١٣م قرر فيه إعادة ممتلكات الجماعة المسيحية وأصدر قسطنطين مرسوما مماثلا للغرب .

كان كل من قسطنطين وليسينوس طموحا فكان من الطبيعى أن يختلفا ، وكانت الحرب مسألة وقت فقط ، وحدثت معركة ٣١٤ انتهت بانتصار قسطنطين وإستيلائه على سيرميوم ، ولقد اتخذ كل منهما خطا مخالفا فى سياسته الداخلية ، فلقد اهتم قسطنطين بالمسيحية ومنح الكنيسة الهبات ، وحرر المسيحيين من تأدية الواجبات والقرابين للوثنية ، فى حين أن ليسنيوس لم يبغ أن يمضى خطوات أبعد فى تسامحه ، بل على العكس تغاض عن ما تعرض له المسيحيون من الاعتداء فى بعض الولايات التابعة ، ولكن لم يجد الشجاعة لنقض مرسوم ميلان .

وكانت الوثنية مازالت قوية لارتباطها بالفلسفة والحضارة اليونانية والفنون الرومانية وتقاليد المجتمع ، وبدا كأن الحرب بينهم اتخذت طابعا دينيا مع أنه فى الحقيقة كان صراعا سياسيا ، ولقد حدثت معركة فى الفترة بين ١٨ - ٢٠ سبتمبر ٣٢٣م انتهت بهزيمة لسينوس وفراره ثم استسلامه وقتله ٣٢٥م ، بهذا اتحدت الإمبراطورية تحت قيادة شخص واحد هو قسطنطين .

ويعتبر عهده بداية لفترة جديدة ، والمسيحية المنتصرة بدأت تشق طريقا ، والوثنية بدت تتوارى تدريجيا ، وهنا اختلف الموقف ،فأصبحت المسيحية بعد أن أصبحت الديانة الرسمية تطارد فلول الوثنية وتدك معاقلها ومؤسساتها الحضارية ، وبدأ الصراع بعد ذلك يتحول من صراع بين المسيحية والوثنية إلى صراع بين المسيحية المصرية بمؤسساتها أمام الإمبراطورية ، والخلاف بين طرفين مسيحيين ، وكان خلافا مذهبيا ، وهنا كان الشعب مع المسيحية ضد الدولة واتخذ طابعا دينيا قوميا .

وكما قال ديورنت التقى قيصر والمسيح فانتصر المسيح على قيصر [٢٤٢].

النشاط الإنساني فى ظل المسيحية

شكلت المسيحية تاريخ الفترة التالية دينيا وسياسيا واجتماعيا وفكريا ، وظهرت قوة فى الإسكندرية لها مكانتها لعبت دورا رئيسيا فى أحداث تلك الفترة وهى بطريركية الإسكندرية ، وظهرت كوضع سياسى وهو العلاقة بين الكنيسة والدولة ، ولم يكن معروفا قبل فى الوثنية فكانت المعابد جزءا من الجهاز الذى يتبع الإمبراطور .

كان قسطنطين منذ البداية يميل إلى صداقة المسيحيين ربما بحكم كراهيته لجاليروس ،ولم تكن العقيدة فى البداية تعنى له شيئا ، ولكن بدأ اهتمامه بها منذ بدأ المسيحيون يصبحون قوة لفتت أنظار بقية طوائف الشعب والدولة إليها، وبعد أن ثبت أن سياسة الاضطهاد فشلت فكان إصدار مرسوم ميلان ، والمسيحية أهم حدث فى تاريخ الإمبراطورية بل فى تاريخ العالم بأجمعه فى هذه الفترة ، فالمسيحية أضفت طابعا مميزا على تاريخ تلك الحقبة بأجمعها ، وأوجدت تغيرات جذرية فى الأسس التى قامت عليها المجتمعات القديمة ، وأوجدت نظاما جديدا فى كل صغيرة وكبيرة من حياة الأفراد وعلاقاتهم ، سواء علاقة الفرد بالدولة أو بغيره من المواطنين ، ولقد نتج عن ذلك إثارة مشكلتين هامتين ظلتا تشغل العالم المسيحى لقرون طويلة وهما العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وثانيهما الخلافات حول طبيعة المسيح.

ولقد تقاربت الأراء حول اعتناق قسطنطين المسيحية بين مؤيد ومعارض ، حاول الجانب المسيحى الذى دفع قسطنطين إلى مرتبة القديسين إثبات أن قسطنطين اعتنق المسيحية عن اقتناع كالمؤرخ ليكتانتيوس والمؤرخ نزاينزوس **Nazianzus** فى حين حاول الوثنيون أمثال **Zosmus** بمختلف الأدلة والشواهد إثبات عكس هذا .

وهناك أدلة تؤيد وأخرى تدحض كلا الجانبين ، ولكن بالدراسة الموضوعية نجد أن سياسة قسطنطين تعكس بوضوح اتجاهاته الفكرية وشخصيته، فقسطنطين كان يطبق ما يراه أكثر فاعلية وأمنا للإمبراطورية ، فأول الأباطرة المسيحيين لم يكن يستحق هذا اللقب إلا حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حيث عمل وهو على فراش الموت سلسلة المذابح التى شملت زوج اخته وابن اخته وابنه هو وزوجته وعدد من قادته لا يعكس صورة مسيحى متسامح .

وكما قال Gibbon جيبون " وازن بدهاء بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم ، وكان المسيحيون والوثنيون يتابعون سلوك مليكهم بنفس القدر من القلق"[٢٤٣] ولم يكن هناك تأثير لنشأته الأولى فى اتجاهه إلى المسيحية ، فأبواه لم يكونا من مؤيدى العقيدة ، فأبوه كان مثيرائى ؛ وهى عبادة ذات أصل فارسى ، وكانت تتضمن شعائرها لتضمن نوعا من التصوف وانتشرت بين الجنود .

لقد أشبعت المسيحية جميع الاتجاهات الفكرية والنفسية ، الهلينيى كانت روح التصوف Mysticism تكمن وراء عبادته للطبيعة ، كما أنه فطر على حب الرمز إلى جانب أنها تروق للطبقات الدينا بوجه خاص ، حيث ساوت عند الله بين العبد الرقيق والإمبراطور ، وكانت المسيحية منظمة تنظيما يدعو للإعجاب ، وتولاها رجال ذو كفاءة ، حتى أن جوليان حين أراد أن يبعث الوثنية حاول تنظيم المعابد على غرار الكنائس المسيحية ، وكانت ميزتها عن الميثرائية أنها مكنت للنساء أن يلعبن دورا فيها ، وتأثرت بالفلسفة الإغريقية التى وهبتها محتوى فكريا عن طريق مدرسة اللاهوت المسيحى. كما أن قسطنطين لم يدع الغموض إلا عند وفاته وهو على فراش الموت ٣٧٧[٢٤٤] .

فقد كان وثنيا مع الوثنين ومسيحيا مع المسيحين مع ميله للمسيحيين فجعل يوم الأحد يوم الحرب ، وفى الوقت نفسه أصدر مرسوما ثانيا على تقديم القرابين ، وأصدر قراراً بإعفاء الأكليروس من رؤساء الكنائس من الواجبات السياسية ، ذكره يوزبيوس " إن الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون ، متّبعى هذه الديانة الإلهية يجب أن ينالوا تعويضا عن أتعابهم ، فيسرنى أن المقيمين فى المقاطعة التى أوكل إليك أمرها ، أعضاء الكنيسة الجامعة التى يرأسها سيليانوس ، الذين

يقدمون خدماتهم لهذه الديانة الظاهرة والذين يدعون أكليروسا أن يعفوا إعفاء تاما من الواجبات العامة " ثم عاد ومنع رسامة أى قس من ذوى المكانة فى الإقليم ، ويعين فى حالة وفاة القس الموجود فقط ، وكان دافعه إلى ذلك اندفاع عدد كبير من رجال الدين فقل الدخل العام ، فموقفه المتذبذب ينبع من مصالح شخصية ومصالح إمبراطوريته ، ومدى الفائدة التى تعود من ذلك ، وهو الوقت نفسه الذى انعكس فى موقفه من أريوس وأثناسيوس من تأييد لأثناسيوس ، ثم تحول موقفه لصالح أريوس واسترجاعه، ويذكر استروجروسكى أنه قتل عدداً كبيراً من أصدقائه بلا جريمة حتى قارنه البعض بحكم نيرون .

وكانت مشكلة الكنيسة والدولة شيئا جديدا كانت عقيدة الإمبراطورية جزءا من سياسة الدولة ، ولكن حين قامت المسيحية بفصل الله عن قيصر وجدت المشكلة ، فإن الإمبراطور كان يشغل فى العقيدة منصب الحبر الأعظم ، وفى البداية كان يشغلها أعضاء السناتو ثم تولاها منذ عهد أغسطس الإمبراطور أغسطس ، أما الكنيسة المسيحية فقد عهد بخدمة مذابحها إلى طائفة متدرجة من القساوسة ، وبدأ الصراع بين السلطتين وخاصة أن مرسوم ميلان كفل للكنيسة دخلا ومنحا عظيمة ، والمرسوم نفسه قد سمح للرعايا الكاثوليك بوهب ثرواتهم للكنيسة ، بل فى ٣٢٣ م سمح لهم بوراثة ممتلكات الشهداء بشرط ألا يكونوا قد كتبوا ثرواتهم لغير الكنيسة ، وكان الإمبراطور خير مثال يحتذى إذ منح الكنائس الكثير من الهبات ،ومنذ عهد قسطنطين إلى جستنيان اهتموا بإنشاء الكنائس ، ولقد منح الأساقفة عدداً من المزايا منها مزايا قانونية كحق الملكية واختصاصات الأساقفة القضائية ، ومع ذلك وفقا ليوزبيوس فإن الإمبراطور حدد اختصاصات الأسقف ، ولقد سيطر الأباطرة سيطرة تامة على أمور الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية .

ومع ذلك فقد بدأ الصراع فى الكنيسة الشرقية فى الخلاف حول طبيعة المسيح، ومنذ البداية حدد قسطنطين موقف الدولة من الكنيسة ، ووضع أسس السيطرة الإمبراطورية التى أثارت الخلاف فيما بعد مع الكنيسة المصرية ، فبعد صدور مرسوم مايو ٣٠٣ ضد المسيحية طلب دقلديانوس من المسيحيين تسليم [٢٤٥] كتبهم الدينية ، فرفض عدد كبير ما عدا فئة سلمت أناجيلها ، ومن هنا بدأت الخلافات نحو تحديد

موقف تلك الفئة التى أطلق عليها **Traditone** وثار أحد رجال الدين فى أفريقيا وهو **Donafus** ورفض قبول تلك الفئة فى الكنيسة وقرر الإمبراطور تعيين محكمة دينية للفصل فى هذا الأمر وأدان المجتمع دوناتوس ، وعقد مجمعا بناء على طلبه وأدانه وحين لجأ أتباعه إلى الإمبراطور وأدانهم الإمبراطو وأرسلوا إليه رسالة تتضمن رفض التعامل مع أسقفه الوضيع (٢٤٦)، ولم تكن الصراعات الدينية تثير اهتمام الإمبراطور إنما ما يهمه هو القضاء على الخلافات وضمان وحده الإمبراطورية .

وفى الوقت نفسه ثارت مشكلة فى الإسكندرية حول طبيعة المسيح(٢٤٧) ، ولقد استنكر الإمبراطور فى رسالة وجهها إلى الإسكندر أسقف الإسكندرية ، وإلى أريوس أسقف بوكالين بالإسكندرية أيضا لخلافهم ، وأرسل يدعوهم إلى الاعتدال والبعد عن الخلافات المذهبية ، ويرجع قسطنطين أصول الخصومة إلى سؤال تافه غامض يتعلق بنقطة فى القانون لا يستطيع فهمها وهو يرثى لحال الشعب المسيحى الذى يعبد إلهًا واحدا . وكانت المشكلة قد أثارها أريوس (٢٤٨) ، وكان أريوس طويل القامة نحيل الجسم مكتئب المظهر ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش ، ويستدل على ذلك من ملبسه وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها كعباءة ، وكانت طريقة حديثه مقتضبة ، كانت العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للدين يبجلنه وهُنّ كثيرا فى الإسكندرية بالإضافة إلى عدد من رجال الدين ، وهذا يقودنا لنقطة هامة هى أن أعداد المسيحيين وخلال فترة وجيزة ازدادت فى العاصمة والأقاليم ، فالبعض الذى كان يخشى الاضطهاد أوالذى كان مترددا أو ينظر بحذر وجد فى انتصار المسيحية تشجيعا له على اعتناقها ، بالإضافة لما أحاط بالمسيحيين من اضطهادات ، وقصص الشهداء المسيحيين دفعت أفراد عدة للدخول فى المسيحية ، وخلال هذه الفترة بدت الخطابات تحمل إشارات مسيحية عديدة وظهرت الكنائس والأديرة فى مخطط المدن .

كانت المشكلة التى أثارها أريوس وأدت إلى انقسام فى الكنيسة تدور حول طبيعة المسيح، الفكر السكندرى سأل هذا السؤال حوالى ٣٠٠ م وكانت نتيجتها هرطقة أريوس وسأله مرة أخرى حوالى ٤٠٠ م فأنتج هرطقة النساطرة وفى ٦٠٠ م كان التساؤل الثالث الذى أنتج هرطقة الإرادة والمشيئة ، وحين نلقى نظرة على هذه الأمور الثلاثة كل فى دوره سنكتشف أن كل منها كان يرى أنه هو الأصولى الحقيقى

الأرثوذكس ، وأنه هو المفسر الوحيد للصلة التى تربط الله بالإنسان ، بالرغم من أنه كان فى وجهة النظر يعد متهرطقا ، وكانت المشكلة التى أثارها أريوس الذى كان أحد أعضاء جماعة **Melitius** والذى رفض التسامح الذى قام به القديس بطرس ضد الذين عادوا إلى اعتناق المسيحية بعد ارتدادهم زمن دقلديانوس .

وكانت نظرية أريوس قائمة على أن الأب نفخ فى ابنه الوحيد من روحه وغمره من فيض نور مجده ، وكان يحكم العالم خضوعا لإرادة أبيه وملكه ، ولكن هناك فرقًا لا نهائيًا بين الخالق وسائر مخلوقاته ، أى أن ليس من جوهر الأب **Nomousios** بل أقل مرتبة ، ولقد عقد الإسكندر مجمعا فى الإسكندرية وأصدر قرارًا بتحرير أريوس وأتباعه فاعترض بعض الأساقفة .

ولما جاء قسطنطين إلى نيقوميديا سمع القصة من أسقفها وأرسل إلى الإسكندر وأريوس أن يوفقا بين أرائهما وبين الخلاف .

أما النظرية المعارضة فمثلها أثناسيوس رئيس الشمامسة ، فى عهد بطريركة الإسكندر ث، م أسقفها فيما بعد ، وعدد كبير من رجال الدين الشرقيين ، فذكروا أن الأب والابن والروح القدس من جوهر واحد ومن مادة واحدة **Consubstantiallen** ولا يمكن تقديم أحدهما على الآخر وكان أريوس قد سافر إلى فلسطين بعد صدور قرار الحرمان ضده من البطريرك وعرض مذهبه ، على يوزبيوس مستشار الإمبراطور وأسقف قيصرية الذى اعتنق مذهبه وعند مجمع فى ريمنى حضره أربعمائة من الأساقفة الغرب ، وأنهى الأمر بإقرار مذهب أريوس فأصدر **Syondes** بضغط من رجال البلاط من مؤيدى مذهبه برفع النفى عن أريوس وتأييد مذهبه ولكن أسقفية الأسكندرية رفضت القرار (٢٤٩)، وكان فى رأى الكنيسة مسألة اتفاق الأب والابن فى المادة لا مجرد تشابههما ، وكانت مسألة حيوية من الوجهين الدينية والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلها فإن كيان العقيدة المسيحية كلها يبدأ فى التصدع ، وإذا سمحت باختلاف الرأى فى هذا الموضوع فإن فوضى العقائد قد تقضى على وحدة الكنيسة وسلطانها ، ومن ثم مالها من قيمة بوصفها عونا للدولة ، ولما انتشر الجدل فى هذه المسألة أو الخلاف بين أتباع أريوس وأثناسيوس أصدر المجلس

الكنسى فى أنطاكية قرار أبطرد أريوس ويوزبيوس أسقف قيصرية من الكنيسة ، فقرر قسطنطين التدخل وعقد مجمع كنسى ، ولكن عيب هذه الطريقة تحويل الخلاف المحلى البسيط إلى مشكلة عامة ، واختيرت مدينة نيقيه كمقر للاجتماع ، وتولى قسطنطين رئاسة المجمع وتدخل فى مناقشاته ، وكان ما يسعى إليه الإمبراطور إصدار قرار جماعى من الشرق والغرب وتوجد قائمة بأسماء (٢٢١) أسقفًا ولكن العدد الذى حصر يقرب من ثلاثمائة ، ولأول مرة يتردد اسم الإمبراطورية المقدسة ، ولكن رجحت كفة مؤيدى مذهب الطبيعة الواحدة ، فقرر الإمبراطور الانضمام إلى جانب الأغلبية ، وهدد من يعارض بالنفى فانخفض عدد المعارضين إلى سبعة عشر، ويقال أن مؤيدى أريوس رضوا بالتوقيع معهم إذا سمح لهم أن يضيفوا إلى هذا الإعلان نقطة واحدة وهى أن يستبدلوا كلمة هونوسيون **Hanoiousion** أى مماثلا فى الجوهر إلى هوموسيون **Homousion** أى من جوهر واحد ، ولكن المجلس رفض هذا التعديل وأصدر بموافقة الإمبراطور القرار الآتى " نحن نؤمن بإله واحد ، وهو الأب القادر على كل شىء خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن ، وبسيد واحد هو يسوع المسيحى ابن الله المولود .. غير المخلوق من نفس جوهر الأب.. وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا وتجسد، وصار إنسانا وتعذب، وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات .. " وأجبر يوزبيوس أسقف قيصرية على تأييده ونفى أسقف نيقوميديا وطرد من وظائفه أما أريوس فنفى إلى أحد مقاطعات أليريا ، وقررت عقوبة الخيانة العظمى على كل من يؤيد مذهبه، ولقد أخطأ الإمبراطور الظن حين تصور أن النزاع قد انتهى عند هذا الحد وإن كان صدق فيما أورده أن وحدة الكنيسة وبقاءها يتطلبان وحدة العقائد بطريقة ما .

وكان لأريوس كثيرًا من المؤيدين فى بلاد الإمبراطور وفى حكومته ، بل أن أخته قسطنطينية كانت من مؤيديه ، فقرر الإمبراطور تغيير اتجاهه وتأييد الأريوسية ، فاسترجع يوزبيوس وأعيد لكرسى الأسقفية وأعيد أريوس من منفاه وعومل باحترام واجتمع به الإمبراطور ٣٢٠ م وعقد مجلس فى أورشليم اعترف بمذهبه ، وقرر بأن ترد لأريوس وأتباعه كنائسهم ، ولكن توفى بطريقة غامضة فى اليوم الذى كان مفروضا فيه رد اعتباره ، وثارت الأقاويل واتهم أنصار المذهب المعادى بدس السم له واتهم فيه

أساقفة الإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية ، وصدر قرار بنفيهم وعقد مجمع فى صور حضره أيوزبيوس إذ أن أثناسيوس وجهت إليه اتهامات باضطهاد وجلد ست أساقفة وتحطيم كأس قربان (٢٥٠)، ونفى أثناسيوس إلى الغال بموافقة قسطنطين إذا اتهمه معارضيه لدى الإمبراطور بتعويق أسطول القمح السكندرى إلى القسطنطينية ، وكان معنى هذا إثارة مشاكل فى العاصمة مع جموع الشعب.

وانعكس الموقف على الإسكندرية ومصر بوجه عام ، فالإمبراطور اعتبر أمر العقيدة مردها إليه واختيار المذهب من اختصاصه وحده ، وهو ما عرفته طوال الفترة التالية أساقفة الإسكندرية (٢٥١) ووراؤهم جموع الرهبان والشعب الذى ربط بين ما هو قومى ودينى، واعتبر المساس بالعقيدة التى يمليها البطاركة مساسا بقوميته كالدين ، وكان تنفيسا عن قهر إنسانى من وضع اقتصادى متدنٍ ، كما ذكر دونالد . ر. دولس فى كتابه حضارة الرومان أن الفلاح المصرى وجد فى الإمبراطورية الرومانية صاحب عمل غاية فى الشدة والصلابة . ومهما بلغ طمى النيل من خصب فقد كان من الأيسر انتزاع آخر مليم من الضريبة وآخر قدر من الجهد من الفلاح المصرى عن استغلال قدرة الأرض الإنتاجية إلى أقصى حد ممكن .

وكانت الجموع تخرج خلف رجال الدين تؤيدهم فى موقفهم المذهبى، البعض لم يكن يدرك تلك الخلافات اللاهوتية الدقيقة فيما تحويه من اختلافات فكرية تحتاج لعقل مدرب على الثقافة ليتناقش ويجادل، ولكنه كان يدرك بإيمانه وفطرته برجال الكنيسة المصرية ، ولذلك فقد تحولت شخصية أثناسيوس من رجل دين عادى إلى بطل قومى ورمز أثر فى أحداث الفترة رغم تعرضه للنفى، بل إن النفى أصبح نوعًا من الخلاص المسيحى كما تعذب المسيح لخلاص العالم، ومن المرجح أن أثناسيوس كان من أبوين مصريين ، ويصفه البعض أنّه كان يبدو طيبا مرحا ضئيل الجسم ، يميل لونه للسواد، ولكنه كان قويا للغاية كعالم لاهوتى كان يعرف الحقيقة ، وكسياسى كان يعرف كيف يرفقها بالقوة .

ولقد تم نفى أثناسيوس خمس مرات مرة ؛ على يد قسطنطين ٣٣١ م ، ومرتين على يد قسطنطنيوس الأريوس ٣٣٨ - ٣٥٦ ، ثم المرة الرابعة على يد جوليان الوثنى

٣٦٢م [٢٥٢] ، وأخيرا قبل وفاته على يد الأريوسى ، وأوشك أن يموت مرتين فى الكنيسة ، مرة فى السيزاريوم حين سير موكبا للإنشاد [٢٥٣] والترانيم ، وكان هو خارج من أحد الأبواب بينما أعداؤه كانوا يدخلون من الباب الآخر ، ومرة أخرى عندما هرب من المذبح قبل هجوم الجنود الأريوسين ، وكان دائما يعود أسمى منزلة، ولقد اختفى فترة من الإدارة البيزنطية فى مقبرة أسرته ، وكانت كنيسة الإسكندرية تقع فى الاتجاه الشمالى من الشارع الكانوبى . ورغم أن مصر تتبع الدولة البيزنطية ويحكمها من الناحية السياسية والٍ وحامية عسكرية ، ولكن البطريرك كان صاحب الكلمة العليا فى مصر يؤيده جيش من الرهبان ، ولم يكن الرهبان يمثلون قوة فعالة طالما كانوا يعيشون فرادى ، ولكن فى القرن الرابع أصبحوا يعيشون فى تجمعات ، وخاصة فى وادى النطرون ، وكانوا يملكون بعض المعرفة اللاهوتية والحرف ، وكانوا كارهين للثقافة اليونانية ، ولم يكن لديهم التفكير الفلسفى الذى كان للأورجين وكلمنت والآباء الأوائل ، ولقد كون الرهبان جيشا استخدمه البطاركة المصريون لمناوئة سلطان الإمبراطور . ولقد انغلق الرهبان على أنفسهم فرفضوا كل ما هو أجنبى حتى الثقافة ، فشنودة الأخميمى قصر أديرته على المصريين وجعل اللغة القبطية الأساس ، فأصبحت الثقافة اليونانية فى جانب معادى وتقرن الإدارة البيزنطية [٢٥٤] .

ولقد انعكس الوضع الدينى لأباطرة الإمبراطورية على الوضع فى مصر وموقف كنيستها فى عهد أولاده قسطنطين ، فكان قسطنطنيوس أريوسى وقسطنطين الصغير وقسطانز من مؤيدى نيقيه بل أن أثناسيوس لجأ إلى بلاط قسطنطين فى الغرب حين أبعد أثناء حكم والده .

ولقد سعى قسطنطينوس لنصرة المذهب الأريوسى بمساعدة الأسقف يوزبيوس واجتمع فى أنطاكية تسعون أسقفًا صاغوا مذهبا جديدا أطلقوا عليه اسم **Arrianism Semi** أى الشبيه بالأريوسية ، ووضعوا خمسًا وعشرين قاعدة لا تزال الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية تسير عليها حتى اليوم ، وكان مما نص عليه أن الأسقف الذى يصدر مجلس الأساقفة قرارا بنفيه لا يباشر مهامه الأسقفية ثانية ، وكان أثناسيوس الذى لجأ إلى بلاط ميلان ، حيث قسطانز بناء على استدعاء الأخير له ، وفى محاولة للتوفيق بين شطرى الإمبراطورية عقائديا عقد مؤتمر فى ساردیکا ، ولكن

لم يستطع التوفيق بينهم بل تمسك كل بعقيدته ، ولكن قسطانز حاكم الغرب والأخ الأكثر سلطانا وقوة (٢٥٥).

وقد أجبر أخاه فى رسالة تهديد بعث بها إليه على إعادة أثناسيوس وهدده بقدومه على رأس أسطول إن لم يستجب لذلك ، وسارع أثناسيوس إلى كرسيه الأسقفى فى الإسكندرية ، ونتيجة لذلك اضطر للقبول بدون إبطاء وأرسل يعيد الأسقف إلى الأسقفية ، بل أجبره أن يعيد كل أنصاره ويعيد لهم حقوقهم وامتيازاتهم.

على أن هذه الحركة أدت إلى شطر الأريوسية إلى فريق معتدل اقترب من مذهب نيقيه ، وفريق آخر على مذهبه بقيادة جيريتوموس وأنكر أى تشابه.

ولقد منحت الحرب بين قسطنطينوس وماجنتوس فرصة أمام الكنيسة للراحة وسعى كلا المتنافسين لكسب أثناسيوس ، وكان لاستقبال أثناسيوس رسل ماجنتوس أسوأ الأثر بالنسبة للإمبراطور الذى سعى للإنتقام من أثناسيوس ، وفى مجلس أرل وميلان أدين كهرطقى وبانتصار قسطنطينوس أعلنت الأريوسية كمذهب رسمى للدولة . ورغم التواجد المسيحى فمازالت البقايا وثنية ، ويذكر ول ديورنت أنه أمر بإغلاق جميع الهياكل الوثنية فى الدولة ومنع جميع الطقوس الوثنية وأنذر من يفعل ذلك بالقتل ومصادرة أملاكه ، ومع هذا فقد وجدت جزائر وثنية متفرقة فى أثنيا والأسكندرية ربما وبخاصة بين الأشراف وفى المدارس طوائف كبيرة من الوثنين المتفرقين فى أحيائها المختلفة (٢٥٦).

ورغم كون جوليان وثنيا فقد تولى العرش بلا معارضة عام ٣٦٠ م وأيده الحزب المسيحى بما فيهم يوزبيوس والفريق الإمبراطورى وجميع قادة الجيش وحكام الولايات والشعب رغم كونه وثنيا لما يتمتع به شخصية مميزة ولكونه آخر سلالة أسرة قسطنطين ، وكان الإمبراطور لا يرى فى المسيحية معجزة بل مجرد ديانة مقبولة للبعض ، وهذا دفعه لمحاولة بعث الوثنية على أسس وبطرق أكثر تنظيما ومجازة لعصره ، وفى الوقت نفسه اتخذ من المسيحيين موقفا معتدلا ظاهريا، فلم يلجأ إلى وسائل الاضطهاد والقمع كما حدث فى عصر جاليريوس ودقلديانوس ، فلم يكن يأتى بالإرهاب كوسيلة لتحقيق النظريات أو حل المشاكل ، ولكن يترك العقيدة تقضى على

نفسـها ويترك أنصـارها يبـذرون بذور الشـقـاق والخـلاف بأيديهم عن طريق تركـهم يتبادلون الاتهام والخلاف .

ويقال أنه ربط بين العقيدة المسيحية وقسطنطينوس الذى كان مسئولا عن مقتل ابنه وأخته ، هنا ارتبطت المسيحية فى ذهنه بالاضطهاد، وكان الإمبراطور يؤمن بعدم جدوى الاضطهاد ، بل إنه رأى أن الاضطهاد يرفع الضحايا إلى مصاف الشهداء ، ولقد بدأ عهده وأصدر مرسوما كان ينص على التسامح وحرية العقيدة ، وأمر بفتح جميع المعابد الوثنية التى سبق إغلاقها وألغى كل القوانين التى صدرت ضد الوثنيين ، والتى أصدرها قسطنطين وقسطنطينوس تجاهم واتخذ هو لقب الحبر الأعظم ، وأمر بتقديم الذبائح للإله وعين طائفة من الفلاسفة فى مختلف الولايات ، وقام بتشيد العديد من المعابد وأغدق على الوثنيين كثير من المزايا ، وسعى لإقامة مؤسسة دينية تقف أمام الكنيسة ونصح رجال الدين الوثنيين بأن يتجاوزوا دور الواعظ إلى إيضاح ما تقدمه العقيدة (٢٥٧) .

وبدأ يتخذ خطة مدروسة للقضاء على المسيحية بالوسائل السلمية عن طريق إيجاد الخلافات ، فأصدر أمرًا بإعادة جميع الأساقفة الذين نفاهم الإمبراطور، ولقد دعاهم لقصره وشاهد صدامهم العنيف ومناقشاتهم وطلب منهم أن يعيشوا فى سلام ، ولكن كما قال إيميانوس أن هذا تسامحا مصطنعا من جانب الإمبراطور نابع من رغبته من إثارة الانقسام وتقويض أسس المسيحية ، ونقل إلى المعابد المنح السخية التى سبق أن كانت تحصل عليها الكنائس ، وتغاضى عن جميع المزايا التى سبق لهم الحصول عليها وأعاد فرض الضرائب والخدمة المدنية وألغى القوانين ، كذلك حرم على المسيحيين تعلم النحو والبلاغة ، وقال إن من يحتقر ديانة اليونان لا يحق لهم أن يتمتعوا بمزايا علومهم ، وأطلق عليهم لقب الجليليين تحقيرا لهم ، وقال إن عليهم الاكتفاء بدراسة الإنجيل ، ولقد ترتب على هذا استقالة المدرسين المسيحيين ، وفتح المجال أمام الوثنيين ، وقررت الكتب الوثنية على الطلبة فامتنع عدد كبير من المسيحيين عن إرسال أبنائهم ، وكان هذا يهدف إليه جوليان ، وهو إيجاد الفروق بين الوثنية المثقفة والمسيحية وعودة الكنيسة إلى حالة من البدائية ، ولتحويل المسيحيين لجيل من الجهلاء المتعصبين ، وكذلك أبعد أغلب المسيحيين من وظائف الدولة والجيش .

ورغم أن الإمبراطور لم يخرق قانون التسامح الذى أصدره فإنه كان يتغاضى عن موقف الوثنيين تجاه المسيحيين ، فعوقب المسيحيون الذين ردوا على قوانين الإمبراطور بالعنف أو الإهانة عقابا صارما ، أما الوثنيون الذين لجأوا إلى العنف أو الإهانة فى معاملة المسيحيين فقد عوملوا باللين ، من ذلك أن العامة من الوثنيين من أهل الإسكندرية كانوا يحقدون أشد الحقد على جورج الأسقف الأريوسى الذى اغتصب كرسى ، أثناسيوس لأنه أثار حفيظتهم بموكب عام سخر فيه من الطقوس الميثرائية (٢٥٨) ، فقبضوا عليه ومزقوا جسمه إربا ، ومع أن المسيحيين كانوا قلة لا تستحق الذكر لم يهتموا بالدفاع عنه فقد قتل أو جرح كثير من المسيحيين ، فيما صاحب هذه الفتنة من اضطراب ، وأراد جوليان أن يعاقب من أحدثوا الشغب ولكن مستشاريه أقنعوه بأن يكتفى بإرسال خطاب احتجاج شديد إلى أهل الإسكندرية ، ومن هذا الوقت خرج أثناسيوس من مخبئه واستعاد كرسى أسقفيته ، وكان جوليان قد أنكر عليه هذا العمل قائلا إنه لم يؤخذ رأيه ، وأمر أثناسيوس أن يعتزل منصبه وصدع الأسقف الشيخ بالأمر ، لكن الإمبراطور توفى السنة التالية وعاد البطريرك إلى كرسيه مثقلا بمظاهر الشرف (٢٥٩).

لم يحقق الإمبراطور أمله فى بعث الوثنية ، وكانت صحوتها قصيرة كحياته إذ قتل أثناء وجوده وسط جيشه فى أراضى الفرس لقتالهم ، ولقد قتل بسهم مسموم قيل أن الذى أطلقه مسيحى للتخلص منه ، وسعد المسيحيون بوفاة الإمبراطور .

ولقد عادت المسيحية مع جوفيان بعد مقتل جوليان وأعاد رفع علم الصليب بعد أن كان جوليان قد أزال اسم المسيح منه ، وأرسل منشورا إلى الحكام يقر الديانة المسيحية ويلغى مراسيم جوليان ، وأعاد للكنيسة من امتيازاتها ، ونظر المسيحيون بعض الوقت إلى الجانب الذى سينحاز إليه الإمبراطور من المذاهب المسيحية المتصارعة ، ولكنه نصح أصحاب الفئات المختلفة بالتوافق وترك الخلاف ، ثم أعلن ميله إلى مذهب نيقيه بإعادته أثناسيوس إلى بطريركية فى الإسكندرية (٢٦٠).

تولى فالنتنيان فى الغرب وفالنز فى الشرق واختلف الأخوان فى مذهبهما ؛ فالنز أريوسى وفالنتيان من أتباع مذهب نيقيه ، وللمرة الرابعة أصبح أثناسيوس فى نظر الإدارة البيزنطية يمثل قوة شعبية لا يستهان بها .

ولكن الوئام عاد بين الإمبراطورية والكنيسة المصرية ومسيحى مصر فى عهد أسرة ثيودسيوس الأسرة الحاكمة الجديدة ، وفى عهد ثيودسيوس الأول أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة فى ٣٨٠ م ، وأصدر الإمبراطور مرسوما يأمر أتباعه بقبول العقيدة الصحيحة ، وهى التى أقرها مجمع نيقية ، والتى وافق عليها آباء روما والإسكندرية ، وأمر بتسليم الكنائس الأريوسية إلى القسطنطينية للأرثوذكس ، ومنع الهراطقة من تملك أماكن دينية فى العاصمة وعقد مجمعا فى ٣٨٠ م قرر أن بطريرك القسطنطينية يلى أسقف روما فى المكانة ولكنه منع الكنيسة من حق إيواء المذنبين لما ترتب على هذا الحق من مساوئ لدخل الدولة ولهروب البعض مما عليهم من أعباء لدخول الكنيسة .

ولقد أمر الإمبراطور بإغلاق جميع المعابد الوثنية وأماكن العبادة ، فقامت موجه من العنف ضد الوثنيين والمعابد ، وقام البطريرك ثيوفولس ومعه جموع الرهبان بتدمير المعابد الوثنية فى العاصمة الإسكندرية ، ولقد دمر معبد السرابيوم آخر المعاقل الزاهرة للفكر اليونانى والحضارة ومكتبة الإسكندرية الشهيرة ، فقد اعتبروا المعبد من بقايا الوثنية والتى تحمل فكرها ، ونظروا إليه من منظور محدود فاعتبروه أحد المعالم الوثنية الرئيسية التى يجب التخلص منها ، وبذلك فقدت الإسكندرية مكتبتها الشهيرة[٢٦١] .

كان من الصعب التحكم فى الاندفاع الدينى ، فهنا المسيحية فى نظرهم تواجه الوثنية ومنشآتها التى طالما اضطهدتهم ، فلقد اعتبروا الفكر والثقافة اليونانية الوجه الآخر المرادف للوثنية ، فمن هنا كان الموقف العنيف ضدها ، بل امتد هذا إلى كل من تأثر بها حتى لو كان مسيحيا كما حدث مع العالم اللاهوتى القدير أورجين ، فلقد وجهت له اتهامات فى قرون تالية من البعض بسبب أخذه بالفلسفة ، بل حرم فى بعض المناطق .

ولقد بدأ منذ هذا الوقت مطاردة الوثنيين فى مصر وحرمانهم من الوظائف وتدمير معابدهم ، ويذكر المؤرخ يوحنا الأسيوى أنه ظهرت وظيفة هى المفتش عن الوثنيين [٢٦١] .

ولقد أثيرت فى عهد هذه الأسرة مشكلة حول طبيعة السيد المسيح كان طرفاها بطاركة ورهبان الإسكندرية كطرف ، ورجال الدين فى العاصمة القسطنطينية ومن تبعهم ، وانعكست آثاره على مصر كلها ، وانتهى بانفصالها مذهبيًا عن الإمبراطورية وما تبع ذلك من نتائج أثرت فى المجتمع المصرى وأدت إلى انغلاقة على نفسه ، واختيار لغة وفكر تباعد مع فكر الشرق البيزنطى .

فقد تولى ثيوفلوس فى ٤١٢ م وخلفه فى أسقفية الإسكندرية كيرلس ، وكان كيرلس مندفعا فى أعماله وأفكاره مع ميل إلى العنف ، والذى كان ينبع من رغبة فى استبعاد كل العناصر غير المسيحية من مصر، ولقد قام بطرد اليهود من الإسكندرية ، ولم يعتمد على جنود الحامية العسكرية ، بل اعتمد على عامة المدينة والرهبان فى الصحراء الغربية بوادى النطرون قرب الإسكندرية ، ولقد استغل البعض محاولته متابعة اليهود والوثنيين ، فقامت الغوغاء بنهب بيوت الأثرياء وانتشر الاضطراب فى المدينة وعجز الوالى ورجال الجيش عن إخماد هذه الاضطرابات ، ولقد ضاق كيرلس بمدارس الفلسفة فى الإسكندرية باعتبارها مركزًا للفكر الوثنى فى رأيه . ومن أبرز الشخصيات الفكرية فى الإسكندرية كانت هيباشيا والتى اشتهرت بعلمها وثقافتها وآخر الوجوه اللامعه فى جامعتها ، وكان يؤم دروسها الشباب من المسيحيين والوثنيين ، وكان من تلاميذها سينيوس أسقف قورنية ، وكانت لها علاقات طيبة مع كثير من علية المدينة حيث اتهمها كيرلس بتحريض الوالى ضد المسيحيين مما آثار عليها المسيحيين .

وظل هذا الجو غير المستقر والمفعم بالاضطراب فى المدينة والتى عجز الوالى عن مواجهة الجموع ولا التحكم فى أهلها دائمى الثورة ، وقام جماعة من المتعصبين بقتل هيباشيا بطريقة عنيفة بالمحار فى عام ٤١٥ م ولم تهدأ الأمور إلا عندما أرسل الإمبراطور بعثة للتحقيق (٢٦١).

على أن من أهم ما تميزت به فترة كيرلس على المستوى الدينى فى العلاقة مع بيزنطة هو نشأة الصراع ، فمنذ أن أعلن ثيودسيوس فى ٣٨٢ م جعل كنيسة القسطنطينية بمثابة الكنيسة الرسمية الأولى للإمبراطورية الشرقية وأصبح أسقف القسطنطينية بمثابة المتحدث الرسمى عن وجهه نظر القصر الإمبراطورى من الناحية الدينية .

وفى أواخر القرن الرابع ظهر فى أنطاكية مذهب يرى أن المسيح طبيعتين منفصليتين ، وأن المسيح يعتبر ابن مريم ، وعلى عكس هذه النظرية كانت نظرية الإسكندرية أن الله جعل المسيح تتحد فيه الطبيعتان البشرية والإلهية وكانت أشهر النظريات هى نظرية Apollinari الذى قال أنه لا يمكن أن يتحد فى المسيح إنسان كامل وإله كامل ، ولأن هذا الأتحاد يؤدى إلى عدم تناسبه فذكر أن المسيح ليس برجل كامل وإنما هو اختار أو تبنى طبيعة بشرية ولكنها لا تشمل الإرادة الحرة التى تتميز مع ربوبيته(٢٦٣) .

ولقد تفجرت المشكلة فى عهد ثيودسيوس الثانى حين توفى بطريرك القسطنطينية سنيوس وترك للإمبراطور أمر اختيار خليفة له ، فاختار نسطوريوس تلميذ مدرسة أنطاكية الذى رفض مذهب امتزاج العقيدتين وأن لا فرق بين بشرية سيدة المسيح وبين ألوهية الرب، وكان يبجل ويقدس العذراء على أنها أم المسيح ، وبدأ يهاجم فى كنيسة القسطنطينية استعمال كلمة أم الله وأدان نظرية أبوليناروس ، وقام بطريرك الإسكندرية كيرلس بمعارضة هذا الرأى ، وكان الرهبان خلف كيرلس يؤيدونه .

ولقد ذكر أن من الطبيعى أن يتحد فى المسيح الطبيعتان ولا تنفصلان Hypostatic ، فالطبيعة البشرية لا تنفصل عن الإلهية وأن العذراء أم الإله فاقترب من نظرية أبوليناروس الذى نفى وجود طبيعة بشرية منفصلة فى المسيح ، ولكن يتميز عنها فى وجود طبيعتين منفصلتين ، واتفقا على أن المسيح له طبيعتان ، وكان الاختلاف حول نوعية الطبيعتين ، كيرلس يرى أنها اتحاد ونسطوريوس يرى أنها تماس Contact ، وكان لكيرلس سلطات واسعة فلقد استغل بعده عن البلاط الإمبراطورى ورئاسته لعاصمة ضخمة ، فأخذ مكانة الحاكم المدنى وتصرف فى صدقات المدينة العامة والخاصة ، ولقد اشتكى الوالى أورسيتس من تدخل البطريرك فى سلطاته ، ولكن لم يهتم وزراء ثيودسيوس بشكواه بل زاد نفوذ كيرلس ، حيث اعتدى على الوالى . وكان كيرلس يخشى من زيادة نفوذ القسطنطينية بعد أن أصبحت الكنيسة التالية بعد روما .
ولقد أرسل كيرلس الذى أصبح أهم شخصية فى العاصمة الإسكندرية لبابا روما كليستين ولثيودسيوس وبوليكريا اخته وأودكسيا زوجته وأيد البابا كيرلس ، ولكن الإمبراطور كان فى جانب نسطوريوس ، وقام الإمبراطور بدعوتهم للتسامح ، ولكن

كـان فى خطابه يميل لنسطوريوس ، وقـرر الإمـبـراطور عـقـد مـجـمـع دينى وأعلن نسطوريوس عقيدته فى القسطنطينية ، وفى الوقت نفسه راح كيرلس فى الإسكندرية يهاجمها ويعارضها ويعمل جاهد على بلورة الفكرة المعارضة على أساس من الفقه الدينى ليروج لها فى مصر وخارج مصر (٢٦٤) .

وعقد مجمع أفسوس ٤٣٠ بناء على نصيحة نسطوريوس وحضر ومعه جيش من رجاله ، وكان قد عقد اتفاقا مع أسقف أفسوس ممنون ، وهو يلى أساقفة آسيا والذى ضم إليه حوالى أربعين أسقفا ، ولقد تأخر أسقف أنطاكية المؤيد لنسطوريوس وعدد من أتباعه فى الحضور ، فعقد كيرلس المجمع قبل حضورهم واتهمهم بتعمد التأخير وطرد الوالى كانديان الذى طلب التأجيل وأدين نسطوريوس وعزل، وظهر حينئذ مندوبو البابا الذين أيدوا القرار، وأدين نسطوريوس على يد حزب كيرلس ، وكان المكان الذى فيه نسطوريوس محاطا بالجند لحمايته وخوفا على حياته من حزب كيرلس ، وانتصر كيرلس على بطريرك العاصمة .

ولقد بلغت كنيسة مصر فى عهده أقصى ما بلغته من نفوذ منذ أيام أثناسيوس بل زاد نفوذه على الحاكم الإمبراطورى ، ورغم أن أساقفة الشرق الذين وصلوا بعد انتهاء المؤتمر جردوا كيرلس وممنون من مقامها الأسقفى ولكن لم يستجيبا لهذا الأمر ، وكل ما فعله الإمبراطور أن قال فليشهد الله على أنى لم أكن خالق هذا الشغب، والله يعلم من المذنب ويوقع به القصاص فعودوا إلى ولايتكم ، وإنّا لندعو الله أن يجعل من فضائلكم الخاصة ما يعوض الضرر والعار الذى أحدثه اجتماعكم " فالإمبراطور أراد ألا يقحم نفسه فى الخلاف حتى لا تزداد المشكلة مع ميله لنسطوريوس وإن كان قددس له البعض عند الإمبراطور فقبض عليه (٢٦٥) .

ولقد بقى كيرلس كبطريرك بمكانة عالية فى الإسكندرية حتى نهاية حياته سنة ٤٤٤ وخلفه ديسقورس ٤٤٤ - ٤٥٠ ، وفى الوقت نفسه زاد نفوذ ممثل حزب الإسكندرية فى القسطنطينية أوتيخا لدى الإمبراطور، ولكن الاتحاد بين روما والقسطنطينية تسبب فى الحد من نفوذ الإسكندرية ، فقد كان ديسقورس وأوتيخا أكثر تطرفا من كيرلس فى نظريتهم فقالوا أن المسيح له طبيعة واحدة إلهية، ولقد تمتعوا

بتأييد أصحاب النفوذ فى العاصمة وهو الخصى Chrysophus، وعارضهم فلافيان أسقف القسطنطينية الجديد الذى بعث فكرة النسطورية من جديد ودعا الإمبراطور إلى عقد مجمع أفسوس فعقد مجمع أفسوس الثانى ٤٤٩ م والذى أطلق عليه البعض المعارض للكنيسة المصرية اسم مجمع اللصوص [٢٦٦].

وأعلن فيه البابا ليو اتفاقه مع بطريرك القسطنطينية أن المسيح المتجسد شخص واحد له طبيعتان متميزتان ، ووجدت روما نفسها إلى جانب القسطنطينية ، ومع ذلك انتصرت الإسكندرية ، وأرسل البابا ثلاثة مبعوثين ، ولكن رسائله لم تصل ومنع الأساقفة من التصويت وقرروا عزل فلافيان وتأييد نظرية نيقية ولقد أحاط الرهبان بأبواب الكتدرائية وهددوا المجتمعين لصالح الإسكندرية ، بل اقتحموا المجمع هم والجنود بناء على رغبة ديسقورس ووقع المجتمعون من الفريق المعارض تحت التهديد وقرر المجمع وأدانه فلافيان وهوجم وفى الوقت نفسه تعرض للضرب ، ولم يلبث أن مات بعد أيام، ولكن البابا لم يرض عن إهانته فى شخص مبعوثيه وألغى قرارات مجمع أفسوس وطلب من فالنتيان الثالث عقد مجمع فى أنطاكيا ، ودعا ثيودسيوس للموافقة على ذلك ، ولكن كان موقف ثيودسيوس مختلف فتحت ضغط أوصيائه ذكر أن الكنيسة فى سلام وأن ما حدث ضد فلافيان وأن ماحدث كان موقفًا ضد فلافيان فقط " بل زاد نفوذ ديسقوس، وحرم البابا ليو وفى العام التالى توفى ثيودسيوس الثانى وخلفه مارقيانوس الذى قرر إلغاء قرارات مجمع أفسوس [٢٦٧].

وكان مجمع أفسوس يعتبر أكبر انتصار لكنيسة الإسكندرية ضد الإمبراطورية وبطاركتها ، وأصبح نفوذ بطريركها أعلى نفوذ دينى ، فقد عين بطريرك القسنطينية Anatolias بفضل مجهودات ديسقورس ، ولكن الموقف اختلف مع مارقيان الذى أراد حل المشكلة التى نتجت عن المجمع السابق "أفسوس" وأثارت غضب البابا والتى رأى أنها أهانت الإمبراطورية ، وأن تلك المجامع تهدد سلام الإمبراطورية وأفقدتها هيبتها وشتتت قواتها التى كان مفروضا أن توجه إلى أعدائها .

ورغم ذلك فتلك المجامع أعطت كلا الشطرين نوعا من الوحدة[٢٦٨]، وكتب مارقيان إلى البابا ليو يستجيب لدعوته ، وعقد مجمع دينى فى خلقدونية ٤٥١ م حضره

ستمائة وثلاثون من الأساقفة ، ومندوبون عن البابا والإمبراطور وأدين ديسقورس رغم تأييد بطريرك القسطنطينية الذى كان صديقًا له، ولم يكن الإمبراطور يستطيع أن يصنع قرارًا يتفق مع نظرية البابا الكنسية تماما ، وإلا أثار عليه عداء الكنائس الأخرى، فأوجد صيغة يرضى عنها البابا والكنائس الشرقية ، وتألفت لجنة من ثمانية عشر اسقفا قامت بوضع قرار أدان كل من المنوفزيته المصرية والنسطورية ، وكانت النظرية وسطا بين الاثنين ، فالمسيح له جانب إلهى كامل ، وجانب بشرى كامل فهو من أقنوم واحد ، ولكنه من طبيعتين مختلفتين وكان هذا انذارا بانهيار المكانة التى حصلت عليها الإسكندرية وبطاركتها ، وفلقد بدأت الدولة تتخذ موقفا حادا منهم لتحد من مكانتهم وتصرفاتهم ، وكان القرار موضع كراهية النساطرة " وإن كان من النساطرة أقل عددا" وأتباع مذهب الإسكندرية على حد سواء ، ولكن أهل الإسكندرية من اليعاقبة أعلنوا اعتراضهم ، وأعلن المنوفزيته كل من أهل مصر وسوريا واستغلال الكنيسة القبطية . ولقد حوكم ديسقورس أمام المجمع وصدر حكم بعزله من منصبه ، لا بسبب موقفه العقائدى ولكن وجهت إليه تهم لسلوكه وصدر الأمر بنفيه إلى جانجرا بآسيا الصغرى حيث توفى ٤٥٤م، ولقد أرسل الإمبراطور بروتريوس ليخلف ديسقورس وبمجرد سماع أهل الإسكندرية لنبأ وفاة مارقيان قتلوا البطريرك الذى عينه الإمبراطور، وفى سوريا أجبر أسقف بيت المقدس على الهرب [٢٦٩].

ويشير إلى ذلك أحد الأساقفة يقول " فى عهد قنصلية فيتانيتوس تملك شعب الإسكندرية وشعب مصر كلها جنون عجيب شيطانى فالكبار والصغار والأرقاء والأحرار والرهبان والكهنة وسكان البلاد الوطنين الذين عارضوا مجمع خلقدونية كل هؤلاء فقدوا عقلهم وقدرتهم على التعبير" [٢٧٠] .

فمن الواضح أن الجميع اتحد ضد الدولة البيزنطية التى مست قوميتهم فى إهانة معتقدهم الدينى ورجاله وإجبارهم على الموافقة على مالا يأمنون به ، ولقد وجد المصريون فى المشكلة الدينية متنفسا عن شعورهم بالرفض تجاه الحكم البيزنطى ، ويقال أن هذا الرفض سهل فتح العرب المسلمين لمصر .

ومن النص السابق يتضح أن جميع فئات الشعب اتخذت نفس الموقف ؛ فلقد ذكر الأقباط وسكان الإسكندرية الأحرار والعبيد ومن الواضح من النص أن الإسكندرية مازالت تعتبر نفسها شيئا مميزا عن السكان الوطنيين .

ولقد قام المنوفزتنيين من أهالى مصر بثورا ت ضد بيزنطة مصحوبة بالعنف ، وبعد قتل البطريرك بروتريوس الذى عينه الدولة ومثلت بجثته وعينوا بطريركا هو تيموثى Timothy Aluru وأرسلوا إلى ليو يدعونه لعقد مجمع دينى جديد ولما سأل الإمبراطور ليو أساقفة روما والقسطنطينية وأورشليم عن رأيهم رفضوا هذا المطلب وأدانوا تيموثى وشيعته .

ويذكر فالنز " إن مصر اجتاحتها موجة من القومية دفعت بها إلى التباعد وتم فصلها عن بقية البلاد المسيحية ، وإن ذكر أن هذه العزلة أدت إلى جعل دساتيرها مختلفة عن الباقين " ولكنها كانت تعبيرا ذاتيا عن رفض قهر كافة المصريين تحت حكم أجانب ، وأصبحوا يتدخلون فى أحد مكوناته الرئيسية وهو الدين ، وهو ماحاول تجنبه البطالمة ثم الرومان بعدم الإساءة إلى آلهة المصريين ، ولكن حينما حلت المسيحية وحاولت الدولة فرض رأيها أثارت الغضب على مستوى العاصمة والشعب وفجرت سنوات ضغط من أنظمة مالية مجحفة وتميز اجتماعى ، وأصبحت ظاهرة واضحة أن الأباطرة كثيرا ما يعزلون البطريرك المصرى ويعينوا بطريركا آخر مكانه بدعوى أنه مخالف للإيمان ولكن الشعب كان يحمى البطريرك المصرى بقوة مسلحة ليمنع دخول البطريرك عنوة ، وإذا دخل يرفض المصريون أن يعاملوه كبطريرك ، ولقد أقدموا فى أحد الثورات على قتل أحد البطاركة الحكوميين وهو جورجيوس القبادوقى .

وأثناء الصراع بين زينون وباسيلكوس على العرش أعلن باسليكوس المغتصب تأييده للمنوفزيتن فى مصر ومعارضته لمجمع خلقدونية وقراراته وقرارات ليو مما آثار عليه غضب الشعب والرهبان فى القسطنطينية، فاضطر للتراجع فى قراره وأدى هذا إلى اشتعال الثورة ضده سواء من جانب القبط أو المجموعة الأرثوذكسية فى العاصمة ، ولما استعاد زينون عرشه حاول التوفيق بين المنوفزيته ومذهب الدولة باتفاق مع بطريرك العاصمة اكاكيوس Acacius ومستشاره Peter Mangus المنوفزيتى ، وأعلن زينون

مرسوم التسامح الشهير الذى عرف باسم **Henotikon** فى خطاب موجه إلى كنيسة مصر ٤٨٢ م ، ولقد اعترف بالمجامع الثلاثة السابقة ، وإن كان قد تجنب ذكر طبيعه واحدة أو طبيعتين وذكر أن كل من نسطوريوس وأوتيخوس على حق ، وفى الوقت نفسه الذى أكد على صحة نظرية نيقية والقسطنطينية وحرم كل من يعتنق نظرية أخرى خلقدونية أو غيرها ، وفى البداية رحب المنوفزيت بالقرار ، ولكن مالبثوا أن رفضوه كما رفضه فى البداية أهل القسطنطينية وعارضه البابا سيمليوكس وحرم البطريرك أكاكايوس ، بطريرك الإسكندرية ورد هذا بإزالة اسم البابا من الصلاة .

وكان من أهم القرارات التى أكدتها صيغة الوفاق حق الإمبراطور فى تقرير العقيدة .

وفى عهد أنستاسيوس اختلف الوضع ورغم كفائته فى إدارة الإمبراطورية ، ومع ذلك لم يلق حكمه شعبية بالنسبة لأهل القسطنطينية لعدم ميله إلى الأرثوذكسية ، وتأييده النحل الشرقية ، فقد كان من مؤيدى المنوفزيته ، وربما مرجع هذا إلى أمه الأريوسية ، ولقد عارض زكريا مينوكس أنه منوفزيت .

فى البداية اعترف بالأرثوذكسية كما وردت فى مرسوم الوفاق الذى أصدره زينون ، ولكن كان أشد المتحمسين للمنوفزيته، ولقى موقفه تأييدا من الأقباط ومن السوريين ، وتسبب هذا فى إثارة غضب أهل القسطنطينية ، ولقد ثارت فتنة ٤٩٣ م كادت تكلفه عرشه ، وسبب الفتنة أن البطريرك **Euphenous** إيفونيوس بطريرك القسطنطينية الذى قد عارض تولى أنستاسيوس العرش ، وأرسل بطريرك القسنطينية إلى بابا روما فيلكس الذى كان من أنصار خلقدونية ، وكان ضد أسقف الإسكندرية وأورشليم وهما من أنصار الإمبراطور اللذان قاما بدورهما بإخبار الإمبراطور أن البطريرك متهرطق ويعمل ضده ، وعقد أنستاسيوس مجمعا أيد صيغة التوفيق وعزل ٤٩٦ م وأدى هذا إلى نشوب شغب كبير فى القسطنطينية اشتركت فيه فرق السرك من الزرق والخضر ، وخاصة أن الخضر كانوا من مؤيدى المنوفزيتة فى حين كان الزرق من أنصار الأرثوذكسية ومذهب القسطنطينية ، ولقد طالب الزرق بعودة البطريرك ولكن لم يستجب وعين مقدونيوس ، وفى ٥١١ م لقى البطريرك مقدونيوس مصير سابقه فقد اتهمه

المنوفزت بالتآمر ضد الإمبراطور بسبب وصول راهب منوفزتي هو سفريوس سوزبوليس ومعه مائتان من الرهبان وآثاروا الشعور بترانيمهم وكادت الثورة تكلف الإمبراطور عرشه، وقام إمبراطور مناوئ وكان في الوقت نفسه ثارت مشكلة في أنطاكية بسبب عزل بطريرك أنطاكية فلافيان وانتخاب سفريوس أحد زعماء المنوفزيتية ، وعقد مجمع في صور ٥١٣ م ألغى قرارات خلقدونية وأكد قرار التوفيق بعد تحويره في صيغة منوفزيتيه ولقد أمر الإمبراطور والي فينقيه عدم استخدام سياسة العنف لكنه طبق على يد المنوفزت مما زاد من اشتعال الخلاف.

وأعلن الإمبراطور المناوئ وادعى أنه بطل الأرثوذكسية اليونانية واضطر الإمبراطور للتراجع عن سياسته المنوفزيته ولقد توفي دون أن يترك وريث[٢٧١] .

وفي عهد جستنيان كان هدف الإمبراطور هو الهدف العام لغالبية الأباطرة ، توحيد العقيدة لاستتباب الأمن والنظام بالدرجة الأولى في الإمبراطورية. ولقد قرر جستنيان جعل البطريرك الملكاني يجمع إلى جانب وظيفته الكهنوتية منصب الوالي المدني فيجتمع لديه السلطتان معا ، ولما كانت جميع كنائس الإسكندرية في أيدي هؤلاء الدخلاء فإنهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطاركة والأساقفة الدخلاء الأقباط وأن يمكنوهم من الدخول ، وأرسل الإمبراطور أمره بإغلاق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب القبطي مكانا للصلاة ، فبنوا كنيستين سرا في المكان المعروف باسم الوادي غرب الإسكندرية ولم يبق للبطريرك القبطي المنفي سوى هاتين الكنيستين ، لأن الإمبراطور أمر بألا يدخل كنائس الإسكندرية إلا أتباع البطريرك الدخيل[٢٧٢].

يعطي ول ديورنت وصفا للوضع في مصر آنذاك وأنه بلغ من كثرتهم في الإسكندرية (المنوفزت) إذْ انقسموا هم أيضا إلى طائفتين يعقوبيتين ، إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخرى لا تؤمن به ، – اعتقد أن هذا موضع شك – وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينما كانت نساؤهم يتبادلن القذائف من سطوح المنازل ، ولما أجلست قوات الإمبراطور المسلحة أسقفا كاثوليكيا في كرسي أثناسيوس ، كانت أول تحية حياه بها المصلون أن رجموه بوابل من الحجارة ، ثم قتله جنود الإمبراطور وهو جالس على كرسيه وبينما كانت الكثلكة تسيطر على أسقفية

الإسكندرية كان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة فى ريف مصر ، فكان الفلاحون لا يأبهون لقرارات البطريرك أو بأوامر الإمبراطور ، وكانت مصر قد خرجت عن الطاعة وأوشكت أن تخرج عن طاعة الإمبراطورية قبل أن يفتحها العرب بقرن كامل " (٢٧٣) ، كلام ديورنت يعكس الحالة فى مصر وكيف أن سكان العاصمة غلب عليهم العنصر الوطنى وفى مصر كلها أصبحوا لا يأبهون بالبطاركة الذين تعينهم الدولة أو بمذهبها ، وأنّ الحالة بلغت درجة من السوء ومن عدم الاستقرار ، أما فيما يتعلق بانقسام اليعاقبة فمن الممكن هناك خلافات ، ولكن لن ترقى إلى إنكار الكتاب المقدس ولكن ضعفت حدة الصراع والرفض لسياسة الإمبراطور ، وموقف زوجته ثيودورا التى تميل إلى المذهب المنوفزيتى حيث قضت فترة فى مصر واعتنقت المذهب قبل زواجها من الإمبراطور .

ويذكر ديورنت أن ثيودورا اتفقت مع شماس رومانى يدعى **Vigilius** أن تنصبه بابا إذا قبل بعض مطالب اليعقوبيين، وأثمرت هذه المؤامرة ثمرتها فأخرج بلزاريوس قائد جستنيان البابا سلفريوس من روما ٥٣٧ م ونفى إلى جزيرة صقلية **Palmria** حيث مات نتيجة لما لقيه من قسوة (٤٧٤) ، ونصب فيجيليوس بابا فى مكانة بأمر الإمبراطور وقبل جستنيان رأى ثيودرا القائل بأن مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه ، فحاول أن يسترضى أتباعه بوثيقة دينية إمبراطورية تعرف باسم الفضول الثلاثة ثم استدعى بفيبليوس إلى القسطنطينية وألح عليها أن يوافق علها فوافق على مضض.

ولكن بوفاة ثيودرا عاد لسياسته الأولى فكان فى رأيه أن يكون رؤساء الكنائس الأساسية فى الإمبراطورية على المذهب الملكانى ويعتبرون كممثلين للإمبراطور، حتى لا يتمكن أسقف محلى من معارضة الإمبراطور كما حدث من قبل، ونظرا لمقاومة المصريين لهذا الاتجاه وصعوبة العثور على أسقف مصرى قبل هذا الوضع ، وإذا وجد فمن العسير إتمام مراسم التعيين الدينية دون ثورة المصريين عليه قبل أن يرسم ، فكان جستنيان يختار من يشاء ويجرى له المراسيم الدينية فى الخارج ثم يرسله إلى الإسكندرية فى حراسة قوة عسكرية تفرضه على الكنيسة فرضا ، ومع ذلك فإن سائر المصريين بقوا على مذهبهم ولكن دون أن تكون لهم الصدارة التى كانوا يتمتعون بها

زمن كيرلس وديسقورس واستمر هذا فى عهد خلفاء جستنيان من مقاومة للأسقف الملكانى وعدم تقبله فى مصر.

وحين أعلن هرقل شعار الثورة انحاز المصريون إلى جانبه ، ولكن عادوا إلى الضيق من الأساقفة الملكانية الذين أرسلهم إلى مصر ، رغم محاولته إلى الوصول لصيغة للتفاهم مع الأقباط المصريين .

وفى عهده استولى الفرس على مصر وسوريا ثم استعادهما هرقل، وعاود هرقل جهوده فى التفاهم مع الأقباط على عقيدة دينية واحدة على أساس إدخال فكرة جديدة وهى بدعة الإرادة الواحد فى المونوسلثية ، ولكن المصريين لم يكونوا مستعدين لتقبلها والتفاهم بأى حال ، فعين هرقل أسقف ملكانى للإسكندرية كيرلس المعروف باسم المقوقس فى المصادر العربية ليكون بطركا ووالى أيضا ، وكان المقوقس هذا معروفا بقسوته وكراهيته لأصحاب الطبيعة الواحدة ومنحه الإمبراطور سلطات مطلقة لتحقيق سياسته فى مصر، فأطلق على المصريين حمله من الاضطهاد العنيف مما زاد من كراهية المصريين ونفورهم من الحكم الرومانى ، ولقد هرب البطرك المصرى بنيامين من اضطهادهم وأنهى الفتح الإسلامى الخلاف .

الرهبـــنة :

كانت الرهبنة هى هدية مصر للمسيحية ، وهو نظام مصرى خالص ، ولقد لعب الرهبـان دورا رئيســيا فى التاريخ الدينى والسـياسى والحضــارى لمصر ، فكان منهم بطاركة الإسكندرية ورجال الدين الذى حظوا بشعبية وتأثير قوى على جموع العامة .

فنموذج حياتهم من التنسك والبعد عن مباهج الحياة جعلت لهم مكانة خاصة فى نفوس المصريين عامة ، ولقد خرج الرهبان وجموعهم لتأييد رؤسائهم فى صراعهم مع الدولة رافضين كل ما هو يونانى ثقافة وفكرا متمسكين باللغة الخاصة بهم ، وهى

القبطية منذ عهد الأنبا شنودة الأخميمى ، ورغم أنهم لم يكونوا على قدر كبير من الثقافة فى مجملهم وإن كان هذا لا ينفى من وجود بعض رهبان على قدر من الثقافة العالية ، فقد كان تأثيرهم على أحداث العصر ملحوظ.

والسؤال هنا ، ما الذى دفع المصرى للانخراط فى سلك الرهبنة؟ هناك دوافع طبيعية فى تكوين شخصية المصرى الذى يميل إلى التدين بطبعه ، بالإضافة إلى الطابع الجغرافى للأرض المنبسطة ، وطبيعتها من فيضان ومواعيد وزراعة جعله أقرب إلى الارتباط بالخالق وكون لديه قدر من القدرية والصفاء، ثم الصحراء وامتدادها أعطاه نوع من الشفافية (٢٧٥) .

وهناك دوافع فى المسيحية فى أنها وما حوته من تعليمات تمس الحياة الروحية والبعد عن الماديات ، وفى الإنجيل وأقوال المسيح وجدوا ضالتهم " إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء " متى ١٩ : ٢١ وكذلك حياة المسيح نفسها بما تضمنته من تبتل وعزوف عن الزواج ومتع الحياة (٢٧٦) .

ثم الاضطهادات التى شنها الأباطرة الوثنين من عهد دكيوس إلى دقلديانوس ألجأت أعدادا من المسيحيين إلى الفرار بدينهم من الاضطهاد فلجأوا إلى الصحراء وقلاليها للاختباء .

وبعد فترة الاضطهاد سارع عدد من الأفراد إلى الانضمام لهذا النموذج، ورغم وجود بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية سواء فى مصر أو خارجها كفقراء الهنود والحركات الانعزالية التى قامت فى صعيد مصر فى السرابيوم وفى ممفيس ، والنساك من بين كهنة هليوبولس ونساك مصر العليا وحركة الأسنيين اليهود أو نظام الالتجاء للمعابد اليونانى ، ورغم أن هذه الجماعات قد مارست بعض أشكال الزهد بدرجات مختلفة وكانت هى النموذج الذى اجتذب النساك الأوائل (٢٧٧) ، ولكن العلاقة بينهما ضئيلة لأن تلك الحركات مجرد تجمعات محصورة فى أفراد المجتمع الذين تشبعوا بالروح اليونانية الكلاسكية ، وكان فلاسفتهم على المستوى فكرى بعيدين عن نطاق معرفة المصريين. ولم يكن الرهبان الأوائل لظروفهم البيئية والعلمية يمكنهم من الإطلاع والسماع عن هذه الحركات لتقليدها .

وبالنسبة للانعزال يقول تريليتان " أما من حيث المسألة الجنسية فإن المسيحى يقنع بالمرأة وكان المسيحيون يرفضون ملذات الحواس وينظرون بعين الريبة إلى الموسيقى والخبز الأبيض والخمور الأجنبية والحمامات الدافئة وحلق اللحية ، وكان الزواج فى تلك القرون لايزال من النظم المدنية ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها وأخذت تطالب الزوجين به فرفع إلى عقد مقدس (٢٧٨) فالمسيحية الأولى طالبت الجميع بنوع من البعد عن الاستغراق فى المتع الإنسانية .

ولقد بدأت الرهبنة برهبنة فردية حيث ينفرد الراهب فى مغارة يقضى فيها حياته منعزلا عن البشر ، ولكنها فى عهد أمونيوس ومكاريوس تطورت فصار الرهبان يشتركون ويتعاونون معا ، ثم فى عهد باخميوس وشنودة اجتمعوا اجتماعات منظمة ووضعوا لأنفسهم سننا وقوانين خاصة يسيرون عليها غير أن بعضهم استمر يسير على نظام بولاو أنطونيوس (٢٧٩).

وكان رهبان مصر ثلاثة أنواع ، النساك الذين يسكنون أديرة جماعات وفئات ، والزهاد وهم الذين يعيشون فى الخلوات والصوامع ، والمتبتلون الذين يجتمع اثنان أو الثلاثة منهم فى المدن بدون زواج .

وعن نشأة التجمعات الديرية الأولى يقول أيفلن هوايت الذى رسم خريطة لنشأة التجمعات الرهبانية الأنطونية الأولى ، وتكلم عن أشكال الأديرة فى وادى النطرون والذى اعتمد فى تدوين ملاحظاته على المصادر الأدبية، ولكن من السهل الآن مطابقتها على الدليل الأثرى الذى عثر عليه فى عدد من المواقع ، وكانت التغطية المركزية الأولى التى تعود إلى نشأة مجمع رهبانى هى مسكن ناسك متوحد مشهور ، حيث يتحول إلى مزار لتلاميذه بعد وفاته وبصرف النظر عن نماذج جبال نيتريا أو الأسقيط وسيليا فإننا نجد تكراراً لهذا العملية فى دليل أبيفانوس حيث تشكل التجمع الابتدائى حول مغارة مؤسس الدير (٢٨٠).

وكانت الكنيسة أبرز المعالم بين كل مجموعة من القلالى ، وبعد ذلك أضيف مكان لتناول الطعام فى أواسط القرن الخامس حتى أواخره ، وأضيف برج الحماية إلى واحد على الأقل من الأديرة فى وادى النطرون (٢٨١) ، وسرعان ما أصبح من المعالم العادية

فى الأديرة الأخرى بالرغم من أننا نشك فيما إذا كانت التجمعات الأصغر من النساك قد سمحت لنفسها بالتمتع بمثل هذه الرفاهية .

أما عن بدايات الرهبنة فلا يوجد سجل كتابى إلا مع بداية القرن الرابع . وأول النساك كان فرويتونتيوس ١٣٨ - ١٦٨م ، وكان أحد رهبان صحراء نيتريا ، وكان ممن اعتنق الرهبنة فى مصر السفلى قبل انتشارها، وأول من فكر فى معيشة العزلة بهذه الصحراء كما ذكر Curzon فى كتاباته زوار أديرة الشرق ، بأن القديس المذكور اعتزل الحياة فى أواسط القرن الثانى للميلاد بوادى النطرون ومعه سبعون أخا بقصد التنسك .

وإذا كان بولس الراهب المصرى أول من وضع نسق الحياة الرهبانية فإن أنطون هو المؤسس الحقيقى للرهبنة وإن كان والترز يحاول أن يشكك فى وجود بولس .

أما المؤسس الحقيقى للرهبنة الفردية ونظمها فهو أنطون ، ولقد تحدث عنه القديس جيروم Jerome St Heironimus أبو الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع الميلادى عند حديثه عن نشأة الحركة الرهبانية فى العالم [٢٨٢].

فكتب كتاب عن حياة القديس بولس Vitu St Paul Primi eremitat وأنّ الراهبان أخبروا جيروم أن بولس الطيبى كان رائدا لحركة الرهبنة ، ويشير إلى أنه ولد عام ١٥٠م من أبوين موسرين ، وأصبح يتميا فى السادسة عشرة من عمره ، فتولى الوصاية عليه زوج أمه ، ولقد تثقف بثقافة عصره المزدوجة وهى الثقافة الأغريقية المصرية على السواء، ودرس أصول الدين المسيحى الذى اعتنقه بعد أن كان وثنيا ، وعاصر اضطهاد عهد الإمبراطور بين الرومانيين دكيوس وفاليريان ، ولكن أشهر الرهبان كان أنطونيوس وهو مؤسس الرهبنة الفردية ، ولقد ولد فى قمن العروس بإقليم بنى سويف من والدين مسيحيين ثريين ، وكان له مزرعة ٣٠٠ فدان أى أنه عاش حياة مترفة وتعلم قواعد الدين المسيحى، ولكن لم يأخذ قسطًا من التعليم الدنيوى إذ ظل أميا لا يعرف الكتابة أو القراءة حتى أواخر أيامه ولم يتصل بالثقافة اليونانية ، ولقد اعتزل الحياة وظل فى مكانه لمدة خمسة وثلاثين عاما لم يترك مكانه إلا مرتين، خلال اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس عام ٣٠٠ فخرج ليشد أزر المسيحيين .

والثانية أثناء هرطقة أريوس فى عهد قسطنطين ٣٣٨ م ليقف إلى جانب أثناسيوس، ولكن الرهبنة الفردية كانت تواجهها مشاكل عديدة تؤثر على كيان الفرد، فالصحارى والقفار والتعرض للوحوش وعواصف الصحراء ، والحاجة للإمداد بالطعام والماء ، وكان بعض النساك يتعرضون لأزمات نفسية نتيجة للوحدة ووجودهم فى قفار تودى بكيانهم المعنوى ، ولدينا أمثلة من رهبان أصابهم جنون فكفروا بكل شىء وعادوا يعيشون فى المدينة بعد أن عاشوا أعواما فى جوف الصحراء على الكفاف مثل فالنز Valens الفلسطينى وبطليموس المصرى .

فظهرت الديرية الجماعية ، وكانت هناك مرحلة متوسطة فى صحراء سيليا Cella أى صحراء القليات وفلوات أسقيط وكانت هذه الجماعات فى تنسكها طريقة وسط بين التنسك الفردى والمعيشة مجتمعين (٢٨٣) ، وكانوا لا يتركون قلاليهم فى الصحراء للاجتماع ببعضهم البعض إلا فى يوم السبت والأحد من كل أسبوع لحضور صلوات القداس فى نيتريا ، وكان يعيش بعضهم فى عزله تامة والبعض الآخر يعيشون فى شراذم متفرقة ، وكانت الكنيسة التى يقصدونها للعبادة تقع أسفل الوادى وتابعة لأسقف هرموبولس الصغرى "دمنهور" يلاحظ أن مجتمعا نشطا قام فى وادى النطرون ، وهذه المنطقة تشمل جزء من برية شيهات الشهيرة التى بلغت شهرتها مبلغا كبيرا فى شهرة مصر منذ القرن الرابع ، وهذا الوادى كان يسمى فى عهد البطالمة Sekhet Hemam ومعناها (٢٨٤) حقل الملح، واسترابون كتب فى القرن الأول أن هذا الوادى كان يقال له إقليم النطرون وكان سرابيس معبود هذا الوادى ، وذكر شامبليون أن فى المنطقة مدينة اسمها نيتريا وأنها كانت تسمى بلغة المصريين القدماء فابيهوشم Phapihasem مدينة النطرون ، وأن نيتريا ترجمة لتلك الكلمة، وكانوا يودعون فيه النطرون الذى يستخرجونه من البحيرات فى برية الأسقيط أو برية شيهات ومعناها ميزان القلوب ويسمى أيضا وادى الرهبان ووادى هيت، وفى كتاب « قديسو مصر » ذكر أن القديس آمون المصرى يعتبر المؤسس لأديرة نيتريا ، وكذلك تليمذه ورفيقه القديس ثيودور، ويقال أنه عاش فى عهد قسطنطين ٣٠٦ - ٣٣٧ وأقام أنطونى فى ديره الواقع بين وادى النيل والبحر الأحمر ، ولقد بلغ عدد رهبانه والأديرة وفقا لبعض

المصادر فى أواخر القرن الرابع خمسين ديرا يقطن فيها نحو خمسة آلاف راهب ، ومن الصعب تعيين موقع جبل نيتريا القديم الذى احتشدت حوله جموع هؤلاء الرهبان ولابد أن يكون قائما على أحد جانبى الوادى الذى يطلق عليه اليوم وادى النطرون (٢٨٥) .

أما الرجل الذى أعطى الرهبنة الجماعية شكلها الذى أخذه الغرب فهو باخميوس الذى أسس فى سنة ٣٣٢ م أول التجمعات الرهبانية فى تنيس بمصر العليا، وهو جندى سابق فى جيش دقلديانوس اعتنق العقيدة الجديدة من خلال الالتقاء بالمسيحيين أثناء خدمته العسكرية ، وقد بدأ نظامه الرهبانى كتلميذ لراهب مشهور وهو فلامون قبل أن ينفصل منه وينشىء جماعته الأولى على أسس محدودة ، فالنظام الذى أسسه يعتبر أن حاجات الفرد تخضع لمتطلبات المجتمع ، وأن هناك مجموعة من القواعد والقوانين تحكم حياة الراهب ، ولقد أطلق على هذا النظام الرهبانى اسم الشركة ، وقد حاز شعبية كبيرة فانتشرت التجمعات الرهبانية للرجال والنساء فى كافة أنحاء القطر خاصة فى مصر الوسطى ومصر العليا .

أما عن نظام الحياة سواء فى القلايات الفردية أو الديرية ؛ فبالنسبة للرهبنة الفردية فقد قضى القديس أنطونيوس السنوات الأخيرة من عمره فى مغارة من تلال البحر الأحمر، وكانت مكونة من قباء صغير وممر ضيق يعود إلى التل، وفى نهايته درجة سلم تؤدى إلى حجرة منفردة يتصل بها ملحق.

والمتنسكون الأوائل سكن بعضهم فى مقابر قد ماء المصريين ، ولقد فعل هذا الأنبا بولا ، كما أن النصوص ذكرت ذلك مرات عديدة، وتقدم لنا مقابر مصر الوسطى والعليا نماذج عديدة كما فى هيرموبولس وغيرها، وكان يجرى بناء بهو أمام المقبرة وإضافة بعض الحجرات أمام المدخل وتعدل الترتيبات الداخلية لتتناسب مع احتياجات السكان الجدد ، وهناك نماذج فى تل العمارنة وبنى حسن .

ويصف كتاب تاريخ الأديرة جبل نيتريا بأنه يتكون من خمسين قلاية متجاورة كانت تضم الرهبان منفردين جماعات صغيرة أو كبيرة ، وأن هناك بئرًا كان محاطا

بسياج ، وكان القديس مكاريوس السكندرى قد أحاط قلايته بسور يغلق عليه الفناء ، وكان فى الأسقيط عدد من الخبازين والنساجين يقومون بنسج الكتان وعمل أرديتهم والمزارعين وصناع النبيذ ، وكان بعض التجار يرتاد هذه المنطقة لشراء ما يزيد من إنتاج الرهبان وكان بينهم جماعة من الأطباء للعناية بالمرضى وذكر جيروم ٥٠ ديرا فى وادى النطرون (٢٨٦).

ولقد أقيم أحد هذه التجماعات فى سوهاج وهو الدير الأبيض والذى رأسه فيما بعد خلال الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى الأنبا شنودة وهو وطنى معارض للوثنية تميز بشخصية حماسية وموهبة البيان ، وعامة ما كان يطلق عليه دير فى العصور الوسطى لم يكن كأبنية وأديرة وادى النطرون الحالية ، بل كانت بيوتا منحوتة فى الجبال أو مصنوعة من القصب أو فروع الشجر أو جريد النخل ، وكان يطلق على مجموعة من هذه البيوت صغيرة أو كبيرة اسم الدير ، وكان تتألف من سكان كل مجموعة طائفة خاصة من الرهبان لها رئيسُها وكنيستها ومستودع مؤنها ومثوى للنازلين بينهم من الغرباء .

ولما هاجمهم البرابرة قامت كل مجموعة بتشييد برج لهم ليقيموا فيه إذا أغار هؤلاء البدو أو تعرضوا لوحوش الصحراء وانتهت بشكل الدير الحالى ، ولقد استخدمت طريقة بناء الحصون الحربية وبعض الأديرة جمعت حوالى ٣٠٠ راهب ، ولقد استتبع الاعتراف بالمسيحية انتشار الرهبنة انتشارا واسعا بين فئات عديدة سواء من الطبقات الدنيا و من الشريحة العليا فى الإسكندرية ومن الرجال والنساء الذين قدموا أملاكهم وهبات ضخمة للأديرة .

وهناك تقديرات مختلفة لأعداد الرهبان بالإسكندرية ووادى النطرون بيلاديوس أكد أنهم ٧٥٠٠ ومثلهم بالصيعد " طيبة" بالإضافة إلى عشرة آلاف فى أرسنوى مدينة التسماح القديمة فى الفيوم ، وذكر روفنيوس أن هناك عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهبة فى أكسرنخوس ، ومن الواضح أن العدد مبالغ فيه مبالغة شديدة فلا يمكن أن يكون هذا تعداد الرهبان فقط فى مدينة كأكسرنخوس "البهنسا" لو أضفنا السكان العادين من نساء ورجال وأطفال ، ولا يعقل أن تكون المدينة قاصرة على الرهبان مع

تعداد سكنى محدود ، ولكنه عامة يوضح مدى انتشار الرهبنة فى الأقاليم ، وحدد كاسيان أن عددهم ٥٠٠٠ فرد، بينما يقرر القديس جيروم أن عددهم خمسون ألفًا ولقد ذكر أن عدد سكان الصحراء يقصد الرهبان ٣٩٤ م يعادل حجم سكان المدن الأخرى ، ولقد ذكر أن قرية النصارى كان بها كنائس بعدد أيام السنة فى القرن السادس، وكان بها ألفان من الشباب ارتدوا رداء الرهبان بجانب عدد كبير من المتزوجين والمتزوجات الذين رفضوا هذا العالم، وواضح أنه لا يمكن أن تكون فى قرية كل هذه الأعداد أو الكنائس ، وفى عشية الفتح العربى لمصر ٦٣٩ - ٦٤٠ م ذكر أن مدينة نيكسار فى دلتا النيل كان بها حوالى ٨٧٠٠ من النساك ، ولا عجب أن يذكر هاردى أنه كان بمصر مائة أسقفية فى نهاية العصر القبطى، ويذكر هاردى أن عدد الرهبان فى أقصى ذروة بلغتها أعدادهم بين ١٠٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ وإن كان البعض جعلهم ٥٠٠,٠٠٠ (٢٨٧) .

ولقد شاركت النساء فى هذه الحركة الديرية فقامت أديرة للنساء ، وشاركت نساء الطبقة العليا فى هذا النظام فانخرط عدد منهن فى حياة النسك وتبرعت أخريات بأموالهن . واندرجت بعض الراهبات فى حياة التقشف حتى أمكن بعضهن أن يمارس عيشة الرهبان الخشنة القاسية، ولجأن إلى سكنى البرابى والكهوف والقبور والصحارى وكن يتزين فى زى الرهبان ، ولم يعرف أنهن من الراهبات إلاّ بعد وفاتهن وعندما يجهزن للدفن .

وفى تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع فى القرن العاشر، أن الأنبا اندرونيقوس البطريرك السابع والثلاثين ٦١١ - ٦٢٣ ، حين جاء كسرى ملك الفرس بقوة عظيمة وأخذ مصر وجعل همه أن يفتح المدينة العظمى الإسكندرية، كان هناك منطقة هاماتون الواقعة غرب المدينة وعلى بحيرة مريوط ٦٠٠ دير عامة عامرة بأبراج الحمام، ولقد دمرها الفرس ونهبوها (٢٨٨) .

ومن أشهر الرهبان الذى أعطى المسيحية طابعها المصرى الخالص وقصر الأديرة على الأقباط هو الأنبا شنودة ، وهو شخصية مميزة ويعتبر أعظم كتاب الأدب القبطى ، وكان بليغا خاصة فى الخطابة ، وكانت كتاباته عملية صالحة لاستخدام الفئات المختلفة

ونقح اللغة القبطية ، وجعلها اللغة المستعملة ، فلقد أضفى طابعا وطنيا خالص على الكنيسة (٢٨٩)، ولقد ترك تراثا كبيرا حارب فيه البدع والخرافات التى تتعلق بالاحتفالات الدينية والموالد ، ومن تصرفات تخرج عن الدين والاعتناء الكاذب بعظام الأموات والإيمان بالسحر والتعاويذ والدجل .

ولقد سافر مع كيرلس إلى أفسوس واشترك معه فى محاربة نسطوريوس ، ويختلف شنودة عن باخميوس فى أمرين فبينما أديرة باخميوس تحوى أجناسا كثيرة اقتصر شنودة فى أديرته على الأقباط وبينما كانت كنائس باخميوس خاصة بالرهبان فقط ، وفتح كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون إليه فى الأعياد وجاءت الوثنية (٢٩٠).

أما عن موقف الدولة من الحركة الديرية فى مصر فلقد منح الأباطرة منذعهد قسطنطين الأديرة هبات عديدة وأعفى الرهبان من الخدمة العامة والضرائب ، وكان يميل الرهبان إلى المصريين هو وخلفاؤه ، فتمتع أنطونيوس بمكانة عند الإمبراطور وخلفائه ، ولكن مع ازدياد أعداد الداخلين فى الأديرة والصالحين للجندية وما يترتب عليه من تراجع ما يدخل للخزانة من ضرائب أصدر قرارًا بالحد من دخول الصالحين للجندية .

وفى الفترة التالية اتخذت الدولة موقف من الرهبان ، وبدوره تسبب الموقف المعادى الذى أخذته كنيسة الإسكندرية، وفيما قام به الأباطرة من تعيين بطاركة من خارج مصر للسيطرة على الوضع الدينى ، فلقد مثل الرهبان عامل ضغط سياسى ، وهم الذين وقفوا وراء أثناسيوس وكيرلس.

وجستنيان رغم أنه اتخذ موقفًا مخالفًا من الكنيسة القبطية إن لم يكن معاديا أغلب فترات حكمه فقد شجع جستنيان بناء الأديرة ، والأمر نفسه قامت به زوجته ثيودورا المؤيدة للمصريين .

والتعليم على يد الرهبان اتخذ طابعا دينيا ، وكان لهم موقف معاد من مدرسة الإسكندرية ومكتبتها ، فلقد دمروا المكتبة وحاربوا أساتذاتها لربطهم بالوثنية يعكس ما كانت عليه مدرسة اللاهوت المسيحية الأولى والتى كان من أساتذاتها أورجين ،

وربما يوضح موقف البعض المعادى لأورجين لارتباطه بالفلسفة فلغتهم كانت القبطية وإن كان بعضا منهم فى البداية لم يكن يجيد القراءة بالقبطية كالأنبا بولا وكان يجيد اليونانية ، وأنطونيوس يتكلم القبطية وعدد منهم كان أميا ، ولكن كان هناك من هو على قدر كبير من الثقافة كأثناسيوس ، وديداموس الضرير ، وإن كانوا كلهم قد رفضوا الثقافة والحضارة اليونانية وخاصة بعد ٤٥١ م .

ولقد انعزلت الأديرة من ٤٥١ م عن الاتصال بالمناطق المجاورة واتخذت لها فكرا ولغة خاصة اعتبرت كالشرنقة التى تنغلق بمحاولة الحفاظ على نفسها ، وحقيقة أن الأدب الذى قدموه لا يرقى إلى فكر اليونان الفلسفى ، ولكن كان ممكن أن يتفهمه جموع العامة ويعبر عنهم .

ولقد أحاط بالرهبان حالة من التقديس وأصبح لهم قداسة ؛ خاصة ومن أشهر القديسين ميناس الذى حظى بشعبية كبيرة ، وكان ديره مقصد للآلاف للاستشفاء من الأمراض وخاصة أمراض العيون ، وكانت أوانى أبومينا أشهر المنتجات الفخارية وتمثله بين جملين .

وأبو مقار ويحمل اثنين : اسم أبو مقار، وأبو مقار الكبير ؛ الأول مكاريوس والثانى أبو مقار السكندرى ، وكان مولده بمدينة الإسكندرية فى مستهل القرن الرابع للميلاد من أبوين فقيرين ، ولذلك اشتغل خبازا لبضع سنوات ، ثم اشتغل بمهنة الرعى ، ثم ترك الإسكندرية بمظاهرها وتوغل فى العراء واعتكف وتنسك .

أبو حنـــس :

له دير يقع فى قرية بالضفة الشرقية للنيل من أعمال ملوى والقرية تحمل اسم الدير الذى اشتهر باسم أبو حنس وأبو يحنس القصير ، والاسم تحريف ليوحنا[٢٩١] ، وذكره المسعودى أبو حنس القصير التبائيسى ونسبه لطيبة ، وعاش يوحنا فى نهاية القرن الرابع وبداية الخامس، والقرية بها كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا تعود إلى هذا التاريخ ، ودير يبعد عن القرية فى أعلى الجبل الشرقى ، والقرية كانت تتبع طيبة

قديما، والكنيسة ترجع إلى القرن الخامس الميلادى إلى عهد ثيودسيوس الثانى : الأنبا شنـودة وهـو من أخـمـيـم والذى حـرص على أن يكون جـمـيـع رهـبـانة من العناصـر المصرية ، وذهب إلى مجمع أفسوس مع البطريرك كيرلس .

وهناك عدد من الأديرة مثل دير البرمـوس ودير أنبا بشوى وأديرة أخـرى عديدة فى وادى النطرون .

* * * * *

هوامش الفصل الثالث

(١) مصطفى العبادى : نفس المرجع ، ص١١٠.

(٢) زبيدة : المنيا فى العصر البيزنطى ، ص ١٦

(3) Amianus :op . cit. p 247 .

(٤) مصطفى العبادى : نفس المرجع ، ص ٢٤١ .

(5) Amianus :op . cit. p 14.

(٦) العبادى : عن وصف مزايا الموسيون ، ص ٢٠٨ .

(7) Amh. 140, p. Masp 7719. P.oxy . 1829 -1915 -1917.

(٨) زبيدة : المنيا فى العصر البيزنطى ، ص ٢٦ – ٢٧ .

(٩) زبيدة : الفلاح المصرى ، ص ٣٧ .

(10) Milne : op . cit. p 232 .

(١١) روستفتزف : نفس المرجع ، ص ٦٣٣ .

(١٢) سيد الناصرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .

(13) Ammianis : op. cit . p 297 .

(14) Bell Antinopolis : A Hadrianic Foundation, Journal of Roman Studies XXX , 1990 , P 133 - 141 .

(١٥) فاروق القاضى : موسوعة تاريخ مصر ، ص ٤١١

(16) P. OXY : 1666.

(17) P. OXY : 2130 .

(١٨) سيد الناصرى : نفس المرجع ، ص ٣٠٢

(19) COXIADIS : OP. CIT P. 234 .

(20) DOXIADIS : OP. CIT P . 235 .

(21) DOXIADIS : OP. CIT P .150 .

(22) Greek papri in the British Museum, p. Masp 1610 .

(٢٣) أبو صـالح الأرمنى : تاريخ أبو صـالح ا لأرمنى المعروف بكنائس وأديرة مـصـر ، ص ٢١٣ ، المقريزى : الخطط ، ص ١٢٠ .

(٢٤) زبيدة : المنيا فى العصر البيزنطى ، ص ٩٨ .

(٢٥) قادوس : ص ٣٧٣ .

(٢٦) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٢٧) قادوس : الإسكندرية ، ص ٢٥٧ .

(28) P. oxy. 43. p. oxy . 121 .

(29) P. oxy. 919 .

(30) P. oxy. 737 .

(31) P. oxy. 1828 - P.oxy. 1263.

(32) P. oxy. 4385 .

(33) P. oxy. 4385 .

(٣٤) زبيدة : المنيا ، ص ١٩ – ٢٣ .

(٣٥) زبيدة : ا لمنيا ، ص ١٠٣ – ١٠٤ ، P.oxy. 1250 - 1099 - 1247 .

(٣٦) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ١٦٢ .

(٣٧) صقر خفاجة : نفس المرجع ، ص ١٢٧ .

(38) Ammiani Marcellinei : Rerum Gestarum Trans : John Roice . p. XXIV . XXVI 47 - 51

(٣٩) زبيدة : المنيا ، ص ٢٥ ، رمزى : القاموس الجغرافى ، ص ١٦٢ .

(٤٠) قادوس ، أثار مصر ، ص ٢٦٨ .

(41) P. Masp . 1521 , P.oxy 2120 .

(٤٢) سيد الناصرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

(43) P. oxy. 213 , Roman Civilzation p 102 .

(44) P. oxy. 213 .

(45) P. oxy.890 .

(46) P. oxy. 2108 .

(47) P. oxy.1284 .

(٤٨) عبد الواحد وافى : فى الأدب اليونانى ، ص ١٣٦ .

(49) P. oxy. 1109, 1028 .

(50) Doxiadis : op. cit . p 46 .

(51) Doxiadis : op. cit . p 24 - 54 .

(52) Doxiadis : op. cit . p 78.

(٥٣) ديورنت : ج٦ ، ص ٢٧٧ .

(54) P. Masp.

(٥٥) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ٣٧ .

(56) P. Masp. 671346.

(57) Johnson : op. cit. p .269 .

(58) P. Masp : 67136, 61151 .

(59) P. Masp. 67151 .

(60) P. oxy. : 1043, P.oxy . 1297.

(61) P. lond : Poxy. 1641 .

(62) Milne : A History of Egypt , p 15 .

(63) P.oxy. 1143 - 53 .

(64) P.oxy. 1678 .

(65) Milne : p 155 .

(66) P.oxy . 2007.

(67) Greek papri : LXXXVII, 1602.

(68) P.OXY. 690 .

(69) P. MASP, 67154 .

(70) JOHNSON : OP. CIT , P 154 .

(71) P. OXY. 1905 .

(72) Johson : op . cit . p 154 .

(٧٣) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ١٠٨ – ١٠٩ .

(74) Johson : op . cit . p 112, P. oxy. 1249, P.oxy . 1142 .

(٧٥) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١١٨ .

(76) P. oxy. 1655.

(٧٧) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(78) P. oxy. 2040 .

(٧٩) الإلهة أثينا مقترنة بالآلهة المصرية التى تصور على شكل فرس النهر P. oxy . 157.

(٨٠) زيوس وهيرا : زيوس إله السماء والأرض والمشرف على الظواهر الطبيعية أما هيرا فهى زوجته . على عبد الواحد وافى : الأدب اليونانى القديم ، ص ١٤ .

(81) P. Masp : 67136 .

(82) Putcher : he story of the Chruch of Egypt, Vol. 2 p 145 .

(83) P . Masp. 67136 - Poxy . 1901 .

(٨٤) كان ميناس من أهالى نيكاو ثم أصبح حاكما على أفريقيا وقت قطعت رأسه فى عهد اضطهاد دقلديانوس . أبو صالح الأرمنى ، نفس المصدر ، ص ١١٢ .

(٨٥) أبو صالح الأرمنى : الكنائس والأديرة ، ص ١١٠ .

(86) Coptic Ostraca : 306.

(87) P. Masp. 67151 .

(٨٨) رؤوف حبيب : دليل المتحف القبطى ، ص ٣ .

(89) Coptic Egypt . p 24 - 25 .

(٩٠) بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢٠٢ .

(٩١) بتلر : ص ١٩٦ .

(٩٢) بتلر : ص ١٩٧ .

(٩٣) القديس مرقص : ص ١١٣ .

(٩٤) القس منسى : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ٧١ .

(٩٥) عبد العزيز صالح : نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(96) Milan . Papri . No .AD25 .

(97) Johnson : op . cit . p 98 .

(98) P. oxy 1983 - 1965 .

(٩٩) روستفتزف : نفس المرجع ، ص ٦٣٦ .

(100) Johnson : op . cit . p . 140

(101) Johnson : op . cit . p 24 .

(١٠٢) بل : مصر من الإسكندر ، ص ٢٠٣ .

(103) P. oxy. 169 .

(104) P. oxy . 1857 .

(105) Johnson : op . cit . p 20 .

(106) P. oxy . 1887.

(107) P. oxy . 1881 - 1955 .

(108) P. oxy . 1881 - 1955.

(109) P. oxy - 2121, Pmasp 07052.

(110) P. oxy . 1829 .

(111) P. oxy. 1929 - 1917 - 1062 .

(١١٢) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١١٠ .

(113) Johnson : op . cit . p 109 .

(١١٤) زبيدة : نفس المرجع ، ص ٧٣ .

(115) Catalogue of the Greek and Latin Paypri 625 , Bury : op . cit . p 47 .

(116) Johnson : op. cit . p 123 .

(117) P. oxy . 1635 .

(118) P. oxy . 1130 .

(١١٩) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ٥٧ .

(120) P. oxy . 1854 .

(121) P. oxy . 1894 .

(122) P. oxy . 1084.

(123) P. oxy .

(124) P. Masp. 10128 .

(125) P.oxy. 1147 .

(١٢٦) زبيدة : الفلاح ، ص ٦٠ – ٦٤ .

(١٢٧) زبيدة : الفلاح ، ص ٤٣ .

(١٢٨) زبيدة : الفلاح ، ص ٤٩ . P. Masp 67002

(129) P. Masp. 67002.

(130) P. Masp 67029 .

(131) P. oxy . 1856 - 1859 .

(132) P. Masp. 1042 .

(133) P. oxy . 1850 .

(134) P. oxy . 1882 .

(135) P. oxy . 1613 .

(136) P. oxy . 1381.

(137) P. Masp, 1073.

(138) Poxy. 1873 .

(139) P.oxy . 1843 .

(140) P.oxy 2143 .

(141) P. oxy . 93 .

(١٤٢) انظر : P. oxy . 1297 - P.oxy . 4370

(١٤٣) ميراد : كان الميراد Myriad يعادل عشرة آلاف دينار بيزنطية ، زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ٨٢ .

(144) P. oxy. 1249 , P.lond . 705 .

(١٤٥) عن الحمامات انظر : P. oxy 690 - 2040 - 2015

(146) Milne : op. cit, p. 266.

(147) Milne : op. cit, p 263 .

(148) P.oxy . 705 .

(١٤٩) جرنوس : وهو الاسم اليونانى للإله ساتورن وكانت آلهة اليونان تنفسم قسمين أحدهما من سرة حرنوس والآخر زيوس ، وكان حرنوس رأس الأسرة إله الأرض وا لحصاد وكان عيده فى شهر ديسمبر انظر : عبد الواحد وافى ، ص ٤٩ : ١٢ .

(150) Milne : op. cit, p. 244 .

(151) P.oxy 1655 .

(152) P. oxy . 1655 .

(153) P. Flor . 7551 , P.oxy . 1021, British Museum . p 331 .

(154) P.oxy. 580 .

(155) P.oxy. 1444.

(١٥٦) زبيدة : الحياة الاقتصادية ، ص ١٣٣ .

(157) P.oxy. 1657 .

(158) P.oxy. 3020 .

(159) P.oxy. 3644.

(160) Milne . op. cit . p . 227 .

(١٦١) بل : مصر من الإسكندر ، ص ٢٢٤ .

(162) P.oxy. 2034 .

(163) P. oxy , 2039 ,P.oxy . 911 - P. oxy. 4365 .

(١٦٤) انظر : . P.oxy . 1224 - 2067

(165) P.oxy. 2071 .

(١٦٦) بل : مصر من الإسكندر ، ص ١٧٤ .

(١٦٧) بتلر : الكنائس ا لقبطية القديمة ، ترجمة إبراهيم سلامة ، ص ١٨٦ .

(١٦٨) بتلر : نفس المرجع ، ص ١٨٩ .

(169) P.oxy. 1238 - 1235 - 855 .

(170) P.oxy. 876 .

(171) P.oxy. 1617 .

(172) P.oxy.825 .

(173) P.oxy. 2014 .

(174) P.oxy. 879 .

(175) P.oxy. 1011 .

(176) P.oxy. 1250 - 1099 .

(177) P.oxy. 2401 .

(178) P.oxy. 1248 .

(179) P.oxy. 1814 .

(١٨٠) زبيدة : المنيا ، ص ٩٤ ، ح وف : تاريخ الأدب الروماني ، ص ٤٦ .

(١٨١) ج ، ف : تاريخ الأدب الرومانى ، ترجمة محمد سليم سالم ، ص ٤٦ .
(١٨٢) على عبد الواحد وافى : ص ٩ ، إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢٠٧ .
(١٨٣) إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ، ص ١٣٨ .
(١٨٤) بل : من الإسكندر ، ص ١٦١ .

(185) P.oxy. 930

(186) Winter : Daily life . p 55 - 56 .

(187) P.oxy. 1298 .

(188) P. oxy . 1656 .

(189) P.oxy. 1656 .

(١٩٠) سعاد ماهر : الفن القبطى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٠ .
(١٩١) سعاد ماهر : الفن القبطى ، ص ٢٤٠ .
(١٩٢) المتحف القبطى ، ٧٠٥٨ - ٧٠٠٥ - ٦٤٧ .
(١٩٣) المتحف القبطى ، ٧٢٢٥ - ٧٠٣٠ .
(١٩٤) هيردوت فى مصر : ص ١٨٧ .

(195) P. Lond . 741 .

(١٩٦) المتحف القبطى ، رقم ٧٩٤٨ .
(١٩٧) المتحف القبطى ، رقم ٨٤٥ - ٤٦٨٩ .
(١٩٨) المتحف القبطى ، رقم ٤٠١١ .
(١٩٩) المتحف القبطى ، رقم ٧٨٢١ .
(٢٠٠) المتحف القبطى : رقم ٧١٨ .
(٢٠١) المتحف القبطى : رقم ٤٨٣٠ .
(٢٠٢) عزت قادوس : عن مقابر البجوات ، انظر : كتاب آثار مصر .

(203) Diehl Manuel de Art Byzantin p 70 . Dalton : Buzzntine art p 282 .

(٢٠٤) المتحف القبطى القطعة رقم ٨٤٤١ .

(205) Dalton ; East Christian Art . IV . p 210 .

(٢٠٦) المتحف القبطى : ٧١٢٥ .
(٢٠٧) المتحف القبطى : ٨٠١٢٠ .
(٢٠٨) المتحف القبطى : ٧٢٧٩ .
(٢٠٩) المتحف القبطى : ٧٢٨٥ .
(٢١٠) المتحف القبطى : ٤٥٠٦٧ .
(٢١١) المتحف القبطى : ٧٢٨٥.

(٢١٢) المتحف القبطى : ٧١٩٤/٢١٨١ .
(٢١٣) المتحف القبطى : ٨٧٠٨٥ .
(٢١٤) هيردوت يتحدث عن مصر ١٦١ .
(٢١٥) فاروق القاضى : موسوعة مصر ، ٥٠٤ .
(٢١٦) القديس مرقص : ص ٢٤ .
(٢١٧) جيبون : اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، ج١ ، ص ٢٩٧ .
(٢١٨) القديس مرقص : ص ٢٩ .
(٢١٩) القديس مرقص : ص ١٦ .
(٢٢٠) عمر طوسون : وادى النطرون ، ص ٢ .
(٢٢١) يوزبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود ، ص ١٠ .
(٢٢٢) القس منسى : ص ٦٨ .
(٢٢٣) مراد كامل : نفس المرجع ، ص ٦٠ .
(٢٢٤) يوزبيوس القيصرى : نفس المصدر ، ص ١٤٠ .
(٢٢٥) يوزبيوس القيصرى : نفس المصدر ، ص ١٦٧ .
(٢٢٦) يوزبيوس القيصرى : نفس المصدر ، ص ٣١٢ .
(٢٢٧) جيبون : نفس المرجع ، ص٣٠٠ ، القس منسى : ص ٨٧ .
(٢٢٨) يوزبيوس القيصرى : نفس المصدر ، ص ٣٣٠ – ٣٣١ .
(٢٢٩) يوزبيوس القيصرى : نفس المصدر ، ص ٣٣٢ .
(٢٣٠) يوزبيوس : ص ٣٧٢ .
(٢٣١) جيبون : نفس المرجع ، ص ٣٢٧ .
(٢٣٢) زبيدة : الدولة البيزنطية ، صص ١٢ – ١٣ .
(٢٣٣) عبادى : نفس المرجع ، ص ٢٩٢ .
(٢٣٤) يوزبيوس القيصرى : نفس المصدر .
(٢٣٥) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١٢ – ١٣ .
(٢٣٦) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١٣ .
(٢٣٧) يوزبيوس : عن مرسوم الاضطهاد ، ص ٤٤٤ .
(٢٣٨) يوزبيوس : ص ٤٤٤ .
(٢٣٩) يوزبيوس : ص ٤٥٨ .
(٢٤٠) زبيدة : بيزنطة ، ص ١٨ .
(٢٤١) يوزبيوس : ص ٤٩٨ .
(٢٤٢) ديورنت : نفس المرجع ، ص ٣٩٢ .
(٢٤٣) جيبون : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٥١ .
(٢٤٤) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١٠٤ .
(٢٤٥) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ٩٢ .
(٢٤٦) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١١١ .
(٢٤٧) جيبون : اضمحلال ، ص ٤٨٠ .

(٢٤٨) انظر ديورنت : عن المذاهب ، ج ٦ ، ص ٣٩٢ .
(٢٤٩) ديورنت ، ج ٦ ، ص ٣٩١ - ٣٩٦ .
(٢٥٠) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١١٤ .
(٢٥١) زبيدة ، نفس المرجع ، ص ٢٢٢ .
(٢٥٢) فورستر :ص ٩٣ .
(٢٥٣) فورستر : ص ٩٦ .
(٢٥٤) رأفت عبد الحميد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .
(٢٥٥) زبيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١٢٦ .
(٢٥٦) ديورنت : ج ٦ ، ص ٢١ .

(257) Osrtogorsky : op cit . p 47 .

(٢٥٨) ديورنت : نفس المرجع ، ص ٤٠ .
(٢٥٩) جيبون : نفس الرجع ، ج ١ ، ص ٨٦ .
(٢٦٠) زبيدة عطا : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٨٦ .
(٢٦١) ز بيدة : الدولة البيزنطية ، ص ١٦٠ .
(٢٦٢) عبادى : نفس المرجع ، ص ٣٣ .
(٢٦٣) زبيدة : ص ١٦١ .

(264) Bury : History of later Roman Empire , London, 1923, p 38 .

(٢٦٥) جيبون : اضمحلال ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(266) Hussey : op. cit . p 100 .

(267) Ostrogorsky : Byzantine State p 53 .

(٢٦٨) زبيدة : نفس المرجع ، ص ١٧٧ .
(٢٦٩) عبادى : نفس المرجع ، ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .
(٢٧٠) والترز : الأديرة الأثرية ، ص ٢٣ .
(٢٧١) زبيدة : نفس المرجع ، ص ١٨٨ .
(٢٧٢) مراد كامل : حضارة مصر القبطية ، ص ٣٧ .
(٢٧٣) ديورنت : نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٢٣٣ .
(٢٧٤) ديورنت : نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٢٣٣ .
(٢٧٥) مراد كامل : نفس المرجع ، ص ٢٠٥ .
(٢٧٦) والترز : نفس المرجع ، ص ١٨ .
(٢٧٧) مراد كامل : نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .
(٢٧٨) ديورنت : نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٧١ .
(٢٧٩) القس منسى : نفس المرجع ، ص ٧١ .
(٢٨٠) والترز : الأديرة ، ص ١٩ .
(٢٨١) بتلر : نفس المرجع ، ص ٢٦ .
(٢٨٢) والترز : نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٢٨٣) عمر طوسون : وداى النطرون ، ص ٢٢٣ .
(٢٩٤) عمر طوسون : وداى النطرون ت، ص ٦ .
(٢٨٥) فاروق القاضى : موسوعة مصر ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .
(٢٨٦) والترز : الأديرة ، ص ١٥٣ .
(٢٨٧) القديس مرقص : ص ١٠٣ - ٢٠٣ .
(٢٨٨) مراد كامل : نفس المرجع ص ١١٩ .
(٢٨٩) مراد كامل نفس المرجع ص ٢١٤ .
(٢٩٠) مراد كامل نفس المرجع ص ٢١٥ .
(٢٩١) زبيدة عطا المنيافى العصر البيزنطى ص ١٣١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : البرديات :

The Amhers papyri of Lord Amherst of Hackney by B. Gerenfell . London. 1900 - 1908.

Cataloge of Coptic Manuscripts British Museum . Ed. C. Crum .1905 .

Catalogue of the Coptic Manuscripts in the collection of John Ryland Ed. Crum Manchester .

Catalogue of the Greek papri in the John Rylands Library Vol. 4 . Manchester, 1925 .

A Descriptive Catalogue of Greek papyri in the Wilfred Merton vol. 1. by Idris Bell . Ch. Roberts . London . 1948 .

Documents of the ptolemic, Roman and Byzantine period E. Robert Turrev , Manchester, 1952 .

Early Byzantine Papyri from Cairo Museum Ed. Boack, Cairo , 1940 .

Michigan papyri collection john corrett . J.G. Winter, Univ Michigan, 1936 .

New Classical Fragment and other Greek and Latin papyri , Oxford, 1897 .

Oxyrhnchus papyri , Ed. B. Grefell , A.S. Hunt , 52 vols. Lond. 1899 - 1972 .

Papyrus Grecs , Ed. J: Jouget Paris, 1908 .

P, London Greek papyri British Museum by F. G. Keynon and Hell 5 vols. London, 1893 .

P. Thead . Papyrus de Theadalphie Ed. By . J. Jouget . Paris . 1911.

Roman Civilzalion : The Record Civilization sources and studies Columbia .

Select papyri . B. Grenfell , A.S Hunt . Leob classical Library . London , 1937 - 1993 .

The Tebbtunis papyri Ed. Bernard Grenfell , London , 1902 .

ثانيا : المراجع والمصادر الأجنبية :

Amelineaui . E., La Geographie de L'Egypte a l'Epoque Copte . Paris, 1895 .

Antnopolis : A Hadrianic foundation journal of Roman Studies, XXX, 1990 .

Bell, H. J. The Byzantine servile state in Egypt journal of Egyptian archaeology vol . IV . London , 1917 .

Bell . H. L. Egypt under the early principate . Camb . Ancient History Vol. X.

Bury . J. B. History of Later Roman Emprie . 2 Vols . London , 1923 .

Buter, A. : Architecture and the arts . N.Y., 1903 .

Codex Justinianus ed . P. Krueger London, 1905 .

Codex Theodosians Ed. Momsen and Mayer . London , 1905 .

The Collection de nouvell de Eemperor Jastinian by noealles (Paris, 1948) .

Corum, W.E. : Coptic Moument . Cairo , 1902 .

Diehl. C. : L'Egypt Chetienne et Byzantine (Hanonteau : Histoire de la Nation Egyptienne Vol. III.

: Une Crise monetaire au vle siecle (Revue des études grecques) XXXII, 1919 .

: Manuel d'Art Byzantin " Paris 1901 " .

Doxiades, Euphrosyne : The Mysterious Fayum portrait, From ancient Egypt , Cairo , 2002 .

Duthuit . G. : La Sculpture Copte . Paris . 1931 .

Empereur, Jean - Yves : Alexandria Rediscovered, London

Hardy . E. R : The Large Estates of Byzantine Egypt. N.Y. 1931 .

: Christian Egypt Church and people N.Y. 1951 .

Johnson . A. Ch. : Eygpt and the Roman Empire : U.S.A. 1951 .

Johnson . A. Ch. : Byzantin Egypt " Economic studies (princeton) , 1949 .

Kendrich : E. : Catalogue of Textiel , London, 1921 .

Macleod, Roy : The library of Alexandria, Cairo, 2002 .

Marcellini, Ammiani : Rerum Gestarum Libri Qui supersut trans John. Rolf London .

Maspero . J. : Organisation miltaire de l'Egypt Byzantine Paris, 1912 .

Milne : J. G: A History of Egypt under Roman Rule . London , 1924.

Putcher : The Story of the church of Egypt, Cairo.

Rouillard, G. : l'Administration civile de l'Egypte Byzantine . Paris, 1928 .

Segre'A. : The annona civica and annona militaris ; Byzation, XVI, 1943 .

Quatremer . E. : Memoire Geographiaue et historique sur l'Egypte. 2. Vol. 1981 .

Wallace . S. L. : Taxation in Egypt princeton, 1936 .

Winter : Daily life in Roman , Egypt .

ثانيا : المصادر والمراجع العربية :

١- إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، القاهر ، ١٩٦٦ .

٢ - أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ، القاهرة . إسكندر ولويس مليكة ورشدى فام : الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعى ، القاهرة .

٣ - بل (أدريس) : مصر من الإسكندر حتى الفتح العربى ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على ، محمد عواد حسين ، القاهرة ١٩٥٤ .

٤ - بتلر (ألفريد) : الكنائس القبطية القديمة فى مصر ، ترجمة إبراهيم سلامة ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٥ - تحفة حندوسة : الزواج والطلاق فى مصر القديمة ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

٦ - جمال حمدان : شخصية مصر ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٧ - جيبون (إدوارد) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد سليم سالم ، ١٩٩٧.

٨ - ديورنت (ول) : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، ٢٠٠١ .

٩ - رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .

١٠ - رستفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، ترجمة زكى على ومحمد سليم ، ١٩٥٧ .

١١- رؤوف حبيب : دليل المتحف القبطى ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

رؤوف حبيب : تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر القديمة وأثارهما على الإنسانية ، القاهرة ، ١٩٧٦.

١٢ – زبيدة عطا : الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

: الفلاح المصرى بين العصرين القبطى والإسلامى ، القاهرة .

: إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

: يهود العالم العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .

: الدولة البيزنطية ، القاهرة .

١٣ – زكى شنودة : تاريخ الأقباط ، القاهرة .

١٤– سمير فوزى ، القديس مرقص وتأسيس كنيسة الإسكندرية ، القاهرة .

١٥– سومرز كلارك : الآثار القبطية فى وادى النيل ، دراسة فى الكنائس القديمة ، ترجمة إبراهيم سلامة ، القاهرة .

١٦–سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

١٧ – سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية محدداتها وقيامها نظرياتها ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

١٨ – سعاد ماهر : الفن القبطى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٩ – عبد العزيز صالح : الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٤ .

٢٠ – عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة ، الإسكندرية ، ١٩٣٥ .

٢١ – عزت قادوس : فنون الإسكندرية القديمة ، الإسكندرية .

: آثار مصر فى العصرين اليونانى والرومانى ، الإسكندرية .

: آثار الإسكندرية القديمة ، الإسكندرية ٢٠٠١ .

٢٢ – فاروق القاضى : موسوعة تاريخ مصر (التاريخ القديم) ، القاهرة .

٢٣ – فورستر : الإسكندرية ، تاريخ ودليل ، ترجمة حسن بيومى ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٤– محمود عودة : شخصية مصر : التكيف والمقاومة الجذور الاجتماعية للشخصية المصرية ، القاهرة .

٢٥– مصطفى العبادى : مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، القاهرة .

٢٦ – مصطفى كمال عبد العليم : تاريخ اليهود القديم ، القاهرة .

٢٧ – المقريزى : الخطط ، بيروت .

٢٨ – منسا يوحنا : تاريخ الكنيسة القبطية ، القاهرة .

٢٩ – ميلاد حنا : الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٣٠ – مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، القاهرة .

٣١ – والترز " الأديرة الأثرية فى مصر ، ترجمه إبراهيم سلامة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .

٣٢ – هيردوت : هيردوت يتحدث عن مصر ، ترجمة صقر خفاجة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

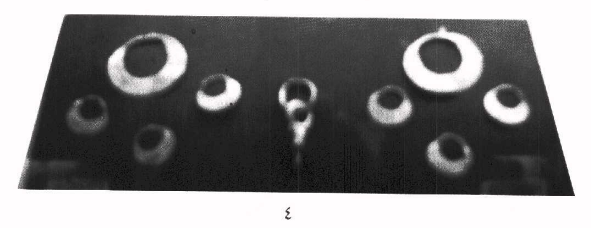
٣٣ – يوزبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود ، القاهرة، ١٩٧٩ .

٣٤– يوحنا الأسيوى : تاريخ الكنيسة ، الكتاب الثالث ، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

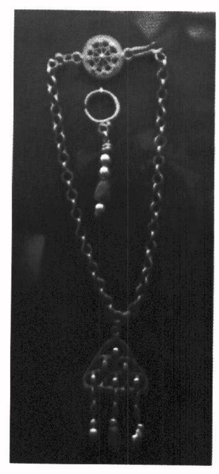
٣٥ – يوحنا النقيوسى : تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

الفهرس

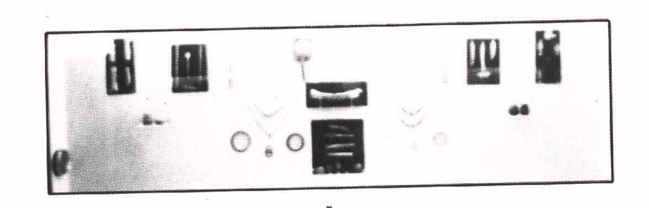

١
٢
٣



٤



٥



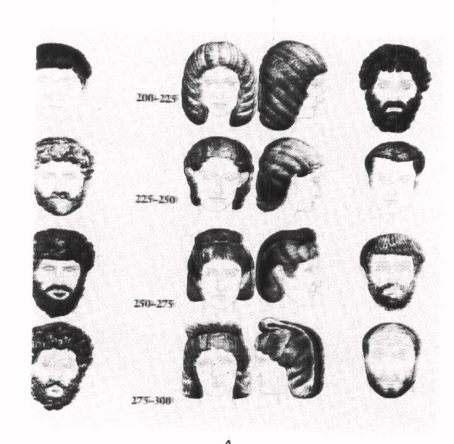
٦



٧



٨



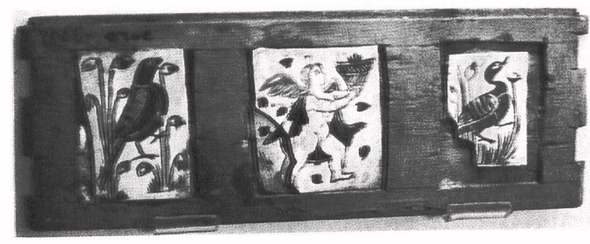
٩



١٠



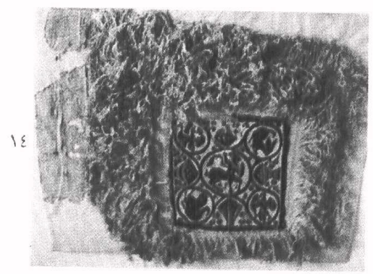
١١



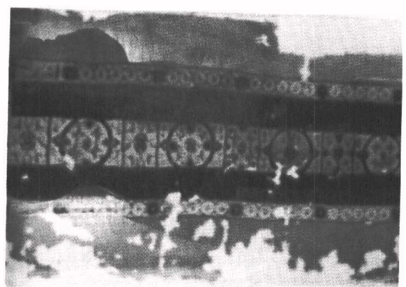
١٢



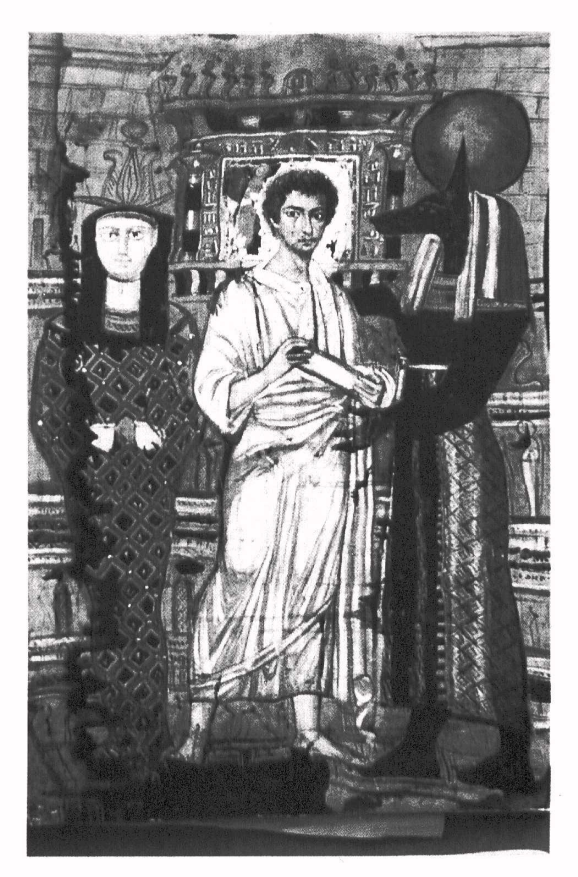
١٣



١٤



١٥



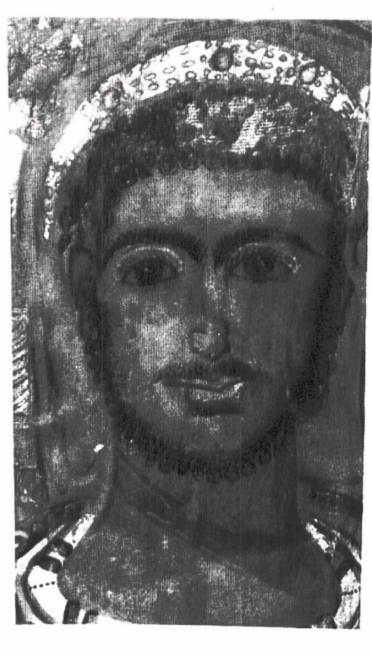


١٧

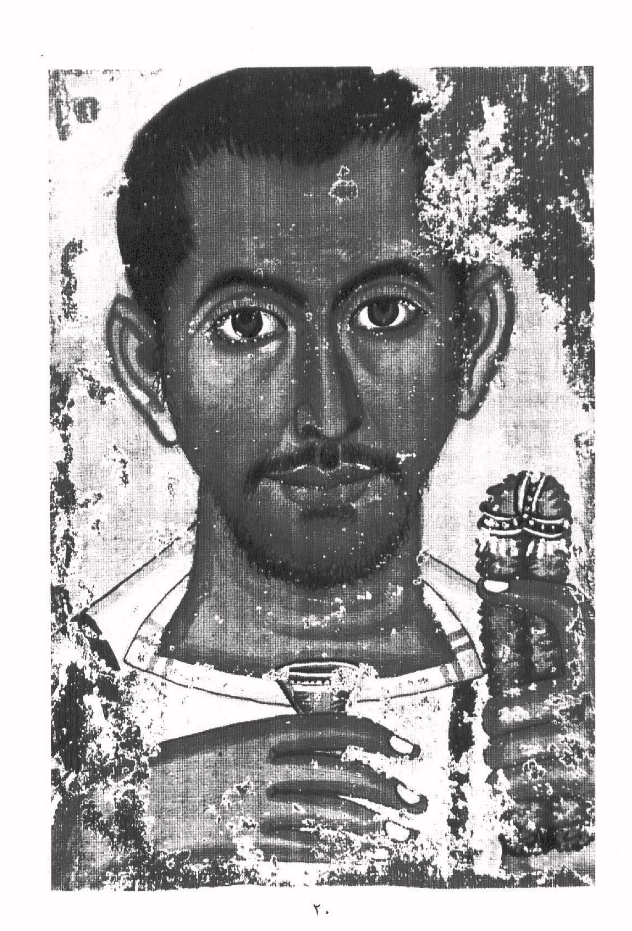


١٨

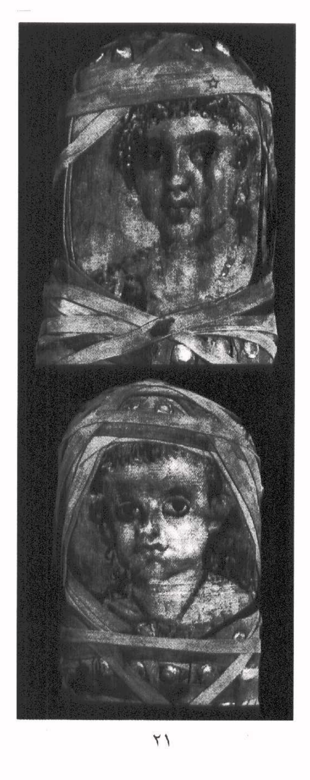




١٩



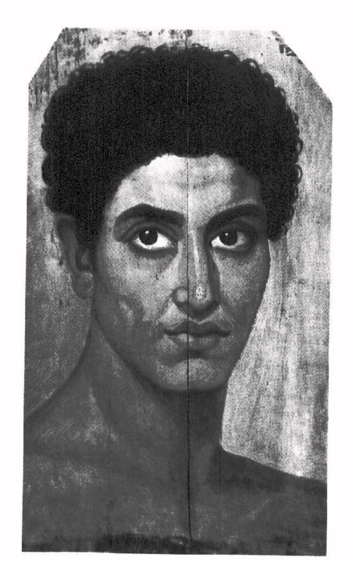
٢٠



٢١



٢٢



٢٣



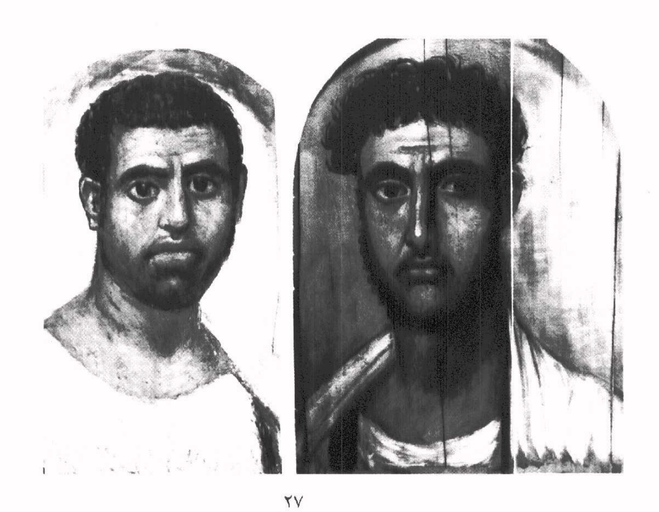
٢٤



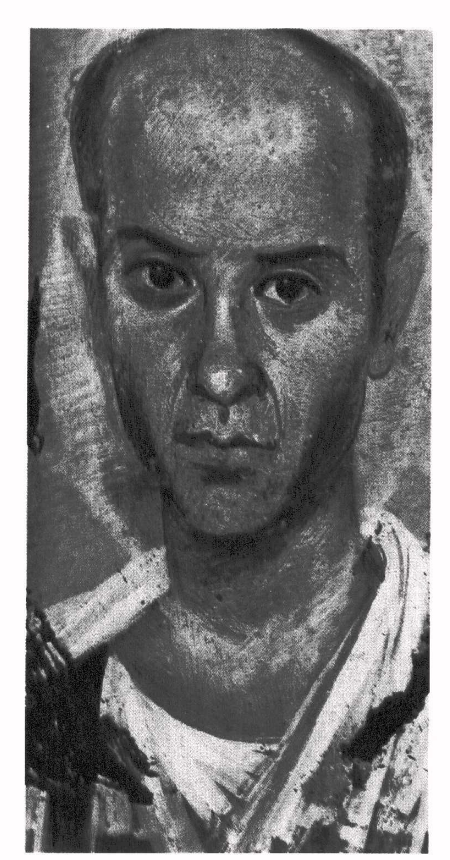
٢٥



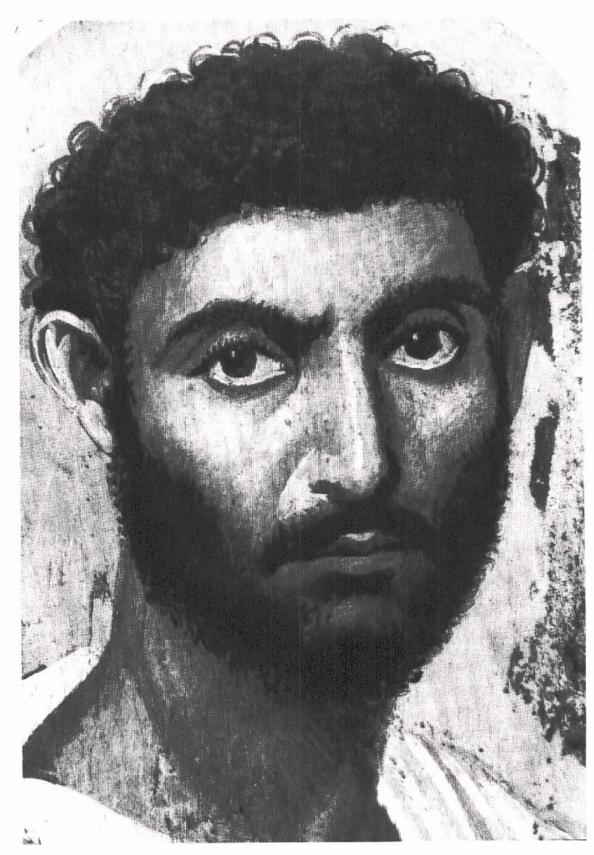
٢٦



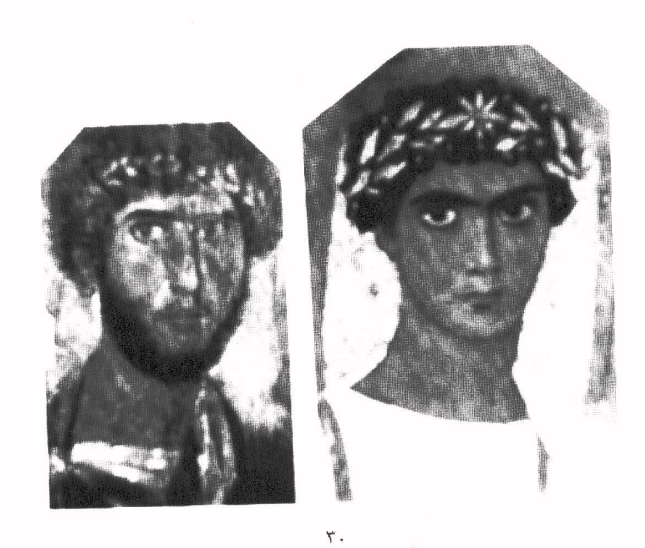
٢٧



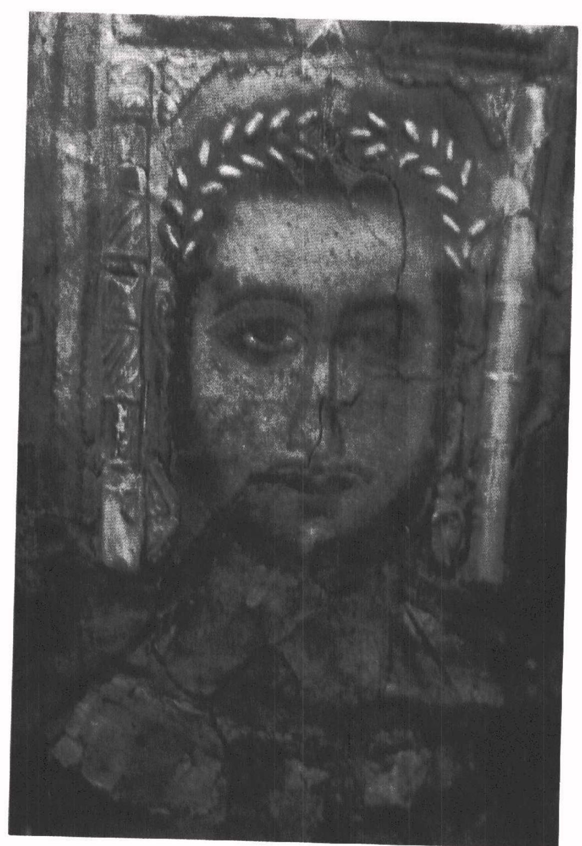
٢٨



٢٩



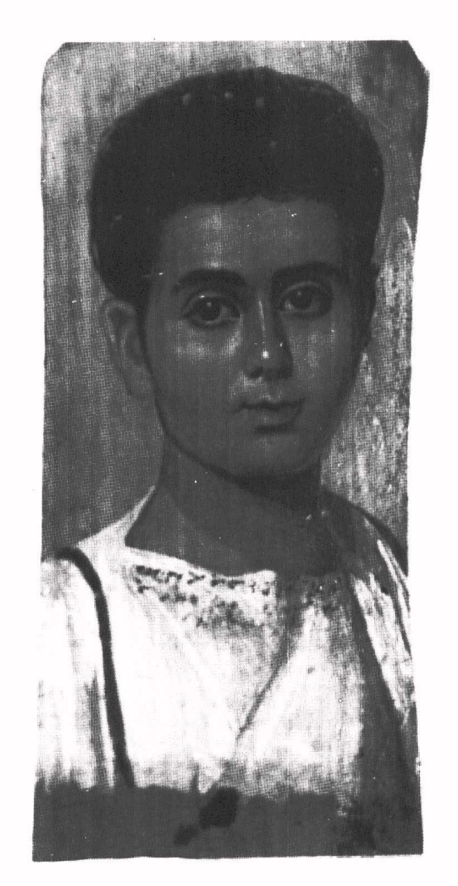
٣٠





٣٢





طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤١١٤ / ٢٠٠٣